د. حسين مؤنس

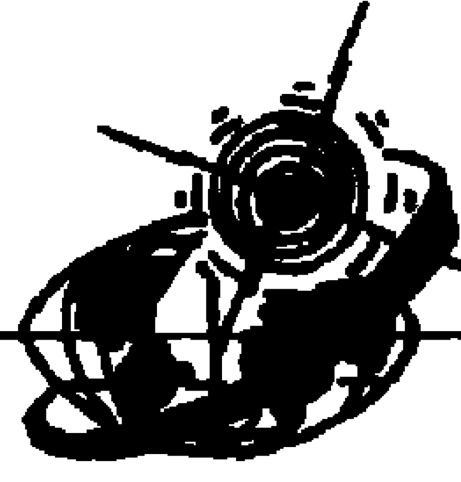
باشوات و سوبر باشوات

صورة مصر في عصرين



« بسم الله الرحمن الرحيم »

« باشوات . . وسوبر باشوات »


الزهراء للإعلام العربي

١٤ شـارع الطيران رابعة العدوية مدينة نصر القاهرة ص ب : ١٠٢ ت ٦٠١٩٨٨

الطبعـة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

تقديم

عندما أعلنت انجلترا أنها أباحت للباحثين الأطلاع على أوراق وزارة الخارجية التي أنقضى على أحداثها ثلاثون عاما كنت من أوائل الذاهبين للأطلاع على وثائق مصر والعالم العربى .

وما كدت أتأمل مجموعات الوثائق حتى تعاظمنى الأمر، فهى ملفات كثيرة جداً ، وقدرت فى نفسى – للنظرة الأولى – أننى أمام ألوف الوثائق ، وقراءتها فحسب تستلزم سنوات وتتطلب بصراً من حديد .

وعندما شرعت فى القراءة أحسست أننى أمام عمل يتعذر القيام به ، فكل وثيقة مما قرأت تتضمن من الحقائق ما يحتاج درسه وتحقيقه إلى البحث الطويل ، وملكنى .. وأنا أعمل – شعور بالعجب : إن الإنجليز لم يكونوا قط بالذكاء الذى كنا نتصوره أيام الأحتلال ، ففى خطابات المندوبين الساميين وتقاريرهم تفاهات وسخافات وحماقات ، ووزارة الخارجية البريطانية ترسل إلى سفير مثل اللورد جورج لويد خطابات لوم وتقريع لا توجه إلى موظف صغير ، والسير روبرت فانسيتارت – الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن – يكتب بيده على هامش تقرير كتبه اللورد لويد : هراء Nonesense ! وهذه العبارة تبلغ للمندوب السامى فى مصر فيرسل خطابا إلى رئيس الوزارة البريطانية ورئيس الوزراء .. يقرأ الخطاب ويضع عليه « تأشيرة » غريبة ، فهى علامة استفهام وإمضاء منه هو عبارة عن جرة قلم بدون تاريخ .. ووقفت طويلاً أمام تقرير عن مفاوضات عدلى كيرزون وتعجبت : فلا عدلى باشا يعرف ما يريد ولا كيرزون يريد أن يسمع شيئا ، إنما هو يجلس للمفاوضة وذهنه مستقر على أن مصر هذه لن تستقل ولو بعد مائة عام . وفكر عدلى باشا ليس بعيداً عن فكر اللورد كيرزون فإن آخر ما كان يتصوره هو استقلال مصر بأمور نفسها ، وهو يتصور أنه يقف موقف القاضى « العادل » بين بلدين متخاصمين أمامه هما مصر وبريطانيا وهو يرى أن العدل أن تمنح بريطانيا مصر ظاهراً من الأستقلال يسد أفواه المشاغبين والغوغاء « من الوفد وخلافه » كما قال . وردا على سؤال من أحد أعضاء وفد المفاوضة البريطانى يقول : بالطبع

نحن لا نطالب بجلاء بريطانيا الناجز عن مصر . إن بلادنا لازالت فى حاجة ماسة إلى رعايتكم ولكن عظمة السلطان غير مطمئن من ناحية الخديوى السابق وفرنسا وهو يرجو أن تمنحوه الفرصة ليثبت لكم أنه كفيل بالمحافظة على مصالح الإنجليز والأجانب فى مصر إذا وافقتم على نقل بعض سلطات دار المندوب السامى إليه !

أمام مثل هذه العبارات أحسست أن الأمر يتطلب فعلا إعادة قراءة أصول تاريخ مصر الحديثة جميعاً ، وهذا أمر لا أستطيعه ، إنما يستطيعه المتخصصون فى تاريخ تلك العصور .

ولكنى إذا كنت لا أملك أدوات كتابة هذا التاريخ فإننى بعد أن صورت مئات من الوثائق وعدت بها إلى مصر وقرأتها فكونت فى ذهنى صورة قريبة جدا مما أتصور إنه حقائق عصر الباشوات والإنجليز والملك . فإن تاريخ مصر قبل ثورة ١٩٥٢ كان لعبة سيئة عقيمة بين هذه الأطراف الثلاثة من ناحية والشعب المصرى ويمثله الوفد المصرى والحزب الوطنى من ناحية أخرى .

ومضيت أرسم لوحة مصر فى عصر الباشوات مستعينا فى ذلك بقراءات مطولة فى الصحف المصرية وكل ما كتبه غير المصريين وهو كثير جدا . والصورة كانت فى النهاية كابتة حزينة وغير واضحة ولكنها تصلح أن تكون مقدمة لدراسة ذلك العصر الحزين .

* * *

واستطردت بعد ذلك إلى ثورة ١٩٥٢ فوجدت نفسى بالفعل فى ظلام دامس ، فالعصر الناصرى كله عصر بلا وثائق ولا ميزانيات يمكن تصديقها ولا كتابة ولا قراءة ولا حساب ، إنما هو أولا صراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب ، ثم صراع بين عبد الناصر وزملائه . وهؤلاء يتصفَّوْنَ واحدا واحدا فلا يبقى فى النهاية إلا عبد الحكيم عامر ، والصراع بينهما مرير طويل ، وكل منهما يتترس من الآخر وراء قلاع وحصون هى أوهى من خيوط العنكبوت ، وفى أثناء الصراع بين الأثنين ينتقل السلطان الفعلى إلى طبقة غريبة من فئران السياسة يسيطرون بالخبث والمكر و الجهل والجشع على مصائر الناس وتحت ستار حماية النظام أرتكبوا أعمال عدوانية بالغة على هذا الشعب وأمواله وقيمه . ونهبوا الأموال بلا حساب وأوهموا رئيسهم أن شعب مصر كله يتآمر عليه وان القتلة والمغتالين يتربصون

به عند كل منعطف و لم تقتصر عمليات القبض والصادرات ونهب الأموال على الخصوم السياسيين من رجال الأحزاب والإخوان المسلمين ، بل وضعوا فى السجون مئات من الناس ممن لا تخطر السياسة لهم على بال ، وبعضهم كانوا « عيالاً » حقاً . حبسوهم ومضوا يعذبونهم بحثاً عن أوهام مثل « التنظيم السرى للإخوان » وما وجدت فى دراساتى دليلاً واحدا يثبت أنه كان هناك تنظيماً سرياً للإخوان بعد أن أصيبت الحركة كلها بضربة قاصمة عقب إعدام رؤوسها الخمسة بعد محاولة إغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٤ ، وهى محاولة مدبرة يدور حولها ألف شك وشك .

* * *

أجتهدت فى رسم صورة لعصر ما بعد الباشوات قدر ما تيسر لى ، وما كدت أنشر الخطوط (الحلقات) الأولى من تلك الصورة حتى تفضل المواطنون بمعلومات وتفاصيل كان علىَّ أن أدرسها بعناية لأستخرج منها ما أرى أنه يزيد الصورة وضوحاً ، وقرأت كل ما تيسر لى مّن الكتب التى ألفت على ذلك العصر فى غير العربية فاتضحت لى الصورة أكثر وأكثر . وعندما كتبت كتابى راجعته مراجعة تامةوأصلحته وقومته ثم أعددت الكتاب للنشر .. ثم رأيت أن أضيف ضمائم أو ملاحق تؤيد بعض ما ذهبت إليه ، وكان عندى الكثير ولكننى رأيت أن أقف عند ذلك الحد ، فقد كان الإيجاز من أقصى غاياتى فى هذه الدراسة .

وأرجو كل إخوتى المواطنين أن يثقوا أننى لم أكتب هنا حرفاً قصدت من ورائه المساس بشعور أحد ، وإذا تبادر شىء من ذلك إلى ذهن أحد فإنى أرجوه أن يحسن الظن ويلتمس لى العذر .. فما قصدت إلا خيرِ هذا الوطن .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أبعث تحية من القلب لدار الزهراء وصديقى / الأستاذ أحمد رائف الذى دخل بشركته ميدان النشر عن نية صادقة فى خدمة العلم وأهله .

والله سبحانه من وراء القصد والنية ، وهو سبحانه على كل خير مستعان .

المؤلف : د . حسين مؤنس

القاهرة فى جمادى الأولى ١٤٠٥

فبراير ١٩٨٥

رجاء

« خلال ١٥٠ عاماً من تاريخ مصر (١٨٠٥ - ١٩٥٢) حكم الباشوات بلادنا وملكوا كل شيء فيها : السياسة والجاه وصدارة المجتمع والقصور والأموال والضياع . وفي يوليو ١٩٥٢ انتزعت منهم الثورة السياسة وصدارة المجتمع ولكن : من الذى استولى على القصور والأموال والضياع ؟ السوبر باشوات : باشوات بلا ألقاب وأشراف بلا شرف وناس بلا انسانية ومواطنون بلا وطنية .. » .

هذه العبارة تتصدر معظم فصول هذا الكتاب .. وهى فى تصورى لا ينبغى أن تمس شعور أحد من الناس فإن ثورة يوليو ١٩٥٢ فعلاً أنتزعت قيادة السياسة وصدارة المجتمع من الملك والباشوات والإنجليز .

والثورة - كما صورناها فى هذا الكتاب - أكبر حادث فى تاريخ مصر الحديث بعد ثورة ١٩١٩ ، وقد فتحت لمصر آفاقاً واسعة وقدمت رجالاً هم نماذج للوطنية والصدق والإيمان ، وقدمت لمصر خدمات كبرى فى مقدمتها إجلاء الإنجليز عن مصر ووضع حد لعصور طويلة سوداء من الإحتلال .. كل ذلك لاشك فيه .

ولكن لا شك أيضاً فى أن الظروف العسيرة التى أحاطت بالثورة - داخلاً وخارجاً - أتاحت الفرصة لجماعات من المغيرين الذين أنسلوا فى الظلام واعتدوا وسرقوا ونهبوا . فهناك أموال بلا حدود كانت هنا قبل الثورة وهى ليست هنا الآن . وكل إنسان أدرى بما فعل .

فإن كنت ترى أنك من أهل الخير والإخلاص فأنت عندنا مصدق ، وأنت أبعد الناس عن أى مظنة سوء .

ومهما يكن فأنت مرجو أن تأخذ كل كلمة هنا على أحسن المحامل ، وأنت مشكور على إحسان الظن .

وما كتبنا ماكتبنا عن سوء نية نحو أى أخ مواطن وما ندعو إلى بغض أو كراهة .

وكل ما نرجوه هو ألا يحدث غداً مرة أخرى ما حدث بالأمس ونحن اليوم فى عصر نهضة وحرية ، ولا نريد أن يشغلنا أمسنا عن غدنا .

باشوات وسوبر باشوات

« خلال ١٥٠ عاما من تاريخ مصر (١٨٠٥ ـ ١٩٥٢) حكم الباشوات بـلادنا وملكـوا كل شيء فيهـا : السياسـة والجاه وصدارة المجتمع والقصـور والأموال والضيـاع . وفى يوليـو ١٩٥٢ انتزعت منهم الثورة السياسة وصدارة المجتمع ولكن : من الذى استولى على القصور والأموال والضياع ؟ السـوبر باشوات ! باشوات بلا ألقاب وأشراف بلا شـرف وناس بـلا إنسانية ومواطنون بلا وطنية .. » .



مكرم عبيد

مصطفى النحاس

١ عالم الباشـــــوات



سعد زغلول



محمود فهمى النقراشى

إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كان فى مصر عالم قائم بذاته محوط بأسلاك شائكة عالية ومحرم على غير أهله يسمى عالم الباشوات . . وكان الذين يعيشون فى ذلك العالم المرهوب يتراءون لنا - نحن المحرومين خارج الأسوار - وكأنهم ديكة رومية أو طواويس : بذلات سوداء رسمية أنيقة طويلة الذيول . . وطرابيش حمراء وطويلة كأنها التيجان ، ومشية أنيقة رشيقة وأبهة فى موكب حافل من الخدم والحشم والسفرجية والأغوات . . وسعادات الباشوات يعيشون فى عالمهم هذا بعيدا جدا عن عالم الرعاه : يأكلون أكل باشوات . . ويشربون شرب باشوات . . ويتكلمون أيضا كلام باشوات كما كانت آلهة اليونان القديمة تعيش فى عالمها الرفيع بعيدا عن الناس على جبل أوليمبوس .

وكان يميز الباشوات عن غيرهم من عباد الله المساكين أشياء كثيرة جدا ولكن أهمها أربعة : اللقب طبعا . . وهو نعمة من الله تهبط على السعداء ويتناولونها من يد حضرة صاحب الجلالة بتوصية وتزكية من فخامة المندوب السامى أحيانا . . وأحيانا أخرى بدون توصية أو تزكية وأحيانا ثالثة برشوة محترمة - أو غير محترمة - تقدم إلى صاحب الجلالة بواسطة أحد من أفراد حاشيته بعد أن يقتطع لنفسه منها ما تيسر بإذن من صاحب الجلالة أو بغير إذنه . . والميزة الكبرى الثانية هى القصر أو السراى أو الفيلا لأن الإنسان الذى يسكن فى شقة كان لايمكن أن يصير باشا أبدا . . ولابد للباشا - ثالثا - من السيارة والسائق . . لأن الباشوات لا يركبون الترام . . ورابعا العزبة أو الأبعادية . . إذ لا يمكن أن تتم الباشوية إلا بالعزبة . . وسعادة الباشا رايح العزبة . . وجاى من العزبة . .

والغالبية العظمى من الباشوات كانوا وزراء لأن الباشوية تأتى فى العادة مع الوزارة . . ولم تأت بمفردها إلا لنفر قليل جدا من العباقرة من أمثال مصطفى كامل باشا وطلعت حرب باشا وأحمد عبود باشا . . ومصطفى كامل كان من باشوات استامبول . . أى أن اللقب أتاه من يد السلطان . . وإلى أواخر أيام إسماعيل باشا كان كل باشوات مصر يُصنعون فى استامبول . . أما الباشوات صناعة مصرية محلية فقد بدأ إنتاجهم على يد الخديو إسماعيل : دفع ١٠ ملايين جنيه للسلطان وحصل على ترخيص إنشاء مصنع باشوات فى مصر ، وكسب من وراء المصنع بعد ذلك مائة مليون . . وكان الحصول على الباشوية بالفلوس تقليداً مألوفا وسعرها كان أحيانا معروفاً . . وكذلك كان وسطاؤها وسماسرتها أشبه بأصحاب توكيلات رسمية معروفة عند طلاب الباشوية وجامعى التحف والأنتيكات . .

وعندما تستعرض أسماء الباشوات تتعجب من أن بعضهم كان لا يخرج من وزارة إلا دخل وزارة . . كأن حكومة مصر لا تصلح أبداً ولا تجوز إلا إذا كان معاليه فيها . .

وصاحب الرقم القياسى فى هذا هو حسين فخرى باشا الذى تولى الوزارة ٢٦ مرة . . ويليه حسين سرى باشا الذى تولاها ٢٥ مرة . . ثم على ماهر باشا ٢٣ مرة . . وإسماعيل صدقى باشا ١٩ مرة . . ومحمود فهمى النقراشى باشا ١٨ مرة . . وعثمان محرم باشا ١٤ مرة . . ومصطفى النحاس باشا ١٧ مرة . . هذا غير الرياسات والألقاب من صاحب المعالى إلى صاحب الدولة إلى صاحب المقام الرفيع . .

وكان المفروض أن كل الباشوات أغنياء . . ولكن واقع الحال ودفاتر البنوك تقول إن عشرات الباشوات كانوا أفقر من الأفنديات . . وبعضهم كان كل ما عندهم مرهونا حتى السيارة . . وفى أكثر من مرة أدخلوا رجلا الوزارة حتى يستطيع « المسكين » أن يسدد ديونه ويصلح أحواله ويجهز بناته لأن الباشوات فى جملتهم كانوا عقلاء مدبرين . . ولكن الست هانم حرم سعادة الباشا كانت دائما مسرفة تنفق من غير حساب . .

وقد حكى الصحفى الكبير محمد التابعى فى أحد كتبه حكاية رجل حفى بين القصر ودار المندوب السامى حتى حصل على الوزارة والباشوية . . وكان فقيراً معدما أعطوه الوزارة وكأنها صدقة . . فما سمعت امرأته الخبر حتى أنفقت باسم معالى الوزير فوق العشرة آلاف جنيه فى أسبوع واحد . . استأجرت قصراً وفرشته وتصيغت هى وبناتها وأكثرت الخدم والحشم واشترت أغلى ما فى المحلات من الثياب كل ذلك بالدين . .

وعندما علم رئيس الوزراء بالخبر قرر إقالة ذلك الوزير الذى جلبت امرأته على الوزارة فضيحة . . ولكن دار المندوب السامى تدخلت وبقى الرجل . . واضطروا إلى إدخاله الوزارات بعد ذلك خمس مرات متوالية حتى سدد ديونه وانستر بين الناس . . وهذا الرجل أدى للانجليز خدمات تفوق ما أداه لهم المندوب السامى . .

فما من مرة أرادوا تدبير مكيدة للحركة الوطنية إلا عهدوا اليه بها . واشتهر أمره بأنه سياسى داهية عظيم . . أما الداهية حقا فكانت الست هانم حرمه فقد كانت تقيم الحفلات وتنفق المئات ولا أحد يدرى من كان يسدد الحساب والمهم أنه كان يسدد . .

ومعالى الباشا الوزير كان فقيراً ولكن الست هانم كانت غنية . . وكانت قبل الوزارة قبيحة نحيلة فأصبحت بعد الوزارة جميلة سمينة . . وابنتها قدرية هانم سمنت هى الأخرى وأصبحت جميلة وزوجها وكان محاميا « كحيانا » أصبح شخصية لها وزنها « بالذهب » ودخل مجلس النواب وخرج من مجلس النواب وعاد إليه وتحول إلى سمسار وظائف وقضاء حاجات . . وسكن مع زوجته فى فيلا عظيمة فى حلمية الزيتون . . وأصبح له ولزوجته صيت كالطبل . .

وقد أتيحت لى ذات مرة الفرصة لأتسلل إلى عالم الباشوات . . ومن ذلك الحين لم أعد أحسد باشا على باشويته قط ، فقد كان لى ولع فى بعض سنوات الدراسة الجامعية بإعطاء الدروس الخاصة . . وابتكرت أسلوبا خاصا فى إعداد الأولاد للنجاح فى امتحان الثانوية العامة حتى أصبحت اختصاصيا فى « تنجيح » الأولاد . .

وتوالت علىّ الطلبات فى حى حلمية الزيتون . . وكان إذ ذاك حيًا حافلا بالهوانم والباشوات . . فكنت أدخل البيوت وأتأمل . وقد خلقنى الله متفرجا أحسن الجلوس والفرجة فى هدوء . . ورأيت من مكمنى من عجائب أمور الباشوات ما لا يصدق . . ورأيت أن كل أبهة الباشوات تكون أحيانا فى الخارج فحسب . . أما داخل القصور فربك سبحانه وتعالى أعلم وقد أمر بالستر . . وفى ذات يوم قدمت لى سيدة جليلة هى حرم باشا عظيم إيصالا إلى المجلس الحسبى بستة جنيهات لأوقع عليه وأقول : « ولكن ياست هانم إن الأتعاب ثلاثة جنيهات فحسب » .

فتقول : وستأخذ ثلاثة بلا زيادة . . ولكن هذا الإيصال للمجلس الحسبى وأنا الوصية على أولاد ابنى . .

وأحاول المناقشة ولكن السفرجى عم عجايبى يهمس فى أذنى : امض ياحضرة الأستاذ إذا كنت تريد أتعابك . . كلنا نوقع على مثل هذه الإيصالات . .

ــ ولكن أين تذهب هذه الأموال يا عجايبى ؟ . .

ــ خليها فى سرك : الباشا والهانم الكبيرة والهوانم الصغيرات جميعا غارقون فى الدين . .

وقد تركت العمل فى هذا البيت بعد شهر واحد عقب الامتحان وما أمسكنى إلا أن تلميذى كان نجيبا لطيفا . . وقد نجح وأصبح فيما بعد مهندسا رغم الجو العسير الذى كان يعيش فيه . .

وفى ذات يوم آخر أسمع السيدة حرم الباشا فى الصالون تقول للسفرجى :

ــ ما هذه القهوة المقرفة التى تأتينى بها . . خذها لسعادة الباشا فى الجنينة واعمل لى غيرها . .

ــ سعادة الباشا شرب قهوته . .

ــ إذن خدها للخوجه . .

والخوجه هو أنا . . فقال لها السفرجى هامسا :

ــ خفضى صوتك ياست هانم . . إنه هنا وهو يسمع .

فتقول : وماذا فى ذلك ؟ حتة خوجه ويريد أن يتأمر علينا ؟

ويأتينى بها السفرجى وكله خجل . . فقد كان عند الرجل من الحياء والإنسانية فوق ما عند سيدته الهانم . .

وكنا جميعا لا نحب الباشوات أو عالمهم لأننا كنا نراهم سببا من أكبر أسباب متاعبنا مع الانجليز . . والحق أنه ليستوقف النظر كيف أن الباشوات ما عدا باشوات الوفد وعددا قليلا من الباشوات الآخرين كانوا يرون أنفسهم حلفاء للسراى والانجليز وأتباعا لهم . . وبعضهم كان يعيش وكأنه موظف فى السفارة البريطانية يتلقى كل تعليماته من موظف صغير فى السفارة البريطانية يسمى السكرتير الشرقى . .

وفى ٢١ أكتوبر ١٩٢٥ أرسلت بريطانيا إلى مصر سفيرا يسمى اللورد جورج لويد خلفا للماريشال اللنبى الذى استقال عقب أزمات الصدام مع سعد زغلول والوطنين بعد مصرع السردار السير لى ستاك . . وكان اللورد جورج لويد استعماريا بريطانيا مغرورا . . لا يتمتع بذكاء يذكر . . وقد وصل مصر فى ظروف أزمة وفيها من الباشوات نفر كنا نعدهم فطاحل من أمثال عدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود . .

وكان حزب الوفد مطرودا من الحكم ، والبرلمان كان معطلا وعلى رأس الوزارة رجل من أكبر باشوات القصر والاستعمار هو أحمد زيور باشا . . كان بعيدا جدا عن مصر والمصريين حتى يقال أنه كان لا يحسن الكلام بالعربية وقد سلم للانجليز كل ما طلبوه بعد مقتل السردار . . من بين ذلك التخلى الفعلى عن السودان لبريطانيا وهذا الرجل هو الذى وافق على تسليم واحة جغبوب للإيطاليين فتنازل بذلك عن قطعة من أرض مصر . . وقد كتب الأستاذ - محسن محمد فى ذلك كتابا هاما ينبغى أن يقرأ . . وكتب كذلك كتابا جميلا عن اللورد جورج لويد فى مصر عنوانه : الشيطان . .

والرجل لم يكن فى الحقيقة شيطانا إنما هو كان بقية استعمارية سخيفة أتت مصر لتمارس على أهلها نوعا من الكبرياء لا معنى له ولا نتيجة لا لمصر أو لبريطانيا . . ولكن الغريب أن ذلك الرجل السطحى القصير النظر لعب بباشوات مصر لعبا . . كانت المهمة الحقيقية التى أرادوا منه أن يقوم بها هو إقناع المصريين بتوقيع معاهدة تسليم واستسلام لبريطانيا لأن بريطانيا كانت تتصور إذ ذاك أنها سيدة الدنيا وأن على الدنيا أن تمتثل لإرادة بريطانيا .

ومصر كانت قد تلقت ضربة مقتل السردار . . وخسرت فيها خسارة فادحة . . ولم تكن تستطيع أن تخسر أكثر فوقفت مكانها جامدة وتولى زعامة المعارضة فيها مصطفى النحاس . . وعرف النحاس أن هذا اللورد الإنجليزى لم يأت إلا لغرض واحد هو إتمام ما بدأ به اللنبى من القضاء على بقية الاستقلال الزائف الذى حصلت عليه مصر بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وإرغامها على توقيع معاهدة مع بريطانيا تعترف فيها بالاحتلال البريطانى بصورة أو بأخرى . .

وكان اللورد جورج لويد منذ البداية أقل من أن يستطيع تحقيق هذه الغاية . . لأنه كان رجلا مغرورا لا يتمتع بذكاء كبير . . ولو وقف منه الباشوات موقفا نصف حازم لهبطوا به إلى الأرض . . لأن أعداءه فى انجلترا كانوا كثيرين . . وحزب المحافظين نفسه لم يكن يؤ يده . . وكان وزير الخارجية البريطانية يستثقله ويرحب بالخلاص منه . . ولم يكن هناك أسهل من إخراج هذا اللورد المستغرق فى أحلام الاستعمار .

لكن الباشوات تصرفوا تصرفا لا يوصف إلا بأنه غبى ، فكل الموظفين القدامى الذين تربوا فى أحضان الاستعمار بالإضافة إلى نفر من أعيان الأرياف وبقايا خدم القصر القدامى تجمعوا لكى يصلوا إلى الحكم بأى طريق ، وكان الوفد فى ذلك العصر يمثل أغلبية لا يمكن تحديها . . ومصطفى النحاس خلف سعد زغلول فى رياسة الوفد فى أغسطس ١٩٢٧ ، ولم يكن هناك سبيل لوصول غير الوفديين إلى الحكم مادام دستور سنة ١٩٢٣ قائما . .

وهنا نجد هذه البقايا الرجعية كلها تتجمع تحت راية الملك فؤ اد من ناحية واللورد جورج لويد من ناحية لتقوم بمأساة حقيقية على مسرح السياسة المصرية . . ومحمد محمود باشا لا يكاد يصبر . . إنه عَجول يريد أن يصل إلى رياسة الوزارة ولكى يصل إلى رياسة الوزارة كان لا بد من إسقاط وزارة الوفد برياسة النحاس باشا وكان محمد محمود عضوا فى تلك الوزارة لأنها كانت وزارة ائتلافية فأثار بالاشتراك مع نفر من أصحابه زوبعة سموها فضيحة أملاك الأمير سيف الدين . . وهذا الأمير كان إبنا للملكة السابقة . . وحدث ما جعله يطلق الرصاص على أحمد فؤ اد عندما كان أميرا . . فقبضوا عليه واتهموه بالجنون وحجزوا عليه . . وصارت ولاية أموره إلى المحامى مصطفى النحاس باشا . . فقيل ان مصطفى النحاس لم يتخل عن الوصاية وإدارة أملاك الأمير بعد أن صار رئيسا للوزارة وعملوها فضحية ولم يكن ذلك صحيحا فإن النحاس باشا كان رجلا دقيقا عفيفا جدا . . وكان قد أوقف إدارته لأملاك الأمير ولكنهم زعموا أنه لم يفعل وجعلوها قضية نزاهة أثارتها الصحف المعادية للوفد . . وتحت ستار هذه المسألة التى سميت بفضيحة أملاك الأمير سيف الدين أقيلت وزارة النحاس وتولى الوزارة محمد محمود باشا . . وتبدأ بذلك سلسلة

وزارات السراى . . كلها حرب على الشعب وحقوقه . . وكل وزارة منها تأخذ تـأشيرة الدخول من ذلك اللورد الانجليزى القابع فى قصر الدوبارة ومنه يدير مصر ويتصرف فى أمورها . . ومحمد محمود يعطل البرلمان ويلغى الدستور ويشرع فى عمل دستور جديد ، وحزبه لم يحصل فى الانتخابات السابقة إلا على كرسيين . . ولكنه يجرى انتخابات ويحكم بدون مجلس نيابى وينزل بهذا الشعب مهانة بعد مهانة وهو يزعم أنه يحكمنا بيد حديدية .

ويجىء بعده إسماعيل صدقى باشا حليف القصر والمندوب السامى والخواجات ، وهو معدود من عباقرة الاقتصاد فى تاريخنا السياسى وسنتحدث عنه فى فصل من هذه الدراسة ، وهو لا يرضى بحزب الاتحاد الذى أنشأه الملك وجعل على رأسه يحيى باشا ابراهيم . . بل ينشىء حزبا يسمى حزب الشعب ويجرى انتخابات وينشىء « مجلس نواب » شغل يد « أو صناعة يدوية » وبين الحين والحين يجىء محمد توفيق نسيم بوزارة عجيبة تتألف من شلة من الباشوات لا يعرف أحد لهم سحنة . . إنما هم أصحاب معال وكفى ، وهم رغم كل شىء يتعلقون برضا اللورد ورضا السراى وإن كان بقية المصريين لا يعرفون عن معظمهم شيئا . .

وقد فشل جورج لويد فى مصر فشلا تاما ونقلوه من مصر واستبدلوا به سفيرا يسمى السير برسى لورين . . كان دبلوماسيا ولكنه كان استعماريا لا يقل مغالاة فى استعماريته عن سالفه . . وربما كان الباشوات هم الذين علموه لعبة امتهان الشعب وإهمال المصريين والعمل متعاونا مع الملك . . ولكن هذا الرجل كان أخف وطأة من السفير البريطانى الذى جاء بعده وهو السير مايلز لامبسون الذى أصبح فيما بعد يسمى اللورد كيليرن .

وهذا الرجل كان إنسانا ضخما بالغ الخبث . . تولى والحرب الكبرى تقترب فاجتهد فى إرغام زعماء مصر جميعا على توقيع معاهدة صداقة مع بريطانيا . . وقد نجح فى ذلك لأن حزب الوفد وهو حزب الأغلبية المعارضة للاستعمار والسراى كان قد أصابه تحول جوهرى فى طبيعته وتركيبه . . فقد كان الوفديون يمثلون أيام البرلمان المصرى الأول الطبقة الوسطى الكادحة المجاهدة . . وزارة سعد زغلول الأولى كان فيها بعض الأفندية . . وكان فيها باشوات وبكوات . . ولكنهم فى مجموعهم كانوا مساتير أو ما يطلق عليه اسم البورجوازية الصغيرة (لابيتيت بورجوازى) ولكن طول عهد الوفد بالحكم والصراع والسراى وباشواتها أضعف من قوة الوفديين . . وكان النحاس باشا يرى أن الحكم لا يجوز إلا له ما دام هو صاحب الأغلبية الشعبية . . وكان على حق فى ذلك . . ولكن استمرار الأمر على هذا الوضع الذى يطلبه النحاس كان مستحيلا ، فالملك لا يريد أن يرى أمامه دائما رئيس وزراء مصريا يقول إنه يمثل الشعب وإن الملك لا يمثل إلا الملك .

والملك فؤاد كان رجلا طماعا لا تعمر قلبه ذرة من حب حقيقى لمصر ولا هو كان يفكر فى أمر رفاهية شعبها . . وقد استعان فى عمله بباشوات السراى . . وبخاصة من كانوا يتولون رياسة الديوان الملكى منهم من أمثال حسن نشأت ومحمد توفيق نسيم وأحمد محمد حسنين وحافظ عفيفى . . وأظن أن هؤلاء كانوا أبغض الباشوات إلى المصريين لأنهم كانوا خصوما لهذا الشعب حقا . . وكان عداؤهم يتجه دائما نحو الوفد ، فهو يكرههم وهم يكرهونه .

وليس معنى ذلك أننا نقول إنهم تجردوا من الفضائل فقد كانت لبعضهم فضائل وملكات طيبة . . ولكنهم وقفوا جهدهم كله على خدمة أنفسهم عن طريق الطاعة المطلقة الذليلة للملك والسفير البريطانى أحيانا . . وهذا وحده كان كافيا لكى يبغضهم الشعب بغضا بالغا . وأعتقد أيضا أنهم أبغضوا هذا الشعب ونفروا منه وجعلوا بينهم وبينه سدا فضاعت عليهم فرصة إفادة مصر من مواهبهم وملكاتهم . .

وكانت مشاكل مصر كثيرة ولكنها كانت أيسر حلا من مشاكلها اليوم . . وواحدة منها كانت مستحيلة على الحل . . ولكن كان أحسن لنا لو تركناها على حالها وهى مسألة الاحتلال العسكرى البريطانى وهى مسألة عسكرية لا تحل إلا بالقوة ، وما دمنا لا نملك القوة العسكرية فلم يكن هناك سبيل إلى حلها حلا معقولا . . وحلها المعقول كان يتأتى مع النهوض بالمستوى الفكرى والاقتصادى العام للبلاد . . فإذا تحسنت الحالة المعنوية قام شباب ضباط الجيش بإرغام الانجليز على الجلاء . . وهذا هو الذى بدأ يحدث بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وعدوان الانجليز على مصر عدوانا صريحا وقحا . . ولكنه كان عاديا فى العصر الاستعمارى كله .

المهم أن الوفد تحول مع الزمن إلى جماعة من الباشوات . . وفقد فى الحقيقة طابعه الشعبى المميز . . وكان رجاله قد دخلوا الوزارة والبرلمان مرة بعد أخرى . . وفى كل مرة كانوا يخرجون أغنى وأوفر مالا . . وتعاقبت الانشقاقات من الوفد حتى تعب مصطفى النحاس فى النهاية . . وعندما تزوج زواجا متأخرا عشية عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ تجلى بوضوح أن الحزب تخلى عن قاعدته الشعبية ودخل فى زمرة أحزاب الباشوات . .

حقا إننا لا نستطيع أن نشك فى الأمانة الشخصية لمصطفى النحاس أو أحد من كبار رجاله ولكن مزاج الرجل تغير مع الزمن وساء ظنه فى الناس وخاصة بعد وقوع الفتنة بينه وبين مكرم عبيد وانفصال مكرم عنه وتأليفه حزبا وفديا جديدا يسمى الكتلة . . ومصطفى النحاس كان يحب مكرم عبيد وعندما اختلف معه وانفصل أحدهما عن الآخر تحطم الاثنان . . وستتحدث عن مأساة النحاس مع مكرم عبيد فيما بعد ، والنحاس باشا بعد

مكرم عبيد لم يعد إلى سابق عهده أبدا . . ومكرم نفسه تغير ولم يعد ذلك البطل الشعبى الذى كان يبهرنا ونحن فى مداخل الشباب .

والحق أن حياة مكرم عبيد مأساة فقد كان مصريا صميما مخلصا صادقا خارق الذكاء . . ولكنه كان عصبيا لا يكاد يضبط أعصابه . . وعندما أراد خصوم النحاس أن يقضوا عليه قرروا التفريق بينه وبين مكرم عبيد . . وتولى هذه المؤامرة باشا من عتاولة باشوات السراى هو أحمد محمد حسنين باشا . . وقد قص محمد التابعى بعض تفاصيل هذه المؤامرة الحزينة فى كتاب له قرأته من سنوات ولم أعد أذكر عنوانه . .

وعندما تقرأ تفاصيل هذه المأساة وما يتصل بها من مآسى تمزق الوفد وتدهوره يوما بعد يوم تشعر حقا أن عالم الباشوات كان عالما تعيسا . . وقد ركزت الكلام هنا على الوفد لأن مصطفى النحاس كان دون شك أكبر باشوات العصر من كل ناحية . . لقد كانت له نقائصه الكثيرة . . وما فى ذلك شىء . . ولكنه كان زعيم الغالبية الشعبية وكبير الباشوات وكان رجلا مهيبا محترما جدا رغم النقد الشديد الذى كان يوجه إليه . .

وكما تخصصت مجلة الكشكول فى الهجوم على سعد زغلول فى العشرينات من هذا القرن فقد تخصصت مجلات أخرى كثيرة فى هدم مصطفى النحاس والوفد . . وكان انفصال أحمد ماهر والنقراشى ضربة أليمة للنحاس . . ولكنها لم تؤثر كثيرا فى الكيان العام لبناء الوفد نفسه . .

أما الذى أثر فى الوفد فعلا وباعد بينه وبين الجماهير فهو اقترابه من الباشوات أصحاب الأراضى الواسعة واعتزازه بتأييدهم . . وكان ذلك طبيعيا لأن الوفد نفسه كان قد تحول إلى حزب مياسير وأغنياء . . وكل كبار أعضائه كانوا قد أصبحوا باشوات يملكون الأراضى الواسعة والعقار الكثير . . وفى هذه الحالة لا يطيق الحزب البقاء بعيدا عن السلطان لأن كيانه نفسه أصبح يعتمد على البقاء فى الحكم . . والأغنياء - أو الرأسماليون كما يقال - لا يهتمون بشىء قدر اهتمامهم بالسيطرة على السلطان السياسى .

وهذه الحالة النفسية - والمالية أيضا - التى كان فيها الوفديون فى أوائل الأربعينات هى التى تفسر لنا قبولهم تولى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . . وهى غلطة بشعة اقترفها النحاس ولكنها مفهومة إذا نحن ذكرنا الغلطة الأخرى التى سبقتها وهى توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا . . وبتوقيعها انتهت وكالة الوفد عن الأمة وانتهت وظيفته بالتالى . .

لأن الوفد تألف وحصل على توكيل من الأمة للمطالبة بالاستقلال سنة ١٩١٩ وفى سنة ١٩٣٦ قال إنه أتى بالاستقلال وقد أصر على البقاء بعد ذلك ، ولكن بدون وظيفة ، لأنه لم

تكن لـديه بـرامج إصـلاحية من أى نـوع . . مثله فى ذلك مثـل بقية أحـزاب العصـر وباشواته . .

تخلى الوفد عن الزعامة ووقع الفراغ السياسى وكان لا بد أن يملأ ، وهنا يبدأ السباق بين قوة جديدة لملء الفراغ وقيادة الشعب . . هنا تبدأ حكاية الإخوان المسلمين ومن إليهم ويتمهد الطريق لثورة ١٩٥٢ ونهاية عصر الباشوات . .

من هنا كان اختفاء الوفد محتوماً بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وما حدث بعدها من تحولات سيـاسية واجتمـاعية وفى الـوقت الذى كـان الوفـد فيه يتصفى كـانت بقية البـاشـوات تتلاشى . . ومعظم القدامى منهم ماتوا أو تركوا ميدان السياسة وانصرفوا إلى العقارات والأملاك . . وكل الباشوات كانوا أصحاب عزب وأراض وعقارات . .

ولكن . . أكان الباشوات إقطاعيين ؟ . . ذلك أمر يحتاج إلى نظر فإن للإقطاع مفهوما آخر يختلف تماما عما كان عليه باشوات العصر الماضى . . الذين كانوا يملكون فعلا ولكن هل كانوا يملكون الفلاحين ؟

هناك عدة أسئلة لا بد من الإجابة عنها قبل الإجابة عن هذا السؤال أولها : هل يمكن حقا السيطرة على الفلاح المصرى ؟ . . المعروف أن الفلاح المصرى من أمهـر الناس فى التخلص من أى حمل باهظ يثقل كاهله ومنذ أيام الرومان قال مارسللوس ابيانوس إنك لا تستطيع أن تأخذ من الفلاح المصرى إلا ما يعطيـك هو إيـاه . . وبكوات الممـاليك وباشوات الترك وقفوا عاجزين أمام مكر الفلاح وسعة حيلته . . ومحمد على باشا لم يأخذ من الفلاح مليما فوق ما كان يحصله منه الملتزم التركى . . ولكن الذى حدث هو أن محمد على قضى على الملتزمين وأصبح هو نفسه الملتزم وقبض المال من الفلاح مباشرة . . فزاد دخل الباشا أضعافا ولم يخسر الفلاح شيئا جديدا . .

وليس لدينا دليل حقيقى على أن باشوات العصر الماضى كانوا يرغمون الفلاح على بيع جاموسته ليفى بالإيجار . . لأن هذا تصرف لا يفعله إلا مالك أرض غبى . . وليس أعز على مالك الأرض الذكى من فلاح نشيط منتج يعرف كيف يستخرج من الأرض أحسن ما فيها . . ويأخذ حقه ويعطى الباشا حقه . . أما الفلاح الكسول المتواكل الخبيث فإن أمره لا يعنى أحدا قط وفى يومنا هذا يستعمل رجال الحكومة كل ما يستطيعون مع أمثال هذا الفلاح لأنه كارثة فى كل زمان ومكان . .

وبعد أن انتهى عصر الباشوات وقامت الثورة أقاموا محاكم للباشوات . وإنه ليستوقف النـظر أن خيانـة الوطن لم تثبت عـلى واحد منهم . . وخيـانات المـال كـانت قليلة . .

واللصـوص من بين البـاشـوات كـانـوا قليلين جـدا . . ومـع ذلـك فقـد أخـذوا كـل أموالهم - اللصوص منهم وغير اللصوص - أخذوا أموالهم ووضعوها تحت الحراسات وأقاموا عليها رجالا قالوا لنا إنهم مخلصون صادقون أمناء وسنرى ما كان من أمر هؤلاء المخلصين الأمناء . .

فهل تخلص الفلاحون من متاعبهم ؟ . . هل أنقذ الفلاح مما كنا نسميه الإقطاع ؟ . . هل وجدنا فى خزائن الباشوات كنوزا مخزونة ننفق منها على مشاريع الإصلاح . . ؟ لكى نفهم هذا لا بد من نظرة أخرى أعمق إلى الباشوات وعالم الباشوات . .





محمد على باشا

٢ الباشـــوات المصريون يدخلون



محمد محمود باشا

إن من يفكر فى عصر ماقبل الثورة يتصور أن مصر عاشت فى عصر الباشوات مئات السنين . . مع أن الباشوات ظاهرة قصيرة العمر فى تاريخ مصر . . إن عمرها لم يزد على ١٥٠ سنة . . ففى سنة ١٨٠٠ لم يكن فى مصر إلا باشا واحد هو طاهر باشا الوالى التركى . . وفى سنة ١٨٠٥ اختار المصريون باشا جديداً هو محمد على باشا وأعطوه الجنسية المصرية وطلبوا إلى السلطان العثمانى أن يعينه والياً على مصر ووافق السلطان . . وسافر طاهر باشا إلى استامبول وبقى فى مصر باشا واحد نصف تركى ونصف مصرى هو محمد على وتلك هى بداية قصة الباشوات فى مصر . .

ولكى تكون قصة الباشوات وعصرهم كاملة نعود إلى الوراء قليلاً فى ٢ سبتمبر ١٨٠١ حيث تم جلاء الفرنسيين عن مصر . . وانتهت مغامرة نابليون فى مصر بفشل ذريع . .

وبجلاء الفرنسيين عن مصر تصور الأتراك أن البلاد عادت إليهم فأرسلوا تعليماتهم إلى الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا بأن يتسلم حكم البلاد ويقضى على بقية سلطان المماليك ويتم جلاء الإنجليز عن مصر . . وغاب عنهم أن الدنيا تغيرت . . وأن عودة الماضى كما كان أصبحت مستحيلة . . لأن عاملين جديدين دخلا فى الميدان : الأول هو أوروبا متمثلة فى فرنسا وإنجلترا ، وإنجلترا الآن هى المنتصرة وهى لن تكف من ذلك الحين عن السعى للاستيلاء على مصر . . والعامل الثانى هو العامل القومى المصرى متمثلاً فى المشايخ وجماهير الشعب . .

وجماهير الشعب المصرى هى التى أحدثت التغيير الذى كان يمكن أن يكون حاسماً . . ففيما بين أول مايو و ٩ يوليو ١٨٠٥ برز شعب مصر فى الميدان يقوده زعماؤه وخاصة عمر مكرم . .

وفى ١٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب فى بيت القاضى وهو دار المحكمة وأعلنوا ألا تفرض على أهل مصر ضريبة إلا بموافقة العلماء وكبار الأعيان وأن تخرج الحامية التركية وعصابات الجند المرتزقة المعروفة بالولاة من القاهرة وألا يسمح بدخول أى جندى المدينة حاملاً سلاحه وأن تعاد المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى الذى سيطر عليه المماليك . .

ورفض خورشيد باشا الوالى التركى ذلك كله . . فعزله الشعب فى ١٢ مايو ١٨٠٥ فى نفس بيت القاضى وقرر تعيين محمد على . .

وفى المدة من أول مارس ١٨٠٤ إلى هذا التاريخ وهو ١٢ مايو ١٨٠٥ توالى على مصر خمسة ولاة أتراك خسرو باشا وقد خلع . . وطاهر باشا (قتل) وأحمد باشا (طرد) ثم على باشا الجزايرلى (قتل) ثم خورشيد الذى قلنا إن شعب مصر خلعه واختار محمد على . .

ومحمد على كان من الممكن عزله فى أى لحظة بل حدث أن نقلته الدولة واليا لسلافيك . . ولكن الشعب تمسك به وأبقاه فى مصر رغم أنف السلطان ، والخطأ الأكبر جاء من أن عمر مكرم - زعيم الشعب - تراجع وقدم محمد على واليا ربما لأن التقاليد جرت بأن يكون الوالى تركيا . .

ومن المؤكد أن عمر مكرم كان يشعر أن إخوانه المشايخ لم يكونوا مستعدين لتأييده . . وقد تآمروا عليه مع محمد على بالفعل وأسقطوه وانتهى أمره بالنفى إلى دمياط . . وحكاية مؤامرة المشايخ على عمر مكرم حكاها عبد الرحمن الرافعى بكل تفصيل . . ولكننا تناساها . . لأننا لا نحب الحقيقة أبدا . . والتاريخ عندنا لابد أن يكون محلى بالسكر . .

والمشايخ تخاذلوا وأظهروا أنهم أقل من الموقف بكثير . . فقد تنافسوا على مشيخة الأزهر وولايات الأوقاف . . وغابت عن أعينهم القضية الكبرى . . ومحمد على تركهم يأكل بعضهم بعضاً بعد أن استقر فى الولاية وصدر الفرمان أو الأمر السلطانى بتعيينه والياً على مصر فى ٩ يوليو ١٨٠٥ . .

والشعب المصرى الذى حارب الفرنسيين والإنجليز والمماليك وانتصر عليهم جميعاً وفرض إرادته على الدولة العثمانية كان يستطيع بزعامة عمر مكرم إلى جانب محمد على أن يبدأ رحلته فى العصر الحديث ابتداء من يوليو ١٨٠٥ . . ولكن محمد على الألبانى الأنانى قاد هذا الشعب فى الطريق الذى أراد . . وهو طريق صخور وأخاديد ومستنقعات عطلت مسيرته وسارت به فى طريق مسدود . . وإذا كان محمد على قد استطاع ان يحقق شيئاً لأنه كان رجلاً غير عادى . . وقد أسعده الحظ بنفر من أذكى رجال السان سيمونيين الفرنسيين من أمثال الكولونيل سيف ولينان دى بلفوند . . فإن أولاده كانوا فى مجموعهم مجرد ألبانيين متتركين جهلاء مغرورين جبناء عاجزين عن إدراك الخير الذى كان يمكن أن يعود عليهم لو أنهم ربطوا مصائرهم بمصائر شعب مصر . . فساروا فى الطريق الذى يؤدى بمصر حتما إلى أيدى المستعمرين . . أصبحنا أيام أسرة محمد على صيداً وشعباً مقيداً عاجزاً يتنافس عليه الأنجليز والفرنسيون . . أما الأتراك فقد أصبحوا الضباع الذليلة التى تأكل من بقايا السباع . . والشعب المصرى الذى صنع محمد على كان عليه أن يبدأ من جديد ويسير الطريق كله مرة أخرى ليصنع نفسه وهذا هو الطريق المرير الذى سار فيه أحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول . . وسعد زغلول ، كان عمر مكرم الجديد . . تآمروا عليه ووقفوا مع السراى والانجليز ضده وعدنا بعد ثورة سنة ١٩١٩ إلى صراع السلطة العقيم حتى تأذن الله وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ التى فعلت ماكان ينبغى أن يتم سنة ١٨٠٥ . وهو الإطاحة بالإنجليز والأتراك وأسرة محمد على وتسلم زمام مصر . .

والفترة قبل ١٨٠٥ كانت عصر بكوات المماليك وهم عصابات من أسوأ من عرفت مصر من الحكام . . القواعد الأساسية للعمل السياسى فى عصرهم كانت الجشع والطمع والخيانة والجهل والقسوة والغرور . .

والفترة من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٢ هى عصر الباشوات وهى التى سنتحدث عنها فى هذا الكتاب . .

ومحمد على باشا لم يكن تركيا بل كان أرناءوطيا . . والأرناءوط كانوا فرعاً من الألبان . . ولكنه كان فرعاً صغيراً من أهل الوادى . . ولم يكن لهم قدر كبير عند الألبان . . وكان المفروض أن الألبان جميعاً أتراك ولكن الأرناءوط وحدهم كانوا يتمسكون بأنهم أتراك . . كانت هذه عقدة نقص فيهم . .

وعقدة النقص هذه جعلت محمد على يتمسك بأنه تركى ولم يذكر إلا فى النادر نصفه الثانى وهو النصف المصرى . . وهنا كانت مأساته ومأساة أهل بيته . . فهم كانوا أتراكاً أدعياء ومصريين بالانتساب . . ومن سوء حظهم أنهم لم يخلصوا لصفتهم المصرية أبدا . .

ومحمد على حارب الأتراك بالمصريين . . والأتراك لعنوه واستعانوا عليه بالانجليز وحطموه . . وبعد أن حطموه وجعلوه والياً على مصر وتوابعها فقط كما بدأ . . اعترفوا بتركيته ولكنه هو وأولاده لم يصبحوا أتراكاً خالصين أبدا . . لأن أسرة محمد على كانت تنقصها أشياء كثيرة منها الصدق والإخلاص والولاء . . وأما المصريون فلم يفهمهم محمد على أو أولاده قط ولم يتعاونوا معهم على بناء الوطن المصرى الحديث . . وكان على المصريين أن يبنوا وطنهم . . كانت الولاية والأموال أهم أشياء عند محمد على وأولاده دائماً من مصر والمصريين وقد استعانوا عليهم بالأجانب جميعاً ثم بالانجليز . . وأخيراً - وعندما يئس المصريون من جعل أسرة محمد على أسرة مصرية - عزلوا آخر رجالها وهو فاروق أحمد فؤاد فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ثم أعلنوا الجمهورية وحكموا أنفسهم كما كان ينبغى منذ ١٨٠٥ . .

وكان من بين الأجانب الذين استعان بهم محمد على وأولاده على المصريين الباشوات . . وفى أول الأمر كان كل الباشوات أتراكا أو منتسبين إلى الأتراك واللقب على أى حال كان يأتى من استامبول . . وإلى ١٨٧٠ تقريباً كان الباشوات كلهم أتراكاً أو شراكس أو روما (من أصل يونانى) أو أكرادا أو حتى إيرانيين أو شواما أو مغاربة ممن دخلوا فى خدمة السلاطين . .

ومحمد على عندما قضى على المماليك وبدأ فى بناء الدولة الجديدة . . احتاج إلى إطارات إدارية فاستعان بنفر من أقاربه ومن الأتراك وبقايا المماليك وعين منهم مديرين

ومسئولين إداريين ماليين وحصل لهم على ألقاب الباشوية وكانت هناك فكرة تقول بأن المصرى لا يصلح إلا ليكون فلاحاً يفلح الأرض .. أما الحكم والإدارة فليسا من اختصاصه .. وبمضى الزمن أصبح جميع الأجانب .. بما فى ذلك الأرمن والتركمان والجزايرلية والقبارصة والجريتلية .. والمالطيون .. هم السادة الحاكمين فى الدولة والمتحكمين فى الأموال .. أما المصريون فقد ظلوا خارج الأسوار وكان المفروض أن يظلوا خارجها إلى الأبد ..

وكان اللقب أول الأمر مرتبطاً بالوظيفة .. فمدير المديرية لابد أن يكون باشا .. أحياناً كان السلطان يرسل إلى مصر بعض مماليكه وخدم قصره ليكونوا مديرين للمديريات فى مصر .. هذا الطراز من الباشوات تجد أسماءهم لفظاً واحداً دون لقب مثل شاهين باشا وأيوب باشا وراغب باشا ونيازى باشا .. وهكذا حتى عندما كانوا يعينون وزراء كانت أسماءهم فى المرسوم تصدر بهذا الشكل .. والوزارة الأولى التى شكلها أرتين نوبار باشا صدر موسوم التشكيل وفيه أسماء نوبار باشا ورياض باشا وراتب باشا وعلى مبارك باشا .. أما نوبار فهو أرتين نوبار وهو أرمنى .. وأما رياض فهو مصطفى رياض إسماعيل أفندى الوزان .. بدأ حياته كاتباً فى ديوان المالية وترقى ثم دخل فى المعية الخديوية وانفتحت أمامه أبواب الوظائف ووصل إلى رياسة الوزارة سنة ١٨٧٩ .. وتخصص فى كراهة المصريين حتى أصبحت هذه هى رسالته فى الحياة .. ومن عجيب أمره أنه استقال من الحكومة عندما خفف الحكم على عرابى من الإعدام إلى السجن المؤبد ولهذا يشكك الناس فى مصريته ويقولون : إن أصله من يهود سلانيك أو الدونمة وهم أتراك يهود أسلموا فى الظاهر .. وقد اشتهروا بالدس للإسلام والمسلمين .. وهناك من يقولون : إن مصطفى كمال أتاتورك منهم .. وإلى هذا فى رأيهم يرجع نفوره الشديد من العروبة والإسلام وهذا ليس بصحيح ..

ومصطفى رياض طوال حياته يمثل الباشوات غير المصريين وهو وعثمان رفقى باشا يقفان على قمة العداء للمصريين ..

أما راتب باشا الذى كان وزيراً للجهادية (الحربية) فى الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٧٨ فهو من باشوات الترك وأصله من مماليك السلطان ثم أصبح ياورا للسلطان عبد العزيز .. ورافقه فى زيارته لمصر ثم استقر فيها وانضم إلى باشوات الترك وأصبح وزيراً أكثر من مرة ..

وأما على مبارك ناظر الأوقاف والمعارف العمومية والأشغال العمومية بالنيابة فى تلك الوزارة .. فهو المصرى الوحيد هنا وهو لا يمثل الباشوات المصريين لأنه رغم مكانته

وتاريخه الفكرى كان دائماً من باشوات السراى وتاريخه الفكرى جميل . . أما تاريخه السياسى فغير جميل . .

ثم نسمع بعد ذاك عن اثنين من باشوات الترك هما سعادتلو أفلاطون باشا ناظر الجهادية والبحرية وسعادتلو ذو الفقار باشا ناظر الخارجية ومؤسس أسرة ذى الفقار . . أصله من سبى إبراهيم باشا فى الموره . . فهو يونانى أتى إلى مصر عبدا مملوكاً ثم صار هو وأسرته باشوات . . وقد أطلع هذا البيت عدداً كبيراً ممن خدموا مصر بإخلاص واشتهروا بالأمانة والصدق مثل إبراهيم باشا ذى الفقار وسعيد ذى الفقار وغيرهم من كبار الشخصيات . . وأرجو أن يذكر أولادهم ممن يقرأون هذا الكتاب وأن يتأكدوا أن الإشارة إلى أصلهم اليونانى أو الرومى ليس فيه أى مساس بمكانتهم وأقدارهم . .

ومن أيام سعيد باشا أى من ١٨٥٤ ارتبطت الباشوية بملكية الأرض من ناحية وبالوظائف الكبرى من ناحية أخرى . . فكانت وظائف المديرين ومديرى الدواوين ومديرى حسابات الوزارات تحمل معها لقب الباشوية ومنحة من الأرض كانت تسمى أبعادية . . وهذه كلها قُصِرَت على الأتراك والشركس وحدهم أى أفراد الأسر الحاكمة والوزراء والمحافظين وكبار رجال المعية (الحاشية) الخديوية ونظار دوائر الأمراء وكبار الضباط .

وقد قال اللورد ميلنر فى كتاب « انجلترا فى مصر » إنهم كانوا يكونون ارستقراطية خاصة من أجناس الأتراك والشراكسة والأكراد وأتراك الأناضول (أنا تولى) . . والأتراك من أصول يونانية (السلانكلى والادرنلى والقبرصى والجريتلى والمورلى) ثم الأتراك من أصول مغربية (الجزايرلى والقراضلى والتونسى) ويقول ميلنر : إن هذه الرابطة التركية جمعت هؤلاء بعضهم إلى بعض . . لأنهم كانوا يتكلمون التركية ويلبسون ويتصرفون فى بيوتهم مثل العثمانيين واعتبروا ذلك دليلاً كافياً على رقيهم عن المصريين . . واحتفظوا فى أيديهم بالوظائف الكبرى وحرصوا على ألا يدخل فيها المصريون ، وسيطروا على الإدارة والاقتصاد والزراعة سيطرة تامة . .

ويقول اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عندما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وجدوا هناك مجموعة من الأتراك المصريين يحتلون المراكز الأساسية فى الحكومة ويملكون الأراضى الشاسعة . . ويترفعون على المصريين ويعتقدون أن احتكار الباشوات والوظائف الكبرى وملكية الأراضى الشاسعة حق لهم من دون المصريين وكانوا يجتهدون فى إبعاد المصريين عن السلطة فى بلادهم بكل سبيل . . ويقول كرومر : إن ملكاتهم لم تكن على مستوى مطامعهم . . ولكنهم استفادوا من ضعفهم وأصبحوا يحتكرون كل مصادر الثروة

من وظائف وأراض وأموال واعتبروا الفلاحين العاملين فى أراضيهم ملكاً لهم . . بل كان بعضهم يرى أن العمد والمشايخ فى نواحيهم من أتباعهم وخدمهم . .

وكان المصريون فى أول الأمر لا يقبلون على ملكية الأراضى لأنهم كانوا فقراء والأرض تحتاج إلى مال لإصلاحها وريها وزرعها والعناية بأمرها . . ثم إن العوائد التى كانت مقدرة على الأراضى كانت عالية لا يستطيع الفلاح الفقير دفعها فكان يترك الأرض ويهرب منها . . وكانت عوائد الأرض أى ضرائبها بيد جماعات من لصوص الإدارة وكانوا قساة جفاة بلا ضمير أو إنسانية . . وكانوا لا يتورعون عن إلحاق أشد الأذى بصاحب الأرض الذى لا يؤدى لهم . وإلى جانب العوائد المقررة إتاوات وغرامات تذهب إلى جيوبهم . .

ومن هنا فإنه لم يكن يستطيع التعامل معهم إلا القوى العنيد العديم الأخلاق .

ومن هنا فضل الفلاحون المصريون التخلى عن الأرض بل الهروب من ملكيتها تخلصا من التعاون مع أولئك اللصوص . . وعلى باشا مبارك نفسه يحكى فى ترجمة حياته : أن أسرته هاجرت من قريتها لأن الحكومة « رمت عليهم » أرضا وطالبتهم بعوائدها فتركوا القرية وهربوا . . وفى هذه الحالة كان الباشوات الأغنياء يتقدمون ويستولون على الأرض . . إما بأذن الخديوى وإما بوضع اليد . . وكانت الأبعاديات أشبه بالاحتكار لهم . . والأبعادية هى الأراضى الزائدة على زمام القرية المسجل فى الدفاتر . . وكانت فى الغالب تكون بورا فيستولى عليها الباشا منحة من الخديوى أو بوضع اليد ، ويستخدم الفلاحين فى العمل فيها بالسخرة ويصلحها ويزرعها ويستولى على كل محصولها . . ويدخل فى هذه الأراضى ما كان يعرف بالجفالك وهى أراض شاسعة . . مما وضع محمد على باشا يده عليه وصار ملكا للأسرة الفخيمة الخديوية . . وكانت هذه الأراضى معفاة من العوائد والضرائب . . فكان الباشوات يستولون عليها ويعمرونها ويستولون على محاصيلها . .

وحوالى ١٨٥٨ أصدر سعيد باشا لائحة تعطى واضع اليد على أى أرض حق تملكها بشرط أن يدفع المال المقدر عليها . . وقد احتفظ الخديوى فى هذه اللائحة بالحق فى استرداد هذه الأراضى عندما يشاء ومن هنا حرص أصحاب الأراضى على أن يكونوا على علاقات طيبة مع الأسرة الحاكمة حتى لا تصادر أراضيهم . . ومن ذلك الحين أصبح الخضوع المطلق للخديو شرطا من شروط الباشوية وملكية الأراضى . . وهذا هو الأساس البعيد الذى قام عليه جاه باشوات السراى وهم فى نفس الوقت باشوات الانجليز . .

وهذا الطراز من الباشوات كانوا دائما لعبة السراى والانجليز ومنهم تكونت كل الأحزاب المناهضة للوفد والحركة القومية : الأحرار الدستوريون وحزب الاتحاد وحزب الشعب .

ولابد من الحذر من التعميمات هنا . . فإن الكثيرين من رجال حزب الأحرار الدستوريين لم يكونوا قط من باشوات السراى أو الانجليز إنما كانوا رجالا أحرارا لم يشاءوا أن يندرجوا فى زحمة الوفديين . . إما بسبب استغلال الشخصية كما نرى عند عدلى باشا يكن وعبد الخالق ثروت باشا وعبد العزيز فهمى باشا وعبد الحميد بدوى باشا وإما نفورا مما كانوا يسمونه ديماجوجية الوفد . . ومن هؤلاء أهل علم وفضل وأدب كثيرون . .

وقد لقيت من هؤلاء أوائل أيام اشتغالى بالأدب أحمد محمد خشبة باشا وإبراهيم دسوقى أباظة باشا والأول كان من هواة التاريخ والثانى كان حافظا للشعر والأدب ويدخل فى هؤلاء محمد حسين هيكل باشا الأديب المعروف . .

وفى القرن الماضى اتجه باشوات السراى إلى اغتصاب الأراضى وتوسعوا فى ذلك . . وقد اشتهر من بين هؤلاء شاهين باشا الذى كثرت الشكوى من تعديه على أراضى الفلاحين فكان يغتصب المائة فدان والمائتين دون أن يبالى . . وكانت لهذا الرجل أساليب شريرة فى التخلص من أداء «الميرى» أى الضرائب وكان جريئا وقحا لا يستحى من أن يقول : إذا كانوا يقولون إننى « حرامى » فهم « حرامية » أكثر وليس عيبا أن يسرق الحرامى حراميا آخر والحكاية رواها الصحفى السويسرى . .

وهذا هو الذى جعل ذلك الصحفى يقول فى رسائله إلى الجورنال دى جيبت إن كل المصريين يرون أن سرقة أموال الحكومة حلال بل شطارة لأن رجال الحكومة فى ذلك العصر وهو النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانوا - فى نظر عامة المصريين - لصوصا وماهم كله حرام وسرقته حلال . .

وكان هناك إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ طريقة تقليدية باشوية فى اغتصاب الأراضى والتوسع فيها . . فإن الباشا كان يمنح بمجرد حصوله على اللقب أو دخوله الوزارة أرضا فى حدود مائة فدان من أراضى الجفالك مثلا . . وهى فى الغالب تكون مهملة أو مما كان يسمى بالمتروك والمتروك هو الأراضى التى تخلى عنها الفلاحون لعجزهم عن سداد العوائد المقدرة عليها مضافا إليها الرشاوى الكثيرة لرجال الحكومة والإدارة . . فكان الخديوى يستولى عليها ويمنحها لباشواته . . والباشا - وزيرا كان أو مديرا - يتصل بزميله مدير المديرية لكى يسخر إدارات الدولة كالرى مثلا فى رى أرضه ويحشد الفلاحين للعمل فيها بالسخرة فتتحول الأبعادية إلى عزبة مثمرة ثم يغتصب الباشا فوق المائة فدان مائة أخرى . .

وقد ذكرت الدكتورة لطيفة محمد سالم فى كتابها عن القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية رجلا يسمى شاهين باشا (ص ١٢٠) اشتهر بالتعدى على أموال الفلاحين وكان

مفتشا لجهة بحرى وداخله الطمع وأخذ من ورثة محمد أبى حمزة ١٠٠ فدان عشورية (أى من أجود الأراضى التى تدفع عوائد وتقدر بعشر المحصول) من أطيان كفر الدوار بحيرة مقامة على زمام ناحية البريجات من أعظم أطيان تلك الجهة بهماتها . . ومغروسة بكافة دوايرها أشجارا من سنط وجميز وساقيتين وآلات وعزبة قائمة بنفسها بطاحونة . . كما أنه اغتصب من فلاحى ناحية يتوخر - غربية - مائتى فدان وأمثال هذا الباشا اللص كانوا كثيرين جدا . . إلى قيام الثورة العرابية . .

إذن كان عالم الباشوات عالما أجنبيا غريبا عن مصر فى مجموعه . . وهذا القول فيه تجوز ولكنه يصور نظرة المصرى العادى إلى الباشوات . وعالمهم فى جملته كان مجتمعا نشأ حول البيت المالك الذى لم يشأ قط أن يعتبر نفسه بيتا مصريا . . والثورة العرابية قامت بالذات احتجاجا على ذلك الوضع الشاذ الذى كان يفترض أن كل خيرات مصر ووظائفها الرئيسية ينبغى أن تكون بأيدى الأجانب ولو كانوا من حثالة أهل الأرض المهم ألا يكونوا مصريين . .

إذن فكيف ومن أين ظهر الباشوات المصريون ؟ . . البداية خافية بعض الشىء لأنها جزء من الحركة القومية المصرية التى درس عبد الرحمن الرافعى الخطوط الرئيسية لتاريخها . . ويقوم المتخصصون فى تاريخ مصر الحديث بدراسة ما يتيسر لهم دراسته من تفاصيلها ووقائعها دراسة علمية بتفصيل . .

والبداية نجدها عند العمد ومشايخ القرى من ناحية وعند تجار المدن من ناحية أخرى . .

ذلك أن محمد على عندما وضع يده على كل أرض مصر واعتبرها أملاكا له يتصرف فيها ويمنح منها كما يشاء احتفظ لكل قرية بزمامها أى بالأراضى التى يسأل عنها العمد ومشايخ القرى ونظار الزراعة ويطالبون بتحصيل الأموال عنها . . وكان من المحرم على أحد المساس بأراضى الزمام أى الأرض التابعة للقرية رسميا . . لأن هذه هى المنبع الرئيسى لدخل الباشا محمد على وخلفائه من الأراضى . .

وكانت الحكومة تقدم للعمد ومشايخ القرى بعض المعاونات مثل تقاوى القطن والقمح وأصول الأشجار مثل أشجار توت الحرير وفى مقابل خدماتهم كانت الحكومة تترك لهم ٤ فى المائة من مساحة الزمام يزرعونه لحسابهم . . فاهتم الكثيرون جدا من العمد ومشايخ القرى بنصيبهم هذا فنهضوا به وتوسعوا فيه . . واشتروا أراضى لحسابهم ودخلوا فى زمرة أصحاب الأملاك . . وبعض أذكياء أصحاب المنح من رجال الحكومة كانوا يتعاونون مع العمد والمشايخ فى تنمية أراضيهم فى مقابل مساحات واسعة من تلك

الأراضى يتركونها لهم ليزرعوها لحسابهم . . والمثل المعروف عندنا هو رفاعة رافع الطهطاوى - ولم يكن باشا - ولكنه كان من كبار الموظفين وحصل على منح كبيرة من الأراضى شارك العمد ومشايخ البلاد فى تنميتها حتى صار يملك ٢٥٠٠ فدان سنة ١٨٨٠ . . وعلى مبارك باشا اتبع هذه الطريقة ووصلت أملاكه إلى ٣٠٠٠ فدان . .

وذكرت الدكتورة لطيفة سالم فى كتابها الآنف الذكر أمثلة أخرى منها مثال على البدراوى وكان من تجار المحاصيل . . فكان يشترى محاصيل الأبعاديات وأراضى الوسيات (وهى أملاك الأسرة الخديوية) ويتاجر فيها . . وقد بدأ ظهوره من أيام محمد على باشا . . وفى أيام سعيد باشا حصل على منح كبيرة من الأراضى . . وسعيد باشا كان ميالا إلى المصريين عطوفا على الفلاحين . . ثم اشترى على البدراوى أرضا أخرى . . ووصلت أملاكه فى أواخر أيام سعيد باشا إلى ٤٠٠٠ فدان . . ومن هؤلاء أيضا حميد أبو ستيت . . وكان من العمد ومشايخ القرى فى نواحى سوهاج . . فاجتهد فى الزراعة وخدم أصحاب الأبعاديات وتعاون مع رجال الحكومة . . واشترى الأراضى وتوسع فيها ثم عين حاكما لمديرية جرجا ووصلت أملاكه إلى ٥٠٠٠ فدان ومثل هذا الرجل كان كثيرون . . منهم عائلات أباظة والشريعى وسليمان عبد العال والمنشاوى والهجين والعقاد وعبد الغفار وغيرهم ممن استطاعوا أن يصبحوا من كبار الملاك وداخلوا الحكام . . وبعضهم حصل على الباشوية مثل محمود سليمان باشا (والد محمد محمود باشا) وحسن عبد الرازق باشا وكلاهما من باشوات الصعيد . .

ولكن الطفرة حدثت بعد سنوات قلائل من حكم إسماعيل باشا عندما أحاطت به المصاعب السياسية وتزايدت الديون وزاد الإسراف فى إنفاق المال . . فأراد إسماعيل أن يعتمد على سند يقويه أمام السلطان والأجانب . . خاصة وقد انضم إليهم باشوات الأتراك . . فخطر بباله أن ينضم إلى الجانب المصرى ليستعين به فى صراعه للاحتفاظ بعرشه . . وتلك كانت الظروف التى أوحت إليه بفكرة الحكومة النيابية ومجلس شورى النواب . . وكانت فكرة إسماعيل أن يكون أعضاء هذا المجلس من أعيان المصريين والعمد ومشايخ القرى . . وأصدر لائحة هذا المجلس أو قانونه سنة ١٨٦٦ وجعله مجلسا استشاريا صرفا . . أى ليس لقراراته أى قوة تنفيذية . . ثم أنه يجتمع بدعوة الخديوى ولمدة شهر واحد فى السنة . . ولا دخل له فى شئون الميزانية ومالية الدولة . .

وقد أراد إسماعيل بذلك أن يتظاهر أمام الأجانب بأنه رجل دستورى . . ومن المؤكد أنه لم يكن جادا فيما أراد . . ولكن الشعوب تأخذ هذه المسائل جدا خالصا . . لأنها الفرصة الذهبية التى تتاح لها لكى تعبر عما يجيش فى نفوسها . .

وكان المصريون فى ذلك الحين بالفعل فى حالة من التعاسة لا توصف . . فكل المتاعب على أكتافهم . . وكل المكاسب لغيرهم . . والبلاد فريسة لجماعات وحشية من الأفاقين والمحتالين على رأسهم الخديو نفسه ورجال الحكومة التركية . . ثم قناصل الدول ومن ينضوى إليهم من الأوروبيين من كل صنف . .

وكما حدث فى فرنسا . . عندما دعا الملك لويس السادس عشر « مجلس الطبقات » ليستعين به على فرض ضرائب جديدة ففتح على نفسه بذلك الطوفان فكذلك حدث لاسماعيل : ما كاد يعلن لائحة مجلس شورى النواب حتى استيقظت الآمال وانفجرت العواطف القومية الحبيسة . . والمصريون الذين كانوا مبعدين عن كل ثروة وسلطان يريدون اليوم أن يستعيدوا حقوقهم فى وطنهم وينتصفوا لكرامة وطنهم الذى لم يحترمه الآخرون . .

وما كادت الانتخابات تبدأ حتى ظهرت قيادات شعبية جديدة وطفرت إلى ميدان السياسية المصرية أسماء كان باشوات الأتراك يحسبونها فى مراتب العبيد فانتخب أهل القاهرة موسى العقاد والحاج يوسف عبد الفتاح والسيد محمود العطار . . وانتخب أهل الاسكندرية الشيخ مصطفى جميعى والسيد عبد الرزاق الشوربجى . . وانتخبت الغربية والمنوفية أتربى أبو العز وعلى كامل عمدة القصرية والحاج شتا يوسف عمدة أبى مندور . .

ومن بطون الريف قفز العمد إلى مجلس شورى النواب فى القاهرة . . وبدأنا نسمع فى عالم السياسة بأسماء على الجزار ومحمد شعير وموسى الجندى وأحمد أبى الحسين ونصر منصور الشواربى والإمام الشافعى أبى شنب وعلى حسن حجاج وأحمد أباظة والمعلم سليمان سيدهم وعامر الزمر وإبراهيم أحمد المنشاوى وجرجس برسوم وإبراهيم الشريعى ومحمد أبى سحلى وغيرهم وغيرهم . . وهكذا اقتحم الميدان السياسى المصرى ٧٥ مصريا قرروا أن ينزعوا السلطان فى بلادهم من أيدى باشوات الترك والشركس وحلفائهم من الأجانب . .

وقد عقد هذا المجلس أولى جلساته فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وكانت بدايته أشبه بالمهزلة . . فقد كان الأمر جديدا جدا على النواب . . أما بالنسبة للحكومة فقد كان هزلا . . وكان يمثلها الخديو ونفر من باشواته : إسماعيل راغب باشا (عين رئيسا للمجلس) وشريف باشا وزير الداخلية وحافظ باشا وزير المالية وعبد الله عزت باشا رئيس مجلس الأحكام وإسماعيل باشا صديق مفتش الأقاليم ورياض باشا المهردار حامل الأختام . . وعقد الاجتماع فى القلعة وهناك أيضا كان مقر الخديو حتى انتقاله إلى قصر عابدين . .

ولكن هذا المجلس الذى بدأ وكأنه لا شىء . . لم يلبث أن تطور حتى أصبح فى حقيقة الأمر كل شىء . . من هنا نبعت الحركة القومية . . ومن هنا نشأت الثورة العرابية ومن هنا أيضا نشأ باشوات الفلاحين أو باشوات المصريين . .

وفى دور الانعقاد الثالث للهيئة النيابية الثالثة فى يناير ١٨٧٩ إلى يوليو ١٨٧٩ ظهرت القيادات الشعبية الحقيقية : محمود العطار وعبد السلام المويلحى وعثمان الحرميل والشيخ مصطفى الأنيابى والشيخ محمد كساب ويوسف رزق وعبد الشهيد بطرس وغيرهم . . ويبدأ الصراع بين الخديو وباشوات الشعب وممثليه وطالب المجلس بالاشراف على مالية البلاد . . وأحرج نوبار باشا رئيس الوزراء . . وفى النهاية حل المجلس فى جلسة ١٩ مارس سنة ١٨٧٩ . . وسنورد هنا مقتطفات مما دار من المناقشات فى هذه الجلسة الحاسمة بين مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء وقادة الشعب . . ومنهم سيكون الباشوات الجدد :

رياض باشا : أبدى لكم كامل الشكر والثناء على ما أبديتموه من الهمم والمساعى الخيرية التى من اللزوم أن نكون فيها كرجل واحد . .

محمد افندى راضى : (عمدة بلدة القسط وهو من نواب بنى سويف) يحتج على إنهاء دورة المجلس ويقول : والأمر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته مع أنها ما انتهت . . وحاصل الأمر أنه لابد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لأجل رؤية تلك المسائل والملحوظات . .

عبد السلام المويلحى (باشا) : إن المجلس طالب بعدم قطع أمر فى أى شىء كان إلا باشتراكه . . وأن بعض الأعضاء يقول إنه إذا كان يحصل ذلك ربما يحصل من الأهالى أمور لا يصح وقوعها . . ويكون مجلس النظار تحت المسئولية . .

رياض باشا : ما قلتموه الآن بخلاف لائحة المجلس والجارى لحد تاريخه . . ولا يمكننى أن أجاوب على ذلك منفردا . . إنما ينظر فيه مجلس النظار والمأمول ألا يحصل شىء من الأهالى مما يكدر الراحة . .

عبد السلام المويلحى : المجلس لائحته أن ينظر فى المنافع الداخلية والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائصه ينظر فيها ويعطى قرارات تعرض للحضرة الخديوية . .

ويصر رياض باشا على فض الدورة ويشكر أعضاء المجلس . .

محمد افندى راضى : شكر سعادتكم مقبول . . ولكن لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر فى المسائل التى حرر عنها . . وفى الميزانية . .

وبعد قليل يقول عبد السلام المويلحى - وكان زعيم المعارضة المصرية لاستبداد الأتراك والأجانب بما فيهم الخديو والباشوات : من ضمن ما قلتموه سعادتكم أن أهالى مصر همج . . وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل . . مع أنه لا يصح نسبة جميع الأهالى لهذه الحالة التى لا تليق . .

رياض باشا : الذى صار التنبيه على كتاب الجرانيل عنه هو ما يتعلق بالأمور التى لا تعلق لها بالقطر مثل أن الجورنالجى يكتب عبارة من الوارد بجرانيل الأوروباويين . . مع أن أولئك لهم قواعد وقوانين غير قواعد وقوانين بلدنا . . ويدرجون أشياء مما يخدش أذهان العامة الذين لا يمكنهم التصرف فى مثل هذه الأفكار . .

محمد افندى راضى : لا نتوجه لطرق الأعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيبت طلباته . . وها نحن أولاء منتظرون الجواب الذى يرد من ذلك . .

وهذه العبارة تذكرنا بالعبارة التى تنسب إلى دانتون التى قال فيها : نحن هنا باسم الأمة . . ولن نبرح أماكننا إلا على رأسنة الحراب . .

إذن فقد رفض أعضاء المجلس حل الدورة إلا إذا أجيبت مطالب الشعب . . وظهر بوضوح أن وزارة باشوات الترك والشركس مصممة على فض دورة المجلس بعد خمسة أيام من انعقادها . . وبالفعل استصدرت قرارا بحله بإيعاز من المراقبين الانجليزى مستر ريفرس ويلسون . . والفرنسى المسيو ديلنير وكانا وزيرين فى وزارة رياض باشا . .

وعقد أحرار المصريين اجتماعا فى دار السيد على البكرى واعتبروا أنفسهم جمعية وطنية كان ذلك سنة ١٨٧٩ . . وتلك هى مقدمات الثورة العرابية . . لقد دخل الباشوات المصريون ولن يخرجوا . .





أحمد عرابى

٣ نهاية عصر الباشـــــــوات



محمود سامى البارودى

فى الماضى كانوا يقولون لنا إن الفضل فى وصول المصريين إلى الرتب العسكرية العالية ودخولهم عالم الباشوات فى القرن الماضى يرجع إلى الخديو محمد سعيد بن محمد على (١٨٥٦ - ١٨٦٣) لأنه كان يحب الفلاحين ويعطف عليهم . . هذا غير صحيح : لأن اقتحام المصريين عالم الرتب العالية والباشوية كان جزءا من تطور عام شمل البلاد . . فقد زاد السكان من ٢,٥ مليون أيام محمد على إلى ٤,٥ مليون أيام سعيد . . وتضاعف حجم التجارة ست مرات . . وتضاعف حجم الأراضى الزراعية من مليون فدان إلى ٤ مليون فدان .

وليس من المعقول أن يحصل كل هذا التطور ثم يظل السلطان كله والخير كله فى يد الخديو وعدد من الباشوات حوله لا يزيدون على ألف . . كلهم من الترك أو الشركس أو الأرناءوط أو الروم (باشوات أتراك أصلهم من بلاد اليونان وجزائرها وبلاد البلقان) . .

والمصرى بطبعه ذكى ونشيط ثم أنه هو الذى يزرع الأرض . . وهو الذى يسيطر عليها عن طريق العمد ومشايخ القرى ونظار الزراعة والخولية . . وقد رأينا فى الفصل الماضى كيف اقتحم العمد ومشايخ القرى عالم الغنى والأملاك الواسعة وعندما نذكر ذلك كله نرى أن دخول المصريين عالم القوى والسلطة والباشوية كان أمرا لا مفر منه . . وقيام مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ كان فى الظاهر بإيعاز من إسماعيل باشا لأسباب شخصية خاصة به . . ولكنه كان جزءا من التطور العام . . وتطور مجلس شورى النواب ومطالبة رجاله المصريين بحق الرقابة على الميزانية كان ظاهرة تاريخية طبيعية . . فقد جاء الوقت ليملك المصريون زمام الأمور فى بلادهم ويخرجوا باشوات الأجانب من الميدان .

وقد ختمنا الفصل الماضى بطرف من المناقشة بين عبد السلام المويلحى ومحمد راضى - وكانا يتحدثان باسم المصريين - ومصطفى رياض يمثل الارستقراطية غير المصرية ورأينا كيف كان موقف رياض باشا سخيفا وسفيها ووقحا . . فقد كان يقول إن أهل مصر همج . . وليس فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل . .

وفى نهاية الحديث يقول محمد بك راضى وهو عمدة القسط ومن نواب بنى سويف عبارة هى فى ذاتها ثورة على حكومة الاستبداد . . وهى إعلان لميلاد العصر الجديد . . فقد كان من المفروض بعد أن أعلن مصطفى رياض باشا نهاية الدورة البرلمانية أن يتوجه النواب لشكر الخديو . . قال محمد راضى : لا نتوجه لطرق الأعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيبت طلباته . .

وها نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك (الرافعى عصر إسماعيل ٢ / ١٨٠) . .

كان ذلك سنة ١٨٧٨ وكان إرهاصا بقيام الحركة العرابية . . فان الباشوات المصريين كانوا قد اقتحموا الميدان يتقدمهم أحمد عرابى وعلى فهمى الديب وعبد العال حلمى . .

وكان الخديو إسماعيل قد أغرق مصر فى الديون . . والديون أدت إلى التدخل الأجنبى . . واشترك وزيران أجنبيان : واحد انجليزى وآخر فرنسى فى الوزارة . . وعندما قامت الحركة الوطنية التى ولدت فى مجلس شورى النواب انتقلت القيادة فى البلاد إلى المصريين .

وفى صراعه مع دائنيه الأوربيين حاول إسماعيل أن يستعين بالمصريين . . وهذا فى ذاته أخاف الأجانب . . لأن معظم الديون كانت غشا وتزويرا وسرقة . . فإذا أشرف مجلس النواب على الميزانية كان من حقه الإشراف على الديون وفحصها والتحقيق فى مبالغها الحقيقية وأسعار فوائدها . . أى إن شكل الصراع سيتغير . . ويصبح صراعا بين الوطنيين والأجانب . . وهذا ما كانت تخشاه أوروبا . . ولهذا سارعت بالعمل على عزل إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق . . وقد تم هذا فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ . .

وانتقل الصراع من معركة بين المصريين والخديو وباشواته إلى معركة بين الأجانب والمصريين . . والأجانب هنا جبهة واحدة تشمل الخديو وحاشيته وباشواته و الخواجات ما بين قناصل وتجار ووكلاء شركات وأصحاب بنوك فى مصر وممثلى بنوك فى أوروبا . . ويحيط بهؤلاء عدد هائل من اللصوص والنصابين والمحتالين وتجار الخمور والقوادين والعاهرات من الأجنبيات . . ومعظم هؤلاء وأولئك كانوا جواسيس للدول أو للخديو أو السلطان العثمانى .

ومصر فى ذلك الحين كانت سوقا رهيبة وميدانا لمعركة تستحل فيها كل أساليب الصراع المالى والسياسى الدموى أيضا . وكان البلد غنيا فإن مساحة الأرض المزروعة بلغت خمسة ملايين فدان . وهذه الفدادين تزرع قطنا وقمحا وأرزا وقصب سكر وكتانا وكل هذه كانت تصدر عن طريق العملاء الأجانب . والمصريون كانوا خمسة ملايين ولكنهم فى مجموعهم لم يكونوا يسيطرون إلا على جزء من خمسين من ثروة بلادهم فقد كان هناك ٤,٥ مليون فلاح متوسط دخل الواحد منهم فى السنة لا يزيد على خمسة جنيهات مجيدية وكان المعروف أن المصرى لا يأكل إلا خبز الذرة والجبن والملوحة والبصل . . ولا يلبس إلا جلبابا واحدا طول حياته . جلبابا من البفته وهى كلمة إيطالية مصرية ومعناها نسيج القطن الردىء . .

وكان المصريون يعرفونها بالنسيج أو النيلة وهو صبغ مصرى يستخرج من نبات مصرى كان يزرع فى الواحات . . والسبب فى صباغته هو الرغبة فى إخفاء قذارته إذا اتسخ . . لأن اللون الأبيض تظهر فيه كل الأوساخ . . وأدخل الانجليز نوع قماش القطن المسمى

بالشيت وهى كلمة انجليزية ومعناها الصحيفة الرقيقة من الورق أو القطن أو المعدن والمفروض أن الشيت كان أرخص أنواع قماش القطن مثله فى ذلك مثل البفته . .

باسم هؤلاء المظلومين وقف عرابى وإخوانه يتحدثون . . ولكن من الحق أن نقرر أنهم كانوا أقل من الموقف . . وهذا هو الطبيعى لأن المعركة كانت قاسية جدا وخصوم المصريين كانوا بلا عدد أو رحمة أو إنسانية . . ولم يكن فى الباشوات المصريين الجدد رجل صلب حقيقة إلا أحمد عرابى باشا . . أما عبد العال حلمى وعلى فهمى الديب فكان فيهما ضعف شديد . . وبقية باشوات الحركة الوطنية كانوا قلقين غير مستقرين . . وكان اهتمام معظمهم موجها إلى مصالح أنفسهم دون مصالح الوطن . . ومن أمثلة ذلك موقف محمود سامى البارودى باشا وهو الشاعر المعروف وأصله شركسى . . ولكنه انضم للحركة المصرية وكسب منها . . ولكنه من البداية أبدى استعداده للتخلى عنها .

وعندما استقالت وزارة شريف باشا احتجاجا على التدخل الأجنبى فى أغسطس ١٨٧٩ اتفق أعضاؤها على ألا يشتركوا فى وزارة تعارض المصالح القومية . . وثبتوا على ذلك إلا محمود سامى البارودى ومصطفى فهمى . . فقد دخلا الوزارة التى ألفها الخديو توفيق برئاسته . ومثل هذا التخلى عن مصالح الشعب كثير فى تاريخ الباشوات المصريين فإن الأديب المعروف محمد حسين هيكل باشا لم يصل إلى الوزارة إلا عن طريق السراى والانجليز . . واشترك فى حكومات كثيرة أذلت الشعب وتنكرت لحقوقه . . وهذه حقائق لابد أن نعرفها . . ولابد أن نقولها لأننا نكتب هذه الدراسات لنكشف الغشاوات والأوهام عن عقول الناس . ولا ينفع الأمم إلا الحق . . والحق مر ولكن كل شىء له قيمة فى الحياة لا نصل إليه إلا عن طريق مرارة الصراع وأخطاره . ومن أكبر عيوبنا أننا نغفل عن هذه الحقيقة . . ونصر دائما على أن نحصل على حلاوة الحياة دون مرارتها . . والنتيجة أننا لا نحصل إلا على المرارة وهذا هو الطبيعى . . ولو تحملنا مرارة الحياة لحصلنا على حلاوتها . . وعندما ننظر إلى خريطة الأرض ونرى الروس يملكون وطنا يمتد من حوض الدنير إلى المحيط الهادى ينبغى أن نذكر أنهم فتحوا هذه الأراضى وعمروها ومات منهم فى سبيل ذلك ملايين . . ومثل ذلك يقال عن الأمريكيين أصحاب الولايات المتحدة فقد اقتحموا الفيافى والقفار وأصروا على الوصول إلى ساحل المحيط الهادى فى ملحمة مغامرات ومخاطرات مهما قلنا فيها فهى ملحمة بطولة . وفى رواية أمريكية مشهورة اسمها المجد الشمالى الغربى عبارة عظيمة قالها قائد فريق من الذين قاموا بالتوسع الأمريكى ناحية الغرب ، فقد كانت أراضى أمريكا محددة بجبال الليجانى ، وأرادوا اقتحامها إلى الغرب عن طريق ممر شمالى غربى ، فتردد بعض الجنود فى الاقتحام فقال لهم القائد : سنقتحم ولو مات نصفنا ، وسأل أحد الجنود : ولماذا يموت نصفنا ؟ فكان الرد : ليصل النصف الآخر

إلى المحيط ، فقارن ذلك بوقوفنا بحدودنا عند الشلالات جنوب أسوان ولو أننا سرنا على سياسة المصريين القدماء واقتحمنا لكنا اليوم دولة عالمية كبرى . ونحن هنا لا نعقب على على مبارك ولكننا نقرر حقيقة وإذا كان على مبارك لم يستطع الصمود فى الصراع الوطنى ومال إلى الانضمام إلى جانب الخديو فهذا طبعه ولا حيلة لنا فيه . . ولا نستطيع أن نلوم الناس لأنهم ليسوا بشجعان فإن الشجاعة صفة قد تكون فى الإنسان أو لا تكون .

ومنذ بداية الحركة العرابية نجد الباشوات الأجانب يقفون كتلة واحدة ضد الباشوات المصريين . وعلى رأس الباشوات غير المصريين يقف الخديو توفيق ومصطفى رياض باشا ، وخلفهما كل المصالح الأجنبية . وعلى رأس الباشوات المصريين كان يقف أحمد عرابى يؤ يده بإخلاص عدد قليل من الشبان لم يكن فيهم من الباشوات أحد ولكن كان فيهم بكوات يعدون من مفاخر تاريخ مصر . . أشهرهم محمد عبيد وكان بكباشيا أى مقدما . . وقد ظل كذلك حتى استشهد فى سبيل مصر فى معركة التل الكبير . .

أما محمد شريف باشا فقد كان رجلا حرا شجاعا شهما . . ولكنه كان تركيا متمصرا وقد ناصر الحرية والدستور بكل بسالة وصدق حتى توفى بعد الاحتلال فى مدينة جرانز فى ألمانيا . وهو خليق بأن يعد فى الباشوات المصريين .

وعندما نقرأ تفاصيل الحركة العرابية نشعر بالحزن لحالة عرابى ومصيره . لأن الرجل كان يحارب وحده تقريبا . . وكان معظم الباقى خصومه حتى الامام محمد عبده . . فقد كان خصما صريحا لأحمد عرابى . . وله فيه آراء سيئة جدا . . وهو يقول إنه كان جاهلا مغرورا . . وعرابى لم يكن جاهلا قط وإذا كانت ثقافته محدودة فإن شعوره كان شعور مصرى حر باسل . . وهذا لا يمنع من القول بأن المركز الذى وصل إليه أثر فى نفسه فمال إلى الغنى والاستبداد . . وهذا معقول وطبيعى فإن الرجل الذى كان قائم مقام مجهولا سنة ١٨٧٠ وجد نفسه سنة ١٨٨٠ على رأس حركة قومية فريدة من نوعها فى ذلك العصر . .

فقد كانت أفريقيا وآسيا كلها مستعمرات . ولكن البلد الوحيد الذى وقف ضد السيطرة الأوروبية واستبداد الحكام الخونة الظالمين كان مصر .

والثورة العرابية لم تكن فى نظر أوروبا ثورة محلية مصرية بل كانت بداية التمرد العالمى على السلطان الاستعمارى كله . . ولهذا وقف الأوربيون جميعا ضد الثورة العرابية . . بل كان القنصل الألمانى فى مصر من أشد الناس كراهة لعرابى ومن أعنف الداعين إلى القضاء عليه . . بل كان هناك فى الجيش المصرى جنرال أمريكى يسمى شابيه لونج . . وكان المفروض أن يقف بعواطفه مع المصريين . . وكنا ننتظر منه أن يقف على الحياد على

الأقل . . ولكن شابيه لونج الأمريكى كان من أكبر المطالبين بإعدام عرابى وأصحابه . . وهذا طبيعى لأنه وإن كان أمريكيا فإنه جزء من الرأسمالية الغربية التى كانت تخاف الثورة العرابية .

وأمثال شابيه لونج من الأمريكيين كانوا أعداء الحركات القومية فى المكسيك وأمريكا الوسطى والجنوبية . . وقد قال احد رجال الحرية المكسيكيين عبارته المشهورة يرحم الله المكسيك . . وما أبعدها عن رحمة الله وما أقربها من الولايات المتحدة . .

ومهما حدث من عرابى فنحن نعذره . . ويكفيه موقفه فى يوم عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ . . لأن الذى فعله الناس معه فى ذلك اليوم لا يوصف إلا بأنه مأساة حتى زميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى أرادا التهرب والمسكين صعد إلى القلعة مرتين لكى يجمع إخوانه لأن اليوم كان عسيرا . وكان شعب مصر يعود إذ ذاك إلى مسرح التاريخ وقيادة بلده بعد غيبة مئات السنين . . وعرابى واجه فى ذلك اليوم الحاكم الأجنبى المستبد وأوروبا كلها متمثلة فى القناصل . . وفى وجه هذا كله وقف هذا الباشا الفلاح الباسل وهو - لهذا وحده - يستحق كل تمجيد مهما صدر عنه بعد ذلك . .

وعرابى خاض المعركة وانهزم . . ولم يكن له مفر من الهزيمة . . ولكن هذه الهزيمة . . كانت بداية النصر . . وما وصلنا إليه فى حرب ٦ أكتوبر بدأ عند أحمد عرابى وهو كبير الجيل الأول من الباشوات المصريين . .

خسر الباشوات المصريون معركتهم الأولى . . وعاد الخديو توفيق تؤيده قوات الاحتلال سنة ١٨٨٢ وألف الخديو وزارة جديدة من الباشوات غير المصريين : شريف باشا للرياسة والخارجية . . ومصطفى رياض باشا للداخلية وعمر لطفى باشا للحربية والبحرية . . وعلى حيدر باشا للمالية . . وعلى مبارك باشا للأشغال . . وأحمد خيرى باشا للمعارف . . وحسين فخرى باشا للحقانية . . ومحمد زكى باشا للأوقاف . . ويعنينا هنا على مبارك باشا . . فهو باشا فلاح من المشتغلين بالعلم والتاريخ . . ولكنه دخل فى زمرة باشوات الترك ورفض أن يكون مناضلا فى سبيل وطنه . . وحتى عندما ندبته الجمعية الوطنية المصرية لإبلاغ رغبتها فى الاستمرار فى الجهاد ضد الخديو تخلى عنها وانضم إلى الخديو . .

وعين الخديو - رأس الباشوات الأجانب المنتصرين - باشوات من الترك مديرين للمديريات . . بل عزل الشيخ محمد الامبابى شيخ الأزهر الذى اختاره العرابيون . .

وأعيد الشيخ محمد العباسى رجل السراى إلى مشيخة الأزهر . .

وهنا وبعد هزيمة المصريين يتقدم نفر ممن كانوا مع عرابى فى الثورة إلى رياض باشا يعرضون تقديم هدايا وشكر لقواد جيش الاحتلال سيمور وولسلى ودرورى لو : وهكذا كانت الهزيمة كاملة . . فهؤلاء الناس لم يكتفوا بالهزيمة بل أضافوا إليها ذل النفس . . وهل هناك أذل لنفسك من أن تشكر خصم بلادك على العدوان عليهـا ؟ هذا مـا فعله محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب الأسبق ومحمد بك الشواربى (كوفىء على ذلك بالباشوية) وعبد الشهيد افندى بطرس وعبد السلام المويلحى بك (كوفىء على ذلك بالباشوية) ومحمود بك سليمان والد محمد محمود باشا (كوفىء على ذلك بالباشوية) وأحمد بك السيوفى (كوفىء على ذلك بالباشوية) ولماذا فعل أولئك الناس ذلك ؟

محافظة على الأموال والأملاك !

فإن هؤلاء الناس جميعا حصلوا بفضل الحركة الوطنية على عقارات كثيرة قبيل الثورة وأثناءها . . فخافوا عليها وأسرعوا يركعون أمام العدو حفاظا على المال . . وقديما قالوا أذل الحرص أعناق الرجال . .

ولماذا نذكر هنا هذه الحادثة ؟ . .

لكى يتعظ المصريون ويعرف ضعفاء النفوس منهم أن كل ما نفعله محسوب علينا . . الحقائق لا تخفى إلى الأبد والحقائق لابد أن تظهر . وفى بقية تاريخ الباشوات سنرى بعد ثورة ١٩١٩ من حقارات أعمال بعض الباشوات ما يندى له الجبين . . ونحن نريد أن ينتهى ذلك إلى الأبد . . لأن مصر ينبغى ألا تقع فى أخطاء الماضى مرة أخرى فليست هناك مرة أخرى . .

وبعد الاحتلال فى سبتمبر ١٨٨٢ صنع الخديو والانجليز عشرات الباشوات أعطوهم الألقاب والأراضى والوظائف . . وعلى رقـاب هؤلاء تسلطن عباس حلمى الثـانى . . وحسين كامل . . وأحمد فؤاد . . إثنان من هؤلاء كانا لصين بكل معانى الكلمة عباس حلمى كان لصاً حقيراً ونشالاً . . وأحمد فؤاد كان قاطع طريق . .

وقامت ثورة ١٩١٩ يقودها باشا من الفلاحين المصريين هو سعد زغلول وجدير بالذكر أن الاثنين الآخرين اللذين رافقاه إلى دار المندوب السامى البريطانى وهما عبد العزيز فهمى باشا . . وعلى شعراوى باشا . . كانا من أحسن الباشوات الفلاحين (إلى ذلك الحين لم يكونا قد وصلا إلى الباشوية) .

وبظهور سعد زغلول وتأليف الوفد المصرى للمفاوضات تبدأ فى دخول الميدان أجيال جديدة من الباشوات المصريين . . الوفد الأول تكون من اثنين من الباشوات : سعد زغلول ومحمد محمود . . وثلاثة من البكوات هم : عبد العزيز فهمى بك . . وأحمد لطفى السيد بك . . وعبد اللطيف المكباتى بك . . والاثنان الأولان من هؤلاء سيصبحان باشوات . . ثم ضم الوفد إلى عضويته مصطفى النحاس . . وحافظ عفيفى . . وهذان سيصبحان باشوات . . ثم حمد الباسل باشا . . وإسماعيل صدقى باشا . . ومحمود أبو النصر (باشا) وسينوت حنا وجورج خياط . . وواصف غالى . وحسين واصف باشا وعبد الخالق مدكور باشا . .

وفى أثناء المناقشات حول موضوع من يمثل الأمة وقع الخلاف بين سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وعدلى يكن باشا وكيل الجمعية المعين . .

وعاد الصراع بين الباشوات القدامى . . ويمثلهم عدلى يكن . . والباشوات المصريين ويمثلهم سعد زغلول . .

وعدلى يكن كان دون شك من عظماء رجال الحركة الوطنية المصرية بالدور الجليل الذى قام به . . وبأخلاقه الرفيعة ونزاهته . . ولكنه يمثل باشوات الأتراك بموقفه العام إلى جانب السراى . . وبأسلوبه فى العمل فهو تركى من فرع أنسباء البيت الحاكم من اليكنية . .

وحول عدلى يكن تألف حزب الأحرار الدستوريين المناهض للوفد . . وموقفه العام حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كان إلى جانب الانجليز والسراى . . وكلما انفصلت عن الوفد جماعة انضمت رغماً عنها إلى صف باشوات السراى . . ثم ظهرت بدعة المستقلين . . وهم جماعة من المستورين وجدوا أن الأحسن لهم أن يقفوا منفردين فى سوق الوزراء لكى تأخذ منهم السراى والانجليز من يكملون به الوزارات أو يؤلفون وزارات . . ثم ألفت السراى حزب الاتحاد من باشوات السراى . . ثم جاء صدقى باشا وألف حزب الشعب منهم أيضاً . .

والصراع الطويل الذى خاضته مصر من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ أخذ فى الواقع صورة صراع بين باشوات الفلاحين وباشوات الأتراك . . وليس من الضرورى أن يكون باشوات الوفد جميعاً فلاحين وباشوات الأتراك أتراكاً أو شراكسة . . بل المهم هنا هو الموقف والاتجاه والسلوك . . فهناك باشوات شعبيون يقفون مع الناس ويعيشون مع الناس . . وهناك باشوات أرستقراطيون لا يختلطون بالناس قط مع أنهم فلاحون أولاد فلاحين . .

وليس من الضرورى أن يكون باشوات الفلاحين أفضل من باشوات الأتراك . . لأن

المعسكرين حفلا بالأفاضل وغير الأفاضل . . بالوطنيين والأنانيين . . ومثال ذلك أننا كنا قبل الثورة نتندر بحلمى عيسى باشا الذى تـولى وزارة المعارف مـرارا كثيرة . . وتـولى الحقانية والأشغال والأوقاف . . وبلغت السخرية منه أن صحف الوفد كانت لا تسميه إلا حلمى عيسى يصل باشا . . ثم انقضت أيام الباشوات بمجىء ثـورة ١٩٥٢ وحضرنـا اجتماع الجمعية المصرية التاريخية فإذا حلمى عيسى باشـا عضو معنـا يحضر الجلسـات والمحاضرات وتدور بيننا وبينه الأحاديث وإذا بنا أمام رجل عالم لطيف . . يطلب العلم . . ويشاركنا أحاسيسنا . .

ولكن جمهور المصريين ظلوا يرون أن باشوات النحاس باشا هم باشوات الشعب . . ومن عداهم فليسوا من باشوات الشعب . . حتى أحمد ماهر والنقراشى بعد خروجهما على النحاس وتأليفهما الحزب السعدى أصبح النـاس ينظرون إليهـما على أنهما من بـاشوات السراى . . ونسى الناس لهما جهادهما الطويل . . وبالفعل كان أحمد ماهر والنقراشى . . قد دخلا فى زمرة باشوات السراى . . وقد تأكدنا من هذه بعد قراءة مذكرات حسن يوسف باشا . .

وهناك طائفة أخرى من البـاشوات وصلت إلى القـوة والشهرة عن طـريق الكفاءة الشخصية . طلعت حرب باشا عن طريق الاقتصاد . . وعلى ابراهيم باشا عن طريق الطب . . ومصطفى مشرفة عن طريق العلم . . وأحمد عبود باشا عن طريق الصناعة . . والبدراوى عاشور باشا . . والمنشاوى باشا والشيشينى عن طريق الزراعة ومحمد فرغلى عن طريق تصدير القطن وهكذا . .

وسواء أكان الباشا من باشوات الوفد أو السراى أو المستقلين فقد كانت أمور مصر كلها بيد الباشوات . . فالباشوات هم أهل الحكم وأهل المال وأهل القصر والحياة . .

ومع مضى الزمن تحول الباشوات جميعا مصريين وغير مصريين إلى أغنياء أصحاب أملاك وأموال ولو فى الظاهر على الأقل . . وكانت الوزارة طريقاً سلطانيا للغنى . . فالرجل منهم قد يملك خمسين فداناً مثلا فإذا دخل الوزارة أصبحت مائة . . لأنه يشترى أراضى رخيصة ويسخر الفلاحين ورجال الدولة فى العناية بها فتصبح أرضاً جيـدة . . وتصبح مائتين ثم ثلاثمائة وهكذا وهذه كلها كانت تزرع أحسن زراعة . . وتغل محصولا عظيما يبيعه الباشا إلى الخواجات . .

ومن بين هؤلاء الباشوات فئة تميـزت بعلاقـاتها الـوثيقة مـع الخواجـات من أمثال إسماعيل صدقى باشا . . وحسن نشأت باشا وأمين يحيى باشا ومحمد فرغلى . . وقد اشتهر

صدقى باشا بأنه اقتصادى عظيم . . ولكنه كان عدوا لدودا للشعب . . والإهانات التى لحقت بالمصريين على يد صدقى وأحمد زيوار وتوفيق نسيم ويحيى إبراهيم وعبد الفتاح يحيى وأضرابهم لا تتصور وهؤلاء جميعهم كانوا يعملون باتفاق تام مع السراى والانجليز والخواجات . .

ولكن الباشوات جميعهم - باوشوات الوفد وغير الوفد والباشوات المستقلين وباشوات الأراضى كانوا فى مجموعهم طبقة واحدة من أهل القصور والسرايات والسيارات والخدم والحشم . . وأيا كان المعسكر الذى يقفون فيه فقد كانوا جميعاً يؤلفون قيادة المؤسسة أو « الاستابلشمنت » . . والاستابلشمنت مصطلح يطلق على كل العناصر القائدة لاى مجتمع سواء أكانت متعاونة فيها بينها أو غير متعاونة . . فالباشا الوفدى أيا كانت درجة تشدده متعاون ضمنا مع الباشا غير الوفدى . . ومتعاون مع السراى والانجليز والخواجات بصورة غير مباشرة . . لأن الباشوية تفرض على صاحبها مستوى معيناً من الحياة وطريقة متميزة بنفسها من التصرف . . فالمظهر عندهم مهم جدا ولا غنى لأى باشا عن الفيلا والسيارة والعزبة . . وعائلات الباشوات عائلات أرستقراطية . . وقد يكون الباشا رجلا متواضعاً متبسطاً . . ولكن السيدة حرم الباشا لا بد أن تكون هانما عظيمة ذات مظهر عظيم وجاه وشمخة . . وبنات الباشوات دائما هوانم صغيرات متعلمات فى المدارس الفرنسية . . وهؤلاء جميعاً لا يختلطون بالناس . . وكل قصور الزمالك وجاردن سيتى والمعادى وبعض مصر الجديدة وخط الزيتون والمرج ومحطات الرمل بالاسكندرية من استانلى وجليم فصاعداً كانت أحياء مقصورة على أفراد « الاستابلشمنت » وهم إما باشوات وإما بكوات فى الطريق إلى الباشوية وإما خواجات . .

وكان اقتصاد مصر كله بيد الخواجات وشركائهم من الباشوات . . قبل الثورة لم يكن من الممكن أن يعمل إنسان فى الاقتصاد أو التجارة الكبيرة أو الاستيراد والتصدير أو زراعة المستوى العالى : البساتين والقطن إلا إذا كان من الخواجات وأصحابهم من الباشوات ومن فى مستواهم . . وكل هؤلاء كانوا يتعاونون مع البنوك ويشتركون فى مجالس إدارة البنوك . . وكلها فيما عدا بنك مصر كانت بنوكاً أجنبية . . والباشوات فى مجالس إداراتها كانوا أعضاء صامتين . . أو كمالة عدد . . وفى مجلس إدارة كل بنك أو شركة - حتى قناة السويس - كان هناك أعضاء من الباشوات وظيفتهم أن يقعدوا ساكتين . .

وكان من الواضح أن عالم الباشوات أيا كان طرازهم كان مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بالسراى والانجليز . والخواجات كلهم هيئة واحدة حاكمة . . تملك مصائر البلاد وكل خير فيها . . والعصر كان عصر الباشوات . . وكان من الواضح كذلك أن الملكية إذا

سقطت سقط معها الانجليز والباشوات والخواجات لأن « الاستابلشمنت » أى التركيبة الحاكمة فى أى بلد أيا كانت صراعاتها فيما بين بعضها وبعض ينتهى بها الأمر بأن تكون كتلة واحدة متماسكة متعاونة دون أن تدرى .

وهذا التساند بين جماعة الباشوات من كل الأحزاب مضافاً إليهم المستقلون والسراى والانجليز والخواجات هو الذى قاد التركيبة أو الاستابلشمنت إلى عقد معاهدة ١٩٣٦ فإن كل عناصر الاستابلشمنت كانت قد تعبت واستهلكت : تعب النحاس باشا ووفده ، وتعبت السراى ورجالها . وتعبت الإنجليز وهم يرون الجو السياسى فى العالم يتلبد بالغيوم . . وأصبحوا فى حاجة إلى الاتفاق مع مصر . . وخاف الخواجات على أموالهم ومصالحهم بسبب التزعزع الهائل الذى شمل التركيبة كلها . . وخاصة عندما قامت وزارة النقراشى باشا بفصل الجنيه المصرى عن الجنيه الإنجليزى وبدأ سعره فى السوق يهتز . .

عقدت معاهدة ١٩٣٦ وتمت تصفية كل القوى العاملة فى الميدان . . ولم تعد لها وظيفة لأن عالم ما بعد معاهدة ١٩٣٦ كان جديداً . . وله مطالب وبرامج إصلاحية داخلية لم يستعد لها حزب من الأحزاب بما فى ذلك الوفد . . وبعد معاهدة ١٩٣٦ مباشرة عقدت اتفاقية مونترو وانتهت الامتيازات الأجنبية . . وظهر بوضوح أن عالم الخواجات أيضاً يقترب من نهايته . .

وفى الفترة من ١٩٣٦ إلى يوليو ١٩٥٢ ظهر بجلاء أن كل القوى العاملة فى الميدان السياسى قد استهلكت . . والفراغ السياسى أصبح واسعاً . . ورشح الإخوان المسلمون أنفسهم لسد الفراغ . . وبدأ الصراع بينهم وبين الاستابلشمنت . .

وخلال سنتى ١٩٥١ و١٩٥٢ ظهر بوضوح أن عالم الباشوات قد انتهى وأصبحوا عاجزين عن السيطرة على الأمور وقيادة المجتمع . . وحزب الوفد - والمفروض أنه حزب الجماهير أصبح حزب باشوات . . واتحد مع بقية الباشوات ومع السراى ، وإن ظل النحاس باشا يقول إنه زعيم الشعب . .

ومن بداية ١٩٥٢ ظهر تزعزع التركيبة كلها . . وحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير كان نذيراً خطيراً وكان إنذاراً بيوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . وفى الفرنسية اصطلاح نصه de-cheance d'un regime. إفلاس نظام . . فيظل النظام قائماً . . ولكنه خاو من الداخل . . وقد فقد كل قوته وفاعليته . . وفقد ثقة الناس واحترامهم وتقديرهم . . واصبح سخرية .

هذه بالضبط كانت صورة عالم الباشوات قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢ ولابن خلدون هنا تعبير جميل أحب أن أختم به هذا الفصل من تلك الدراسة فهو يقول : وتبقى الدولة قائمة بالوهم وقلة المطالب . . (بضم الميم) وهذا اتعبير ينطبق تمام الانطباق على عصر الباشوات وكل الاستابلشمنت الذى كانوا جزءا منه . .





الملك فاروق

٤ خرج الباشوات ودخل السوبر باشوات



جمال عبد الناصر

قبل أن أترك عصر الباشوات وأدخل فى عصر السوبر باشوات وباشوات السوبر . . أقف وقفة قصيرة لألقى نظرة على نظام الباشوات فى مجموعه . . لنرى ما له وما عليه . . فيم أفاد ؟ لماذا عاش ؟ ولماذا مات ؟

ولد نظام الباشوات فى مصر كما قلنا مع قيام دولة محمد على باشا سنة ١٨٠٥م . . وكان كما رأينا نظاما تركيا امتد إلى مصر كما امتد إلى العراق والشام والسودان وبعض نواحى المغرب . . وكان الباشوات فى مصر أتراكا وشركسا وأكرادا وروما ومغاربة ـ أى أجانب ـ أول الأمر . . وابتداء من عصر الخديو سعيد بدأ الباشوات المصريون فى الظهور ثم زاد عددهم وأصبحوا طبقة مع بقية الباشوات من السادة من أيام إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) . .

ومنذ قيام مجلش شورى النواب (١٨٦٦) بدأنا نرى الباشوات الوطنيين أى الذين يتحدثون باسم الوطن ويقودون الحركة القومية . . ووقع الصراع الطويل بين الباشوات الأجانب فى ناحية والباشوات المصريين والوطنيين فى ناحية أخرى . . وهو صراع استمر متعادلا حتى نهاية أيام الملك فؤاد . . ثم رجحت كفة الباشوات المصريين ولم يعد فى الميدان سواهم فى أيام فاروق . . ولكن الباشوات فى مجموعهم كانوا قد أصبحوا طبقة واحدة لا فرق فيها بين الباشوات الأجانب والباشوات المصريين . . وهذه الطبقة كانت العمود الفقرى للاستابلشمنت (أى التركيبة السياسية والاجتماعية القائمة قبل الثورة) .

فنلاحظ بصورة عامة أن طبقة الباشوات ولدت فى مصر حاشية ملوكية . . وعاشت عمرها كله حاشية ملوكية . . حتى الباشوات الوطنيون الذين ظهروا ظهورا عظيما وتولوا قيادة الشعب من ايام مجلس شورى النواب من ١٨٦٦ ثم أيام الحركة العرابية ابتداء من سنة ١٨٧٩ . . ثم قادوا ثورة ١٩١٩ حتى هؤلاء انتهوا آخر الأمر بأن أصبحوا حاشية ملوكية . . حتى عبد العزيز فهمى ومكرم عبيد وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين . . وكل الباشوات الزراعيين (البدراوى عاشور والشبكشى ومحمد هاشم ومن إليهم) والباشوات الاقتصاديين (طلعت حرب وإسماعيل صدقى وحسن مظلوم وأمين يحيى وأحمد عبود ومن فى طبقتهم) . . كل هؤلاء أصبحوا فى النهاية جزءا من النظام الملكى القائم وحاشية ملوكية رغم ما كان بينهم من خصومات وحزبيات وصراعات وهم أيضا مرتبطون بالسفارة البريطانية ارتباطا وثيقا . . فالملك ينقل الحكم من طائفة من الباشوات إلى طائفة . . وعندما تسقط وزارة وتقوم وزارة يذهب الجميع ليوقعوا فى دفتر التشريفات . . والملك لا يستطيع أن يعهد إلى أحد فى تأليف وزارة إلا بإذن الانجليز . . وعندما أراد فاروق أن يتجاهل حق الانجليز فى هذه الناحية لطموه

على وجهه . . وأرغموه على قبول الرئيس الذى أرادوه وهو مصطفى النحاس فى حادث ٤ فبراير المشهور . .

ومن الغريب أن بعض المصريين استنكروا ما حدث يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ مع أنهم يعرفون أنه كان لا يمكن أن تقوم وزارة مصرية قبل الثورة إلا بإرادة الأنجليز . . وما حدث فى تلك المناسبة هو أن الملك ورجاله أرادوا مخالفة القواعد فأرغموا على العودة إليها . . وبعد قيام وزارة النحاس عادوا جميعاً حبايب وجمعتهم كلهم مائدة السير مايلز لامبسون . .

ولم يكن من الممكن ان يعين رجل وزيرا أيا كان مركزه وانتماؤه الحزبى إلا إذا كان على علاقة طيبة بالسراى . . ومن أكبر الدلائل على ذلك أن القصر لم يرض عن ترشيح طه حسين للوزارة سنة ١٩٥٠ ولكن النحاس باشا أصر على دخوله وكان على طه حسين أن يصحح فكرة السراى عنه . . فانتهز طه حسين فرصة افتتاح معهد الصحراء فى سنة ١٩٥١ وألقى خطاب ترحيب بالملك قال فيه عبارته التى استنكرها الناس جميعا : «وأنت يا مولاى المثل الأعلى فى الأخلاق» وبذلك أثبت ولاءه وصحح مركزه وضمن أن يكون وزيرا مرة بعد أخرى . .

وبانتصار الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعزل الملك فى ٢٦ يوليو انتهى عصر الباشوات جميعا مهما كانت انتماءاتهم الحزبية ومواقفهم السياسية . . لأنهم كانوا جميعا جزءا من القصر وحواشيه وقد تقطعت من زمن طويل الخيوط التى تصلهم صلة وثيقة بالشعب وقضاياه ومشاكله . .

وهذه الصلة الوثيقة بين الباشوات والقصر هى السبب الأول فى سقوط عصر الباشوات . . والسبب الثانى لسقوط مجتمع الباشوات هى صلة هذا المجتمع الوثيقة بالانجليز ودار المندوب السامى . . فلم يكن من الممكن أبدا أن يدخل رجل الوزارة إذا كان للانجليز عليه اعتراض . .

ومن الغريب أن الباشوات ــ رغم اتصالهم الوثيق بالانجليز ودار المندوب السامى ــ لم يفهموا الانجليز قط . . وظلوا يرهبونهم كما كان باشوات الأتراك يرهبونهم أيام الخديو توفيق . . وفى كل أحاديثهم وتصرفاتهم لا نلاحظ أنهم ــ حتى عميلهم الصريح أمين عثمان باشا ــ فهموا الانجليز . . وعرفوا مواطن الضعف فيهم . . أو تنبهوا إلى الخلافات والحزازات بينهم أو لاحظوا التدهور البالغ الذى نال مركز انجلترا فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى ثم الثانية . . ومصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمد محمود والنقراشى وكل باشوات العصر ظلوا يرهبون الانجليز رهبة شديدة . . ولو أنهم اهتموا بدراسة التطور

الشامل الذى دخل على الانجليز وحياتهم لتعاملوا معهم على صورة تمكن لهم تحقيق مكاسب ذات بال لبلادهم . .

ثم إن الانجليز فى مجموعهم لم يكونوا إلى عصر ما بين الحربين يتصفون بذكاء خاص أو بمستوى أخلاقى رفيع . . فرجال الحكم فى انجلترا كانوا مثقلين بالعيوب والنقائص الخلقية . . رجال السفارة البريطانية فى مصر كانت بينهم حزازات وخصومات . وكان المستوى الأخلاقى للكثيرين منهم موضع شك . . فكان فى بعضهم غباء شديد وصلف غبى . . وإدمان للمسكرات وميل للعربدة والانحرافات الجنسية . .

وكان العمل الأول للمستر كين بويد رئيس الإدارة الأوروبية فى وزارة الداخلية المصرية مراقبة رجال السفارة البريطانية ونسائهم وتحذير المنحرفين منهم أو الإشارة بإعادتهم إلى بلادهم تحاشيا للفضائح . . وعلينا أن نقرأ الكتب الكثيرة التى تصدر الآن فى أنجلترا عن المجتمع الانجليزى بين الحربين لنرى أن باشواتنا كانوا جاهلين تماما بالانجليز ومن ثم فأنهم لم يعرفوا كيف يتعاملون معهم وخسروا كل معاركهم معهم . .

وتصور أن اللورد جورج لويد على جهله وتفاهة تفكيره وتصرفه الصبيانى كان يخيف الباشوات المصريين وعلى رأسهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد بحكاية استدعاء الأسطول البريطانى وضرب الاسكندرية أو احتلال الجمارك . . مع أن ضرب الاسكندرية كان عمليا أمرا مستحيلا . . ولو فعلته انجلترا مرة واحدة لسقطت الوزارة البريطانية ، لأن مدينة الاسكندرية وميناءها كانا حتى قيام ثورة ١٩٥٢ مركزين للأجانب . . وكل البضائع الموجودة فى الميناء كانت أجنبية . . وكل وكالات الشحن والتفريغ وكل مراكب البضاعة والركاب ــ ما عدا ٣ مراكب لشركة البوسطة الخديوية . وكان يملكها أحمد عبود ــ كانت أجنبية . . ومعظم سكان العمارات والفيلات على الكورنيش كانوا أجانب . . وهناك أيضا كانت القنصليات وكانت أحياء رمل الاسكندرية أجنبية فى الغالب من شيزار وكامب شيوار حتى سان استيفانو وجليمو نوبولو . . ومن هناك إلى المنتزه كانت ممتلكات اجانب أو باشوات وأملاك القصر فهل كانت مدافع الأسطول البريطانى تجرؤ على ضرب البلد والميناء بالمدافع لتقوم عليها الدنيا كلها . . ؟

وحتى احتلال الانجليز لميناء الاسكندرية احتلالا عسكريا دون رمى بالقنابل كان مستحيلا وعديم الجدوى . . لأن كل الميناء كان يخدم الأجانب . . والأموال التى فيه أموال أجانب . . وإذا أقدمت السلطات البريطانية على تحصيل إيرادات الجمارك لحسابها فإن تلك كانت تعتبر عملية سرقة تلقى أشد النقد فى العالم كله . . وما كانت انجلترا لتقدم عليها أصلا . . بل إن تسليم أحمد زيور بكل مطالب الانجليز بعد مقتل السيرلى ستاك كان

أمرا غير مفهوم . . فماذا كانت تستطيع انجلترا أن تعمله أذا رفضت مصر اداء الغرامة واستدعاء القوات المصرية من السودان ؟ كانت انجلترا ستستولى بالقوة على نصف مليون جنيه من حساب الحكومة فى البنك الأهلى مثلا (ومديره كان إنجليزيا) وهذه كانت تعتبر عملية سرقة علنية بالإكراه . . تنشأ عنها فضيحة دولية لبريطانيا . . أما رفض سحب القوات فكان يؤدى إلى حالة حرب بين القوات الانجليزية والمصرية فى السودان . . وهى حرب كان من الممكن جداً أن تخسر انجلترا جولاتها الأولى وتكسب جولاتها الأخيرة . . وهنا يكون أسر القوات المصرية ثم إخراجها إلى مصر عملا عسكريا من أعمال الاحتلال يزيد وحدة مصر والسودان فى النهاية توكيداً . .

وبعض الباشوات يلقون التبعة فى استسلام الحكومة المصرية بعد مقتل السردار على الملك فؤاد . . ولكننا نقول إن الملك فؤاد كان فعلا كارثة على مصر ولكنه إذا كان هو كارثة على مصر فإن جماعة الباشوات كانت كارثتين . . فإنها كانت مهما قلنا فيها قيادة جاهلة لشعب ذكى . . وهذا هو أخف الأحكام عليها . حين نقول أنها كانت جاهلة أو متواطئة . . وإذا نحن عذرنا أحمد عرابى لأنه أول مصرى بل أول شرقى واجه أوروبا ، فهو معذور إذ لم يعرف عن الغرب وسياسته إلا القليل . . فما عذر أعضاء الوزارة الائتلافية التى واجهت بريطانيا فى شأن قانون حرية الاجتماعات وإصرار بريطانيا على سحبه من مجلس الشيوخ فى إبريل ١٩٢٨ ؟ كانت هذه الوزارة تتألف من باشوات : مصطفى النحاس وجعفر والى وواصف بطرس غالى ومحمد نجيب الغرابلى وعلى الشمسى واحمد محمد خشبة . . واثنين من الباكوات فى طريقهما إلى الباشوية (إبراهيم فهمى ومحمد صفوت) وأفندى واحد هو مكرم عبيد . . ما عذر هؤلاء جميعا فى الخوف أو التظاهر بالخوف والتردد ومحاولة التراجع والتنازل ثم سحب المشروع من مجلس الشيوخ إرضاء لبريطانيا وتمشيا مع الملك ؟ مع أن بعضهم درسوا فى بريطانيا وكان ينبغى أن يكونوا أحسن معرفة بالانجليز من أحمد عرابى ، وأعمق إدراكاً لسطحية رجل مثل نيفيل تشمبرلين وزير الخارجية البريطانية الذى اشتهر فى العالم كله بغبائه ومنظره المضحك وهو يجرى بمظلته إلى ميونيخ ليستسلم أمام هتلر .

وإذا نحن التمسنا شيئاً من العذر لهؤلاء فأى عذر يمكن التماسه لمحمد محمود الذى لم يكتف بما لحق بالوزارة التى كان عضواً فيها من هوان فى موقفها من قانون الاجتماعات بل رضى بأن يشترك مع الملك والسفير البريطانى فى القضاء على هيبة الجبهة المصرية بتدبير استقالته وزملائه الأحرار الدستوريين لإسقاط الوزارة ثم توليها فى يوليو ١٩٢٨ مشتركا مع صنيعته جعفر والى وأتباعه عبد الحميد سليمان وأحمد محمد خشبة . . وتأليف وزارة ضمت فيمن ضمت أحمد لطفى السيد . .

حقا إننا اليوم فى حاجة إلى إعادة تقييم كل رجال ما قبل الثورة من المصريين ابتداء من على مبارك . .

كل هذه كانت خطوات فى طريق تدهور جماعة الباشوات . . فإن مصطفى النحاس تراجع واحتفظ بشىء من كرامته . . أما محمد محمود ومن معه فقد جثوا على الأرض أمام صعاليك من ذوى الملكات المتواضعة والتخلف الفكرى الذى لاشك فيه . . فإن جيل أوستين تشمبرلين الذى خاف منه باشوات أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات هو الجيل الذى مسح به هتلر الأرض مسحا . . وجعله ضحكة الدنيا . . وهتلر الذى نقول اليوم إنه كان مجنونا كان عبقريا بمعنى الكلمة إذا هو قورن بمجموعة باشوات ما قبل الثورة . .

أكان عجبا بعد ذلك أن يتلاشى الباشوات وعصر الباشوات ؟

سؤال أخير قبل أن نفرغ من عالم الباشوات .

هل كان الباشوات سعداء ؟

هل كانوا طبقة حاكمة قوية تتمتع حقا بحياتها وبما أتيح لها من قوة ومال وسلطان ؟

الجواب : لا

لا كانوا سعداء ولا كانوا أقوياء . .

فهؤلاء الباشوات كان دخل معظمهم ما عدا الباشوات الزراعيين ونفرا قليلا غيرهم . . مثل طلعت حرب وأحمد عبود ومحمد محمود وعبد الحميد سليمان وأمثالهم فى حدود الخمسمائة جنيه فى الشهر تزيد قليلا أو تقل قليلا . . فى وقت كانت فيه قوة الجنيه عشرين مرة مثل قوته اليوم . . ولكن نفقاتهم كانت أيضا كثيرة لأنهم فى مجموعهم كانوا منفوخين على الآخر . . السراى أو الفيلا والسيارة والسائق والطباخ والسفرجى والدادة والخدم والجناينى والبواب وخولى العزبة وناظر الزراعة . . هذا عدا المحاسيب والدلاديل . . وهناك الإنفاق على المظهر ، والملابس تعمل عند خياطين من مستوى ويليه ، وبعض الباشوات كانوا يغسلون ويكوون ملابسهم فى باريس . . ثم هناك الست هانم وبنات الهانم وملابسهن ومصاغهن وجواهرهن والحفلات . . وهناك فرش البيت : السجاد والجوبلان والكريستوفل والنجف . . والمصيف فى الاسكندرية الفيلا هناك بالخدم والحشم والمطبخ . . والكابينة على البحر والسهرات فى سان ستيفانو والمديترائية . .

وأخيراً هناك السفر إلى أوروبا . . وكل باشا يحترم باشويته مستوزرا كان أو غير مستوزر كان لابد أن يقضى ولو شهرا فى أوروبا فى السنة ما بين جنيف ولندن وباريس . . وعندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ كان معظم كبار الباشاوات . . وفى مقدمتهم مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين فى أوروبا . .

كل ذلك كان يتكلف المئات بل الألوف . . وعدد كبير جدا من الباشوات كانوا مدينين بصورة مستمرة . . وأملاك الكثيرين منهم كانت مرهونة . . وغالبيتهم كان واردهم يغطى صادرهم بجهد بالغ . .

ثم إنهم فى مجموعهم كانوا تعساء أو لم يكونوا سعداء على الأقل . . كانوا يعانون من الأحقاد والضغائن والصراعات والخوف على المركز السياسى والمالى والرعب من الخروج من الوزارة واضطرارهم بعد ذلك للتذلل للعودة إليها وكانوا جميعا مثقلين بمشاكل العائلة والهموم بشأن البنات خاصة وكلام الناس والإشاعات وألسنة السوء وتلميحات الصحفيين . . وقلم محمد التابعى خاصة كان يرهبهم ، ثم هناك الأمراض وأمراض الباشوات والهوانم : السكر والروماتيزم والنقرس والكبد والأمعاء الغليظة وتكاليف العلاج والاستشفاء فى إفيان وإيكس ليبان . . كل هذه كانت تأكل أموال الباشوات أكلاً . . وتحرمهم السعادة وهدوء البال والاطمئنان بل نوم الليل . . ويكاد يكون العزاء الوحيد للباشوات هو أولادهم وبناتهم . . فالحق يقال أن معظمهم عرف كيف يربى أولاده ويجعلونهم رجالا ممتازين أطباء ومهندسين وقضاة ومحامين ورجال اقتصاد . . والباقون من أولاد الباشوات هؤلاء مازالوا زينة مجتمعنا اليوم . . ومن حسن حظهم وحظنا أن الثورة أغلقت باب السياسة أمامهم فانصرفوا إلى أعمالهم . . كل منهم فى تخصصه . . فكانوا خيرا على البلد وبركة . . وفى كلامى عن عالم السوبر باشوات سأتحدث عن هؤلاء بشىء من التفصيل . .

وأختم كلامى عن الباشوات وعصر الباشوات بمشهد من واقع حياتى هو أشبه بالرمز على أفول شمس الباشوات . .

فى صيف ١٩٥١ كنت عائدا من إيطاليا فى طريقى إلى أسبانيا لدارسة موضوع معهد الدراسات الإسلامية هناك . . ومررت بجنيف . .

وفى سيرى فى شارع الألب (رو ديزالب) ألقى فكرى أباظة باشا يشترى شيئا فى أحد المحلات . . وفكرى أباظة كان باشا . . ولكنه كان رجلا من طراز فريد ، كان أديبا صحفيا مثقفا وافر الكرامة محترما لنفسه . . وكان برلمانيا ممتازا . . وفوق ذلك كله كان رجلا مهذبا جدا . . وكانت بينى وبينه دائما صداقة وثيقة ترجع إلى عملنا معا فى دار الهلال . .

وحيانى ببشره المعهود وحرارة مودته الصادقة . . وقال لى :

ما رأيك فى أن تأتى معى إلى أوتيل دى برج . . أنا ذاهب إلى هناك . .

قلت : قد يكون عندك موعد . . ثم إنك باشا وكل من هناك من المصريين باشوات . . هذا بالضبط ما أحب أن تراه . . الباشوات فى الخارج . .

وأيامها كان فندق دى برج أعظم فنادق جنيف . . كان ملتقى الأرستقراطيين من كل أركان الأرض ومنها مصر . . ويهل على شرفة الفندق فكرى باشا . . وتكون التحيات والسلامات . . وأنا بالطبع لم يكد يرانى أحد . . وأنا أحب ذلك . . لأن الله خلقنى متفرجا . . وأسعد أوقاتى مع الناس هو الجلوس صامتا أتفرج فلا تفوتنى كلمة ولا حركة . .

وأسمع كلاما كثيرا كله تعليقات سخيفة وشتائم لباشوات فى باشوات . . يومها كان رئيس الوزارء صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس . . وكان فى الوزارة طه حسين وحامد زكى وزكى عبد المتعال من أساتذة الجامعة . .

وكانت أطقم وزارات السراى على الرف . . والرف فى الصيف كان جنيف . .

والذى سمعته من هؤلاء الباشوات المحالين للاستيداع المؤقت فى حق النحاس ووزراء النحاس وخاصة طه حسين وحامد زكى وزكى عبد المتعال وابراهيم فرج وعبد اللطيف محمود بصفة خاصة . . كلام بذىء لا يليق بباشوات أو جرسونات . .

وانصرف الباشوات واحداً بعد واحد . . وبقيت مع فكرى باشا لأننا كنا سنتغدى معاً فى مطعم أعرفه فى فيفيه . .

ويقترب باشا أعرفه بالإسم من فكرى باشا . . ويطلب إليه أن يتحدث إليه على حدة . . ويستأذن فكرى باشا ويخلو بالرجل بعيداً عنى . . وأنظر إلى الرجل فأراه يتحدث فى ذلة ومسكنة . . وملامح وجهه فيها استعطاف ورجاء . . وفكرى باشا الطيب القلب يربت على ظهر الرجل وذراعه . . وكأنه يواسيه . . والرجل يتحدث فى صوت متهدج وأظن أننى رأيته يمسح دموعاً . .

ويودعه فكرى باشا ويعود إلى . . ونمضى إلى المحطة . . ونأخذ القطار إلى فيفيه . . وفى المطعم الجميل وسط حديقة الكازينو حيث لا أثر للباشوات أجد فكرى باشا مهموماً جداً . . وأسأله . . فيقول وهو يهز رأسه : هل رأيت فى حياتك باشا متسولاً ؟ فهذا باشا متسول له ست سنوات لم يدخل وزارة . . استوزروه مرة لمدة سنة وبضعة شهور . . فسكن القصر واشترى سيارة باكار . . وأنفق كل ما عنده واستدان ثم سقطت الوزارة ووقف الرجل فى الطريق . .

والهوانم حرم الباشا وبناته دخلن عالم الهوانم من الباب الواسع . . واشتدت الأزمة

المالية بالمسكين فلم يكن يستطيع العودة إلى عالم عباد الله أمثالنا . . ولم يكن له معاش وزير . . وبعد أن حفيت قدماه عينوه ناظراً على وقف إحدى الأميرات براتب قدره مائة جنيه تمكن بها من الوقوف مستوراً بين الناس . . ولن أقول لك ما قاله لى عن ديونه وسوء حاله وقد أمر الله بالستر . .

ولماذا أتى إلى جنيف ؟ من أين المال ؟

أتى يا سيدى يجرى وراء على ماهر باشا . . فقد قيل له أنه هنا . . وهو كان بالفعل هنا ولكنه سافر إلى لندن من أسبوع والإشاعات تقول أن وزارة النحاس ستستقيل أو تقال وهناك وزارة فى الطريق . . والمرشح لرياستها على ماهر باشا . . والمسكين لم يستطع أن يقابل على ماهر باشا فى مصر . . فاستدان وأتى إلى هنا ليلقاه . . ولا تندهش فإن أمثال على ماهر تقابلهم بكل سهولة هنا وتجلس معهم كيف تشاء . . لأنهم يتركون ثوب الجلال والأبهة على ظهر المركب . . وماأكثر الوزارات المصرية التى ألفت هنا وهذا الباشا أتى إلى هنا ليرجو على ماهر باشا ألا ينساه فى وزارته القادمة لينقذه من الإفلاس والفضيحة . .

- وماذا سيعمل الآن ؟

- استدان من صديق له ليسافر إلى لندن وراء على ماهر باشا . . ثم أن أحد هلافيت البرنسات أعطاه خطاب توصية إلى أحد رجال الخارجية وصاحبنا يرجو أن يتوسط له هذا الموظف لدى وزير الخارجية الإنجليزية لدى المندوب السامى لدى على ماهر ليدخل الوزارة القادمة . .

ولم يدخل هذا الرجل الوزارة بعد ذلك قط . . لقد دفن عصر الباشوات بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . . ولكنه مات قبل ذلك بزمن طويل . . مات لأن الباشوات كطبقة فشلوا فى القيام بدورهم . . فإن هذه الطبقات أو الجماعات السياسية أو جماعات المصالح إذا لم تحسن القيام بدورها تلاشت . . فقد تلاشت طبقة النبلاء الفرنسيين : والأدواق والكونتات والمركيزات والبارونات . . لأنها عجزت عن القيام بدورها . . ثم لأنها ربطت نفسها ربطاً متيناً بالملكية . . وعندما سقطت الملكية تلاشت حواشيها . .

وتلاشت لنفس السبب طبقة النبلاء (أو الإيرلشكايت) الألمان الفورست والهيرتسوج والجراف والبارون والفراى هير لأنها ربطت نفسها ربطاً وثيقاً بالقياصرة من آل هو هنتوليرن . . وتعاظموا على الناس بشكل لا يتصور . .

وعاشت طبقة اللوردات لأنها عرفت كيف تقوم بدور نافع فى المجتمع الإنجليزى فى كل ميدان . .

وعـاشت طبقة السـاموراى والشـوجن فى اليابـان لأنها عـرفت كيف تتبنى قضـايـا الوطن . . وعندما أراد ملوك اليابان تركيز السلطة فى أيديهم لمـواجهة الضغط الأوروبى كان الشوجن يملكون معظم الأراضى . . وكان لكل منهم جيشه الخاص فذهبوا جميعاً وقدموا أراضيهم إلى الميكادو . . ووضعوا قواتهم تحت تصرفه . فنشأ الجيش القومى ووزع الملك الأرض على الفلاحين . . وعاشت طبقة الشوجن والساموراى وكل الأسماء اليابانية التى تسمع عنها اليوم من أبناء الشوجن : ميزوبتسى وكشيمودا وسوزوكى ومن إليهم . .

أما الباشوات فقد ربطوا أنفسهم بالملك والإنجليز والخواجات . . حقاً إنهم لم يكونوا فى مجموعهم فى المعسكر المعادى للشعب . . لأن الوطنيين منهم كانوا كثيرين بل لم يكن فيهم خونة أو فاسدون بالمعنى المعروف . . ولكن فاتهم أن يكون لهم دور إيجابى متميز فى الحياة القومية . . وعندما زال عصر الملوك والإنجليز والخواجات تلاشى الباشوات . .

وقبل أن أترك عالم الباشوات وأدخل فى عالم السوبر باشوات لابد أن أعترف بأن فى كلامى هذا تعميما أحيانا . . والتعميم قد يوقع الإنسان فى الخطأ . . فلا شك فى أنه كان هناك باشوات يخرجون عن الصور التى وصفت . . ولكنى أتكلم عن طبقة . . عن جماعة كبيرة دام سلطانها نحو قرن ونصف . . والأحكام هنا على الجماعة فى غالبيتها . . لا على تفاصيلها . . خاصة أن هذه دراسة موجزة لا تحتمل كثرة التفاصيل . فإن كان بعض القراء قد أحس بشىء يسوؤه فإننى أعتذر له . . وأؤكد له حسن النية وسلامة القصد . . ونحن أولا وآخرا نؤرخ لمصر . . لا لهذا أو ذاك . .

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ فانتهى بذلك عصر من تاريخ مصر والعالم العربى كله . عصر انتهى . . وبدأ عصر . . وستتحدث عن الذين ورثوا الباشوات . . فى العصر الجديد فى الفصل القادم وما يليه . ولكننا نقول هنا إن رجال الثـورة حلوا فى القيادة محـل الملكية والانجليز والخواجات ورؤساء جماعات الباشوات .

ولكن الباشوات ويتبعهم الباكوات كانوا يشغلون مساحات ضخمة من حياة مصر . . وقد سدت قيادة الثورة فراغ القيادة . . ولكن بقيت مساحات شاسعة وأموال ضخمة بلا شاغل أو مالك . .

هنا دخل واحتل وتربع وتملك طراز جديد من الناس . . هو طراز السوبر باشوات . . فمن هم ياترى أولئك الغزاة . . ؟



٥ ميلاد عصر السوبر باشـــــوات



سامى شرف

وقد حاول الباشوات خلال الشهور الأولى للثورة أن يحتفظوا بجزء من الأرض التى كانوا يقفون عليها . . ومصطفى النحاس وعلى ماهر - أكبر باشوات ذلك العصر - وكلاهما كان صاحب مقام رفيع حاولا - كل على طريقته وأسلوبه - أن يعيشا مع الثورة . . ومصطفى النحاس كان أوضح وأسلم نية . . فقد كان يرى نفسه ممثل الشعب لأنه رئيس الوفد . . وهؤلاء الشباب الذين قاموا بالثورة ينبغى أن يعملوا معه ويساعدوه على التخلص من معارضيه ومنافسيه - وهم رجال الملك والانجليز فى رأيه - وأن ينصروا الشعب وحكومة الشعب ويؤ يدوا الوفد . . وكانت تلك هى خلاصة أحاديثه مع على ماهر ومحمد نجيب عندما عاد من أوروبا مسرعا عقب قيام الثورة ليتسلم الحكم أو ليشترك مع أولئك الشبان الوطنيين الصادقين الذين سيطروا على الموقف السياسى عقب قيام الثورة .

والذى غاب عن مصطفى النحاس أنه هو نفسه وحزبه كانوا قد أصبحوا من زمن طويل جزءا من النظام الملكى الذى كان يوصف بأنه فاسد وصاروا قوة سياسية متعاونة تعاونا فعليا مع الإنجليز المحتلين . . وإذا كان لابد أن يزول الاحتلال ويزول الحكم الملكى الفاسد . . فلا بد أن يزول فى نفس الوقت حكم الباشوات وأحزابهم كلها . . وفى مقدمتها حزب الوفد نفسه وعلى رأسه صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا . .

والذى غاب أيضا عن مصطفى النحاس وبقية الباشوات أن بعض هؤلاء الشبان الذين قاموا بالثورة أو تزعموها على الأقل لم تكن لديهم فكرة واضحة عما حدث . . ولا هم تبينوا أهميته إلى ضحى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . أى عندما اتضح أن الحركة انتصرت بأكثر مما كانوا يتصورون وأن الشعب الظامىء إلى العدالة والإصلاح يقف إلى جوارها . . ويعمل على أن يجعل منها ثورة لا مجرد حركة عصيان داخل الجيش هدفها إصلاح أحوال الجيش كما رأينا فى نهاية الفصل الأسبق . . هنا فقط تبين لهم أن المنتصرين من أولئك الثوار هم سادة العصر الجديد وأصحاب السلطان فيه . . وأن الإنجليز الذين كانوا يبدون فى نظر الباشوات والسراى قوة هائلة ظهروا بحجمهم الحقيقى : قوة ثانوية إلى جانب الأمريكيين ، وهم القوة الأجنبية الجديدة التى بدأت ترث الاستعمار من ممثليه القدامى فى الشرق الأوسط وكانت أولى خطواتهم فى ذلك السبيل هو تأييد الحركة المصرية . . والسير رالف ستيفنسون آخر سفراء بريطانيا فى عصر شبه الاحتلال تراجع وترك مكانه للمستر جيفرسون كافرى سفير الولايات المتحدة ولهذا طلب الملك فاروق حمايته وبارح مصر تحت هذه الحماية . .

من ضحى ذلك اليوم . . وعندما تبين أن هناك دولة وسلطة وحكما وجاها وأموالا تنتظر المنتصرين بدأ الصراع على الغنيمة . . فمحمد نجيب الذى وضعه أولئك الشبان فى

المقدمة ليتلقى الصدمة أصبح سيد الموقف نتيجة لذلك لأنه حولها من حركة ضباط داخل الجيش إلى ثورة قومية واستولى على قلوب الجماهير بشخصيته وعقله ووطنيته وسلامة نيته ومظهره . . هذا كله كان كافيا ليقرر شبان الحركة أن هذا الرجل لابد أن يختفى رغم أنه ظهر بمظهر محترم جدا . . وكان صورة جميلة لأول رئيس لأول جمهورية عربية - بل أفريقية أو أسيوية - تنتصر على الظلم والملكية الفاسدة والاحتلال الخسيس . . لابد أن يختفى حتى ينفتح الطريق أمام شباب الثورة إلى الغنائم الضخمة التى تراءت لهم . .

كان لابد أن يختفى محمد نجيب ويزول عن رياسة الجمهورية بسبب إيجابياته بالذات . . فلو أنه كان لا شخصية له أو إنسانا ضعيفا أو حقيرا فربما كانوا أبقوا عليه أطول مما أبقوا . . ولكن الرجل كان يكسب أرضا وشعبية واحتراما عالميا يوما بعد يوم . . والسودان بالذات كان متمسكا به فهو نصف سودانى . .

ومن المرجح أن محمد نجيب لو بقى لتمت وحدة وادى النيل حوله . . فهو سودانى بقدر ما كان مصريا . . وهو شعبى وبسيط دون تكلف . . وهو سليم من خبث السياسيين . . وأنا أتكلم هنا عن العناصر التى كان لها أثر فى سير الحوادث . . أما ما يقال عن سلبيات شخصية محمد نجيب فلا أقف عندها طويلا لأن الرجل لم يسمح له بأن يبقى حتى تظهر النواحى السلبية من شخصيته بصورة تؤثر فى الموقف أو سير الحوادث .

ولا شك أنه كان له عيوبه ، ومن يخلو من العيوب ؟ . . ولكن الصورة العامة التى ظهر بها وشهرته بالنزاهة والبعد عن الصغار ومد اليد . . ثم ثقافته التى مكنت له من الظهور أمام العالم بمظهر مشرف جدا وكسبت احترام الرأى العام العالمى للثورة . . كل هذه كان من الممكن أن تكون بداية خط سليم لثورة قامت على مبادىء سليمة . . وما أعوزها من المبادىء السليمة أكمله الشعب الذى رمى بآماله وآلامه جميعا إلى الثورة ورجالها . . وتسامى بهم إلى مستوى خلقى وقومى يعدل آماله .

وإذا كانت الثورة قد اتجهت من بعد عزل الملك إلى أن تكون حركة عسكرية تتمثل فى النهاية فى صورة جماعة عسكرية حاكمة من الطراز التقليدى الذى كان سائدا فى أمريكا اللاتينية وعرف بنظام الخونتا مليتار والخونتا فقط فإن الشعب بدد هذا الوهم . . وفرض على الثورة أن تكون ثورة شعبية قومية . . وكان محمد نجيب هو الممثل الصادق لهذا الاتجاه . .

ولكن من سوء حظ رجال الثورة - وغريب أن أقول ذلك - أنهم انتصروا بسرعة لم يكونوا يتصورونها فى حركة الاستيلاء على مركز قيادة الجيش ومراكز السلطة . . والحركة دامت نصف ليلة . . وقام بأخطر أدوارها البكباشى يوسف منصور صديق وتولى الإشراف

عليها اللواء محمد نجيب . . وفى الوقت الذى تمت فيه العملية الحاسمة وهى عملية الاستيلاء على مبنى رياسة الجيش . . كان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بالقميص والبنطلون يتحسسان الأخبار بكل حذر وفى جيب كل منهما تذكرة دخول لسينما الفالوجة بمصر الجديدة لكى يكونا بمأمن من العقاب فى حالة فشل الحركة . . فى حين أن أنور السادات كان بالفعل مع حرمه فى سينما الروضة . . ولكنهم جميعا لم يلبثوا أن دخلوا فى ثيابهم العسكرية وتجمعوا فى غرفة القيادة حول اللواء محمد نجيب الذى أصبح القائد الأعلى الفعلى للقوات المسلحة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . .

هذا النجاح السريع للحركة أضر بها إضرارا شديدا . . فلم تدر فى الحقيقة إلا معركة الاستيلاء على مبنى رياسة الجيش والقبض على حسين فريد وحسين سرى عامر . . ثم بدأت عملية اعتقال القيادات العسكرية والمدنية والاستيلاء على المبانى الاستراتيجية الرسمية ومنها دار الإذاعة . . إن هذا النجاح السريع أتاح الفرصة للذين لم يشتركوا ليقولوا إنهم هم الذين قاموا بالحركة . . ثم التفوا بسرعة حول اللواء محمد نجيب ليكونوا نواة القيادة الجديدة للبلاد . .

من ذلك الحين : ضحى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت الصراعات . . فإن الغنيمة كانت عظيمة وسهلة . . ونظام الملك والباشوات تبدد . . وعلى ماهر ممثل حكومة الباشوات هرب خلال الأيام الأولى للثورة متابعا فى ذلك أساليب الثعالب وبنات آوى التى سار عليها - ونجح - طول حياته وقد فصلنا ذلك فى الفصل الماضى . . ففشل فشلا ذريعا . والملك كان قد ضاق بالملك وما أن أتيحت له فرصة التنازل حتى ابتدرها وخرج من البلاد فى حراسة السفير الأمريكى (كما دخل عمه البلاد عقب فشل الثورة العرابية فى حراسة الجيش الإنجليزى) . .

والشعب الذى كان مصطفى النحاس يحسب أنه معه تخلى عنه والتف حول القيادة السياسية الجديدة التى يقودها اللواء محمد نجيب . . ولكن أعصاب القوة السياسية الحقيقية ظلت بأيدى العسكريين القابعين فى الظل خلف اللواء محمد نجيب وبعد زوال القيادة العسكرية القديمة وتولى محمد نجيب رياسة الجمهورية وابتعاده عن الجيش أصبحت القوة الموجهة للحوادث هى قيادة جماعة الضباط الأحرار وعلى رأسها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وحتى لا يكون هناك شك فى أن جماعة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحدها هى التى كانت ما أصبح يسمى الآن بالثورة . . استبعد جماعة القابعين فى الظل كل الذين حملوا عبء الهجوم . . يوسف منصور صديق ومن معه وكما يحدث فى مثل هذه الظروف يتلاشى أبطال الحركة الحقيقيون ويبقى ويتربع على العرش الذين ينقضون على الغنيمة . الجنود يموتون والقادة ينتصرون . .

وكانت الغنيمة ضخمة جدا . . فإن كل مراكز السلطة وكل مواقع القيادة بدت فارغة وكان لابد من ملئها . . دولة الباشوات سقطت وأصبحوا فى نظر الشعب طائفة منبوذة لا تستحق أن تستبعد بل لا بد من عقابها بحرمانها من كل مال وشرف . . والقيادة الجديدة التى وقفت أمام الفراغ السياسى الهائل ولا تدرى كيف تحتله أخذت ترسم خطتها للاستيلاء على كل شىء .

وقد كنا إلى حين قريب نصدق ما كانوا يزعمونه من أنهم كانوا مستعدين للتخلى عن السلطات والعودة إلى المعسكرات إذا وجدوا من يتولى القيادة السياسية . . ولكن تبين لنا الآن وبعد أن انكشفت معظم الأوراق والأسرار بعد مقتل السادات ونشر عدد عظيم من المذكرات والحقائق ومنها مذكرات بعض رجال الثورة كبارا وصغارا أنهم بعد أن اكتشفوا أنهم لم يقوموا بحركة بل بثورة . . وأن العصر القديم هم ورثته وتفتحت أمامهم أبواب السلطة والقوة السياسية . لم يعد واحد منهم يفكر فى التخلى عن نصيبه بل قرروا إزاحة محمد نجيب من الميدان لأن الرجل كان يفكر فى أن يشترك الشعب فى بقاء النظام الجمهورى الجديد فى حين أنهم جميعا كانوا قد استقروا على أن يتولوا الحكم باسم الشعب لا بإرادته . . وفريق منهم كان أقل من فريق آخر استنكارا لفكرة اشتراك الشعب فى الحكم ولكنهم جميعا كانوا لا يميلون إلى التفريط ولو فى جزئية من جزئيات السلطان . . وسترد فى سياق هذه الدراسة أدلة كثيرة جدا تؤيد هذا القول .

ولم يعد هناك إذن شك فى أن القيادة الجديدة بدأت من اليوم الأول تعمل للقضاء على اللواء محمد نجيب حتى تكون الغنيمة كلها لها . . ولأن محمد نجيب مد جسورا بينه وبين الأمة والشرعية فتحدث عن الديمقراطية والدستور ورد الأمر إلى الأمة والاستفتاء . فقد كان لابد من إبعاده . . لأن هؤلاء لا يريدون ذلك وزعموا أنهم يخافون من العودة إلى الفوضى الماضية . . وقالوا أنهم يوقفون هذا التيار لكى يضمنوا سير الأمور فى طريق الثورة . . وكان ذلك خبثا من بعض منهم . . كما ترى عند جمال عبد الناصر ومن أيده من أمثال عبد الحكيم عامر والأخوين جمال سالم وصلاح سالم . . وسلامة نية وطيبة قلب من بعضهم كما نرى عند كمال الدين حسين وحسين الشافعى . . ودليلا على عدم وجود رأى خاص معين عند معظم الباقين . . كما نرى عند عبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم . .

أما السادات فلم يكن له موقف يذكر فى هذه المرحلة . . ولهذا فقد انضم فى النهاية إلى معسكر جمال عبد الناصر وانضم خالد محيى الدين إلى محمد نجيب فخرج من قيادة الثورة بخروج محمد نجيب . . وسار فى طريق وحده حتى اجتذبته الشيوعية فمال إليها عن جهل بها لا عن علم . . والذى يعرف الشيوعية لا يكون شيوعيا أبدا . . ومعظم أتباعها يكونون

فى العادة ممن لا يعرفونها إلا توهما وتعلقا بآمال لا تصدق أبدا .

هنا - وفى مرحلة الصراع بين محمد نجيب من ناحية وجمال عبد الناصر ومن تبعوه من ناحية - تقتحم أبواب الميدان السياسى طائفتان كان لهما أسوأ الأثر على مصير الثورة ومسارها فيما بعد . .

الطائفة الأولى هى طائفة الطامعين والطامحين من شباب الضباط ممن لم يشتركوا فى الثورة . . ولكنهم رأوا فرص الغنائم والقوة والجاه مفتحة فى الفراغ السياسى الذى دارت المعركة حوله بين جمال عبد الناصر ومن عاونوه . . ومحمد نجيب ومن أيده . . وهؤلاء الصغار كانوا أتباعا فى وظائف الجيش للكبار الذين تربعوا على عرش الثورة . . كلهم كانوا إلى ذلك الحين دون درجة العقيد . . وبعضهم كانوا ملازمين أوائل وثوانى وربما نقباء . . هؤلاء وجدوا جانبين يتصارعان من كبار ضباط الثورة . . جمال عبد الناصر ومن معه يدعون إلى الاستبداد وحصر الغنيمة كلها فى الضباط . . ومحمد نجيب يريد أن يرد الأمر إلى الأمة ويقيم الانتخابات فانضموا بجملتهم إلى جمال عبد الناصر ومن معه حتى يظل الأمر فى العسكريين وهم منهم . .

والطائفة الثانية كانت قد دخلت قبيل ذلك . . وهى طائفة بعض المدنيين ممن تمسحوا بالثورة ورجالها خلال الشهور الأولى لانتصارها وتقربوا إليهم متظاهرين لها بالرغبة فى إفادتها بما لديهم من العلم من أمثال القانونيين سيد صبرى وسليمان حافظ وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء - عبد الرزاق السنهورى ومن غير القانونيين رجال لم يكن لهم فى السياسة نصيب إلى ذلك الحين . . ولكن حركتهم الأطماع والسذاجة من أمثال أحمد فكرى أستاذ الاثار بجامعة الاسكندرية وإبراهيم سلامة وكان من أساتذة دار العلوم .

هؤلاء وأمثالهم جميعا عدا السنهورى حرضوا تحريضا شديدا على الاستبداد أملا فى أن تصيبهم الوزارة من يد المستبدين . . وهؤلاء جميعا - عدا السنهورى - عرضوا أنفسهم لسخرية الناس . . وسليمان حافظ أراد ان يدل الناس على بالغ تقشفه فكان يسير ببنطلون قصير . . والوزارة التى كان يرأسها جمال عبد الناصر تحت رياسة محمد نجيب كانت تفعل أشياء عجيبة . . كانوا يعقدون مجلس الوزراء طول النهار ويتناولون سندويتشات الفول إظهارا للتقشف . . وكان بعضهم يزعم أنه يذهب إلى الوزارة فى الترام . .

والشعب فى أثناء ذلك تائه صائع . . ينشدون أمامه أناشيد « الاتحاد والنظام والعمل » وهو يردد . . وتكون المعارك الحاسمه بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب فى مارس ١٩٥٤ ويتولى القتال فيها نفر من الضباط كانوا صغارا فأصبحوا كبارا بالاعتداء بالضرب على أمثال السنهورى وكسب بهم عبد الناصر وشيعته المعركة الحاسمة التى قررت مصير الثورة . .

فانتهى كل أمل في الديمقراطية والحرية ووئد الدستور المؤقت في مهده . . وتولى الرياسة جمال عبد الناصر وشيعته القليلة ومن حولهم مئات الضباط الذين لم يسمع أحد بأسماء معظمهم إلى ذلك الحين .

وهكذا صار حكم مصر إلى صورة تذكرنا بما كان عليه الأمر أيام سلطنة المماليك : السلطان جمال عبد الناصر وأمراء المماليك من حوله وهم مجلس قيادة الثورة ثم الخشداشية وهم مماليك السلطان والأمراء وكانوا مئات : كل جماعة منهم في مكتب أمير من أمراء مجلس قيادة الثورة . . وتقاسم السلطان - من ناحية - جمال عبد الناصر ، وكانت له الحكومة المدنية والسياسية وكل ما يتعلق بمصالح الوطن . . وعبد الحكيم عامر - من ناحية أخرى - وقد سيطر على الجيش وحوله إلى عمدية ضخمة يتربع هو على مصطبتها ومن حوله ألف شيخ خفر وخفير . . واعتمد عبد الناصر على البوليس الحربي ومديره أحمد أنور الذي جعله سيفا مصلتا على الناس . .

والرجل كان ينفذ ما يأمره به جمال عبد الناصر . . ولم يكن يستطيع إلا أن ينفذ . . لأن عدم التنفيذ معناه أن يصبح عدوا للجبهة الناصرية وهنا تدوسه الأقدام دون رحمة . . ثم إن ذلك المنصب كان يملك سلطات بلا حدود .

ودخلنا في دوامة الناصرية وتحول الحكم إلى استبدادية عسكرية وفرضت الرقابة على الصحافة وكل صورة من صور حرية الرأي . . وأصبح لمصر كلها سيد واحد . . وكان الإخوان أول الأمر شركاء لشيعة جمال عبد الناصر . . فلما تم له النصر عصف بهم فلم يستثن إلا الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أعلن انفصاله عنهم قبل أن يدخل الوزارة .

وسارت الأمور من ذلك الحين إلى موت عبد الناصر بحسب ما كان يراه هو وحده . . ولا معقب على آرائه ولا تبديل لكلماته . . والذين يذكرون تلك السنوات التي انتهت بكارثة ١٩٦٧ يسألون الله ألا يعيدها أبدا لأنهم كانوا يعيشون في ظلام دامس وخوف بالغ وما رأيك في عصر لم يكن فيه إلا صحفي واحد يتمتع بحرية الكلمة هو رئيس تحرير جريدة الأهرام ؟ . .

ومن مآثر عبد الناصر التي لا تنسى عصفه دون رحمة بكل من أيدوه من كبار الصحفيين وعلى رأسهم محمود أبو الفتح وأحمد أبو الفتح ومصطفى أمين وعلي أمين . .

ومن ديسمبر ١٩٥٢ أي من بدايات هذا الطريق المظلم بدأت الأعمال العنيفة التي ألحقت أسوأ الأضرار بهذا البلد . . لا لأنها في ذاتها كانت غير طبيعية سليمة . فإن الكثير منها كان ضروريا ولا مفر منه مثل الإصلاح الزراعي وإلغاء الملكية . ولكن الشر جاء من

سوء النية والأنانية التي أدت إلى الإسراع في اتخاذ القرارات دون تفكير سليم ودون تدبير محكم . .

وما دامت السلطة كلها قد انحصرت من ديسمبر ١٩٥٢ في يد جمال عبد الناصر وأمرائه وخشداشيته . . فلم يكن هناك مفر من الخطأ . . بل الخطأ الجسيم ، لأن الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا في خدمة المستبد من أهل التخصصات والخبرات كانوا بطبيعة الحال من طراز الندماء والأتباع ممن كانت أقصى أمانيهم أن يرضى عنهم الحاكم بأمره لا بأمر الله . .

فقد كان إلغاء الملكية عملا ضروريا . . لأن الأسرة العلوية فشلت في القيام بأي دور إيجابي نافع في تاريخ هذا البلد وأصرت على أن تظل أسرة أجنبية تحكم شعبا من الفلاحين الجهلاء . . فكان لابد أن يجرى التصرف في أملاك أفراد الأسرة وأموالهم على صورة تضمن مصالح الشعب والحفاظ على أمواله . . وهذه الأسرة كانت تتكون يوم ألغيت الملكية من ٤١٧ أسرة تملك من القصور والأراضي والعقارات ما يمكن تقديره دون مبالغة بربع ثروة هذا البلد . . فالملك والأمراء والأميرات في مجموعهم كانوا يملكون مثلا ما يقرب من المليون وربع المليون من الفدادين أي نحو خمس أراضي مصر . . وهذه كلها كانت ملكيات شاسعة ولكنها كانت تدار إدارة زراعية ومالية محكمة . . وهذه الأراضي كانت تغل من المحاصيل ما يعدل نصف إنتاج مصر الزراعي . . حقا كان هناك ظلم شديد على الفلاحين وكان من الممكن الاستيلاء على هذه الأراضي مع الاستمرار في إدارتها إدارة حكيمة مع رفع الحيف عن الفلاحين . .

والمشكلة كانت أن إدارة الخاصة الملكية ودوائر الأمراء كانت تدار على نحو يعطى الأمراء ورجال زراعتهم أربعة أخماس قيمة المحصول فلا يبقى للفلاح إلا الخمس . . وفي ذلك ظلم بين . . وكانت الحكمة تقضي بان تنتقل ملكية هذه الأراضي وتدار على نحو لا يضر بمحصولها ، فيأخذ الفلاحون من الغلة نصيبهم الإنساني العادل وتبقى البقية للأمة . . أما مصادرة أملاك الملك والأمراء وأموالهم وقصورهم ثم التفكير فيما نعمله بعد ذلك فإن النتيجة أن معظم هذه الأموال نهبت نهبا . . فلا هي بقيت تحت إدارة الخاصة الملكية السابقة ودوائر الأمراء لتعرف أين هي . . ولا هي صارت إلى أيدي من يستحق على وجه سليم . . بل هي تبددت بصورة مزرية فأما الأراضي الزراعية فتدهورت . .

وأما الأموال فنهبت وأما القصور وما فيها من جواهر وذخائر فقد نهبتها أيدي أمراء النظام المملوكي الناصري وخشداشيته .

ونحن لا نقول هذا الكلام اعتباطا أو رجما بالغيب . . ولكننا نقول إن هذه الأموال كلها كانت موجودة فى أول ديسمبر ١٩٥٢ وهى اليوم غير موجودة أو بقى منها النزر اليسير . . فإذا لم تكن موجودة اليوم فمن الذى يُسأل عنها . . ؟ يُسأل عنها الذين قاموا بعمليات الاستيلاء والمصادرة والجرد والحصر والتصرف . .

والفلاحون فى قرانا قاموا يتندرون بحكاية تنفعنا فى هذا المقام . . فهم يزعمون أن رجلا قال إن هناك طاحونة فوق شجرة عالية فاحتكم الناس إلى رجل ظنوا فيه العدالة والإنصاف فإذا به أروغ من ثعلب . .

سألوه : هل رأيت طاحونة فوق النخلة ؟

قال : والله لا أدرى ولكنى رأيت البغال صاعدة بالقمح نازلة بالطحين . . وكلنا نبحث اليوم عن تلك الطاحونة ؟

ولم نكن على أى حال أول بلد ألغيت فيه الملكية وصودرت أملاك البيت المالك . . فقد سبقتنا إلى ذلك فرنسا والنمسا والمجر وتركيا وروسيا وإيطاليا . . ولا نقول إن شيئا من أملاك البيوت المالكة فى تلك البلاد لم يسرق . . فإن منع السرقات منعا باتا فى هذه المناسبات مستحيل . . ولكن الناس تستفيد من التجارب .

ولم يكن من العسير علينا أن ندرس - ولو بصورة سريعة - ماذا فعلت هذه البلاد لنضمن انتقال الجانب الأكبر من ممتلكات الملوك والأمراء إلى الشعب . . ففى روسيا مثلا اتخذت قرار إلغاء الملكية ومصادرة أملاك البيت المالك حكومة كيريتسكى التى تولت الحكم فى صيف ١٩١٧ وقامت بتنحية بيت رومانوف واعتقلت أفراده فى موضع مأمون ثم أقفلت القصور بما فيها إقفالا تاما . . وعينت الحراس خارج القصور لا بداخلها . . وظل الأمر على ذلك حتى جاءت ثورة أكتوبر ١٩١٧ التى قادها لينين فأرسلت أفراد البيت المالك إلى سيبيريا حيث تم إعدامهم ثم وضع نظام محكم لإحصاء ما فى قصور الملوك والأمراء بمعرفة لجان اشترك فيها بعض رجال الثورة مع رجال الشرطة والفنيين تحت إشراف القضاة فى كل ناحية . . وقد تم الإحصاء (الجرد) على يد هذه اللجان وسجلت كل المحتويات فى دفاتر بغاية الدقة . . ثم أعيد إغلاق القصور حتى قررت الحكومة على مهل ما تفعله بهذه الأشياء . .

ولكن الطريقة التى اتبعت فى مصر عجيبة وربما كانت مقصودة . . لأن الأتباع والخشداشية أخذوا أوامر المصادرة ومضوا إلى القصور . . ومن ذلك اليوم لا يعلم أحد على وجه الدقة ماذا حدث لمحتويات هذه القصور جميعا . .

والطريقة التى اتبعت عندنا كانت أسوأ ما يمكن عمله . . فقد أنشئت لجنة للمصادرة وإحصاء ما فى القصور برياسة ضابط من المشهود لهم بالأمانة . . وهو البكباشى محمود يونس الذى كان إذ ذاك مشرفا عاما على المكتب الفنى لمجلس الثورة وعضوية نفر آخر من رجال الثورة والفنيين . .

وهذه الطريقة التى سارت عليها اللجنة كانت انتداب رجال معظمهم من الضباط الصغار « إذ ذاك » وبعض المعارف والمحاسيب طبعا . . وهذه اللجان تفاجىء القصر المراد إحصاء ما فيه . . والمفروض أنها تحصى ما فيه فى دفاتر وتثبته بغاية الدقة ثم تغلق البيت إغلاقا قانونيا أو تتركه فى عهدة أصحابه وتسلم الدفاتر للجنة الجرد المركزية وكان مقرها فى قصر القبة . .

وقد بدأت هذه العملية فى أغسطس ١٩٥٢ أى فى بداية الثورة . . والفوضى تشمل كل أعمال رجالها . . واستمرت بعد ذلك . . ثم جاء عصر الصراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب على السلطان . . ثم عصر الصراع الداخلى بين رجال الثورة أنفسهم وهو صراع انتهى باستيلاء عبد الناصر وحده على كل شىء مشتركا - على رغمه - فى ذلك مع عبد الحكيم عامر الذى وضع يده على الجيش واستمر الصراع بينهما حتى انتهى بكارثة يونيو ١٩٦٧ ثم موت عبد الحكيم عامر . .

خلال هذه الفترة كلها - أى إلى موت عبد الحكيم عامر - كان السلطان على المستوى العالى فى يد رجال مجلس الثورة ومن اتصل بهم . . ونقصد بالمستوى العالى مستوى السياسة العامة والتشريع والسياسة الخارجية وإدارة البلاد . .

أما ما تحت ذلك . . أى مستوى التنفيذ والحكم والتصرف فى الأموال والوظائف فكان الأمر كله فى يد الضباط الثانويين الذين ذكرناهم . . كانوا صغارا وصاروا مع الزمن كبارا . . كانوا فقراء أو أوساط على أحسن تقدير - فأصبحوا جميعا أغنياء . . وكل ضابط من ضباط مجلس الثورة كان له فريق من أتباعه ومساعديه . هو يأمر وهم ينفذون بالطريقة التى يرون . . ومادام الضابط الكبير من أتباع عبد الناصر وأنصاره أو من أتباع عبد الحكيم عامر فلا سبيل إلى محاسبته قط . .

والذى حدث لقصور الملك والأمراء والأميرات لا يمكن أن يوصف إلا بأنه شائن . .

لأن كل ما تبقى من محتويات هذه القصور ١١٠٠٠ قطعة من المصاغ والجواهر محفوظة فى خزائن البنك المركزى فى عهدة سيدة مريضة . . كانت موظفة فى وزارة الثقافة هى السيدة ثريا منجى مصطفى . . وهى تلح فى أن تعفى من هذه المسئولية وتطالب بمعونة مالية لها لتواجه مرضها . .

ولكن أحدا لا يصغى لها . هذا أمر مفهوم لأنه إذا كانت كل كنوز سليمان قد نهبت ولم يبق منها إلا تاج الهدهد وهو من الريش . . فمن هو المجنون الذى يتسلم هذا التاج الرخيص لكى يسأل بعد ذلك عن كنوز سليمان ؟

الكلام كثير جدا . . والمقالات التى كتبت والكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كثيرة جدا آخرها كتاب حافل بالمعلومات والصور المحزنة وعلامات الاستفهام والتعجب عنوانه « مجوهرات أسرة محمد على والأربعين حرامى » (كذا) ومؤلفه السيد الأستاذ حسين الرملى . .

وأعتقد أنه مادامت رياسة الدولة اليوم تتسم بالنزاهة والجدية والحرص على صالح الوطن . . فلا بد من النظر فى هذا الموضوع واتخاذ قرار فيه . .

ولكن فيم يهمنا أمر الأملاك والقصور والجواهر وما ضاع منها وما بقى ؟ . .

يهمنا لأن طائفة معينة هى جماعة من ضباط الصفوف الثانية وما تحتها . ممن كانوا يعملون فى مكاتب رجال الثورة . . ويتبعهم عدد ضخم من المحاسيب والأقارب والأتباع ، هم الذين تسلموا تلك الأموال والممتلكات الضخمة من أصحابها وكان المفروض أن يحصوها إحصاء دقيقا ويحافظوا عليها لتظل فى ملكية الشعب . .

وقد تسلموها . . ولا يدرى أحد ماذا جرى لها بعد ذلك لأنها اليوم غير موجودة . .

والأمر هنا لا يقتصر على أملاك الملك ومحتويات القصور الملكية . . وهى ثروة قومية يملكها شرعا شعب مصر . . ولكن جاءت بعد ذلك مصادرات أموال كل طبقة الباشوات وأسرهم وأتباعهم ثم أملاك الخواجات وشركاتهم ومتاجرهم وأموالهم أى ثروة مصر القومية كلها ومدخرات مصر كلها خلال ١٥٠ عاما . .

كل هذه كانت موجودة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهى غير موجودة اليوم . .

فأين ذهبت ؟

إن الجواهر والأموال والرياش والفضيات والتحف لا تؤكل ولكنها تنهب تنتقل من قصورها إلى بيوت الناهبين أو تباع أو تهرب . .

كان عبد الناصر يسمى عصر ما قبل الثورة عصر النصف فى المائة . . أى أن نصفا فى المائة من أهل مصر كان يملك مصر كلها بما فيها ومن فيها . . وبقية أهل مصر ٩٩,٥ فى المائة لا يملكون شيئا . .

وفى أيامنا هذه لازال الـ ٩٩,٥ لا يملكون شيئا . . فأين ذهبت أموال مصر ومدخراتها خلال قرن ونصف . . ؟

يُسأل عن ذلك السوبر باشوات . .

وعصر السوبر باشوات استمر حتى موت الرئيس السادات فى ضحى ٦ أكتوبر ١٩٨١ . .

وأنا هنا لا أتهم ، ولا أحكم ، ولا أقول أن كل أتباع كبار رجال الثورة مسئولون عن تلك الأموال التى نهبت ، لأن الحق أنه كان فيهم أشراف كثيرون ، كان فيهم شباب أخلصوا وصدقوا ، ولم يدنسوا أيديهم بشىء من المال الحرام .



٦ جريمة الشرعية الثورية

تاريخ مصر سجل أعاجيب .

ولكن أعجب هذه الأعاجيب هى أن مخلفات من عثرنا على قبورهم من الفراعنة ملوك مصر القديمة ونسبتها إلى ما لم نجد إلى يومنا هذا أو وجدناه منهوبا فارغا لا تصل إلى واحد فى الألف . هذه المخلفات يبلغ عدد قطعها أكثر من مائتى ألف قطعة . والمعروض منها فى متحف الآثار بالقاهرة ٦٣٧٢ والموجود فى المخازن يبلغ مثل هذا العدد . والموجود منها فى متاحف أخرى يصل بالموجود من قطع الآثار فعلا إلى ما يزيد على ٢٠٠٠٠ قطعة . وإذا أضفنا اليها ما يوجد فى متاحف العالم والمجموعات التى يملكها أفراد وما يوجد منها فى متاجر الآثار بلغ عددها إلى ما يزيد على ٥٠٠٠٠ قطعة .

وهذه مخلفات ملوك وأمراء وأشراف مصريين مضى على وفاة أقربهم إلينا ٣٠٠٠ سنة . أما الباقى من مخلفات ملوك مصر وأمرائها من أسرة محمد على - ولم يمض على عزل آخر ملوكها إلا ثلث قرن - فلا يزيد عدد قطعه على ١١٢٤٧ قطعة ، هى المحفوظة الآن فى خزائن البنك المركزى !

وفى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت كل تلك الذخائر والممتلكات فى موضعها فى قصور أفراد الأسرة ، أى أن معظم الذين أخذوها - سرقوها بتعبير أدق - مازالوا بيننا ، ومعظم القطع مازالت هنا ، مع أن بعض الذين سرقوا تصرفوا فى الكثير منها بالتهريب إلى الخارج .

ومع ذلك فمازلنا عاجزين عن تعقب هذه المسروقات . وفى البلد اليوم حكومة على رأسها رجل هو الشرف بعينه . وإذا كان الرئيس السابق أنور السادات لم يكن يحب أن يطول البحث فى ذلك الموضوع لأن بعض الرذاذ أو الشظايا كان من الممكن أن يصل إليه ، فإن خلفه الكريم بعيد كل البعد عن هذه المظنة ، ولابد أن يكون راغبا مثلنا فى الكشف عن أسرار هذه المأساة . ولهذا فنحن نكتب ونرجو . .

وليس هدفى من هذه المقالات هو الفحص عن أمر هذه التحف والذخائر التى ضاعت ، فهذا عمل يحسنه غيرى أكثر مما أحسن ، ولكن غرضى الحقيقى أعلى من ذلك . وهو الكشف عن الآثار المخربة لتلك الجناية على أخلاقيات الناس فى هذه البلد .

وأصارح القارىء بما أريد أن أصل إليه . .

فإنه قد روعنى كما روع غيرى استشراء ما يسمى بتدهور الجهاز الإدارى ، وزيادة شكوك الناس فى الكثير من المسئولين ، وشكوك بعضهم فى بعض ، وهم معذبون فلم

يسبق فيما أعلم أن ارتكبت مخالفات واعتداءات على القانون والأخلاق كما يحدث فى أيامنا هذه وأنا - مثلى مثل غيرى من أبناء هذا البلد - أشعر بالقلق على الحاضر والمستقبل ، لأن الفساد كالتعفن إذا لم يوقف فلابد أن يستشرى ، لهذا فإننى أريد أن يقف هذا التيار .

ولكن يقف تيار الفساد فلابد أن نعرف طبيعته ، لأننا كلنا نعرف أن الفساد ليس جزءا من طبيعة إنسان بلدنا ، فنحن فيما أعرف من تاريخ بلدنا شعب قليل الميل إلى الفساد ، شديد التمسك بالصلاح وسلامة الخلق والضمير والتصرف .

وإذن فهذه الموجة المخيفة طارئة وغريبة عن طبع هذا الشعب وما دامت طارئة وغريبة عن طبع هذا الشعب فمن الممكن إيقاف تقدمها ثم قطع دابرها .

وَلِكَىْ نصل إلى ذلك فلابد أن نعرف ماهى ؟ ومتى طرأت ؟ ولهذا فأنا أبحث وأنقب وأدرس وأتعقب ويهمنى طبعا أن توجد المسروقات ، ولكن الذى يهمنى أكثر هو أن تقطع اليد التى سرقت . حتى يسلم لنا هذا المجتمع ، وحتى نستطيع أن نسلمه إلى الأجيال التى تأتى بعدنا ونحن آمنون . .

أما أن نترك السارق وما سرق ، فمعناه أننا نرضى عن السارق ونقره على ما سرق .

وفى هذه الحالة نكون نحن واللصوص سواء ، وقواعد الأخلاق تقول : إن الساكت عن اللص لص مثله .

وأضيف هنا أن السرقة هى الاستيلاء على شىء وادعاء ملكيته دون وجه حق سواء أوقعت السرقة فى الخفاء أو غصبا أو بالحيلة أو بالتهديد أو خيانة الأمانة واستغلال النفوذ .

وأقول أخيرا إن كل سارق يعرف فيما بينه وبين نفسه أنه سارق ، فكل رجل من حولنا يعيش على مال وصل إليه عن طريق التصرف غير الأمين فى أموال التأميمات والمصادرات والحراسات يعرف أنه لص . وكل من سلب من القصور شيئا واحتفظ به لنفسه أو هربه أو باعه لمهرب يعرف أنه لص وكل من يجلس فى بيت استولى عليه من الحراسات بغير حق أو غصبه من أهله يعرف أنه لص وكل من قبض مالا أو شيئا ذا قيمة فى مقابل خدمة بغير وجه حق يعرف أنه لص ، وكل من يضع قدمه النجسة على سجادة مسروقة يعرف أنه لص ، وكل من يضىء بيته بثريا مسروقة من القصور أو يأكل على مائدة مسروقة أو فى صحاف فضية مسروقة يعرف أنه لص ، وكل من تلبس فى يدها أو على صدرها أو حول رقبتها جواهر مسروقة تعرف أن يدها تستحق القطع وصدرها ورقبتها فى النار . .

والمسروق كما نعرف ألوف الأشياء ، واللصوص وشركاؤهم وأسراتهم نتيجة لذلك

ألوف ، وكل منهم جرثومة فساد . .

ثم نتعجب من أننا كل يوم نعثر على لص أو فاسد ذمة أو آخذ رشوة أو خائن أمانة ! وكل يوم تقع أعيننا على ناس يتمتعون بأموال لا يشك رائيها فى أنها مسروقة ، ونتعجب من فساد الذمم وانتشار الرشوة وإهمال المرافق وتهاون بعض المسئولين كبارا وصغارا ! ثم - وهذا هو أسوأ ما فى الموضوع - تسليم الناس بأن الأمر فسد ولا أمل فى علاج .

وأعجب من ذلك أننا نرجو مع ذلك أن يصلح الله الأحوال ! والله سبحانه لا يصلح حال ناس يشتركون فى الفساد أو يسكتون عن الفساد أو ينامون مع الفساد تحت سقف واحد .

وكلامى هنا موجه إلى الذين يقرءون قول الله سبحانه ، فى سورة الرعد (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فكيف والله نرجو أن يغير الله ما بنا ويرفع عنا البلاء ونحن نرى اللصوص ونرضى عنهم ونشاركهم العيش والطعام ؟ .

ومن أعجب العجب أن السارقين يخادعون الله فيحجون عاما ويعتمرون عاما . والحجات والعمرات كلها بمال مسروق . فإذا هم خدعوا الناس فهل يحسبون أنهم يخدعون الله ؟

(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم) البقرة ٩ . .

ما الذى حدث إذن ؟ وكيف بدأ الفساد ؟

كانت البداية أن أمرا صدر فى ديسمبر ١٩٥٢ بمصادرة أملاك الملك وأسرته وأملاك كل أفراد الأسرة المالكة من أراض وقصور ومحتوياتها وأموال .

وتمت العملية على أسوأ صور الفوضى . فإن وزير المالية إذ ذاك أصدر أمرا بأن يخرج كل أفراد الأسرة من بيوتهم . وتغلق وتشمع حتى يتسنى للجان الجرد حصر محتوياتها ، ثم تعاد إليهم على أن تعتبر القصور وما فيها عهدة فى أمانتهم يُسألون عنها ، على أن يسمح لكل منهم بالإقامة فى قصر واحد من قصوره وتترك له سيارة واحدة ويظل الأمر على هذا الوضع حتى تتخذ الدولة ما تراه فى القصور وأصحابها وما فيها . .

أما قصور الملك ، وكلها ملك للشعب ، فكان المفروض أن تتسلمها لجان الجرد وتتخذ الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على كل شيء فيها ، وتكونت لجنة مركزية للمصادرة والجرد ، وجعل على رأسها ضابط من أهل الأمانة والذمة هو الصاغ محمود يونس رحمه الله .

وإلى كل قصر من قصور الملك والأمراء ــ وعدد أسرهم ٤١٧ أسرة ، ومعظمهم كان يملك أكثر من قصر - كانت تذهب لجنة جرد .

والمسألة بدأت بقصور الملك والأسرة المالكة ، ثم اتسع الموضوع بمصادرة أموال من سموهم بالإقطاعيين ، ثم - بعد حرب السويس فى صيف ١٩٥٦ - بمصادرة أملاك الأجانب وشركاتهم وبيوتهم ومتاجرهم وبنوكهم ، ثم أصبح الأمر فوضى بلا ضابط . لأن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى حربهما - واحدا مع الآخر - انطلقا فيما أصبح يسمى : مزيدا من الاشتراكية ! مزيدا من الاشتراكية .

حتى أممت مخابز ومحلات حلوى ومصانع أثاث ومتاجر صغيرة وما إلى ذلك ، لأن الأمر أصبح عملية نهب يقوم بها جيش من الغزاة .

وكل هذه العمليات يقوم بها مكتب رئيسى للجرد والمصادرة فى جاردن سيتى تقوم فيه لجنة عليا للأموال المصادرة .

تصور والله أن لجنة عليا مثل هذه مركزها شقة فى جاردن سيتى كانت تتولى عملية تنظيم استيلاء الغزاة على ما يمكن أن نسميه بأموال مصر ومدخراتها خلال قرن ونصف قرن من الزمن لأن الأمر بلغ أن كل من كان يطمع فى شى من رجال عبد الناصر وصاحبه كان يتقدم باتهام يعقبه الموافقة على المصادرة والتأميم ، وفى العادة يكون الاستيلاء والنهب قد تما قبل ذلك .

وأنا شخصياً شهدت عملية مصادرة وتأميم لمخبز إلى جوار منزلى القديم فى حى الروضة ، ومن غريب المصادفات أن اسمه مخبز الإخلاص وشهدت بعينى كيف نهب كل ما فيه حتى الإخلاص .

فأما الذين خافوا على أنفسهم من لجنة المصادرات ومكتب الأموال المصادرة من أمثال الصاغ محمود يونس والبكباشى (إذ ذاك) مشهور أحمد مشهور فقد غسلوا أيديهم من تلك المأساة قبل أن تتحول إلى عملية نهب بشعة .

واللجنة العليا للمصادرات كانت تختار لكل قصر أو بيت أو مصنع أو متجر لجنة

مصادرة تذهب إلى المكان المراد ، وتفاجىء من فيه بالأمر الذى كان ينـزل على النـاس كالقضاء المحتوم يحمله شبان من الأتباع والأنصار والمحاسيب والخشداشية .

وأنا أذكر هنا الأحداث بلا أسماء لأن الأمر مع الأسف الشديد صار كما قال صديقى الدكتور إبراهيم عبده فى كتاب له ممتع عنوانه «تاريخ بلا وثائق» أى ميراث بلا وراث ، ومال سايب بلا صاحب وبوابة بلا بواب ، وبلد بلا عمدة .

والقصور التى كان أولئك الناس يذهبون ليصادروا أموال أهلها باسم الشعب لم تكن محتوياتها مسجلة فى دفاتر ، ومن هو الذى ينشىء دفتر جرد لمحتويـات بيته ؟ ومنـدوب الجيش الغازى إذن يستطيع أن يأخذ ما يريد ، وبدلا من أن تحصى المحتويات فى مكانها ثم يغلق المكان أو يترك عهدة فى يد أصحابه كانت الأشياء الثمينة توضع فى حقائب وتأخذها اللجنة وتمضى ، إلى أين ؟ .

وأقرأ الخبر التالى الذى يرويه الأستاذ حسين الرملى فى كتاب : مجوهرات أسرة محمد على والأربعين حرامى :

« وأمسك الأستاذ أحمد رفعت وكيل نيابة الأموال العامة الذى يحقق فى هذه السرقات أكثر من دليل يثبت التلاعب وعمليات النهب والسـرقة التى تعـرضت لها هـذه التحف والمجوهرات . إنها أدلة ثابتة على وقوع سرقات وإن كان الفاعل مايزال مجهولا ! يقول : إن مجموع الملفات الخاصة بمجوهرات أسرة محمد على بلغ عددها حتى الآن ١٢٠٠٠ ملف ، وكـل واحد من هـذه الملفات يحتـوى على تـوصيف فنى لكل قـطعـة من هـذه التحف والمجوهرات على حدة واستطاع الأستاذ أحمد رفعت وهو يراجع هذه الملفات ورقة ورقة أن يكشف الكثير من عمليات (الكشط) والتزوير مما يؤكد أن تلاعبا قد وقع فى مجموعة هذه التحف والمجوهرات .

وهذا عن أملاك الأسرة المالكة والقصور ، وقد كتب عنها الكثير ولكن أحدا لم يكتب بتفصيل عما جرى للأمراء والأميرات وقصورهم وما كان فيها وقد قلنا أن أسراتهم بلغت عشية الثورة ٤١٧ لكل منها قصورها وأموالها وأملاكها ما بين أرض وعقار ، ومنقولات وأموال . .

أين ذهب ذلك كله ؟

وما الذى كان يحدث لأصحابه على أيدى رجال لجان الجرد والمصادرة ؟ وقـد تبين للناس جميعا مدى ما كان فى تصرفات رجالها من العدوان والنهب والاستخفاف بكل قيمة حتى لقد حكى السيد صلاح الشاهد كبير الياوران السابق أنه عندما تزوجت سيدة مصرية

تسمى فتحية من الرئيس نكروما كلفه الرئيس عبد الناصر باختيار هدية مناسبة لها من مجوهرات أسرة محمد على فذهب إلى مخزن هذه الجواهر فى البنك المركزى حيث وجدها فى أقفاص !! وتأكد عند النظر فيها أن الأثمان المبينة عليها فيها سرقة كبيرة » . (اقرأ بقية الخبر فى كتاب حسين الرملى ص ٧٦ وما يليها) .

والمهم هنا أن الرئيس عبد الناصر يكلف ياوره بأن يذهب ويختار «هدية مناسبة» لسيدة مصرية . مما يدل على أن سيادته ينظر إلى هذه الجواهر وكأنها ملكه ، وكما أهدى منها لزوجة نكروما فلابد أنه أهدى منها لغيرها . ومن المؤكد على أى حال أن عبد الناصر والسادات ورجال الثورة جميعا كانوا يعتبرون كل تراث مصر ما قبل الثورة ملكا لهم يتصرفون فيه كما يشاءون ، وهذا يؤكد ما قلناه من أن هؤلاء النفر الذين قاموا بتنفيذ التأميمات والمصادرات ممن كانوا يسمون أنفسهم رجال الثورة ، كانوا يرون أنفسهم غزاة وأن كل ما وجدوه كان فى نظرهم غنيمة . أقول إن ما حدث لقصور الأمراء وأموالهم كان أسوأ مما حدث للقصور الملكية وقصور الأمراء كانت فى القاهرة والاسكندرية وفى مراكز أملاكهم فى الريف

وفى كتاب الأستاذ الرملى أخبار عما جرى على هذه قصر وما فيها من نهب بلا حساب . حتى قصور الأمير عمر طوسون فى شارع الهرم نهبوا ما فيه وحولوه إلى شبه مزبلة (ص ٨٥ وما يليها) وقد حوكم ضابط يسمى حسن عثمان لسرقته سجادة . سرقها من قصر أحد موظفى القصر القدماء . وهنا يقول الأستاذ الرملى : وإذا كان العقيد حسن عثمان حوكم لسرقة سجادة فإن غيره نقل مفروشات قصر الملكة نازلى بالأسكندرية إلى منزله بعد أن أهدى القصر للزعيم السودانى السيد الميرغنى دون استشارة زملائه ودون مساءلة لأنه كان (صلاح سالم) ص ٤٩ . وقد تبين لى أن العقيد حسن عثمان برىء مما نسب اليه ، وأن مسألة السجادة هذه دست عليه من خصوم له . وقد رد القضاء اعتباره فيما بعد . . .

وبمناسبة صلاح سالم أروى خبرا نقله السيد الرملى عن الدكتور إبراهيم عبده ، فقد قال أنه زار اللواء محمد نجيب فى بيته فى المرج . وكان مريضا ، وكان معه صديقان له ، قال الدكتور إبراهيم عبده : «فسألته عما يقال عن تبديد مجوهرات أسرة محمد على ، خصوصا أنه أول رئيس للجمهورية ، فإذا به يصيح على الفور : البداية صلاح سالم ، مع الأسف الشديد ، إن رجال الثورة انقلبوا رجال ثروة . . (ص ٤٧) ويلى ذلك كلام كثير .

والكلام هنا طويل جدا .

وأنا لا أريد أن أستطرد فيه حتى لا تتحول هذه المقالات إلى سرد معاد ومكرر لأخبار رواها غيرى .

ولكن الذى أريد أن أصل إليه هنا هو أن الفساد بدأ من الرأس . فها هنا ذكر لصلاح سالم وفى كتابات أخرى ذكر لرجال الثورة سواء أكانوا من الكواكب الأحد عشر التى تربعت على عرش مصر بعد الثورة وتولت الوزارات والحكم أم ممن اشترك فى شىء من هذه الأعمال .

ولن أستطرد فى هذا الكلام لأن غايتى ليست تقصى أمر هذه المسروقات . ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن معظم رجال الثورة - قد تلاشى فى حسابهم فى ذلك الوقت معنى الحق والقانون . فالأموال - وهى أموال الشعب - تنهب أو تترك لتنهب بلا حساب . والكرامات تهدر بلا اكتراث .

وقد زرت مرة المكتب الرئيسى للمصادرة والجرد فى جاردن سيتى فرأيت العجب من غطرسة العاملين فيه وإذلالهم للناس دون رحمة . وقد زرته فى صحبة سيدة مسنة كريمة كان لها أربعون فدانا تعيش من غلتها ، وكانت قد عهدت إلى محمد شعراوى باشا بإدارتها لأنها مجاورة لبعض أراضيه ، وكان محمد شعراوى قد قال كلاما لم يعجب جمال عبد الناصر فأمر بمصادرة أملاكه ومساحتها ٤٠٠٠ فدان ، ولم يترك له حتى المائتى فدان التى كان القانون ينص على تركها لصاحب الأرض فى ذلك الحين . وعبد الناصر كان يضع القانون ويخالفه دون حسيب ، فكانت أملاك هذه السيدة ضمن ما صودر فذهبت معها أحاول توضيح الأمر للقائمين بأمر هذا المكتب فلقيت من المهانة فوق ما كنت أتصور ، وعادت السيدة المسكينة إلى دارها وهى لا تجد قوت غدها ، ولم ينفعنى فى هذه المناسبة إلا الشيخ الباقورى أطال الله عمره فقد رأف بحال المسكينة ودبر لها من أموال الأوقاف ٢٧ جنيها فى الشهر عاشت عليها إلى وفاتها فكانت تدفع منها ١٤ جنيها إيجار بيتها وخمسة نفقات صيانة البيت والبواب والباقى قدره ٨ جنيهات تعيش عليها شهرا كاملا ، وعندما اشتد بها المرض كانت تنفق خمسة جنيهات فى الدواء وتشترى بالباقى خبزا وتعيش على الخبز والماء .

ومن أعجب ما أذكره أن رجلا من رجال اللجان زارنى مرة فى إدارة الثقافة أيام كنت مديرها وعرض على أن يخرج لهذه السيدة أربعين جنيها فى الشهر إذا هى كتبت سكنها باسمه ليرثها بعد وفاتها ، فرفضت وحذرته من المساس بها وقد توفيت هذه السيدة وأنا على سفر ، فلما عدت ذهبت أزورها ، فقال لى البواب إنها ماتت وأمضى إلى شقتها فيفتح لى الباب نفس الموظف وأجده أمامى كالبغل فى بيجاما يقول لى فى سخرية وشماتة : عرضت عليك أن آخذه بمقابل فأبيت ، فها هو قد آل إلىّ (ببلاش) .

فتصور هذا الرجل ، وكيف يرصد هذه السيدة لينقض على بيتها إذا ماتت ولم يمنعه من الانقضاض عليها فى حياتها إلا أنه حسب أنها قريبة الشيخ الباقورى .

ولنضف إلى هذا أن ذلك كـان أيام مـطاردة الإخوان المسلمـين . وفى الخمسينات والستينات كان مجرد شبهة الانتساب للإخوان تعنى ضياع الإنسان أو اختفاءه ونفيه إلى الناحية المظلمة من القمر ، واتسع الأمر واستشرى حتى كان الرجل يلقى فى السجن بلا أمل فى الخروج لمجرد أن إنسانـا وشى به وقـال إنه قـال فى حق الثورة كلمـة ، وشمل الاضطهاد الشيوعيين وبلغ أمر الاستهانة بحقوق الناس أنهم قبضوا مرة على ناس وألقوا بهم فى السجن دون أن يقولوا للقائمين بالأمر فى السجن شيئا عن جريمتهم . فكتبوا فى الدفاتر أمام سبب الحبس أنهم إخوان شيوعيون ولما نبههم رؤ ساؤ هم بعد ذلك إلى تناقض التهمتين قالوا : وماذا نعمل ؟ مادمتم لم تقولوا لنا شيئا : كتبنا التهمتين فإذا لم تصح واحدة صحت الأخرى .

وهذا الخلط معقول من عساكر السجن ، ولكنه غير مقبول من رجل من كبار رجال الثورة زعم – ولا يزال يزعم – أنه شيوعى ومع ذلك فقد استولى على قصر أمين باشا يحيى فى الاسكندرية وسكن فيه إلى جانب قصر آخر فى القاهرة ، وهذا الرجـل تولى ريـاسة الوزارة فى أوائل الستينات فأغلق الباب على المصريين جميعا ، وجعل البلد سجنا ومضى لا يستحى أن يكتب مقالات عن الحرية والاشتراكية ، وما سماه بالرأسمالية الشعبية هى الغثاء بعينه . ومن أعجب ما قرأت فى أيامنا هذه أن هذا الرجل – وقد عفى عنه – يحتج لأنهم يمنعونه من السفر فى زعمه ! سبحان الله ! يحكم على شعب كامل بالسجن سنوات ثم لا يطيق أن يحال بينه وبين السفر مرة واحدة ؟!

وهذا الرجل الذى ظل يمتدح الشيوعية يسكن القصور ، وينسى أن شيخه لينين رفض أن يضعوا له تحت قدميه فرو دب فى الشتاء ، وصاح : من تظنونى ؟ القيصر ؟

لا والله يا لينين ما كنت بالقيصر ولكن القياصرة هم الذين تحدثوا باسمك فى بلدنا أم العجائب . . .

وما معنى ذلك كله ؟

معناه أن القانـون زال فى معناه ومبنـاه عند قيـادة الثورة نفسهـا والأموال والأرواح والحريات لم تعد لها قيمة من بعد قيام الثورة بقليل إلى وفاة عبد الناصر وتلك هى بداية ضعف القانون وتلاشى سيادته واستهزاء الناس به وما إلى ذلك مما نشكو منه اليوم .

ثم يسألنى الناس : ماذا جرى للبلد ؟

فهذا هو الذى جرى للبلد أيها الناس . . تلك هى البداية وهذه هى النهاية ، فأى مدعاة للعجب هناك ؟

وفى تلك السنوات السود التى هانت فيها الأرواح والأموال نشأ ما يسمى بالشرعية الثورية ومعناها أن الثورة لها شرعية خاصة بها تسمح لها بالاعتداء على الأموال والأنفس دون حساب أو محاسبة ، وأنه مما يؤلم النفس أن الذين أذاعوا فكرة الشرعية الثورية كانوا من زبانية رجال القانون الذين جعلوا أنفسهم مشرعين ومحللين ومحرمين وهم أساتذة ودكاترة وجهابذة باعوا العلم والضمير والشرف فى سبيل التقرب من الغاصب وتسويغ ما يريد . .

وفى تلك السنوات كان كاتب العصر ينشر فى الأهرام مقالات فيما سماه أهل الثقة وأهل الخبرة ، والأولون أولى بكل شىء ، والآخرون لهم اللعنات وإلى جهنم ، وهكذا ضيعوا العلم أيضا . . والذين يعرفون تاريخ مصر يعلمون أن هذا البلد نجا من أسوأ ما مر به من محن وأزمات بفضل شيئين اثنين : احترام الناس للقانون وثقتهم فى القضاة ، ثم احترامهم للعلم وأهله .

هذان هما العمادان اللذان قاما عليهما تاريخ مصر الحضارى كله ، فيجىء أولئك الناس فيعصفون بالقانون والقضاة وكرامات الناس جميعا على طول عشرين سنة . .

وهذا ما سموه بالشرعية الثورية .

ويراد بها أن الثورة - بصفتها تغييرا شاملا لكل الأوضاع التى كانت قائمة قبلها - لها الحق فى أن تتخطى القوانين القائمة أو تلغيها . . تضع مكانها تشريعات أو قوانين يصدرها مجلس الثورة لحماية الحركة كلها من الأخطار التى لابد أن تحيط بها بعد قيامها . وهذه القوانين والأوامر تعتبر شرعية ، وشرعيتها هنا لا تستند إلى قانونية ولا تصدر عن الطريق العادى لصدور القوانين وليس من الضرورى أن تعرض على مجلس الشعب لأن الثورة ، والمفروض أنها قامت بالشعب ولصالح الشعب ، تصبح هى الشعب ومجلس الشعب .

وبعد أن قضى جمال عبد الناصر على كل زملائه فى مجلس الثورة أصبح - اتباعا لهذا المنطق - هو الشعب ، وأوامره تصبح قوانين بمجرد إصداره إياها ، وليس من الضرورى أن تصدر مكتوبة أو موقعة . يكفى أن ينطق بها سيادته لتصبح قوانين واجبة النفاذ وأحيانا كانت حركة يد من السيد الرئيس تعتبر أمرا رسميا واجب النفاذ . فيقولون له مثلا : وماذا نعمل فى فلان ؟ فيشير بيده إشارة معناها : ارمه فى أى داهية ، ويرمونه فى أى داهية ، ويكون هذا أمرا رسميا داخلا ضمن ما سموه بالشرعية الثورية .

والذى يؤسف له أن رئيس الدولة وجد فى بعض رجال القانون من يؤيد هذا المنطق ، وبعضهم كتب كتبا فى الشرعية الثورية هذه . وكاتب العصر - وهو لسان عبد الناصر

المعبر ، وكانوا يسمونه « البرين - تراست » أى ملاك الرحمة الذى جادت به المقادير على هذا البلد - لإنقاذه هذا الكاتب كتب مقالات كثيرة دافع فيها عن هذه الجريمة وقال إن من حق رئيس الدولة أن يصدر من الأوامر ما يشاء إذا رأى أن صالح الثورة يستدعى ذالك .

ومن بين ملاحق هذا الكتاب صورة من قرار جمهورى أصدره الرئيس عبد الناصر استنادا إلى تلك الشرعية الثورية يأمر فيه بسجن المواطن صلاح وآخرين وهو شىء لم يسمع بمثله أبدا إذ أن الآخرين هؤلاء يمكن أن يكونوا أهل مصر جميعا ، لأن الذين تولوا تنفيذ هذا الأمر وطاروا به لينفذوه كانوا يستطيعون أن يجروا من يشاءون من قدميه ويلقوا به حيث شاءوا دون حسيب أو رقيب .

فهذا قرار جمهورى صادر من رئيس الدولة باسم الدستور وهو مشمول بالنفاذ .

إلى هذا الحد وصل الأمر فى الاستخفاف بالناس والحقوق والحريات .

وهذا ياسيدى دام طوال العصر الناصرى السعيد . بل هو بلغ ذروته بعد نكسة ١٩٦٧ واختفاء عبد الحكيم عامر وخلو الجو للرئيس وأعوانه فأصبح الكثيرون منهم يتصرفون فى أمور المواطنين دون رادع .

والبلد زال منه القانون وروح القانون والذى أصاب أموال الناس وأعراضهم وكراماتهم تحت ستار الشرعية الثورية لا يوصف ثم تجد إلى يومنا هذا ناسا يقولون إنهم ناصريون .

وبعضهم معذورون لأنهم كانوا صبية وأطفالا فى العصر الناصرى ولم يعرفوا هذا العصر السعيد إلا سماعا . والكتب المدرسية التى درسوها وامتحنوا فيها كانت تقول لهم إن عبد الناصر بطل الأبطال وحامى الحريات وهو الذى خلق مصر ، ومصر قبله لم يكن لها وجود . وعساهم الآن أن يكونوا قد عرفوا الحقيقة .

ثم يسألوننى : ماذا جرى للبلد والأخلاق !؟

هذا هو الذى جرى للبلد والأخلاق .

أما الحرية ، وهى أساس كل حضارة وتقدم فلم يكن لها فى هذا البلد منذ قيام الثورة إلى وفاة عبد الناصر وجود ! وإذن فهذه هى العلة ! .

إن البلد يخرج الآن من فترة مرض طويلة كان أولو الأمر يهدرون فيها بأيديهم وتصرفهم كل حق وكل قانون وكل علم وكل قيمة . . ولاشك فى أن الذى قام به السادات

فيما سمى بثورة التصحيح كان شيئا عظيما : ولكن السادات أوقف سير الداء دون أن يشرع فى العلاج ، وهو لم يتخلص قط من تراث العصر الناصرى ، لأنه - كما كان يقول - جزء منه ومشترك فى المسئولية عن كل شىء وقع فيه .

وما عرفناه بعد موت السادات كثير ، وما نشرته الصحف أثناء محاكمة قاتليه أكثر ، وما فسره الدكتور عبد العظيم رمضان فى مجلة أكتوبر عن الآلهة وتحطيمها أكثر وأكثر . .

ولا يمكن قط أن تقفل الدفاتر على ما فيها ويقال : عفا الله عما سلف ولنبدأ من جديد لأن معنى ذلك أننا ندع الفساد يستشرى فى الجسد ، ولهذا قال رسول الله ﷺ وإنه لاينحجر على ثار جرح ، فالجرح إذا لم ينظف ويطهر نفر وقتل . .

ومأساة السادات أنه أراد أن يقفل الجرح على القيح ، فكان هو أول ضحية للقيح . . وهذا الشعب موتور ، ولا ينبغى أن ينحجر جرحه على ما فيه ، ولهذا فسنمضى مع هذه الدراسة إلى غايتها ، وها نحن أولاء نرى أن السوبر باشوات كانوا يتكاثرون ، وشرهم يزداد يوما بعد يوم .



وقد وصلت جريمة الشرعية الثورية إلى ذروتها فى الاعتداء الساخر على القضاء والقضاه .

وقد قص الأستاذ صلاح منتصر قصة الاعتداء كاملة وهو - بمركزه الصحفى الكبير - يعرف من حقائق الأمور أكثر مما نعرف ، وقد قصها فى أحد مقالاته القيمة عن « الثورة وما بعدها » والمقال نشر فى جريدة الأهرام فى ١٩٨٣/٣/٢٠ وقد كنت أريد أن أجعله ملحقا من ملاحق هذا الكتاب ، لأنه تكملة لازمة للكلام عن « جريمة الشرعية الثورية » .

قال الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان « غزو القضاء » وهو هنا يذكر القارىء بما كان يفكر فيه أهل الدول القوية الناجحة وما كنا نحن نفكر فيه .

فى الوقت الذى كان اهتمام العالم فيه مركزا منذ بداية الستينات على ملاحقة السباق الكبير الذى بدأ بين الدولتين العظميين أمريكا وروسيا لغزو الفضاء كان من بين اهتمام السلطة فى مصر فى ذلك الوقت ترتيب عملية غزو القضاء !

وكان من بين الأحداث الشهيرة التى تحمل صدام الثورة مع القضاء حادث اعتداء على عالم فاضل من كبار علماء القانون هو المرحوم د . عبد الرزاق السنهورى الذى كان خلال

أزمة الصراع بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب فيما يعرف بأزمة مارس ١٩٥٤ قد اختار الوقوف إلى جانب الديمقراطية ضد الديكتاتورية ، ودعا الجمعية العمومية لمستشارى مجلس الدولة إلى اجتماع قررت فيه تأييد الديمقراطية والحياة النيابية ، ولكن حدث فى أثناء الاجتماع أن وصلت مظاهرة تضم بعض عمال مديرية التحرير وآخرين « وتصادف أن كانت الحراسة قد رفعت من حول مبنى المجلس فى ذلك اليوم » فقامت المظاهرة باقتحام المبنى وقاعة الاجتماع وضرب الدكتور السنهورى وزملائه وتمزيق القرار الذى اتخذوه ، بل أكثر من ذلك إرغامهم على توقيع بيان آخر يؤ يد مجلس الثورة .

وفيما بعد انتصار عبد الناصر على محمد نجيب تم إقصاء الدكتور السنهورى عن منصبه .

وقد كان تصرفا غير عادى مثل هذا الاعتداء بالضرب على رئيس مجلس الدولة ، وإن كان الذين دافعوا عن هذا التصرف قد عابوا على الدكتور السنهورى إقحام جهاز قضائى كبير مثل مجلس الدولة فى شبهةَ عمل سياسى اختار فيه الوقوف إلى جانب طرف من أطراف الصراع السياسى فى ذلك الوقت .

ولكن ما هى إلا سنوات قليلة حتى بدأت الثورة نفسها منذ الستينات محاولة جر القضاء كله إلى العمل السياسى من خلال الاتحاد الاشتراكى .

والاتحاد الاشتراكى هو أحد درجات السلم السياسى الذى حاولت الثورة إعطاء الحكم الفردى مظهر الديمقراطية من خلاله . ففى البداية كانت هناك هيئة التحرير (عندما كانت معركة الوطن هى تحريره من المحتل الإنجليزى) ثم تغيرت اللافتة إلى الاتحاد القومى ثم إلى الاتحاد الاشتراكى .

وكان مفهوما أن هذا الاتحاد الاشتراكى هو الإطار الوحيد الذى يمكن من خلاله ممارسة أى نشاط سياسى . ولكن عندما بدأ طرح فكرة ضم رجال القضاء إلى هذا الاتحاد قيل تبريرا لذلك إنة ليس تنظيما سياسيا وإنما هو إطار يضم تحالف قوى الشعب العاملة وأن رجال القضاء هم بعض أفراد هذا التحالف الذى لا يجب بقاؤ ه خارجه وهكذا فى مرحلة الشعارات يمكن أن يكون هناك الشىء ونقيضه .

وكانت أوضح مظاهر عملية غزو القضاء فى مصر سلسلة من تسع مقالات نشرت فى جريدة الجمهورية فى الفترة من ١٨ إلى ٢٦ مارس ١٩٦٧ بقلم على صبرى الأمين العام للاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت .

وفى هذه المقالات التى كانت تعكس تفكيراً رسميا من أكبر مسئول فى الاتحاد

الاشتراكى أوضح السيد على صبرى أن رجال العدالة لن يتمكنوا من القيام بدورهم الأساسى الهام فى المجتمع الاشتراكى إذا وقفوا بعيدين عن التنظيمات السياسية ، منعزلين عن العمل السياسى متباعدين عن نضال قوى الشعب العاملة (!)

وقال تأكيدا لرأيه إنه أصبح يعاب على رجال العدالة أنهم كونوا طبقة انفصلت على المجتمع وأصبحت أحكامها فى غير صالح المجتمع بل ولصالح المستغلين والمنحرفين الذين لم تصدر الأحكام ضدهم لعدم ثبوت الجريمة حيث إن التفتيش كان باطلا أو لعدم كفاية الأدلة للإدانة .

وواضح أنه لم يكن الهدف من جر رجال العدالة إلى الاتحاد الاشتراكى - وهو باعتراف أمينه العام يعد عملا سياسيا - إشراك هؤلاء الرجال فى بعض القضايا التى يناقشها هذا التنظيم السياسى وإنما أيضا إملاء الأحكام التى يجب أن تصدر ضد الذين يرى هذا التنظيم أنهم يعملون ضد مصالح المجتمع بصرف النظر عن القواعد والأدلة القانونية التى تتطلبها إدانة أى منهم .

هكذا جاء عام ١٩٦٧ والاستعدادات أصبحت واضحة لاستغلال أية فرصة لإطلاق صواريخ غزو القضاء وإسقاط حصن استقلاله الذى ظل محتمياً خلفه منذ انشائه ، لا ينطق إلا بما يمليه ضمير القاضى ، ونص القانون وروحه .

وكان هناك أكثر من صاروخ لتحقيق هذه الغزوة بدأت رءوسها تطل فى ذلك الوقت وشملت على وجه التحديد :

١ - إدخال القضاء إلى الاتحاد الاشتراكى وإرغامه على العمل السياسى بكل ما فيه من مناورات ومؤامرات .
٢ - فصل جهاز النيابة عن القضاء وضمه إلى رياسة الجمهورية .
٣ - إدخال ما يعرف بنظام القضاء الشعبى بما يسمح لغير القضاة المتخصصين بالجلوس فى مقاعد القضاء .

ولكن تعطلت الغزوة بسبب وقوع هزيمة ١٩٦٧ ، ثم حدوث التطورات التى كانت من نتيجتها ثورة الشباب فى الجامعات لأول مرة على الثورة وخروج مظاهراتهم تصرخ علنا بما كان الهمس قد بدأ به فى البيوت بعد أن طالت سنوات الصمت التى كان لا بد ان تنتهى إلى ما انتهت إليه فى ٥ يونيو ١٩٦٧ . .

ورغم أن الجامعات والمعاهد قد أغلقت جميعها بعد أربعة أيام فقط من بدء مظاهرات الطلبة ، فقد أحدثت ثورة الشباب آثارها العميقة فى قطاعات مختلفة من الشعب ،

فمجلس الأمة فى ذلك الوقت ملأت صدور بعض أعضائه كمية غير قليلة من هواء الحماس الساخن الذى أطلقه الشباب ، ومن ثم عقد المجلس جلسته الفريدة فى ٢٨ فبراير ١٩٦٨ وهى الجلسة التى لم يسبق أن عقد مثلها لا قبل ولا بعد هذا التاريخ . .

وفى محاولة من جمال عبد الناصر لامتصاص الانفعالات قام بتشكيل وزارة جديدة أخذت إسم « وزارة المثقفين » لأنه تم الاستعانة فيها لأول مرة بعدد كبير من مديرى وأساتذة الجامعات وهو اتجاه لم تكن الثورة تعرفه من قبل بسبب اعتمادها على « أهل الثقة » من غير الخبراء والمتخصصين . .

وغير ذلك أعلن عبد الناصر أنه يعد لتغيير كبير من خلال برنامج سوف يطرحه على الشعب فى بيان يلقيه يوم ٣٠ مارس . .

وفى هذا الجو المشحون ببخار الشباب الذى أفلت من الصدور وراح يلفح الكبار ويثير - ربما لأول مرة - تفكيرهم فيما وصلت إليه مصر ، اجتمع مجلس إدارة نادى القضاة يوم ٢٥ مارس لمناقشة ترتيبات الاجتماع السنوى للجمعية العمومية للنادى والتى كان قد حدد موعدا لاجتماعها يوم ٢٨ مارس . .

وإلى جانب الموضوعات العادية المألوفة قرر مجلس إدارة النادى أن يلقى رئيسه فى الجمعية العمومية بيانا يعلن موقف القضاة من قضيتين أساسيتين :

الأولى عامة ، وهى قضية الهزيمة العسكرية وضرورة تعبئة كل جهود الجبهة الداخلية لمعركة تسترد فيها مصر بالقوة ما أخذ منها بالقوة . .

والثانية قضية خاصة ، وتتضمن الموضوعات المختلفة التى كانت قد أثيرت حول القضاة والتى كان يرى المجلس أنها تهدد استقلاله . . وفى ذلك وضع المجلس بيانا يتضمن النقط الأساسية التالية :

فى مواجهة محاولة إدخال القضاء إلى الاتحاد الاشتراكى أعلن البيان البعد بالقضاة عن كافة التنظيمات السياسية حتى يتأكد لهم النقاء والتجرد والحيدة . .

وفى مواجهة فصل النيابة العامة عن القضاء طلب بيان النادى أن تبقى النيابة كما كانت منذ عرفت مصر التنظيم القضائى جزءا لا يتجزأ من السلطة القضائية ، يسرى على رجالها ما يسرى على رجال القضاء من ضمانات ويتوفر لهم ما لهؤلاء من حصانات . .

وفى مواجهة فكرة القضاء الشعبى أكد البيان ضرورة تخصص وتفرغ القضاة بل أكد أن ما حدث فى بعض الأحيان من تجربة منح سلطة الحكم إلى غير القضاة المتخصصين

المتفرغين قد أثبتت فشلها فى القديم والحديث . .

وقد انتهى اجتماع مجلس إدارة النادى بإقرار البيان الذى سيلقيه رئيس النادى المستشار ممتاز نصار يوم ٢٨ مارس فى الجمعية العمومية للنادى ، ومن بين الـ ١٥ عضوا الذين يضمهم مجلس إدارة النادى وقع ١٣ على البيان وتهرب اثنان من التوقيع وأحدهما أصبح وزيرا فيما بعد فى أيام الرئيس السادات . .

وعن طريق أحد الأعضاء الذين وقعوا على البيان تم إبلاغ « السلطات العليا » بمحتوى البيان ، وقد حاول شعراوى جمعة وزير الداخلية فى ذلك الوقت مع المستشار ممتاز نصار تارة بالإغراء وتارة بغيره أن يثنيه عن إلقاء هذا البيان أو حتى تأجيله إلى ما بعد ٣٠ مارس بعد أن يلقى عبد الناصر بيانه ، ولكن ممتاز نصار لم يستجب للإغراء ، ولم يخضع لغيره . .

وفى جلسة عاصفة عقدتها الجمعية العمومية فى موعدها المحدد يوم ٢٨ مارس ألقى ممتاز نصار بيانه ، وكانت المفاجأة الأكبر أن مجموعة صغيرة جدا من الأعضاء كانت قد رتبت سرا طبعه فى مطبعة شركة النصر للتصدير والاستيراد التى لم تفطن إلى محتوى البيان لأنه تم تغليفه داخل غلاف يحمل عنوان مجلة نادى القضاة التى كانت المطبعة تتولى طبعها . .

وقد رفضت الصحف « عملا بحرية عدم النشر » التى كانت سائدة فى ذلك الوقت نشر شىء عن البيان ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت صحيفة معارضة أو حتى تحمل شبه المعارضة تقوم بنشر ما لاتنشره الصحف القومية . . ولكن لأنه تم إيداع البيان فى صالة النادى ، حصل الكثيرون من غير القضاة من المحامين وأساتذة الجامعات وغيرهم على هذا البيان الذى ثارت القيادة السياسية لصدوره .

وبدأت المعركة التى كانت تجرى سرا لغزو القضاة تأخذ صورة العلانية وخصوصا مع اختيار المرحوم المستشار محمد أبو نصير وزيرا للعدل ، وكانت له سابقة سنة ١٩٥٥ عندما أعد قانونا خاصا بتصفية مجلس الدولة من الذين لم تكن الثورة راضية عن تصرفاتهم وعن مواقفهم مع المرحوم السنهورى . .

ولكن إلى جانب وزير العدل الذى راح يدير المعركة علنا عن طريق حركات الترقيات والتنقلات والندب . كانت هناك عمليات سرية - لم تكشف إلا فيما بعد فى قضية مراكز القوى عام ١٩٧١ - فلقد تبين من وقائع المحاكمات التى جرت أنه كان للتنظيم الطليعى السرى التابع للاتحاد الاشتراكى فرع داخل القضاة !

وكان هذا التنظيم السرى معروفا كجهاز أعلن عبد الناصر عن إنشائه منذ عام ١٩٦٢ إلا أنه كان مجهولا كأفراد . . ولكن الذى لم يكن معروفا أن القضاء الذى كان بعيدا عن السياسة قد أمكن التسلل إلى صفوفه وغزو جبهته وتجنيد قلة من أفراده فى هذا التنظيم ، وأنه كانت هناك أكثر من مجموعة تعمل فى صورة منفصلة يقود كلا منها أحد البارزين من المسئولين فى ذلك الوقت . .

ولم تكن المأساة فى قبول الذين يحملون وسام العدل مهمة التجسس على زملائهم وكتابة تقارير وافية عن تحركاتهم وأنشطتهم ، وإنما كانت المأساة الأكبر فيما تضمنه بعض هذه التقارير التى كانت ترفع لقمة القيادة السياسية فى ذلك الوقت بما يعكس إلى أى حد كانت مختلف الأطراف تفكر وتقرر . .

ومن مئات التقارير التى تم ضبطها - بعد مايو ٧١ - وعندى بعض صورها انقل رسالة كتبها مستشار (حوكم تأديبيا وترك القضاء) . .

كان يعد من أبرز الشخصيات العاملة فى مجموعة سامى شرف سكرتير رئيس الجمهورية لشئون المعلومات فى ذلك الوقت . .

تقول الرسالة وبالحرف :

أخى المناضل السيد سامى شرف ، يسعدنى أن أنقل لسيادتكم هذه الواقعة وهى صورة حية لحب الناس لسيادة الرئيس وإيمانهم برسالته ، رسالة الكفاية والعدل . توجهت أمس السبت مع زميل . . . وكيل النيابة لصلاة العصر فى مسجد السيدة نفيسة ، وبعد الصلاة وأثناء زيارة الضريح سمعنى زميلى - وكان يقف بجوارى - وأنا أدعو لسيادة الرئيس ، فشاركنى الدعاء ، وقال لى إنه يعرف سيدة من أولياء الله الصالحين تقيم بجوار المسجد مباشرة وهى الشيخة نظيرة ، وأنها مبروكة ، وأشار على بزيارتها وأن نطلب منها الدعاء لسيادة الرئيس ، فذهبت معه . فاستقبلتنا بالترحاب وهى سيدة تجاوزت الستين من عمرها . وبعد أن تحدثت معها بعض الوقت طلبت منها الدعاء لسيادة الرئيس وانطلقت تقول « أنا دعياله . . وقلبى دعيله . . دا ملاك . . ده ابنى . . هو جالى وأنا باشوفه فى الباطن وربنا شفاه وربنا راضى عنه . ثم تحدثت عن محمد نجيب وكيف أنها اكتشفت أنه - فى بداية الثورة - اتصل بالأغنياء والباشوات فاستاءت منه وأبلغت الأولياء وفى الصباح سمعت بخروجه

وبعد فترة وجيزة قالت لى أنها زعلانة من زميلى الذى كان معى لأنه « كداب » فقد وعدها بأن يأخذها فى سيارته لزيارة سيدى إبراهيم الدسوقى ولكنه أخلف وعده معها ،

فاعتذر لها زميلى بأن سيارته تعطلت ومازالت فى التصليح ، فقالت إنها لا تريد منه شيئا ثم ودعناها وانصرفنا ، وقد لمست فى حديثها معى أنها حقا من أولياء الله الصالحين وأنها تحب سيادة الرئيس وتؤمن برسالته ، وقد كنت أتمنى أن أحقق للشيخة نظيرة رغبتها فى زيارة سيدى إبراهيم الدسوقى لتدعو الله فى مسجده لسيادة الرئيس ولكن إمكانياتى لا تسمح لى بذلك . . لعدم وجود سيارة عندى ، ومن هنا فإننى أعرض هذه الرغبة راجيا أن تتفضلوا بتحقيق رغبة الشيخة نظيرة وأن تعرف أن سيادة الرئيس هو الذى حققها لها وأن يطلب منها مرافقها الدعاء لسيادته فى مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى ومعذرة أن تقدمت بهذا الرجاء ودمتم يا أخى العزيز سندا لنضالنا ١٩٦٩/١١/٢٣ . وامضاء : المخلص . .

ولأنه على ما يبدو أن مثل هذه الرسائل كانت لها طابع السرعة والعجلة فى العرض فإنه فى اليوم التالى مباشرة - يوم ١١/٢٤ - أشر الرئيس على الخطاب بقوله ممكن يصرف لها تذكرة سكة حديد أو ثمن التذكرة ذهابا وإيابا ما رأيك . .

وفى يوم ١١/٢٥ - كتب السيد سامى شرف فى ذيل الرسالة : أفاد السيد . . (صاحب الرسالة) بأن السيدة المذكورة مصابة بشلل فى يدها اليمنى وتمشى بصعوبة جدا ويفضل تيسير سيارة ومعها مرافق لتوصيلها لمسجد سيدى إبراهيم الدسوقى وإعادتها بعد أن تقضى حاجتها هناك . .

ولكن رئيس الجمهورية حسم هذه القضية بتأشيرة كتبها بتاريخ نفس اليوم الذى عرضت فيه عليه هذه الملاحظة إذ كتب يقول : سيارة نأسف .

ولم تكن هذه إلا واحدة من مئات الرسائل والتقارير التى كانت تعرض على وجه السرعة والعجلة وتتخذ فيها القرارات ، ويكتبها بعض الذين حملوا وسام العدل ، وأقسموا يمين الولاء للقانون .

ثم عودة إلى معركة غزو القضاء التى كان أكبر فصولها إثارة قد بدأ مع موعد انتخابات نادى القضاة فى مارس ١٩٦٩ ، وكان المرحوم أبو نصير وزير العدل قد حشد لها كل ما يستطيع لانجاح مجموعة أطلق عليها « مرشحو السلطة » وهى مجموعة كانت تضم عددا من كبار الأسماء فى ذلك الوقت . . وعندما تم فرز الأصوات جاءت النتيجة بنجاح ٥ مستشارين هم : ممتاز نصار والمرحوم شبل عبد المقصود وعبد الوهاب أبو سريع والمرحوم عبد العليم الدهشان ومفتاح السعدى ، وخمسة من رؤساء المحاكم والقضاة هم يحيى الرفاعى وسليم عبد الله سليم وجمال خفاجى ومحمود بهى الدين عبد الله ، وحسن غلاب ، وخمسة من أعضاء النيابة هم المرحوم كمال زعزوع ومقبل شاكر وأحمد فؤاد عامر ومصطفى قرطام وحسن عابد . .

ولم يكن من بين هؤلاء الـ ١٥ الذين نجحوا اسم واحد ينتمى إلى « مرشحى السلطة » . .

وكان لابد من إنهاء الغزو وبعمل حاسم تحددت له ساعة الصفر يوم ٣١ أغسطس ٦٩ وهو موعد الحركة القضائية ، ولكى يكون مجلس الشعب فى إجازة . .

وكان المرحوم أبو نصير بالاشتراك مع عدد من المخططين القانونيين قد أعدوا خطة الغزو فى ثوبها القانونى ، ولكن وبعد ان استكمل أبو نصير كل تفاصيلها ولم يبق إلا لحظة التوقيع صدر قرار بإقالته من الوزارة وتعيين وزير جديد وضع اسمه على القرارات التى كان مفروضا أن يتوجها أبو نصير بتوقيعه ، ولكن التفكير ذهب فى ذلك الوقت إلى اختيار شخصية جديدة تصدر القوانين فى ظلها بما يعكس إخراج العملية فى صورة بعيدة عن الشكوك التى كانت تحيط بأبى نصير . .

وهكذا فى ٣١ أغسطس ١٩٦٩ صدرت خمسة قرارات بقوانين تحمل الأرقام من ٨١ إلى ٨٥ وتشمل :

١ - إنشاء محكمة عليا وهى التى تطورت فيها بعد إلى المحكمة الدستورية العليا .
٢ - إنشاء المجلس الأعلى للهيئات القضائية ، ولكن ، بعد أن أضيفت إليه النيابة الأدارية وأدارة قضايا الحكومة ولم يكونا فى القانون القديم معتبرين من السلطة القضائية على أساس وجهة النظر التى تقول بأنهما يمثلان الحكومة بعكس القاضى أو عضو النيابة . .
٣ - إعادة تشكيل الهيئات القضائية بحيث من لا يجد اسمه ضمن هذا التشكيل يعرف أنه إما أحيل إلى المعاش أو نقل إلى جهة أخرى . .

وكان من بين الذين انطبق عليهم ذلك الاستبعاد أكثر من ٢٠٠ إسم أولهم كل أعضاء مجلس إدارة نادى القضاة والذين أشارت تقارير أعضاء التنظيم الطليعى إلى أن لهم نشاطا وطنيا ، وأكثر من نصف محكمة النقض وبعض الذين اشتركوا فى إصدار أحكام لم ترض السلطات العليا وكذلك الذين أصدروا أحكاما بالبراءة فى قضايا سبق وأن تحدث رئيس الدولة فى خطبه عن المتهمين فيها وأدانهم أمام الشعب ولكن القضاء حكم ببراءتهم . واشهر هذه القضايا قضية السفير أمين سوكة الذى اتهم بالتجسس وحكم ببراءته فى مارس ١٩٦٩ أمام دائرة يرأسها المستشار سعيد كامل بشارة ، ومحمود عبد اللطيف فى وزارة الأوقاف وقد اتهم بتدبير محاولة انقلاب لنظام الحكم . . وحكم المستشار فؤاد رشيد ببراءته فى ابريل ١٩٦٩ ، والدكتور السمنى الذى كان من بين اعضاء المحكمة التى برأته عام

١٩٦٢ المستشار جمال المرصفاوى وكان قد سافر للعمل فى الكويت ورغم ذلك تضمنته قرارات العزل . .

٤ - حل نادى القضاة وتشكيل لجنة جديدة لادارته . .

٥ - إعطاء رئيس الجمهورية سلطة النقل والتعيين بقرار جمهورى . .

واستكمالا لمعركة غزو القضاء لابد من الإشارة إلى طعن واحد قدمه أحد الذين مستهم قرارات الإبعاد وقد كان الوحيد الذى تمسك بحقه فى الطعن فى خلال الثلاثين يوما التى حددها القانون للطعن فى القرارات بقوانين التى صدرت ، ورغم كل المحاولات التى جرت لسد الطريق عليه حتى لا يتمكن من كتابة الطعن على الآلة الكاتبة ومطاردة كل مكتب يقوم بتسليمه هذه الاوراق لكتابتها حتى يضيع عليه موعد الطعن فلقد استطاع يحيى الرفاعى سكرتير نادى القضاة فى ذلك الوقت والذى أبعد من العمل القضائى أن يصل بطعنه إلى محكمة النقض فى اليوم الأخير وقد طالب فى طعنه بإلغاء كل القرارات التى أصدرها رئيس الجمهورية على اعتبار أنها مشوبة بعيب اغتصاب السلطة التى يجعلها تنحدر إلى مرتبة الانعدام . لأن الأصل أنه إذا كان جائزا للحكومة فى غير دورات مجلس الشعب أن تصدر قرارات بقوانين لها صفة العجلة عند الضرورة ، فإن هذه القرارات بقوانين لا يجوز أن تعيد تنظيم السلطة التشريعية أو السلطة القضائية وإلا انفردت السلطة التنفيذية بحق السلطتين الأخريين ، وإن مثل هذه القوانين التى تتعلق بنظام فصل السلطات لا تحمل أية عجلة وإنما يجب صدورها فى شكل قوانين عن طريق السلطة التشريعية . .

وقد قبلت محكمة النقض الطعن وقضت بانعدام القرارات الصادرة وإعادة صاحب الدعوى إلى عمله وكان ذلك فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٢ . واستفاد بهذا الحكم جميع الذين عزلوا ولم يعودوا إلى مناصبهم حتى ذلك التاريخ . .

وفى الوقت نفسه وفى فترة حكم أنور السادات ألغيت القرارات التى صدرت فيما عدا القرار الثانى الخاص بإعادة تشكيل الهيئات القضائية . .

* * *

انتهى كلام الأستاذ صلاح منتصر . .

صدرت هذه القرارات فى ٣١ أغسطس ١٩٦٨ . .

وفى آخر مارس ١٩٦٨ كان قد صدر بيان ٣٠ مارس الذى قيل فيه إنه يفتح لمصر عصرا من الحرية والبناء والسعادة والرخاء وقد أشرت إلى مأساة هذا البيان . .

ثم يتساءلون عما جرى للناس . . فهذا أيها الاعزة هو ما جرى للناس . .

والذى جرى لهم وأفقدهم الإحساس بوطنهم وواجبهم نحوه هو هذا الحكم الغاشم الذى أحل لنفسه كل شيء وأهدر حرية القضاء وتسلط على القضاة . .

ونتيجة لهذا كله أصبح الناس يشعرون أنهم يعيشون بدون قانون يحميهم أصبح المصريون يعيشون فى وطنهم خائفين من حكومتهم . . وأصبح هم الواحد منهم أن ينفى عن نفسه تهمة الوطنية ، فإن الوطنية وحب الوطن والإخلاص له كانت خلال تلك الحقبة كلها جرائم يعاقب عليها صاحب السلطان ورجاله . .

وباسم جريمة كبيرة تسمى الشرعية الثورية ارتكبت جنايات أخرى كثيرة جدا أكبرها مطاردة شعور الوطنية والولاء والإخلاص للحق والواجب والوطن . .

* * *

وهذا كلام أقوله لإخوانى المصريين جميعا وأقوله - بصفة خاصة - للذين استمرءوا الحكم فى ظل جريمة الشرعية الثورية . .

فقد كانوا هم أنفسهم يعيشون فى خوف فى ظل عبد الناصر ، والواحد منهم كان فؤاده يرجف ليل نهار ، خوفا على المركز والنفوذ والروح أيضاً . .

وبلغ من خوفهم أنهم كانوا يلجئون إلى العرافات وقارئات الكف ليستكشفوا الغيب ويسبقوا المحظور . .

ورجال كانت بأيديهم مصائر الألوف كانوا يجلسون صغارا تافهين أمام قارئة الكف أو كاشفة مندل تبيعهم أمان النفس بقروش . .

وهم معذورون

فإن الخوف إذا استشرى شمل الجميع . .

والأمن إذا استقر شمل الجميع . .

ولا شك أنهم اليوم يحمدون الله على عودة حكم القانون والأمن على النفس والمال .

وعسى أن يذكر ذلك كل من تحدثه نفسه بالاستبداد ، وإهدار حريات الآخرين . . لأنه هو نفسه سيكون - مهما بلغ - ضحية الاستبداد وإهدار الحريات والدماء . .

٧ السـلطان ومماليك السـلطان



عبد الحكيم عامر

أما السلطان فلا شك فى أنه كان رجلا عظيماً وصانع تاريخ ، خرج من بنى مر مركز أسيوط من قرى الصعيد الأوسط وتزعم الثورة المصرية ، وواجه الاستعمار الغربى ببسالة نادرة .

وضرب بسيف البطل بين عينى الطغاة عندما أمم قناة السويس . فأفاق العرب وانفتحت أبواب الحرية للعالم الثالث ، وأوروبا لم تغفر لهذا البطل المصرى جرأته فقررت القضاء عليه . وكان عليه أن يخوض معارك بلا نهاية ، وفى أثناء ذلك انطلق مماليك السلطان - السوبر باشوات - يفترسون مصر وكرامات أهلها وحرمة الوطن ، داسوا بأرجلهم كل القوانين ، ووسعوا هوة الخلاف بين السلطان جمال عبد الناصر والسلطان المساعد عبد الحكيم عامر ، وقامت الحرب الأهلية بين الاثنين ، وانتهزوا الفرصة وانتهبوا كل شىء ، وصاح السلطان دفاعاً عن نفسه : لقد أعطيت القانون أجازة ! وفى أجازة القانون بلغت غارة النهب والعدوان على الحريات والكرامات ما لم تعرفه مصر فى تاريخها أبداً ، كل ذلك لكى يلتهم خشداشية السلطان كل ثروات مصر ، وصاح كاتب العصر :

أنا الصحافة والصحافة أنا ! « أنا الفكر وحرية الفكر ! ولا فكر إلا ما يقول السلطان . . لا مثقفين بعد اليوم ! لا ثقافة ولا علم ولا قانون ولا قضاء » وادعوا لمولانا السلطان بالعز والدوام وفى النهاية استدار مماليك السلطان وقضوا على السلطان نفسه ، وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ مات السلطان البطل واقفاً كما تموت الأشجار . .مات محسوراً مهزوماً وخلا الجو للمماليك والخشداشية وبلغت موجة الظلم والإذلال والنهب مداها » . .

السلطان ومماليك السلطان .

لكى نفهم حقائق ما حدث خلال السنوات الأولى للثورة بعد أن أصبحت ملكا خاصاً لجمال عبد الناصر وأعوانه لا بد أن أعود قليلا إلى الوراء لأننى أريد أن نكون على بينة من أمرنا فيما نروى من الأحداث . . والماضى يشرح الحاضر ويفسره . . والذى يحدث هنا أن الإنسان يشعر أحياناً بألم ما فى جسمه . . وعندما يذهب إلى الطبيب يتبين له أن العلة بدأت من سنوات فيعود مع مريضه إلى الوراء لكى يعرف العلة من البداية حتى يستطيع أن يسير فى العلاج على بينة من أمره . .

كان توقيع مصطفى النحاس على وثائق معاهدة ١٩٣٦ توقيعاً على شهادة وفاة حزب الوفد . . لأن «وفد» سعد زغلول حصل على توكيل من شعب مصر للدفاع عن حقوقه وتحقيق الاستقلال وإجلاء البريطانيين عن مصر . . وعندما قال مصطفى النحاس إن تلك المعاهدة تعنى الاستقلال فقد انتهت بذلك وكالة المحامى . . وكان ينبغى أن يتوارى . .

ولكنه ظل فى الميدان دون وظيفة . . والذى فعلته ثورة يوليو ١٩٥٢ هو أنها دفنت الحزب الذى رفض أن يتوارى بعد انتهاء دوره التاريخى . .

ولا بد أن نلاحظ هنا اننا بسبب قلة تجاربنا فى عالم السياسة لا نكاد نفهم فى حقائقها شيئا . . ونظام الأحزاب بالذات نظام جديد علينا . . ولهذا نحن لا نفهمه . . ونتصور أحياناً أن الحزب هيئة أو جماعة من الناس وظيفتهم الرئيسية هى الصراع للاستيلاء على السلطان والبقاء فيه أطول مدة ممكنة والفوز منه بأكبر غنيمة . . وهذا هو التفسير المملوكى القديم للأحزاب . فإن المماليك كانوا أحزاباً وظيفتها الأساسية هى الاستيلاء على السلطان والاستيلاء على السلطان لا يعرف الأخلاق ، فهو صراع حياة أو موت . والسياسة عند أسلافنا من منتصف العمر الراشدى إلى بداية القرن التاسع عشر كانت مذابح . . وحكم كل خليفة أو أمير أو سلطان كان يبدأ بمذبحة وينتهى بمذبحة . . ولا وجود لأى فكرة قومية أو وطنية فى هذه المذابح .

وعندما دخلنا فى العصر الحديث وعرفنا أشياء جديدة جدا علينا مثل الدستور والبرلمان أخذنا نطبقها على نفس طريقة المذابح . . حتى الدستور كنا نذبحه إذا لم يعجبنا ونكتب دستوراً آخر مكانه . . وفى عصر الاحتلال الإنجليزى كنا نمارس الصراع الحزبى على طريقة المذابح . . ولكن بدون إراقة دماء . . وفى أول وزارة ائتلافية تكونت بعد وفاة سعد زغلول أراد محمد محمود أن يكون رئيس وزارة ، واستعان فى ذلك بالملك واللورد جورج لويد السفير البريطانى فتعلل بحكاية إدارة أملاك الأمير سيف الدين ، وأراد أن يذبح بها مصطفى النحاس . . واستقال من الوزارة وتبعه فى ذلك أنصاره وسقطت الوزارة وتولى محمد محمود رياسة الوزارة ، وقال إنه سيطهر البلاد من الفساد وسيحكم لذلك بيد من حديد . . وألغى الدستور . . وهذا مثال من أمثلة ممارسة الحكم عن طريق المذابح الحديثة .

وعندما قامت الثورة قلنا إن ذلك كله انتهى وإننا دخلنا فى عصر الحرية وسيادة الشعب وانتهينا من حكاية الأحزاب ومذابح الأحزاب . . وكان فى البلد قبل الثورة حزبان اثنان جديران بهذا الوصف هما الوفد والأحرار الدستوريون أو حزب اللاوفديين . . وقد مات هذا الحزب موتاً طبيعياً بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ . وكان ينبغى أن يعرف حزب الوفد أنه هو الآخر مات . . ولكنه رفض أن يدفن . لأن فكرة أن الحزب تكوين سياسى يقوم على مبادىء وأفكار واتجاهات وسياسات محددة لم تكن معروفة عندنا . . أما المعروف فهو أن الأحزاب أشخاص فالنحاس باشا هو الوفد . . كل من خرج على شخص النحاس يفقد صفة الوفدية وإن كان من رجال ثورة سنة ١٩١٩ . . ولهذا السبب ظن النحاس باشا أنه

مادام هو موجوداً فإن الوفد موجود مع أن الوفد بصفته جماعة تأسست حول فكرة المطالبة بالحرية والاستقلال كان قد انتهى بالفعل بعد توقيعه معاهدة ١٩٣٦ التى جاءتنا كما قال النحاس نفسه بالاستقلال . .

ولا ينبغى أن يفوتنى أن أذكر أن تلك المعاهدة كانت فى نفس الوقت نهاية لأحزاب عصر الملكية والباشوات جميعاً . . وفيما بين ١٩٣٦ ، ١٩٥٢ ظلوا جميعاً فى الميدان بلا عمل أو وظيفة . . كانوا يتبادلون الحكم فيما بينهم بطريقة ليس فيها من الجدية شىء . . والنتيجة أنهم تدهوروا كلهم . . وهذا هو السبب فى الخلل المخيف الذى ساد العمل السياسى خلال تلك الفترة : الأحزاب بلا برامج . . زعماء بلا زعامة . . ووزراء بلا هيبة . .

ونياشين من صفيح على صدور خاوية كأنها الطبول . . وملك بلا جلالة . . وديوان ملكى تحول إلى وكر مؤامرات سياسية حينا وإلى مكتب سماسرة وزارات حينا آخر . . ونواب بلا انتخابات . . وقبة بلا برلمان . . وزفاف بلا عريس . . وموسيقى بلا فرح ووزارات تتألف لتنحل . . ورؤساء وزارات استهلكوا لطول مادخلوا وخرجوا . . وواحد منهم هو أحمد نجيب الهلالى باشا لقيته أول يوم لتوليه وزارته الثانية فخيل إلى أننى أنظر إلى رأس ديك رومى كله غضون وعروق زرقاء وحمراء وخيل إلى أنه يتنفس بصعوبة . . وملكنى العجب . لأن هذا الجسد البالى الذى أراه غائر العينين أمامى . . تكلم بالأمس فى الإذاعة وقال إنه سيصلح أمر مصر ويحكمها بيد من حديد . . والمسكين لم يطل عمره فى رياسة الوزارة يومين . . فقد تولى يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ وفى الليل بدأت الثورة وكان التحول العظيم . . وانتهى فى ليل اليوم التالى العصر الطويل الثقيل الذى كان هو آخر رجاله . .

ونجيب الهلالى ووجهه المعروق وتنفسه الذى يشبه الحشرجة ويده الحديدية التى كانت ترتعش بفنجان القهوة . . اختفى من عصره كله فى ليل التاريخ . .

ولا يفوتنى هنا أن أقول : إن معاهدة ١٩٣٦ رغم كل ما قيل عنها كانت خطوة لا بد منها لقيام الثورة . . فقد انتقل الانجليز بمقتضاها من معسكراتهم فى قصر النيل وباب الحديد والقلعة فى القاهرة ومعسكرات مصطفى باشا فى الأسكندرية . . إلى منطقة القناة . . وانطلقت أيدى المصريين بعض الشىء لبناء جيشهم الجديد . . وفى منطقة القناة بدأت مقدمات الثورة . . على أيدى شباب الضباط الأحرار . . واكتمل تكوينهم النفسى أثناء حرب فلسطين . . وفكرة الثورة كلها اكتملت فى ذهن جمال عبد الناصر وهو محاصر فى الفالوجة ولم يكن من الممكن أن يتم التنفيذ على النحو الذى تم به ليلة ٢٣ يوليو لو كان الانجليز فى معسكراتهم فى قصر النيل وباب الحديد وقلعة القاهرة وهذا كله لا يتعارض مع ما قلناه من أن التنفيذ لم يتم على يد عبد الناصر وحده . . بل سبقه إلى التنفيذ والمواجهة

وتحمل الصدمة آخرون . . وهؤلاء الآخرون عوقبوا على ذلك بالإبعاد والاختفاء من مسرح الحوادث بطرق هى أشبه بالرمز على ظاهرة العدوان التى سادت العصر كله بعد ذلك . .

وتمت الثورة على النحو الذى نعرفه جميعاً . . وأيدها الشعب الذى طالما انتظرها بكل ما فيه من قوة . . ورغم كل الخلافات التى وقعت بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر وجماعته . . وبين رجال الثورة بعضهم وبعض . . وهى خلافات ظهرت فى النهاية فى صورة صدع طولى بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . واستمر يتسع مع الزمن حتى أتى على الاثنين معا . رغم ذلك كله وتحت ضغط الشعب وتأييد شعوب العرب جميعاً دخلت الثورة كلها فى غمار حركة سياسية إصلاحية واسعة النطاق . . ولم يكن رجال الثورة قد استعدوا لهذه الحركة قبل قيامهم بأحداث ٢٣ - ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . . فكانت معظم المشروعات تبدأ وعليها طابع الارتجال . . وتستمر ارتجالية بعد ذلك ويتجلى هذا فى أعمال مكتب الحراسات والأموال المصادرة . . وقد رأينا كيف أن الأمور كانت تجرى هناك جزافاً بلا نظام أو قاعدة أو قانون أو قواعد ، والمسألة هنا لم تقتصر على جواهر أسرة محمد على التى طال الكلام عنها . .

فقد كانت هناك إلى جانب ذلك قصور وذخائر ورياش ونفائس أخرى كثيرة جدا تم التصرف فيها على أسوأ صورة يمكن تصورها من الهرج والفوضى ، واللجان التى كانت تحصل على أوامر الجرد والمصادرة وتنطلق بها . . كانت تجد نفسها فى القصور أمام عائلات ملكها الذعر . . ومال كثير سائب ، والمال السائب يعلم السرقة . . ومادامت لجنة الجرد هى المرجع الأول والأخير فإن الدفاتر تحت يدها . . وهى تثبت فيها ما تريد وتهمل ما لا تريد . . وما لا تريد هذا كان كثيرا جدا . . ولا رقيب ولا حسيب . . وإذا كانت السيارة الرسمية الصغيرة التى حملت اللجنة إلى القصر المصادر لا تتسع إلا القليل . . فإن هناك سيارات وشاحنات أخرى كثيرة تجىء فى الليل وتحمل الكثير . والمال السائب لا يعلم السرقة فحسب بل يربى اللصوص . .

وقد حكى لى رجل ممن شغل فى ذلك العهد مركزا ضخماً يسمح له برؤية كل شىء . . كيف كانت اللوريات تعبأ مرة بعد أخرى بكل ما غلا ثمنه وتطوف بالبيوت توزع ما فيها إلى الفجر . . وقد شمل التوزيع الجميع كباراً وصغاراً . وكلهم قبلوا ما جاءتهم به السيارات وأجازوه . . ولهذا لم يمكنهم بعد ذلك الاعتراض على شىء . . وزوار الفجر الذين كانوا يطرقون أبواب الناس حاملين الموت والسجن وخراب البيوت لبعض الناس كانوا يطرقون أبواب آخرين حاملين السجاجيد والنجف وأطقم السيفر والفضيات والجواهر والأموال . . وكل شىء يتم فى صمت .

وفى ذات يوم من أيام يونيو ١٩٦٣ رأيت فى دار السفارة - حيث كنت أعمل - امرأة تطلب مقابلة السفير . . والسفير يرفض ويأمر بإخراجها من دار السفارة . . فاخرجوها . . ودخلت بعد ذلك ولقيت السفير لبعض شئون عملى وسألنى إن كنت رأيت هذه المرأة . . فأجبت بأننى رأيتها . . فكان تعليقه : لقد أمرت بعدم إدخالها السفارة . . لأنها « حرامية بنت كلب » وسكت . . كأن هذا كان شرحاً واضحاً مفصلا ومقبولا . .

وبعد ذلك بشهرين ونصف دخلت مقهى مشهوراً فى مدريد يسمى مقهى خيخون فوجدت هذه السيدة جالسة مع صاحبة لها فنهضت إلى ودعتنى إلى الجلوس وحكت لى حكايات كثيرة عما سرق منها وما نهب منها ومن بيتها قبل أن تخرج من مصر فأصغيت إليها مليا ثم قلت : إننى أرى من جواز سفرك يا سيدتى أنك يهودية مصرية . . وأرى فى الجواز خاتم يقول : ممنوع من مغادرة البلاد لحين صدور أوامر أخرى . . فهل صدر أمر برفع هذا المنع ؟ . .

وتنظر إلى المرأة وتقول :

- لا لم يصدر . . وانظر فى الجواز كيف شئت . . فلن تجد خاتم مغادرة البلاد . .

- إذن فكيف خرجت ؟

فكشفت عن ذراعها وأشارت إلى رسغها ثم إلى مرفقها وقالت :

- كان هذا كله من هنا إلى هنا مصوغات وجواهر . .

فهززت رأسى . . وفهمت . . ونهضت بعد قليل لأننى لم أحب أن أسمع التفاصيل التى كانت تريد أن تقصها على وأيامها كان خيرا للمواطن ألا يعرف شيئا مما يجرى فى بلاده . . وهناك ناس كثيرون نالهم أذى شديد لأنهم كانوا يعرفون أشياء كثيرة . . والعصر كان عصراً يستحب فيه الجهل . . وصدق من قال « ومن العلم ما قتل » . . ولكنى فهمت لماذا قال السفير أن تلك المرأة « حرامية بنت كلب » . . لأن هذا السفير كان نفس الرجل الذى ذكرت أنه شغل فى وقت من الأوقات مركزاً خطيراً يسمح له بأن يعرف الكثير . . وهذه « الحرامية بنت الكلب » كانوا قد أخذوا منها أشياء كثيرة ووعدوها بأن يردوا لها بعضها بعد أن يدبروا لها أمر الخروج من مصر . . وها هى تأتى لتطلب أن يردوا لها بعض ما تم الاتفاق عليه فرفضوا حتى مقابلتها وقالوا أنها « حرامية بنت كلب » . .

وإذن فهذا المال السائب الذى تبدد معظمه داخل بيوت ناس كثيرين جدا ممن كانت بيدهم مقاليد الأمور فى الخمسينات والستينات كباراً وصغاراً ، ومعظم المال المنهوب صار

إلى أيدى الصغار . . وهؤلاء الصغار أصبحوا مع الزمن كباراً . . وبعضهم كان من رجال جمال عبد الناصر . . وبعضهم الآخر كان من رجال عبد الحكيم عامر . . وكلاهما كان يعطى ويغدق من مال الشعب وكان كله قد أصبح مالا سائباً . . والكثيرون كانوا يأخذون من هذا ومن ذاك . والمال على أى حال كان مال الشيطان لا مال مصريين أو أجانب خرجوا أو طردوا من مصر فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر فى خريف ١٩٥٦ . .

وواحد من هؤلاء عرفناه . . نال من شقق الحراسة أربعاً بما فيها من متاع فسكن فى واحدة منها وفرق الباقى على أبنائه وبناته . . وواحد من الأبناء كان فى التاسعة من عمره وله شقة بالتليفون فى جاردن سيتى . . وقد زرت الرجل فى شقته فوجدت نفسى فى دار ملوكية . . أرضها سجاد وأبوابها مرايا وفرشها حرير مما يقدر بألوف بعد ألوف من الجنيهات . . ولم أسأل : من أين لك هذا ؟ . . لأننى كنت أعرف الجواب . .

المهم أن أولئك الناس الذين استحلوا المال الحرام ظلوا فى الدولة وارتقوا فى سلم الوظائف . . ووصلوا إلى الرياسات فى كل ميدان بسهولة لا تصدق . . فالواحد منهم يكون فى الجيش برتبة ملازم أول مثلا . . وبعد ثلاث سنوات من الثورة والعمل فى مكتب أحد الكبار . . يكون قد انتقل من بيته القديم فى السيدة زينب أو شبرا أو روض الفرج إلى شقة عظيمة مؤثثة أثاثاً جميلا فى حى جميل . . وكل ذلك لم يكلفه مليما . ويزداد رضا رئيسه عنه لأنه يأتيه بخيرات الدنيا دون أن يتكلف حتى مشقة الطلب . . ويرتقى صاحبنا إلى درجة مقدم . . ويعطونه سيارة وسائقاً . . وهناك سيارة أخرى فى البيت أخذها فيما أخذ من الأسلاب . . وهذه للست التى أصبحت سوبر هانم والأولاد الذين أصبحوا بهوات . .

ويبحث وهو جالس فى مكتبه عن وظيفة كبرى ينتقل إليها . . ويغادر الجيش وكل الأبواب مفتحة أمامه وتحت تصرفه . . وهو يختار . . لأنه قد أصبح شخصية ذات جاه ممدود وإسم كالطبل . . دخول السلك السياسى . . ويرقى عندما يترك الجيش إلى رتبة عميد (هكذا كان القانون) . . ويدخل الخارجية مستشاراً أو وزيرا مفوضاً . . يدخل ويتخطى بمجرد دخوله مئات من المواطنين الذين تخرجوا فى الجامعة قبل أن يحصل هو على الثانوية العامة . .

وهكذا يجد نفسه فوق الآخرين ورئيسا لهم . . وهو فى الحقيقة أدنى منهم وأقل علما . . ولكنه يعتبر ذلك حقا له لأنه من طبقة أخرى غير طبقة الناس . . إنه من طبقة الغزاة الذين يستحلون كل شىء . . ولا يتصورون أن يجرؤ مواطن على استكثار أى وظيفة مهما كبرت على أى منهم . . ويرون أن من حقهم أن يفعلوا بأى مواطن آخر ما يريدون .

وكان هذا الأمر شائعاً . . شمل كل ميادين حياتنا حتى المقصورة منها على المتخصصين من أهلها . . لأن الموضوع لم يكن - فيما كانوا يقولون - موضوع تعيين ناس فى وظائف . . بل كان موضوع توجيه حياة المصريين جميعاً فى الاتجاه الثورى الصحيح بواسطة مواطنين من مستوى أعلى وإدراك أسلم وخلفيات أرفع . . وإذا كانت وظائف التدريس فى الجامعات مثلا لا تسمح لغير الجامعى فى توليها . . فليكن الأمين العام فى كل جامعة من أبناء هذه الطبقة الممتازة . . أو التى رأت نفسها ممتازة لمجرد أنها من نفس عجينة أعضاء مجلس الثورة .وتضخمت وظيفة أمين عام الجامعة حتى أصبحت رقابة عامة على كل من فى الجامعة . . وإلى نكبة يوليو ١٩٦٧ لم يكن فى مصر إلا ثلاث جامعات . . فكان لكل جامعة من هذه أمين عام من تلك الطبقة الممتازة . . ولأنه من هذه الطبقة فهو أقوى من مدير الجامعة . . ولهذا الغرض كان الجهاز الحاكم يتحرى اختيار مديرى الجامعات من طراز سهل هين لين يؤمر فيطيع . . ويشار إليه بالأصبع فيهرول . . ونتيجة لذلك لم تعد مجالس الجامعات مجالس علماء أو أكاديميين بل أصبحت مجالس أنفار . .

وكان هجوم هذا الطراز الممتاز من المصريين شديدا جدا على الوظائف التى تعتبر ممتازة بطبعها من الناحية المادية . . مثل وظائف وزارة الخارجية مثلا . . لأن المسألة كانت مسألة غزاة يتقاسمون غنائم . . وفى يوم من الأيام كان ثلاثة أرباع السفراء والوزراء المفوضين والمستشارين من طبقة الغزاة هؤلاء . . وإلى جانب هؤلاء كانت تقوم مكاتب الملحقين العسكريين فى كل بلد من بلاد الدنيا . . وكل مكتب كأنه سفارة . . فهناك ملحق عسكرى ومساعد ملحق عسكرى وكتبة ثم عدد كبير من الحرس فى وظائف سعاة وسائقين وطباخين وسفرجية . . وهناك قصور فاخرة تؤجر للسادة الملحقين والأموال تجرى فى أيدى هؤلاء كأنها الماء ولا حسيب ولا رقيب وكانت هناك حقائب دبلوماسية لهذه المكاتب . . والله وحده يعلم ما كان فيها رائحة غادية . . ولكل حقيبة « حامل » من المرضى عنهم . . ومن أغرب ما مر بى ان واحدا من حملة الحقائب هؤلاء فقد حقيبته ولم يتبين ذلك إلا بعد أن استقر فى الفندق . . فقد كان فى استقباله فى المطار نفر من أصحابه وأصدقائه أعضاء المكتب وحراسه . . وفى زحمة السلامات والأحضان نسى الجميع الحقيبة . . ولما كانوا جميعا لا يحسنون إلا اللغة العامية فقد كان علينا فى معهد الدراسات الإسلامية أن نجرى كالمجانين لنسترد تلك الحقيبة . . وقد كنا نحسب إنها تضم أسرارا قومية خطيرة وليتنا ما جرينا . . فقد كان معظم ما فيها - فيما علمنا - اشياء شبيهة بما يحمله « تجار الشنطة » فى حقائبهم . . وكان اثنان أو ثلاثة من أعضاء السفارة إذ ذاك من رجال المخابرات . . فتصورنا - لسذاجتنا - أنهم سيبلغون خبر ما حدث إلى رئاستهم وسيكون سؤال وجواب . . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . . لا سؤال ولا جواب . . وأذهب بعد ذلك

بسنتين فى إحدى رحلاتى إلى أمريكا اللاتينية فأجد صاحبنا الذى أضاع الحقيبة وزيرا مفوضا فى إحدى سفاراتنا هناك . . ويدعونى للغداء فى بيته ، فأجده يسكن فيلا تروع النفس وسط فدان من الخضرة والأشجار . . وقد استأجرتها له الدولة المسكينة . . وأثثتها السيدة المصون حرمه بأغلى الرياش . . وتقول لى : فرشتها على طراز فيلتنا فى المعادى . .

وفى أثناء الحديث أعلم أن هناك فى سفارتنا تلك - حيث لا رعية لنا ولا تجارة ولا مصالح - سفيرا من نفس الطراز . . وسيادة السفير هذا كان إذ ذاك متغيبا فى القاهرة لتشطيب عمارته . . كما قال لى السيد الوزير المفوض . .

كان ذلك فى إبريل ١٩٦٥ . . وبعد سنوات يعطينى صديق كريم هو الأستاذ أحمد رائف كتابا دون فيه مذكراته أثناء اعتقال طويل قاسى آلامه وأوصابه خمس سنوات لغير ما ذنب جناه.

وأقرأ تحت تاريخ إبريل هذا وصفا مخيفا لما كان يعانيه منه هو ومئات ممن قبضوا عليهم واودعوهم السجن من تعذيب يفوق الوصف . . ولا أريد ان أعيد هنا على سمع القارىء ما قرأت فى هذا الكتاب . . ولكنى توقفت عند قوله : « والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها « المخزن رقم ٦ » متران فى ثلاثة أمتار . . وكانت تفوح منها رائحة البول . . والصديد . . وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة . . فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت » . .

وعلى رغمى تعود بى الذكرى إلى الفيلا البديعة وسط المرج الأخضر يعيش فيها رجل أقل ما يقال فيه انه مهمل مضيع . . ولكنه ياسيدى من طبقة السوبر باشوات . . وهؤلاء المعذبون فى الأرض خارج السجون وداخلها من طبقة أولاد الكلاب . .

لا أعاد الله هذا العهد الكئيب . .

وألف رحمة من الله تنزل عليك يا أنور السادات أن أوقفت هذا البلاء ورفعت عن الناس سوط العذاب . .

كان عصرا أسود تلاشت فيه كل معايير العدل . . وهبط فيه قدر المواطن إلى الحضيض . . وكما هى العادة نزل البلاء بأصحاب الشرف والضمير والعلم والدين . . وتحولت مصر إلى سجن كبير . . لا دستور ولا قانون . . والطبقة الجديدة استحلت كل شىء . . والذى ذكرته عن الخارجية ما هو إلا مثال . . ففى كل مكاتب الدولة ومرافق حياتنا دخل بلاء السوبر باشوات واقتصرت عليهم الوظائف الكبرى هم وأقاربهم

وأصهارهم والكارثة الحقيقية حلت بما يسمى بالقطاع العام . . فإن حركة التأميمات كانت كل يوم فى زيادة . . وعبارة : « مزيدا من الاشتراكية . . مزيدا من الاشتراكية » كانت تخرب فى كل يوم مئات البيوت والشركات والمحلاة الناجحة لأن المسألة لم تعد تطويرا اقتصاديا بل توزيع أسلاب وغنائم . . حتى إن شركة كبرى مثل شركة الحديد والصلب كانت رمزا من رموز الثورة تحولت إلى كارثة قومية . وألوف المواطنين فقدوا أموالهم لأنهم ساهموا فيها وفى غيرها . . وكان المسئولون يجتهدون فى إقناع المواطنين بالمساهمة فى هذه الشركات ويعدونهم أرباحا طيبة . .

وكان الناس يتحمسون ويشترون ليتبينوا بعد ذلك أن أموالهم ذهبت إلى غير رجعة . . لأن المسئولين لم يكونوا يستحون من أن يعلنوا أن السهم فى شركة الحديد والصلب مثلا . . الذى اشتراه الناس بجنيهين ورجوا أن يرتفع سعره إلى عشرة أو عشرين عدا ما يضاف اليها من الأرباح - هذا السهم نفسه قدره المسئولون بعد ذلك بخمسين قرشا . . وألوف الناس من صغار المواطنين خاصة ضاعت أموالهم دون أن يسمح لهم بمجرد الشكوى . . والمصيبة جاءت من أن الذين عينوهم لادارة هذه الشركات كانوا أقارب ومحاسيب أى من السوبر باشوات . . وعلى أيديهم خربت الشركات وضاعت أموال الناس . . وأدهى من ذلك وأمرّ أن الواحد منهم كان إذا قام بواجبه وخرب الشركة كافأوه وعينوه مديرا لشركة أخرى يخربها هى الأخرى . .

ولكى أعطيك مثالا عن أنواع الناس الذين كانت الدولة إذ ذاك تعهد إليهم فى إدارة الشركات المؤممة . . أذكر لك أننى استقبلت فى مدريد إنسانا غريبا عرفت فيها بعد أنه كان ضابط بوليس . . ولكنه فى ذلك الحين كان قد أصبح رئيسا لمجلس إدارة شركة مخابز كبرى فى السيدة زينب . . نزل عليها سيف التأميم فقسمها نصفين . . وأصابها إصابة لم تقم منها بعد ذلك أبدا . والسيد رئيس مجلس الإدارة يأتى إلى مدريد ليدرس نظام المخابز الشعبية فى أسبانيا . . وأقول له إننى لا أعرف أن فى أسبانيا شيئا يسمى المخابز الشعبية . . لأن أسبانيا فى أيام فرانكو كانت دولة رأسمالية . . وأسبانيا على أى حال لا يمكن أن تشكو أزمة خبزا أو قمح لأنها ثانى بلاد أوروبا إنتاجا للقمح بعد روسيا . . ويقول لى الرجل : كيف تقول إن أسبانيا رأسمالية مع أن السفير أعطانى نشرة تقول إنها بلد اشتراكى . . ؟

ــ وأين هى هذه النشرة أيها العزيز ؟

ويفتح حقائبه ويستخرج النشرة ويناولنى إياها . . وفيها فقرة وضع صاحبنا خطا بالقلم الرصاص إلى جوارها . . والعبارة تقول : Espanaun estado Sindicalisto إن أسبانيا دولة نقابية : وهى عبارة من عبارات الدعاية قالوها فى إحدى مراحل عصر

فرانكو . . ومعناها الحقيقى أن الدولة إذا كانت قد ألغت الحرية السياسية . . فقد نظمت النقابات وأطلقت لها حرية العمل وصاحبنا رئيس مجلس الإدارة فسر هذه العبارة بأن أسبانيا دولة اشتراكية وما دامت اشتراكية فلابد أن فيها مخابز شعبية اشتراكية . . وما دامت فيها مخابز شعبية فلابد أن يزورها سيادته ليدرس نظامها . . وهو لا يعرف أسبانية أو فرنسية أو انجليزية . . وفهمت من حديثه أنه يقوم بجولة دراسية فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا وأسبانيا لدراسة نظم المخابز . . ولما لم تكن هناك مخابز حكومية . . فقد جعلنا نأخذه إلى المخابز الخاصة . . وكلما زار مخبزا قال : عندنا أحسن . . وحرصت على أن أجهده . . فكنت كل يوم آتيه بقائمة مخابز ومطاحن يزورها . . وبعد ثلاثة أيام ضاق بى وقال :

- كفاية بقى أفران وقرف . .

- ولكن نقابة الطحانين والخبازين وضعت لك برنامجا حافلا . .

- شوف ياحضرة . . دول جماعة مجانين . . وأسبانيا بلد متأخر ونحن قد سبقناها بمراحل . . والمخابز التى أديرها أحسن من أى شىء زرته فى أسبانيا . .

ويجلس صاحبنا إلى مائدة الغداء عند السفير ويقول : تصور يا أحمد بك إننى عندما دخلت مبنى الإدارة فى المخابز (فى مصر) لم أجد فيها صورة واحدة للرئيس جمال . . فعملنا خمسين صورة ببراويز مذهبة . . وأقمنا يوما سميناه يوم الرئيس . . علقنا فيه الصور . . وأعطيت العمال منحة من الرئيس لمدة ثلاثة أيام . .

ولسوء حظ صاحبنا أن السفير كان فى تلك الأيام من حزب عبد الحكيم عامر . . فقد كان خصومه قد دسوا له عند جمال عبد الناصر فلجأ إلى الناحية الأخرى . . واعتصم بحبل من المشير . . وكانت تعجبنى فيه أحيانا صراحته والرئيس جمال عبد الناصر أقصاه إلى مدريد لأنه كان طويل اللسان ويعرف الكثير (وكان هذا كلامه لى) . .

وانتظر السفير حتى فرغنا من الأكل . . ثم أراد أن يشفى غليله فى هذا الرجل . . ويرينى فى نفس الوقت جرأته وعدم اكتراثه به . . فبدأ مع الرجل حديثا أشبه بالتحقيق بدأه بقوله : -

- الآن وقد قمت بواجبك . ودعوتك إلى الغداء من حقى أن أعرف بصفتى سفيرا . . لماذا عيّنوك رئيسا لمجلس إدارة مخابز كبرى وأنت لا تفهم فى الخبز أو الدقيق . .

- ويفاجأ الرجل . . ويفتح فمه دهشا . . ويقول :

- وهل أنا عينت نفسى فى هذا المنصب . . ؟ سيادة الرئيس هو الذى اختارنى . .

ـ لأنهم كذبوا على السيد الرئيس وهو لا يعرفك أما أنا فأعرفك الآن . . وقد طلبت معلومات عنك بالشفرة . . وجاءتنى : أنت زوج فلانه ، وفلانه أخت فلان . . وفلان أخوك . . وكلكم شلة يعلم بها ربنا .

والذى دار بعد ذلك من الحديث لا يتسع له هذا الفصل ولكنه مثال . . مجرد « عينه » من أنواع السوبر باشوات . . وما كان يجرى بينهم من حديث . . وما كان يربط بعضهم إلى بعض من علاقات . .

ولماذا أقف عند هذه التفاصيل . . ؟

لكى يعلم القارىء أولا حقائق السوبر باشوات وعصرهم . .

ولكى أقول ثانيا : إن ضحيتهم لم يكن شعب مصر فحسب . . بل كان ضحيتهم الأولى هو الرئيس جمال عبد الناصر نفسه فقد عرف أولئك الثعالب كيف يسيطرون على رئيسى الثورة : جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وقد رأينا فى مقالات الدكتور عبد العظيم رمضان التى نشرها فى مجلة أكتوبر تحت عنوان عام هو « تحطيم الآلهة » كيف أن السنوات السابقة لنكسة ١٩٦٧ كانت سنوات الذروة بالنسبة لصراع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . . وكل منهما كان محاطا بسياج من الخشداشية كانوا هم الذين يقدمون إليه قوائم المعذبين والتقارير . . ويستصدرون منه الأوامر . . وجمال عبد الناصر الذى كان يدخل سيارته ليذهب إلى مكان يلقى فيه خطابا سياسيا يهز الدنيا كانوا يتجهون به فى سكك ملتوية ويقولون له : لم نسر بك فى هذا الطريق لأننا ضبطنا فيه وكرا للأعداء . . وفى المكان الفلانى قبضنا على جماعة دبرت مؤامرة لاغتيال السيد الرئيس . .

وعندما تقرأ فى « البحث عن الذات » للرئيس السادات أنه هو نفسه لم يكن يعلم شيئا عما جرى لجيش بلاده صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ . . وأنه ذهب إلى القيادة وهو يتصور أننا طحنا الأعداء طحنا فوجد جمال عبد الناصر فى حالة ذهول . . ووجد المشير يمشى فى إحدى القاعات ذهابا وجيئة وفى عينيه حزن ودهشة . . فعرف أن مصر كلها والرئيس جمال والمشير عامر وقعوا فى كارثة . .

عندما تقرأ ذلك تعرف جناية السوبر باشوات على البلاد ورئيسها وقائدها الأعلى فى المقدمة . .

لهذا أكتب هذا الكلام . . إننى لا أريد لهذه المآسى أن تتكرر . . وهى خدمة متواضعة أقوم بها لبلادى . .

٨ السوبر باشـــوات يأكلون السلطان

السوبر باشوات يأكلون السلطان

وبعد أن قتل المماليك البحرية سلطانهم سيف الدين قطز فى بلبيس ، تركوا أشلاءه دون دفن ، وأسرعوا إلى القلعة وسلطنوا عليهم بيبرس وخرج المنادون فى شوارع القاهرة يقولون : أمان يا أهل البلد أمان . والعز والدوام لمولانا السلطان . .

أظن أن القارىء عرف الآن أننى أعود به إلى الماضى القريب لنبحث معاً عن أصول المحنة التى نعانى منها اليوم من اللامبالاه وعدم الشعور بالانتماء وضعف الإحساس بصالح المجموع وإهمال القوانين ، فإن عصر سيادة السوبر باشوات هو الأصل فى ذلك كله . فى عصرهم أصبح المصرى الوطنى ، المصرى الذى يحس بآلام وطنه ويتحرك لتخفيفها يعاقب لأنه وطنى ، والمواطن الذى يطلبةالسلامة هو المواطن الذى لا يهتم بمصائر بلده ويتبرأ منها .

وفى يوم من الأيام جاءنى أحد الطلاب مروعاً لأنهم استدعوه إلى مصر ، ورجانى وهو فى فزع أن أكتب للوزارة وأقول إنه شاب فى حاله لا يتدخل فى السياسة أبداً ولا يقول حرفاً فى شأن من شئون وطنه ! وبذلت غاية وسعى فى حمايته دون أن أصمه بوصمة عدم اللامبالاة بوطنه ومصيره وكنت دائماً أسأل نفسى : سبحان الله : ننفق عليهم لكى يخدموا وطنهم ثم نعاقبهم إذا هم فكروا فى أمر هذا الوطن . . . .

ورئيس الوزراء فى فترة طويلة من ذلك العصر (١٩٦١ - ١٩٦٥) وضع مصر كلها داخل سجن كبير ، فلم يعد لأحد الحق فى الدخول أو الخروج ، ولكن أنصاره من السوبر باشوات فتح كل منهم لنفسه ثغرة فى الجدار الخلفى وأصبح يدخل هو ومن يريد كما يشاءون بإذن وبدون إذن ، بتأشيرة أو بدون تأشيرة . ولكل شىء ثمن . وقال رئيس وزراء السوبر باشوات هذا فى إحدى مقالاته العصماء : وما هى الحرية ؟ . . الحرية هى : أن يغلق الإنسان بابه على نفسه وعياله ويتعشى وينام . وتلك هى حرية المواشى ! . . أما هو فقد سكن قصر أحد الباشوات فى القاهرة وقصر باشا آخر كبير فى الإسكندرية ، وعدد غرف القصرين معاً خمسون غرفة وفيهما تسعة حمامات ، واستحل لنفسه كل ما فى القصرين دون أن يدفع مليماً ، ومدير مكتبه أصبح محافظاً لمحافظة وبنى لنفسه قصراً واجهته كلها من الرخام الوردى ، وهذا هو معنى الاشتراكية والحرية عندهم ، أما نحن بقية شعب مصر فقد أصبحنا مواشى يغلق علينا باب الحظيرة وأمامنا العلف نأكل منه وننام . .

هذا كل نصيبنا من الحرية ، والويل لمن جرؤ على تخطى حدود المواشى . .

وقد بلغ عدد السوبر باشوات ذروته من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٠ وسأجتهد فى تصوير الجو الذى عاشت فيه مصر فى عصر السوبر باشوات هذا بأمثلة يعرفها الكثيرون وأمثلة مما شهدته بنفسى ، ومعذرة إذا أنا لم أذكر الأسماء ، فهذا مع الأسف تاريخ بلا وثائق ، ولكن لدينا وثيقة واحدة تشهد على العصر كله ، والوثيقة لا يمكن إنكار صحتها أو المماراة فيها وهى ما سمى بهزيمة جيش مصر فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، فإن مؤامرات السوبر باشوات حالت بين جيش مصر ودخول المعركة والمعركة انتهت قبل أن تقوم ، لأن جيش مصر لم يدخلها قط ،

والذين دخلوها من رجال مصر حاربوا وأثبتوا بسالة وانتصروا فى المعارك التى خاضوها .

والرئيس السادات يحكى فى كلامه عن مقدمات حرب أكتوبر أنه بعد أن أفاق من ذهول نكبة ١٩٦٧ سمع أن قائدا من قواد المعركة الذين حاربوا وانتصروا يتداوى من جراحه فى مستشفى المعادى ، وأترك الكلام هنا للرئيس أنور السادات فهو يقول فى ص ٢٤١ وما يليها من « البحث عن الذات » إتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكرى ، رد القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا فى سيناء فأجاب بأن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . كان قائدا للواء دبابات حارب فى سيناء ومعه بعض ضباطه وهم فى المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم وقلت للقائد انتظر فسأكون معكم حالا . .

وأخذت سيارتى واتجهت إلى مستشفى المعادى . .

وسألت كمال حسن على : قل لى يا كمال بصراحة : أنت حاربت فى سيناء ؟ .

قال لى : أيوه يا افندم ، وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو . .

قلت له : طب طمنى : سلاحنا كان ناقص ؟ .

قال لى : أبدا يا افندم . الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة ، دى كانت من عنفها بتقلبها .

قلت له : طب احكيلى عن الهجوم .

قال مشيرا إلى ضابطين صغيرين كانا فى انتظارى معه قبل إجراء العملية لهم : - دعهم يقصوا عليك ما رأوا وما حققوا فهم الذين فعلوا كل شىء ، أما أنا فعملى يقتصر على إصدار الأوامر .

وكنت سمعت عن الهجوم المضاد الذى كان يقوم به لواء مصرى يوم ٧ يونيو ، صحف العالم أشادت به ، حتى موشى ديان كتب عنه ، ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهودا فرديا وأمرا شاذا لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال . .

ولكننى بعد أن أدرت حوارا كبيرا مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة ، وهو أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة ، وكل ما عداه هو الاستثناء لولا تخبط القيادة وضعفها . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء فى الثلاثة أيام الأولى ١٠٠٠ كيلومتر فى عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير ، ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو .

ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل فلم يفقد هذا اللواء إلا عشرين دبابة على مدى ثلاثة أيام ، أى خمس قوته فقط ! . .

ثم يضيف السادات - عندما عرف أن الهزيمة لا ترجع إلى ما يقال من عجز المصرى على القتال أو عدم قدرته على استيعاب المعلومات والمهارات اللازمة لاستعمال السلاح الحديث إنما ترجع إلى إهمال القيادة وفوضاها واضطرابها - : إذن فإذا نحن هيأنا لجيشنا قيادة صالحة ونظاما واستقرارا أمكنه النصر .

وتلك كانت أولى خطوات السادات لتحقيق النصر . وآتيك فيما يلى بسطور كتبها ضابط شاب خاض حرب ١٩٦٧ وهو يصف لنا منها ما حدث كما حدث ، وكلامه مطبوع منشور فى كتاب متداول بين أيدى الناس ، صاغه مؤلفه فى صورة رواية إسمها « السمك الروسى » .

وقد أوردنا فى الملحق رقم ٧ من ملاحق هذا الكتاب فقرة من قصته تؤيد ما قلناه والكلام فى هذه الفقرة بلسانه وهو الذى اشترك فى الحرب وكلامه هنا وثيقة .

وهذا يا سيدى كلام ضابط من ضباط الجيش الذى قيل لنا أنه انهزم ١٩٦٧ والجيش كما ترى لم يدخل المعركة حتى يقال أنه انهزم أو لم ينهزم .

والذى نعرفه عن جيشنا فى كل تاريخه أنه جيش باسل . وضباطه وجنوده لا يفرطون قط فى واجبهم المقدس ولكن أولئك الناس شوهوا سمعته وجعلوه أضحوكة فى أفواه الأمم . . وحرب الأيام الستة التى جعلت من موشى ديان بطلا دون بطولة هى كلها من صنع أولئك السوبر باشوات .

وهذه الكارثة كلها من أين جاءت ؟ . كانت من صنع السوبر باشوات خشداشية السلطان من ناحية والسلطان المساعد من ناحية أخرى وهؤلاء لم يكونوا يفكرون فى نصر أو وطن إنما هم كانوا غزاة نهابين حصلوا ويحصلون على غنائم وتأمينا لهذه الغنائم . . كان زعماؤهم يفكرون على طريقة « بابراك كارمل » الذى أسلم بلاده أفغانستان للروس ووقف فى صف الجلادين الذين يعملون اليوم على الإجهاز على البقية الباقية من الحياة فى كيان ذلك الوطن .

كلام من عنـــدى ؟

لا والله .

وارجع معى إلى كتاب « البحث عن الذات » لأنور السادات لكى ترى بعينيك مماليك السلطان يفترسون السلطان وسآتيك بعد ذلك بمصاديق تؤيد كلام السادات :

فقد ذهب السادات لزيارة عبد الناصر فى يوم جمعة فى شهر فبراير ١٩٦٧ ، ولنلاحظ هنا أن السادات لا يدافع عن نفسه إذ لم يكن له فى الإدارة أمر ، فقد كان رئيس مجلس النواب ، إنما هو يعطى صورة فى صالح عبد الناصر ، لهذا أرجو ألا ينكرها أنصار عبد الناصر الذين يريدون أن يقولوا للناس أجمعين أن مصر كلها لم توجد على خريطة الدنيا إلا يوم ظهر عبد الناصر وأنها زالت من على الخريطة يوم وصل السادات إلى السلطة وأعلن إصلاحات مايو ١٩٧١ التى انتشل بها بلاده من الهاوية والسبب فى ذلك واضح : إن وصول السادات للحكم كان بداية النهاية لعصر السوبر باشوات .

وأنور السادات فى هذا اليوم وجد جمال عبد الناصر - الذى كان إذ ذاك أكبر زعماء الشرق الأوسط فنحن فى فبراير ١٩٦٧ وبيننا وبين الهزيمة والهاوية حوالى ثلاثة أشهر - وجده فى أسوأ حال ويقول له السادات : مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟ واضح إنك شايل الدنيا على دماغك . قال أيوه : أنا فعلا شايل الدنيا على دماغى يا أنور . . البلد بتحكمها عصابة وأنا يستحيل أكمل بهذا الشكل ، أن أبقى الرئيس المسئول واللى يحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد فى الاتحاد الاشتراكى ويتولى هو رئاسة الجمهورية ، وأنا مستعد أن أسأل عن الفترة اللى أنا قعدتها لغاية ما حاخرج ، أجاوب عن أى شىء . .

ويستطرد السادات : كان واضحا أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجرى فى البلد : المشاكل المتراكمة ، منذ ١٩٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس ، وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوى جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحفى الأستاذ محمد حسنين هيكل وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الامتيازات .

قلت : مش معقول يا جمال تسيب رياسة الجمهورية وتقعد فى الاتحاد الاشتراكى علشان عبد الحكيم عامر وأعوانه يحكموا مصر إنت عارف إن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه هم اللى تسببوا فى فشل الوحدة مع سوريا ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى : تقول له : نشيل صدقى قائد الطيران ، يقول : قبل ما تشيلوه شيلونى أنا . خلقته كده . ولذلك أعتقد إن أفضل شىء إنك تجيبه وتكلمه بينك وبينه . وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس إننا داخلين على كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لى : إن عنده ضيفا ، وانتظرت فى حجرة مكتبه إلى أن يخرج الضيف وبعد ذلك جاء عبد الناصر وبادرنى بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللى كان عندى دلوقتى ؟ قال : شمس بدران ، فاكر حديثنا اللى قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه .

قال لى : يا سيدى الحكاية كملت : شمس بدران جاى لى دلوقتى بيطلب رسمى ! إن المشير يأخذ رياسة الوزارة وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . مش عارف إن معظم الحاجات اللى بيشتكى منها الناس هى من تصرفاته وتصرفات أتباعه . .

ولابد أن أختصر الحديث هنا فإن المجال لا يتسع . ولكنى أقول إن عبد الناصر وافق على أن يتولى عبد الحكيم عامر رياسة الوزارة بشرط أن يتخلى عن رياسة القوات المسلحة ويخرج منها . وكان ذلك ذكاء بعيداً لأنه إذا نجح فى إبعاد عبد الحكيم عامر عن القوات المسلحة فقد انتهى عبد الحكيم عامر فى أيام .

ولا ننسى هنا أن عبد الناصر كان رجلاً سياسياً بعيد الغور . وعبد الحكيم عامر لم يثبت أمامه من دون زملائه أبطال الثورة إلا أنه تترس فى القوات المسلحة وملك زمام كبار رجالها والحكم كله كان حكماً عسكرياً على أى حال ، ومن يملك السلاح فهو صاحب الأمر ، عبد الحكيم عامر بعد هزيمة ١٩٦٧ فقد القلعة التى كان يتحصن فيها . ولم يلبث أن تصفى : انتحر أو قتل ، واقرأ مقالات الدكتور عبد العظيم رمضان عن موت المشير لتعرف التفاصيل . ولكن عبد الناصر هنا يتبرأ من سيطرة السوبر باشوات مع أنه هو المسئول إلى حد ما عن وجودها . . فقد فتح الأبواب لطلائع هذه الطبقة لكى يقضى بها على محمد نجيب ثم على الذين كانوا يطالبون بحكم دستورى . والذين قادوا معركة ضرب السنهورى ومن إليه نالوا من المكافآت ما تمنوا : السلطان أعزه الله فتح لهم الخزائن وحفن وأعطى من مال الناس وأترك الكلام للرئيس محمد نجيب :

وأصبح واحد منهم مديراً لأكبر مشروع إصلاح زراعى واستصلاح أراضى قامت به الثورة . وأصبح بذلك أقوى وأوسع سلطاناً من أقوى الوزراء وقد ضاعت ملايين كثيرة فى هذا المشروع الذى تولى أمره رجل لم يسمع بالزراعة قبل ذلك إلا فى المكتب والثانى أصبح رئيساً لهيئة التحرير وكانت مهمتها تنظيم جماهير مصر تحت لواء الثورة . فكانت النتيجة أن فشلت هيئة التحرير فشلاً ذريعاً ، والثالث أصبح وزيراً ثم سفيراً وغيرهم . وكل من هؤلاء تصرف فى ملايين وفتح الباب لمئات الخشداشية ليصبحوا سوبر باشوات . ولما كان هؤلاء جميعاً أقارب ومحاسيب ، فإن مولاهم الأول كان عبد الحكيم عامر وزير الحربية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . وكما كان عبد الناصر يكون فرقة مماليك خاصة به فقد كون عبد الحكيم عامر فرقة مماليك وتترس فى قلعة القوات المسلحة حتى لا يقضى عليه عبد الناصر كما قضى على رفاقه فى قيادة الثورة .

فلا حق لعبد الناصر إذن فى الشكوى من المماليك والخشداشية لأنه مسئول عن استيلائهم على مرافق البلاد مسئولية عبد الحكيم عامر . والاثنان لم يعلما أن نفس التجربة ، تجربة الحكم بالأتراك والمماليك انتهت بالعباسيين إلى سيادة الأتراك عليهم وبالأيوبيين إلى سيادة المماليك وخطيئة العباسيين أنهم فصلوا أنفسهم عن الأمة وتترسوا فى قلعة الجند المرتزقة فلم يصبح لهم من السلطان إلا اسمه ، وانتهى الأمر بزوالهم ، أما الأيوبيون فلم يكن منهم فى الحقيقة إلا سلطان واحد عظيم اسمه صلاح الدين ، وصلاح الدين أصبح بطلاً بنصر حطين سنة ١١٨٧م ونصر حطين كسبه المجاهدون الأحرار من أبناء أمة الإسلام قبل دخول جند السلطان فى المعركة ، ولو تولى المعركة قادة صلاح الدين من كرد وترك وتركمان لما كسبنا النصر أبداً . .

وأعود بك إلى كتاب « البحث عن الذات » لتتبع تاريخ المماليك والخشداشية . يقول السادات فى ص ٢٢٢ وما بعدها :

« طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت ، فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعى ولا يمكن أن يتخلى عنها لسبب من الأسباب ، فهى مركز القوة الأولى . بعد ذلك تطورت الأمور فى لجنة الإقطاع (لجنة مصادرة أموال الناس وفرض الحراسات عليها للتصرف فى أملاكهم بعد ذلك) فبلغت أقصى الضراوة فى مارس وأبريل ومايو (١٩٦٧) حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة فى تلك الفترة بالذات إلى تصفية العائلات ، وهى فى رأيى مسألة خطيرة .

فى تقديرى - والله أعلم - أن مستشارى جمال كانوا يغذون هذا الاتجاه فى نفس عبد الناصر وكان أهمهم هو مستشاره الصحفى (يريد الأستاذ محمد حسنين هيكل وكان أيامها رئيس تحرير جريدة الأهرام) فهو يمقت العائلات ويتحين الفرصة للشماتة فيها ، ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الناس ، حتى أن أهل الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً « آخذ نفقة زى الست » . .

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التى يدفعونها لمن تفرض عليهم الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة « نفقة » وهى نفس الكلمة التى تطلق على المبلغ الذى يدفعه الزوج ليعول مطلقته .

واستمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو ، حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات كلها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة ، ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القاتمة فى أواخر مايو وأوائل يونيو (حرب يونيو ١٩٦٧) فأوقفت تلك الإجراءات فكل

كارثة لها جانب آخر . يقول المثل الإنجليزى (كل سحابة داكنة لها شريط فضى يبرق وسط العتمة) .

إلى هنا ينتهى كلام السادات .

وقد حكى السيد محمد فرغلى فى مذكراته التى نشرها تحت عنوان « عشت مع هؤلاء » أنهم بعد أن صادروا أملاكه وأمواله أرسلوا له شيكاً بنفقة وقدرها جنيهان ونصف فى الشهر وهذه سخرية عجيبة تدل على مدى حقدهم على الناس واحتقارهم لأقدارهم ، فبماذا نفسر تقديرهم جنيهين ونصف نفقة شهرية لرجل أخذوا منه الملايين ؟ بماذا نفسر ذلك إلا باستهتارهم بالناس والتلذذ بامتهان كرامتهم ؟ ويقول الرجل فى كتابه بهذا العدد : والشريط الفضى الذى يشير إليه السادات هو إنقاذ العائلات وبيوت الأسر الكريمة التى صفوا أملاكها وأكلوها وأرادوا إكمال الافتراس بالقضاء على الناس أنفسهم حتى لا يبقى منهم أحد يطالب بالأموال المغتصبة فيما بعد .

والفكرة ليست غريبة عن الفكر الشيوعى الذى كان مسيطراً على رؤساء السوبر باشوات فى ذلك الوقت وأصلها عند لينين فإن لينين بعد أن انتصر على كيرنسكى رئيس حزب المنشفيك الذى قاد الثورة الروسية قبل لينين وعزل القيصر ، اتجه إلى التغيير عن طريق الانتقال من القيصرية الغاشمة إلى الجمهورية الدستورية واعتمد فى عمله على أوساط الناس الذين تعودنا أن نسميهم البورجوازية ، والبورجوازية تنقسم إلى قسمين : البورجوازية العالية La haute bourgeoisie وهى من نسميهم فى مصطلحنا العربى بالمياسير ويدخل فيهم كبار التجار وأصحاب الصناعة ورجال المال والحرفيون من أهل التخصصات العالية الذين نسميهم اليوم بأصحاب المهن الحرة ويدخل فيهم المثقفون والمفكرون والناجحون من أهل الفكر ، والبورجوازية الصغيرة La petite bourgeoisie وهى ما نسميه بالعربية بالمساتير أى الحرفيين من أى تخصص كان ممن يكسبون ما يقوم بحاجتهم ولا زيادة وأقل هؤلاء كسباً يسمون بالبروليتاريا وهى كلمة لاتينية تعنى أهل الحاجة أى الذين لا يفى كسبهم بالحد الأدنى من حاجتهم ، وفى النهاية فى قاع المجتمع نجد الحرافيش وهم من يسمون فى مصطلح الشيوعية باسم بروليتاريا الأسمال Lumpen proletariat .

وقد كان كرينسكى يعتز بالبوزجوازية العالية والصغيرة فجاء لينين فاتجه رأساً إلى بروليتاريا الاسمال .

وكان كرينسكى يريد مواصلة الحرب مع الألمان . فأعلن لينين أنه لابد من إيقاف الحرب ليتوقف النزيف الرهيب من جبهات الحرب مع الألمان . وكان جنود الروس فى أسوأ

حالة يمكن تصورها كانوا يجرون أقدامهم فى أسمال فعلاً ، ولا سلاح ولا طعام ولا نصر ولا أمل فى النصر فلقيت دعوة لينين قبولاً منهم ، وترك الملايين من الجنود المساكين جبهات القتال وانقلبوا عائدين إلى الوطن فى أسمال فعلاً وانضموا تلقائياً إلى جبهة لينين ، وبهم وبغيرهم من الساخطين على القيصرية والحرب اكتسح لينين خصومه وأتم الاستيلاء على السلطة .

واتجه لينين بعد ذلك إلى إبادة البورجوازية جميعاً . وخاصة المياسير منهم ولكن لينين ورجاله كانوا أصحاب أيدلوجية أى عقائديين ولم يدسوا الأموال فى جيوبهم ولم يسكنوا قصور الإقطاعيين والمياسير ولا هم نهبوا بيوتهم إنما استخدمت الثورة كلها فى تحويل روسيا - التى كانت بالفعل مفلسة تماماً - إلى بلد أقوى . ولينين مهما قلنا فيه كان رجلاً مثقفاً يدخل ضمن المثقفين وأصحاب الفكر والعلم ولهذا فلقد كان يحترمهم ويحرص على المحافظة عليهم ولهذا فقد أعفى من ضرباته أصحاب العلم والتخصص العلمى والفنى منهم وخاصة ذوى النوايا الوطنية الطيبة . لأنهم ثروة الأمة الحقيقية ولو لم يفعل لينين ذلك لما وجدت روسيا الشيوعية أساساً علمياً تبنى عليه .

أما السوبر باشوات الذين انقضوا على بلادنا والتهموا خيراتها من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ فلم يكونوا عقائديين ولا أصحاب مبادىء وكان فيهم جهل شديد وعنف أشد ، ولهذا فإنهم لم يحرصوا على علم ولا احترموا عالماً . بل اتجهوا إلى معاداة أهل العلم معاداة صريحة لأن العلم كرامة ووطنية والمستبد الجاهل يكره صاحب العلم ويضطهده . ولهذا فإن عصر السوبر باشوات الذى اشتهر بالسرقة والنهب وإهدار القوانين وإيذاء القضاء وأهل العدل اشتهر أيضاً باحتقار العلم وأهله والأدب ورجاله وكل ما يتصل بالعلم والفكر .

وجدير بالملاحظة هنا ما أشار إليه السادات من أن أهم الساعين إلى القضاء على العائلات والمياسير وأهل النعمة - كبيرة كانت أم صغيرة - كان مستشار عبد الناصر الصحفى . . وكان هو أيضاً مستشاره الفكرى . . فقارن بهذا موقف مكسيم جوركى كبير رجال الفكر فى الثورة الشيوعية وصديق لينين إلى آخر حياته . . فإن جوركى وقف حامياً للفكر والعلم والفن وأهلهم جميعا . . وكان لا يتردد فى مجادلة لينين وكف يد أتباعه عن امتهان كرامات الناس وإذلالهم . وإليه يرجع الفضل فى حماية جانب كبير من تراث روسيا العلمى والفنى والفكرى . . ومكسيم جوركى كان صاحب مبادىء ، وقد ظل يعيش على الكفاف إلى آخر أيام حياته . . أما المستشار الصحفى للرئيس عبد الناصر فكان قد تحول إلى رأسمالى موسر عظيم . . وإلى هذا يرجع فيما أحسب بغضه لأبناء العائلات والمياسير والمثقفين عامة . . وهو هنا لا يختلف عن بقية مماليك السلطان . .

وأعود لأكمل كلام السادات فهو يكمل هذا الخط الذى أسير فيه بحثاً عن السوبر باشوات الذين امتهنوا كل كرامة ومدوا أيديهم إلى كل مال وجعلوا انتماء المصرى إلى وطنه جريمة يستحق عليها أشد العقاب . . قال فى ص ٢٢٢ من البحث عن الذات :

« سافرت فى ذلك الشهر - هو مايو ١٩٦٧ - إلى كوريا الشمالية ثم إلى موسكو . . حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقى خطابه فى أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . . ويستشهد بحادث وقع فى قرية مجاورة لقريتى . . وسمعته يذكر إسمى . . فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر . . ثم تصدر الأحكام دون فحص لهذه الحقائق . . ؟

« القرية كانت كمشيش وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلاً . . ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا فى الواقع أسوأ من الإقطاع الذى نشهد به جميعاً فى المنطقة . . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية . . وفى هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع . . ولم يكن هناك ما يدعو لذلك لأننا صفينا الإقطاع فى هذه القرية . . ووزعت الأراضى على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة » . .

ويختتم السادات كلامه فى ذلك الفصل قائلاً (ص ٢٢٣) « على أى الأحوال فإنه بعد ٢٥ مايو ١٩٦٧ لم تنعقد لجنة الإقطاع . . إذ ابتداء من ٢٠ و٢١ و٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ » . .

والرئيس السادات لم يفهم لماذا شرع نفر من السوبر باشوات (ولم يكونوا شيوعيين ولا ماركسيين إلا بالإسم) فى إبادة العائلات ظناً منه أن المسألة انتهت بمصادرة الأراضى وتوزيعها على الفلاحين ، ولكن الحقيقة أن الأراضى لم تكن تهم السوبر باشوات ، لأنهم لم يكونوا فلاحين أو مزارعين على أى حال ، ولكن أصحاب تلك الأراضى كانت لهم بيوت وقصور فى القاهرة والإسكندرية . . وهذه كلها استولى عليها أصحابنا . . ولكى يطمئنوا إلى أنها أصبحت ملكهم إلى الأبد كان لابد من القضاء على أصحابها تماماً حتى ينعدم الحق بانعدام المطالب به .

وبمناسبة الاتجاه إلى إبادة أهل البيوت وذوى النعمة . . أذكر حادثاً صغيراً وقع فى السفارة فى مدريد . فقد كان لنا هناك مستشار من أبناء الأسر الطيبة . . وسأخرج عن دائرة عدم ذكر الأسماء هذه المرة لأن الرجل الذى يدور حوله الحادث معروف للكثيرين وهو

المرحوم محسن أباظة . . وكان من خيرة من عرفت من الأباظيين . . ولم يكن الرجل غنياً . . بل كان من أهل اليسار . . وكان شكله مهيباً محترماً وسلوكه سلوك من نسميهم بالذوات . . وهذا لم يعجب السفير الذى أتانا . . وكان سوبر باشا فجعل دأبه إهانة محسن أباظة الطيب والتعدى عليه حتى نهره مرة وطرده من مكتبه مع إهانة شديدة . . وخرج الرجل الطيب وهو لا يكاد يرى طريقه . . وأزوره فى بيته فأجده يبكى . . وأتعجب من أمر السفير معه فأقول له - للسفير أقصد - بعد أيام وهو فى حالة رضا : وما ذنب محسن يا سيدى السفير ؟ . .

وتكون الإجابة العجيبة .

ـ ذنبه : وهل هذا سؤال ! . . ألا يكفيك شكله ! إنه يتصور أننا ما زلنا فى أيام الباشوات . .

ـ ولكنه ليس باشا ولا هو بغنى . .

ـ هو الذى يقول لك ذلك . . لا تصدقه . . إنه راقد على ألوفات ومراته عندها أكثر . . أتعرف من هو أبو مراته . .

ـ لا يا سيدى السفير .

ـ ما دمت لا تعرف هذه الأشياء فلا تتكلم . .

وأظن أن هذه كانت أول مرة فى حياتى أرى فيها مواطناً يعاقب لأنه محترم ولأنه من أسرة كريمة . .

وما جرى للسلطان عبد الناصر على يد مماليكه وللسلطان المساعد عبد الحكيم عامر على يد خشداشيته يذكرنى بسطور قرأتها فى خطاب قرأت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية منشوراً فى مجلة لايف الأمريكية بعد موت عبد الحكيم عامر فى صيف ١٩٦٨ . . وقالت المجلة أن عبد الحكيم عامر كتب الخطاب فى سجنه قبل موته واستعان بأحد أنصاره فى تسريبه إلى خارج معتقله . . والغالب أن الخطاب كله مفتعل . . ولكن فيه عبارة وقفت عندها طويلاً عندما قرأتها فى حينها . . يقول فيها : كنت أعرف أن هناك اعتقالاً وضرباً وتعذيباً . . ولكنى لم أكن أتصور أبداً أن الموجة تصل إلى . .

وسواء كان الخطاب أصيلاً أو مفتعلا . فإن العبارة كحقيقة تاريخية تصور تفكير الذين أنشأوا طبقة السوبر باشوات وسمحوا لهم بتلك العربدة بكل ثروات مصر وقيم مصر وقوانين مصر . وكل قيمة من قيم هذا البلد . .

وأظن أننى اقتربت الآن من تمام الإجابة عما يحيرنا الآن . . متى وكيف بدأت موجة عدم الانتماء والتسيب والعدوان على كل قانون وقيمة ونظام . . ؟

٩ ســــــــادة العصر الحزين

إن ثورتنا – من حيث التنفيذ – ثورة ليلة . . بدأ العمل التنفيذى لها فى الساعة السادسة مساء ليلة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . . وقبل أن تأتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى – ٢٣ يوليو – كانت قد تمت الضربة الحاسمة واستقرت الأوضاع . . وفى الساعة السابعة صباحا أذيع نبأ قيام الثورة ونجاحها على الناس جميعا . . فرحبوا بها وأيدوها . . وتأكد نصرها بذلك لأنها أصبحت ثورة شعب بأسره لا ثورة جماعة من الضباط الأحرار . . وانتهى النظام السياسى القائم ولم يعد له حق فى ولاء . . واتجه الولاء كله للنظام الجديد الذى قام . .

بل هى – من حيث التنفيذ أيضا – حركة ساعة . . لأن المعركة كلها كانت معركة الاستيلاء على مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بكوبرى القبة ، وعندما سقط هذا المبنى تم الجزء الأكبر من المعركة . . وبقية الخطوات كانت توكيدا وتثبيتا وتأمينا . . ولو أن يوسف منصور صديق فشل فى الاستيلاء على ذلك المبنى والقبض على اللواء حسين فريد لما نجحت الثورة كلها . . لأن الثورة لم تكن لها إلا خطة واحدة . . فلم تكن هناك خطة بديلة . . ثم إنها كانت حركة الضربة الأولى : من يكسب فقد انتصر . . ولو كان حسين فريد أقل غفلة مما كان لكان صاحب الضربة الأولى وفشلت الثورة . .

بل هى من حيث التنفيذ أيضا كانت معركة رجل واحد ضد رجل واحد : يوسف منصور صديق ضد حسين فريد . . كأن النظام الملكى كله كان هذا الرجل المفرد حسين فريد . . وعندما وقع أسيرا أنتهى النظام كله . . لأن هذا الرجل كان الممثل الوحيد للنظام القديم فى مركز قيادته وقوته . . أما الباقون . . فكانوا فى بيوتهم أو فى مواقعهم . . على أى حال فمن وجد فى بيته اعتقل . . ومن وجد فى الطريق إلى مركز عمله أسر . . أما الملك فقد أسقط فى يده عندما رأى الجيش – وهو كان كل عماد قوته وضمان شرعيته – قد تخلى عنه . . أما الشعب فلم يكن للملك فيه أمل ولا مكان له عنده . . فقد سقطت الملكية العلوية من تلقاء نفسها . . لأنها كانت ثمرة ملصقة بغصن الشجرة لا نابتة من الغصن . .

وأما الوزارة التى تألفت فى اليوم السابق فحسب – وزارة أحمد نجيب الهلالى الثانية يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ – فقد تلاشت من الوجود وكأنها لم تتألف قط . . ومن عبر التاريخ أن خبر الثورة وصل الملك فاروق وهو فى حفل أقامه لآله وخلصائه فى قصر المنتزه تكريما لإسماعيل شيرين زوج أخته فوزية . . وكان فاروق قد ضغط على الهلالى ضغطا شديدا ليدخله الوزارة وزيرا للحربية . . وما كان الهلالى يعلم حين تأبى وعارض قبول إسماعيل شيرين أن رفضه وقبوله سيان . . فالوزارة كلها تألفت بعد قيام الساعة وانتهاء العصر كله . . فقد كانت خطة الثورة قد رسمت واستقرت . . وتقسمت أدوارها على الثوار . .

والثورات كالمعارك - يكون المعول فيها على التنفيذ أكثر من التخطيط ونحن جميعا قبل الثورة كنا ثوارا بالتفكير والتخطيط ولكن الضباط الأحرار كسبوا فخرها بالتنفيذ . .

وقد قرأت قبل أن أكتب هذه السطور كل ما كتبه من تيسرت لهم الكتابة عن ليلة ٢٣ يوليو ممن شاركوا فيها . . وقد أحصيت كل الأسماء التى ورد ذكرها فى أحداث تلك الليلة فما وجدتهم - أولا عن آخر - يزيدون على العشرين أقول : الـذين ورد ذكر أسمـائهم فحسب . . أى دون الذين شاركوا فيها وهم كثيرون والحمد لله ومهما نقرأ من الكتب فلن نجد إلا حوالى العشرين إسما . . ولولا أننى التزمت بعدم ذكر أسماء لا وردتها لـك . . ولكن عندك مثلا كتاب جمال حماد (٢٢ يوليو ص ١٨١ وما بعدها) فلن تجد إلا نفس الأسماء تتكرر مرة بعد أخرى كأنها شخوص رواية . . والكتاب جيد . . . وصاحبه شارك بنصيب محدود فى صنع الأحداث والاعتماد عليه هنا مأمون خاصة أن صاحبه دخل الثورة وهو ثائر من الصف الرابع أو الخامس . . وظل بعد الثورة فى هذا الموضع من مراتب رجال الثورة . . فلم يكن له صالح فى أن يعيد ترتيب الأحداث على نحو يجعل دوره فى صنع الثورة متوازنا مع ما وصل إليه بعدها . .

وثورتنا مثل كل الثورات لم تكن عادلة فى انصاف من شاركوا فيها . . وسواء نظرنا فى تفاصيل الثورة الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية فأننا نجد أن المخططين للثورة يكونون دائما من أهل الإيمان بضرورتها مع هدوء الأعصاب واتزان العقل وضبط النفس . . أما الذين يقومون بتنفيذها فقد يكونون من بين أهل التخطيط وقد لا يكونون . . ولكنهم دائما يكونون من أهل الإيمان والبسالة والاندفاع . . وهم فى اندفاعهم يخسـرون فى كثير من الأحيان حياتهم . . ولا يجنون ثمرات الثورة فى معظم الأحيان . . أما الذين يجنون الثمار فقد يكونون من خارجها ولا علاقة لهم بالتخطيط لها أو تنفيذها . . إنما هم دائما أهل ذكاء وتدبير وانتهاز للفرصة وسرعة فى الحركة . . وهم لابد أن يكونوابعد ذلك من أهل الأنانية والقسوة وقلة الإحساس بالعدالة . . لأن الثورة إذا نجحت وجاء دور جنى الثمرات لم تعد المسألة مسألة إيمان أو استحقاق أو حق أو عدل . بل مسألة ضـرب وخطف وحيلة . . ولينين أتى مع أصحابه من زيورخ فى سويسرا فى قطار ألمانى محكم الإقفال . . فاختطف ثمار الثورة كلها وقضى على الذين قاموا بها . .

وأشياء من هذا كله وقعت لثورتنا . . والكثيرون شاركوا فى صنع الثورة وحزنوا لأنهم لم يجنوا منها إلا المتاعب . . أذكر أن رئيس الحزب الشيوعى فى لينينجراد ، وقف على رصيف محطة لينينجراد مع اعضاء اللجنة المركزية للحزب ينتظر لينين الذى كان قادما من فنلندا . . وكان الرجل قد حمل عبء الحركة كله فى لينينجراد وبذل أقصى ما وسعه فى تنظيم استقبال

لينين . . وما كاد القطار يقف ويظهر لينين على السلم ويحيى الجماهير حتى لمح الرجل فى عينى لينين الرماديتين الجامدتين نظرة أحس فيها بالموت . . ولينين أهمله تماما واندفع إلى منصة ووقف يخطب الجماهير . . واتجهت إليه جماعات الناس . . ووقف رئيس اللجنة وحده وسار وحيدا إلى بيته . . وكان فى أوائل من حكم عليهم لينين بالإعدام ونفذ فيه الحكم . . وقد حكيت القصة بتفاصيلها فى دراسة سابقة . .

وقبل أن أنتقل إلى النقطة التالية أقول أن كل الأسماء التى تمر بها وأنت تقرأ أحداث ليلة ٢٣ يوليو - سواء أكانت لعشرين شخصا أو أكثر - قد أصبح أصحابها من الأثرياء كلهم اليوم فى عداد أصحاب المال الوفير . . وكلهم نال من المناصب ما كان يتمنى وفـوق ما يتمنى . . ما كان يستحق وما لا يستحق . . وأقلهم ثروة اليوم لا يقل غنى عن أغنياء عصر الباشوات . . وهذه حقيقة أقولها وأترك لك التعليق عليها . .

وأعود فأمسك بخيط الحديث حيث تركته من كلامى عن السوبر باشوات فأقول : إننا رغم قصر فترة تنفيذ الثورة - ليلة واحدة على أوسع تقدير - وعلى رغم قلة من ورد ذكرهم من أسماء من حملوا عبء التنفيذ لا نكاد نعرف الحقيقة . . لأن كل واحد من الذين كتبوا أحداثها فيما بعد - وهم نحو خمسة عشر من قرابة العشرين الذين أشرت إليهم - انفرد بحكاية بعيدة عن حكاية الآخر . . وواحد منهم له أكثر من رواية ، وكل رواية من رواياته تناسب مركزه فى الوقت الذى كتبها فيه . . والمؤرخ العارف بأصول صنعته لا ينكر هذا ولا يلجأ إلى الاتهام بالكذب أو التدليس . . فهذه طبيعة السياسة والعمل السياسى . . بل هذه هى طبيعة البشر فى كتابه التاريخ . . فإن الحركة أو الثورة إذا نجحت وتفتحت أبواب المراكز والمكاسب والمغانم اجتهد كل إنسان فى أن يوسع لنفسه مكانا بين صناع الحركة . . وعندنا على ذلك مثالان لانزال نذكرهما لطلابنا تحذيرا لهم من تزييف التاريخ وأساليب التزييف . . المثل الأول هو خبر سرية (أى حملة) سيف البحر (شاطىء البحر) . . التى أرسلها رسول الله ﷺ فى رمضان سنة الهجـرة (مارس ٦٢٣ م) . . وهى أولى مغـازى الأسلام فإن الثابت عندنا أن الذين اشتركوا فيها مع حمزة بن عبد المطلب خمسة عشر رجلا كلهم من المهاجرين . . ليس فيهم أنصارى واحد . . وذلك هو المعقول . . لأن الرسول ﷺ كان ملتزما إذ ذاك بما نصت عليه بيعة العقبة الثانية - وعلى أساسها هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة - وهى لا تلزم الأنصار بالاشتراك فى القتال إلا دفاعا عن المدينة . . وهم بهذا غير مطالبين بالاشتراك فى المغازى . . وكان أول اشتراكهم فيها فى واقعة بدر . . ومع ذلك فلدينا روايات تورد أسماء ١٥ أنصاريا تقول أنهم أشتركوا فى سريـة حمزه . . وأصل الحكاية يرجع إلى التنافس بين المهاجرين والأنصار على مراكز الفضل فى الإسلام وجماعة الأسلام بعد الانتصار . .

والمثل الثانى صورة فوتوغرافية ظهرت فى أيام ستالين وذاعت حتى أصبحت صورة رسمية . . وهى مع ذلك صورة مزيفة . . فإنها تصور لينين يخطب على منصة فى الميدان الأحمر خلال الأيام الأولى لتزعمه لثورة أكتوبر ١٩١٧ . . وعلى سلم المنصة كانت صورة ضابط من الحرس قريبا جدا من لينين . . فأمر ستالين برأس ذلك الرجل فـأزيلت . . ووضع رأسه مكانها . . وبدا بذلك أنه - دون غيره - من رجال الثورة كان أقرب الناس إلى لينين منذ أيامها الأولى ومن ثم فهو أولى الناس بخلافته ، وأصبحت هـذه الصورة الزائفة صورة رسمية طوال عصر ستالين . .

وبالنسبة لموضوع دراستنا هذه فهى تضع يدنا على أصل بعيد من أصول ما ذكرناه من تزييف الحقائق وقلة احترام الناس للحق . .

ذلك أن نجاح الثورة السريع - والسهل كذلك - قلل من أهمية الدور الذى قام به العدد القليل جدا من الرجال الذين قاموا بالضربة الأولى واحتملوا صدمة الاستيلاء على مبنى القيادة العسكرية فى كوبرى القبة . . فإن العملية كلها لم تدم أكثر من نصف ساعة والهجوم الحاسم قام به ثلاثة : يـوسف صديق وعمـر محمود عـلى وفؤاد عبد الحى . . والبـاقى كلهم وقفوا عنـد التنفيذ فى الصفـوف الثانيـة وما يليهـا . . وهذا لا يقلل من أقدارهم . . ولكن الثورة إذا كانت قد فشلت فهؤلاء الثلاثة هم الذين كان يحق عليهم حكم الإعدام أما الباقون فكانوا سيعاقبون ولكن بعيدا عن الإعدام . .

وكان النجاح السريع للحركة وقلة المسئولين الأساسيين عن التنفيذ ضارا بالثورة فى النهاية . . ولو أن الثائرين حاربوا شهرا أو شهرين أو سنة مثلا لتحددت بدقة أكثر مراتب رجال الثورة ومراكزهم ، والجنرال فرانشيسكو فرانكو ومن معه خاضوا غمار معركة الثورة الأسبانية على طول أربع سنوات (١٩٣٣ - ١٩٣٦) ومات فيها مليون من الناس عـلى الجانبين . . وعندما انتهت الحرب لم يكن هناك شك فى أن فرانكو هو البطل الأول والأكبر للمعركة . . وأن خوسيه أنطونيو دى ريبيرا هو مفكر الثورة . . لأنه وقع فى يد الأعداء وأعدم فى البكانتى (لقنت) فى الشهور الأولى لقيام الثورة . . فأصبح بذلك أول شهدائها ولم يعد هناك مكان لأن يزعم رجل آخر أنه أول الشهداء . .

أما فى ثورتنا فإن مساحة الصورة كانت واسعة . . والذين وقفوا فى الصف الأول منها كانوا قليلين جدا . . والأمور تمت بسرعة لم يستطع أحد معها أن يتبين على وجه التحديد من فعل ماذا ؟ . . وأصحاب التدبير وهدوء الأعصاب قفزوا بسرعة واحتلوا كـل فراغ الصورة وأزالوا - دون صعوبة كبيرة - القليلين الذين وقفوا فى الصف الأول . . والأمر هنا لم يقتصر - كما فعل ستالين - على قطع صورة رأس جندى ووضع رأس نفسه مكانها . .

بل وصل الأمر إلى قطع رأس لينين نفسه ووضع رأس آخر مكانه . . وجمال عبد الناصر أزال صورة يوسف صديق ومحمد نجيب . . والرئيس السادات فى إحدى رواياته لأحداث الثورة صغّر حجم الرئيس محمد نجيب حتى أصبح لا يكاد يرى . . وأسقط ذكر يوسف صديق وعمر محمود وفؤاد عبد الحى جميعا . . وبذلك أخلى المقاعد الثلاثة الأولى لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم ولنفسه . . على الترتيب . . وبعد وفاة عبد الناصر ووصوله إلى الرياسة وضع نفسه فى البداية ويليه - وعلى مسافة محترمة - جمال عبد الناصر وعلى مسافة غير محترمة وضع عبد الحكيم عامر . . وبعد مدة قصيرة أعيد شمل الصورة واتسعت فيها مساحة السادات حتى لم يعد هناك سواه . .

وهذه كلها حقائق حزبية حول أسلوب العمل فى ذلك العصر الحزين ، عصر العدوان الذى ملأ قلوبنا بالأحزان . . وأصل أحزاننا بدأ من الرءوس أو الكبار . . فهم كانوا البادئين بالعدوان على المراكز والقيادات . . وأحزاننا كلها خلال ذلك العصر بدأت عندهم . . وعلى الدرب الخطر سار مماليكهم وأتباعهم . . والعصر كله عصر ظلم شامل لم يتوقف عن التوسع كأنه الحريق الهائل . .

كل ذلك لا يهمنا فى المكان الأول . . ولكن الذى يهمنا حقا هو أثر تلك العمليات فى الأخلاقيات التى سادت عصرى عبد الناصر ثم أنور السادات . . فإن تراث ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان فى الحقيقة ضخما جدا والغنيمة ضخمة - ماديا ومعنويا - والبطل الحقيقى للثورة كان شعب مصر : هو الذى أيد وناصر وتحمل وغطى على أعمال الاغتيال المعنوى أولا ثم المادى بعد ذلك ، التى كانت تدور بين رجال الثورة . . والحقيقة أن توزيع الكراسى بعد النصر لم يتناسب قط مع حقائق الأدوار . . وجمال عبد الناصر بعد انتصاره على محمد نجيب ثم على زملائه الذين وزع عليهم الكراسى بحسب تقديره إياهم احتاج إلى رجال يملأ بهم فراغ الصورة فمد يده وأتى بناس من الصفوف الخلفية ووضعهم محل أصحابه الأول . .

وعبد الحكيم عامر دفع من قلعته فى القوات المسلحة برجال آخرين . . كل ذلك والبطل الحقيقى للثورة وهو الشعب لا يدرى . . فإنهم لم يقولوا له شيئا . . والدولة أقامت وزير إرشاد وإعلام وظيفته ألا يعرف الناس شيئا . . وكان على الشعب أن يرضى بدوره الذى حددوه له فى الرواية : دور الهتاف أو التهتيف بينما انتزعت التركة المادية لعصر الملك والباشوات من أصحابها ولم ترد إلى الشعب . . بل استقرت فى جيوب من وضعوا اليد عليها . . ولم تعد الثورة ثورة مصر بل ثورة عبد الناصر . . بل أن اسم مصر كلها حذف وأصبحت مصر الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة وهى سلطنة عبد الناصر

والذين وصلوا إلى قريب من السلطان ثم إلى السلطان المساعد أصبحوا أصحاب كل شيء . .

محل الولاء لمصر حل الولاء لعبد الناصر . . وعلم مصر ذو الهلال والنجوم زال وحل محله علم عبد الناصر . . ومصر نفسها لم يعد لها وجود حتى يكون لها ولاء وعلم ، ومحل الاستحقاق والأهلية والعلم والنزاهة والشرف واحترام النفس حلت ثقة عبد الناصر . . واقرأ مقالات «أزمة المثقفين» لكاتب ذلك العصر وتعجب كيفما شئت من أن حق العطاء والمنع . . حق الثواب والعقاب بل حق الحياة والموت انتقل من الله سبحانه وتعالى إلى جمال عبد الناصر وحق الشفاعة انتقل من رسول الله ﷺ إلى كاتب العصر ومن فى مستواه من مماليك السلطان . .

ولماذا نكتب هذا الكلام . . ؟

لوجه الله وحبا لمصر . . فما رأيت عبد الناصر فى حياتى ولا دار بينى وبينه حديث إلا فى موقف واحد وهو موقف لا يستحق حتى أن يذكر . . والرجل لم ينفعنى ولكنه أضر بى لأنه أنزل ببلادى مساءات كبرى وأنا أقول إننى أتمنى لكل رئيس من رؤ ساء مصر أن يكون جمال عبد الناصر فى شجاعته وقدرته على صنع التاريخ وقيادة الحوادث وجلال شخصه وجمال صورته . . ولكننى لا أتمنى له أن يكون جمال عبد الناصر فى عدوانه على الناس واحتقاره للقانون وحقده على ناس بعينهم واستصغاره للعلم وأهله وعدم توقيره للقضاء .

ولكن الثمن الذى دفعناه ليرتفع تمثال عبد الناصر كان باهظا فعلا وتركته ثقيلة جدا . . وإذا أمكن القول أن الخسائر المادية يمكن تعويضها . . فإن الخسائر المعنوية عسيرة التعويض . وإلى يومنا هذا نحن نخوض معركة إصلاح التركة المعنوية . والذين ألقوا بمسئولية التدهور الإدارى والجرأة على أموال الدولة وفساد الإدارة واللا مبالاة وضعف الانتماء القومى وما إلى ذلك على أنور السادات وحده يبدأون القصة من منتصفها الذى يعجبهم . . وكلامى هذا معاونة من مواطن متواضع لرئيس جديد صافى القلب ناصع الضمير من أبطال مصر فعلا . . فإن حقه علينا صدق النصيحة وقول الحق والحق فى أيام عبد الناصر كان جناية ، وفى عصر السادات أصبح جنحة ونريد صادقين أن يصبح الحق فى أيام مبارك رأس الفضائل جميعا . .

وسأقص هنا قصة من قصص العصر الناصرى شهدتها بنفسى واجتهدت وسعى فى تلافى أضرارها ، وأنا أحكيها هنا لأنها تصوير حقيقى للجو الذى عاشت فيه مصر أيام عبد الناصر ، والطريقة التى كانت الأمور تدار بها فى ظله والقيم التى حكمت سير الأحداث

خلال الستينات كلها ، وأنا أحكيها لأنني لا أتمنى أن تتكرر وأحذر أهل وطنى من الظروف التى جعلت وقوعها ممكنا . . وكعهدى فى هذه الدراسة لن أذكر الأسماء . . وتاريخ العصر كله تاريخ بلا وثائق . . والشهادة فيها أروى لله وحده ولن أذكر البلد الذى وقع الحادث فيه حرصا على سمعتنا هناك . . ثم إن القارىء يفهم عنى ، وعدد كبير جدا من المواطنين سمعوا بالحادث والآن آتيهم به على حقيقته . .

كان ذلك فى صباح يوم من أيام ابريل فى سنة من سنوات الستينات وكنت أيامها أعمل مستشارا ثقافيا فى إحدى سفاراتنا ومديرا لمعهد الدراسات الإسلامية هناك . . وكنا أنا وزملائى فى المعهد نبذل أقصى الوسع فى إنجاز المبنى الجديد للمعهد والمحافظة على ذلك المبنى الجديد من عدوان السفير . . والسفير كان مملوكا كبيرا من مماليك السلطان عبد الناصر ، وبعد أن جعله وزيرا أبعده إلى مدريد سفيرا . . بالضبط كما «نفى» السلطان قلاوون مملوكه الأمير أرجون إلى بلاد الشام وجعله نائبا للسلطان هناك . . وقال له فيما يحكى أمير المؤرخين المصريين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : والله لو عدت يا خشداش الكلب قصفت رقبتك . .

ولكيلا تقصف رقبة السفير جعل يتسلى بقصف رقبة كل قرش تصل إليه يده من أموال الدولة . . ولابد أن أقول هنا احقاقا للحق أن الرجل كانت فى أعماقه شهامة واحترام لمن يحترم نفسه وتقدير للعلم وأهله . . وست سنوات عملت فيها معه لا أذكر أنه أساء إلى بكلمة . . وليس بينى وبينه أى خصومة تميل بى عن الحق أو تحملنى على إيذائه براوية القصة . . وعندما لقيته بعد سنوات وقد تاب إلى الله وأطلق لحيته وتوجه للحجاز سألنى أن أدعو له وقلت له :

سيدى السفير إن الله سبحانه وتعالى يغفر من الذنوب كل خطأ فى حقوق الله - عدا الشرك - كالتقصير فى العبادات والكذب والنفاق وما إلى ذلك ويغفر لك من ذنوبك ما وقع ضرره على شخصك مثل الخمر ولكنه لا يغفر للعبد عدوانه على حقوق الناس أنفسهم وجوارحهم وأموالهم . .

قال :

- تصدق يا فلان أننى قارفت من هذه الأخيرة شيئا . .

- على أى حال أنت ذاهب إلى الله سبحانه وهو أعلم منى ومنك بما كان وما لم يكن ومغفرته تسع كل شىء . .

أقول إن هذا السفير استدعانى إلى مكتبه فأسرعت إليه لأجده جالسا فى مكتبه وكأنه

غضنفر غاضب يكاتم سورته ، والمستشار الصحفى أمامه منكمش داخل نفسه كأنه قط يتوقع وثبة الليث . . والملحق العسكرى جالس ممدد الساقين وفى عينيه لمعان غـريب ، وأحيى فيجىء الرد بنفس الصوت الذى تسمعه فى رد التحايا فى صيوانات العـزاء . . والسفير يسأل فى قلق عن المستشار . . والمستشار كان قد خرج لبعض شأنه ويعود قريبا . . إذن فكلنا فى انتظاره . . ويعود فيستدعونه إلى مكتب السفير ويدخل ويحيى ويقف فى وسط الحجرة . . وتدور عينه بحثا عن كرسى فيقول السفير :

- خليك واقف . .
- فيه حاجه يا سيادة السفير ؟
- إنت قلت إيه لسامى شرف ؟
- سامى شرف . . أنا لم أقل له شيئا . .
- بل قلت كثيرا وأريد أن أسمع ما قلت كلمة كلمة .
- إذن فهو تحقيق . . إذا كان تحقيقا فأنا أريد تحقيقا رسميا ولجنة تحقيق . .
- لجنة رسمية يا ابن الكلب يا حرامى يا ضايع يا شحات . .

(معذرة فأنا لم أذكر هنا إلا أقل ما قيل من الشتائم والباقى يجرح الحشمة . . والغضنفر وقف والشرر يتطاير من عينيه والكلام يخرج كأنه الحمم) : جبتك من الشارع وعملتك بنى آدم ووكلتك ولبستك يا جعان يا قليل الأصل . .

- يا سيدى السفير . . أنا لا أسمح . .

ويندفع السفير نحوه وهو يقول : وانت مين انت اللى تسمح أو ما تسمحش .

والملحق العسكرى ينهض بحجة أنه يحول دون الضرب «يكتف» المستشار الصغير الحجم وكان ظهره قد أصبح فى الحائط والسفير ينهال عليه بالضرب . . وأنهض لأ حول بينهما ولكن هيهات . . فإن الضرب ينهال والمستشار يصيح : شاهدين . . شاهدين . . ويسيل دمه والسفير يمزق له القميص ويقطع رباط الرقبة . . ولا أحد يسمع صوتى وأنا أرجو السفير أن يتمالك نفسه . فهذه أول مرة أرى فيها رجلا محترما يضرب عـلى هذا النحو . . وأرى السفير يخلع حذاءه ويمسك بمقدمته ليضرب بالنعل ويملكنى الخوف من أن تقع كارثة . . فضربة على الرأس من هذا النعل تكفى لقتل المستشار . . وأمسك بيـد السفير وفيها الحذاء وأرجوه ألا يفعـل . . ودم المستشار أصبـح يسيل الآن بغـزارة . . ونستخلصه من الموقف ونمضى به إلى الباب . . والملحق العسكرى يبتسم فرحا بما حدث والسفير يقول : لا يخرج هذا الكلب من السفارة واغلقوا الأبواب . . ويصعد المستشار السلم إلى حجرته ودمه يسيل ووجهه كله جروح وكدمات .

والسفير يستدعيني والمستشار العسكرى ويقول : أريد منكما أن تقوما بجرد مكتبه وعمل محضر رسمى . . ابن الكلب الشحات بقى بنى آدم . . جبته من الشارع عريان بفانلة ودلوقت عنده عمارة وأتومبيلات وفلوس . .

وصعدنا إلى غرفة المستشار لعمل الجرد . . إنه جالس على كرسى ورأسه إلى الوراء ليوقف رعافا أصابه . . جاكته مقطعة على حجره وقميصة مهلهل . . وملحق شاب فى السفارة يدخل ليحضر الجرد مرسلا من السفير ، علمنا فيما بعد أنه مخابرات . . ورغم كل ما أصاب المستشار من الضرب والأذى وما سال من دمه فهو يقظ متمالك أمره كالنمس . . نطلب منه مفتاح المكتب فيناولنا إياه . . ونفتح ونخرج الأشياء وهو ينظر بعيني صقر . . ونحن نسجل ما نخرجه من الأدراج قطعة قطعة . . ونجد منشورات بالرونيو مما ترسله الوزارة فنكتب : عدد كذا من المنشورات فيقول : منشورات لا . . قولوا خطابات دورية ومطبوعات . . إنه يعرف أن لفظ منشورات قد يذهب به فى داهية فهو رجل مخابرات وتحقيقات . . ونجد فى الدرج فيلما ونريد أن نسجله فيقول : بلاش ده يا دكتور . . دى حاجات شخصية . . احرقه أرجوك . . وأوافق على حرقه . . والملحق الجاسوس يجرى ويبلغ السفير بأننا حرقنا فيلما . . والسفير يستدعيني ليحاسبنى على ذلك . . وأقول له إنه كان فيلما خاصا ولا دخل له فى الجرد . .

- خاص . . يعنى إيه خاص . . أنتم متآمرون معه على . .
- سيدى السفير . . كان فيلما خاصا به وبسيادتك . .

وتتسع عين السفير ويقوم مسرعا فيفتح الخزانة إلى جواره ويبحث فيها ويقول : المجرم سرق الخزانة . . فين الفيلم . .

- حرقناه . .
- هاته لى محروقا . .

ونأتيه به فيرتاح قلبه ويقول : كويس اللى اتحرق . . ولكن هذا الكلب لن يخرج من السفارة . . سأقيده وأحبسه فى البدروم . .

وينادى السواق والفراش . . وكلاهما مخابرات ويصدر الأوامر . . حاضر يا فندم . . وأقول :

- هذا غير ممكن يا سيدى السفير .
- مفيش حاجة اسمها مش ممكن . . واحنا بقالنا عشر سنين بنضرب ونحبس . . إيه اللى اتغير فى الدنيا . .

- إحنا فى أوروبا يا سيدى السفير . .

- هذه سفارة أرض مصرية . . وده مصرى واحنا أحرار نعمل فى أرضنا زى ماحنا عايزين ومحدش له دخل . . أنا قلت الولد ده راح يتحبس فى البدروم مكتف يعنى يتكتف ويتحبس . .

- يا سيدى السفير هذا غير ممكن . . السفارة أرض مصرية . . ولكن ذلك لا يخرجها عن السيادة المحلية والسفارة لها حارس رسمى من رجال البوليس هنا . . وتحويل بدروم السفارة إلى سجن والاحتفاظ بسجين محبوس مقيد فيه أمر يمكن أن يؤدى إلى عواقب وخيمة . .

- وخيمة . . فيه حاجة اسمها وخيمة عندنا . . ؟ الظاهر انك مش فى الدنيا يا دكتور . .





١٠ عبد الناصـــــر فى بحر الظلمات

أواصل هنا حكاية قيام السفير المصرى بضرب مستشاره ومستشار السفارة . . والحادث هنا يهمنا لأنه يصور لنا بشكل واضح جدا عقلية السوبر باشوات . . وكيف كانوا يديرون مصر على أنها ضيعة هم أصحابها وسادة كل من فيها . . ولا وجود فى تفكيرهم أو تصرفهم لشىء اسمه وطن أو مواطنون أو قانون . .

السفير ضرب المستشار ومزق ملابسه وأسال دمه . . وهو بعد ذلك يريد أن « يكتفه » ويحبسه فى بدروم السفارة حتى يقرر ما هو فاعل به بعد ذلك . . وأحاول صرفه عن هذه الفكرة فيقول : يظهر انك مش عايش فى الدنيا يادكتور . .

وأقول : على أى حال . . قد قلت لك رأيى . . وأنت السفير وصاحب الأمر فى هذه السفارة . . ويقول الملحق العسكرى الذى سره كل ما حدث : إحبسه فيه . . عندى ستة من الحرس فى المكتب وسأجعل بعضهم يقفون على مدخل بيته ولا يسمحون له بالخروج ويمنعون الدخول عليه أو الخروج من عنده . .

والفكرة على غرابتها تعجب السفير فيقول :

ــ وأنا أرسل من هنا اثنين . . وعليك أنت ترتيب الحراسة بحيث تكون دائمة ليلا ونهارا . .

ويقول الملحق الشاب الجاسوس :

ــ وأنا على مراقبة التليفون . . أنا أعرف مدير قسم كبير وبعض البنات فى التليفونيكا . . وبشىء قليل من المال نستطيع مراقبة تليفونه وتسجيل كل مكالمة منه أو إليه . .

ــ برافو عليك . . وفلان - يريد الملحق العسكرى - يدفع لك كل المصاريف . .

وكنت أعرف أن ما يقوله هذا الملحق مستحيل . . فمراقبة التليفونات فى البلد الذى كنا نعمل فيه كانت موجودة إذ ذاك . . ولكنها كانت اختصاصا من اختصاصات الدولة ومخابراتها . . أما مسألة المدير الذى يعرفه والبنات اللائى يعرفهن فلم يكن لهن فى الواقع وجود ولكن الذى كان له وجود هى النقود التى سيأخذها . . وهى نقود بلا إيصالات لا عند الأخذ ولا عند العطاء . . مثلها فى ذلك مثل الاعتمادات التى كانت تعطى لبعض المكاتب الفنية الملحقة بالسفارات . . فقد كان المفروض أنها تدفع رشى . . (رشاوى) لبعض الناس مقابل « خدمات » وواحد منهم أخذ مالا كثيراً وزعم أنه أنفقه فى تنظيم مظاهرات قال إنها خرجت تهتف بحياة الرئيس عبد الناصر فى قلب عاصمة أوربية كبرى . .

وواحد آخر منهم وقع فى يده مقال يمدح الرئيس عبد الناصر ومعه رسم كاريكاتورى لطيف له يعبر عن قوته أمام الأوروبيين . . فيقطع المقال والرسم ويعطيه لمن يترجمه إلى العربية ثم يرسله إلى القاهرة ويزعم أنه أعطى الكاتب مبلغاً كبيراً من المال وأعطى المصور مبلغاً آخر . . وقال إنه لم يستطع أخذ إيصالات منهم ، لأن أمثال هؤلاء الكتاب الكبار لا يوقعون على إيصالات قط . . ثم وضع النقود فى جيبه . . والمقال أعجب رؤساءه فى القاهرة فارسلوا له خطاب شكر وتقدير . . وسيادة الرئيس أمر بزيادة اعتمادات الدعاية فى مكتبه . .

وبالفعل سمح للمستشار بأن يعود إلى بيته ووضعت عليه الحراسة . . والحراس كان بعضهم رجالا فى غاية السذاجة والجهل . . ومن أول ساعة استطاع المستشار أن يخدعهم واستدعى طبيبا كشف عليه وأثبت إصاباته . . وكتب تقريرا قال فيه إنه أصيب بارتجاج فى المخ وأن ذلك سيسبب له عاهة مستديمة وربما عجزا تاما عن العمل . . والطبيب استدعى طبيبن آخرين من مستشفى كبير . . وعقد الثلاثة « كونسولتو » بعد أن كشفوا على المخ والقلب بالكهرباء . . واعتمدوا التقرير مع بيانات الفحوص الكهربائية من إدارة المستشفى ومن وزارة الصحة وكل شيء بثمنه . .

وعندما اطلعت على هذه الكشوف والتقارير المعتمدة بكل ما يمكن تصوره من أختام قلت فى نفسى : إذا كان هذا السفير داهية . . فإن المستشار مارد من الجن . .

ورغم تهديدات السفير فإننى ظللت أزور المستشار . . وفهمت منه أن السفير كان قد سحب منه جواز سفره حتى يمنعه من السفر . .

وإلى هنا والحكاية - على بشاعتها - ربما كانت لاتستحق هذه الوقفة الطويلة عندها . . ولكن الذى حدث بعد ذلك كان أغرب . . وهو يدل على نوع الحكم الذى كان يسودنا فى عصر السوبر باشوات من القمة إلى القاعدة . .

فقد مر بنا فى تلك الأيام رجل يعمل فى الرياسة وفهمت أنه ممن كانوا يستطيعون الدخول على عبد الناصر والخلوة به ليقول له ما يريد . وعبد الناصر الذى كان يتعالى عن أن يقابل وزراءه كان يمنح ساعات من وقته لشاويشية وخدم . . وكان يسمع لهم ويتأثر بكلامهم . . وجمال حماد الذى تعجب فى كتابه (٢٢ يوليو ص ٢٠٦ - ٢٠٧) من أن الأخبار الهامة أيام الملك فاروق كانت لا تصل إليه إلا عن طريق محمد حسن السليمانى شماشرجى الملك وأمينة الخاص « وحلقة الاتصال الوحيدة به » لا بد أن يكون قد غير رأيه فيما بعد عندما رأى بنفسه أن أقرب الناس إلى أذن عبد الناصر كانوا فى كثير من الأحيان أقل

من الشماشرجى محمد حسن السليمانى . . ونحن الذين نقرأ تاريخ دول الاسلام نعرف أن الذين كانوا يصنعون الخلفاء والسلاطين كانوا فى معظم الأحيان الخصيان والنسوان . . وهذه كلها نتائج طبيعية للاستبداد . .

وهذا الرجل من الرياسة سمع القصة من المستشار . . وجاءنى ليسمع روايتى . . وأخذ معه حرم المستشار إلى القاهرة ودخل بها على عبد الناصر . . فحكت له الحكاية وأطلعته على قميص عثمان (أقصد قميص المستشار الممزق وفيه بقع الدم) . . فهل تتصور أن الرئيس استنكر الأمر أو هاله شيء فيه . . ؟

لا والله . . ولا هو ساءل السفير فى شيء مما فعل . . إنما هم عملوا جواز سفر دبلوماسيا جديدا للمستشار وعادت به إلينا . . ولا أدرى كيف ختموه فى السفارة ليبدو أنه عمل فيها بدلا من جواز السفر المفقود وأعتمدوه من الخارجية . . كل ذلك فعله وأداره من بيته ذلك المستشار الذى كان راقدا فى سريره يعانى - فيما قالوا - من حالة ارتجاج فى المخ وإصابات ربما سببت له عاهة دائمة وعجزا تاما عن العمل . .

وأكون فى بيتى ليلة فإذا التليفون يستدعينى . . وإذا المستشار يكلمنى من المغرب . . خرج من بيته وأخذ سيارته (المراقبة) ووصل بها إلى جبل طارق ثم عبر إلى المغرب . . وهناك استقبله زميل له مستشار سفارة أيضا كانت لديه تعليمات « بإحسان » إستقباله وصرف راتبه وملحقات المرتب وتيسير سفره إلى القاهرة ثم نسمع بعد ذلك أنه عين مستشارا فى سفارتنا فى بلد عربى . .

والذى علمناه بعد ذلك عما كان بين السفير ومستشاره قبل ذلك جعلنا نوقن تماما أننا نعيش فى عصر عجيب مخيف . . فهناك داخل السفارة منافسات على نسوان وبنات . . وهناك أموال تصرف بلا حساب والقانون لم يكن فى إجازة فحسب . . بل كان قد مات ودفنوه . . ورئيس الدولة كان يعلم هذه الحكاية وأبشع منها . . وكل ذلك كان عنده معقولا أو عاديا على الأقل . . فإنه هو نفسه أزال القانون ووضع نفسه محله . .

ولم يكن يستطيع - بداهة - أن يعلم كل شيء . . فتولى الأمر من دونه السوير باشوات دون حسيب أو رقيب . . ولا قيمة لإنسان أو لنفس أو دم . . وكل شيء أصبح جائزا مادام يخدم أغراض السلطان أو السلطان المساعد . . وقد سبق ان أوردت صورة قرار جمهورى بالقبض على رجل معين «وآخرين» وعندما تصل الفوضى والاستهانة إلى هذا الحد فمن العبث أن تتعجب من أى شيء . .

واسمع هذه الحكاية . . وأنا هنا لاأروى حكايات . . بل آتيك بشواهد ودلالات

تصور لك «نظام» حكم السوبر باشوات وما كان يجرى فيه . وهناك الكثيرون غيرى ممن كانوا يعيشون فى مصر ويعرفون أكثر مما أعرف . . ولكننى هنا أقتصر على ما شهدته بنفسى وأستطيع القطع بصحته . .

فى ذات يوم يزورنى - بتوصية وتزكية من السفارة - رجل طويل أصلع فى الأربعينات من عمره قيل لى أنه موظف كبير مكلف بمهمة قومية تتعلق بمساعدة مصر لثورة الجزائر . . كان ذلك فى اوائل ١٩٦٠ . .

وقد قضى الرجل معى أكثر من ساعتين . . وأطلعنى على أوراق قال إنها وثائق سرية . . وبعد أن حكى الحكاية ترك الأوراق عندى إلى بعد الظهر فقد كان مدعوا للغداء مع السفير . . وجلست أفحص الأوراق واحدة واحدة . . كانت مراسلات وعقود شراء بما يزيد على المليون دولار بقليل من شركة اسمها شيء مثل المبادلات التجارية الدولية ومركزها فى بروكسل . . وفهمت من الأوراق أنها كانت تتعلق بصفقة أسلحة وذخائر تشحن على سفينة من ميناء طنجة لتوصيلها إلى ثوار الجزائر فى نقطة محددة على الساحل قرب مستغانم . . وقد بحثت فيها بعد عن هذه النقطة - وهى ميناء كما قيل فى الوثائق - فلم أجدها ورجعت فى ذلك إلى أطلس المستعمرات الفرنسية وفيه أوسع خرائط سواحل المغرب . . فلم أجدها .

وقد قال لى هذا الرجل شفاها أنه هو ومعاونيه دفعوا المبلغ كله على اقساط آخرها كان قبل تاريخ التسليم المتفق عليه بأيام ولكنى لم أجد فى الأوراق إلا إيصالا واحدا بنحو ٩٨٠٠٠ دولار والباقى بيانات من رجال مصريين يقولون إنهم دفعوا كذا بتاريخ كذا . . وإلى جانب كل بيان منها إمضاء هو مجرد قوس أو عقدة وعليها ختم الشركة . .

والذى حدث إنهم - كما قال لى - بعد أن دفعوا الثمن كله ذهبوا إلى مركز الشركة فى بروكسل فلم يجدوها فى الشقة التى تعودوا أن يذهبوا إليها . . ولاوجدوالافتة أو أى دليل على أنه كانت هناك شركة . . وعندما دقوا الجرس وفتحت لهم الأبواب وجدوا امرأة عجوزا وزوجها يعيشان فى بيت عائلى لا مكتب فيه ولا سكرتارية . . والرجل نهرهم وقال إنهم محتالون وإنه يسكن هنا مع امرأته من ثلاثين سنة . . وهددهم بإبلاغ البوليس وأغلق الباب .

قلت : ولكن هذه الشركة لابد أن تكون فى بيان الشركات أو فى الغرفة التجارية فى بروكسل . .

فقال : لم نبحث ولم نسأل . . ولماذا نسأل وهذه هى بطاقة الشركة وخطاباتها وظروفها

وعليها كلها البيانات الوافية مع أرقام التليفونات والسجل التجارى وكل ما شئت من البيانات . . وهذه بطاقات المدير ومساعده ورئيسة السكرتارية .

ثم أطلعنى على صور يؤ يد بها دعواه : صور له وبعض مساعديه فى بيت المدير وعلى الشاطىء . . مع بناته . . لأن العلاقات بينهم لم تكن مجرد علاقات عمل . . بل علاقات عائلية . . والرجل ومساعداته من البنات يجلسن مع أصحابنا الذين فاوضوا على الصفقة وعقدوها فى جلسات لطيفة كلها ود وصفاء و « آخر مزاج » على شاطىء أوستند . .

ولكن هذا الرجل كله وشركته والسكرتيرات الجميلات والشاليه العائلى على البحر . . كل هذا اختفى الآن ومعه المليون دولار وزيادة . مكان هذا كله ليس لدينا إلا رجل عجوز وامرأته وشقة يقولان أنهما يسكنانها من ثلاثين سنة . .

ــ وسفارتنا فى بروكسل ما رأيها فى الموضوع ؟

ــ سفارتنا هناك لا تعرف عن هذا الموضوع شيئا . . لا شأن للسفارات بمثل هذه العلميات . .

ــ والمطلوب منى ؟

ــ قيل لنا أنك تعرف طنجة جيدا وأن لك صداقات بالمسئولين فيها . . وأنا الآن ذاهب إلى هناك لكى أتصل بمكتب الشركة هناك وأعرف ماذا تم فى حكاية الأسلحة . . وكان المفروض أن يشحنها رجال الشركة على سفينة اسمها دافنى من سبعة شهور . .

قلت :

ــ حتى أستشير السفير . .

ــ قلت لك لا علاقة للسفارات بهذه الموضوعات . .

ــ ولكنك اتصلت بى عن طريق السفير .

ــ كان لا بد أن أتصل بالسفارة لكى يعلموا - مجرد علم - أننى أتيت إلى هنا كما كلفونى . . والسفير لا يعرف من الأمر شيئا . .

ــ يا أخى أريد أن أفهم . . أنت تغديت مع السفير أمس وفهمت منك أنه على علم تام بهذا الأمر .

ــ إنه لا يعلم شيئا . . لا تنس أنه رجل سورى . . وهذه مسألة مصرية . .

وكان ذلك أيام الوحدة مع سوريا - والسفير كان رجلا سوريا ممتازا ولكن السفارة كانت « شوربة » وزير مفوض سورى ومستشار مصرى وسكرتير أول سورى وسكرتير ثانى مصرى . . وضابط طيران سورى طائش متزوج من بنت مصرية كأنها طفلة . . وأمها سيدة متصابية مصبوغة الشعر والوجه تبحث لنفسها عن عريس . . وملحق عسكرى مصرى يقيم فى باريس . . ومساعد له سيأتى إلى هنا ونحن فى انتظاره . . والوزير المفوض السورى كاره للوحدة مع مصر يلعنها فى كل مكان لأنه كان قبل الوحدة يتسلم اعتمادات سفارته بالدولار ويحول منها بالعملة المحلية ما يعادل ميزانية سفارته ويضع الباقى فى جيبه . . ويزعم أنه من أبطال تحرير سوريا ويقول : حررناها من الفرنسيين ليستعبدها المصريون . .

وسط هذه الفوضى كلها يأتينا ذلك الطويل الأصلع بحكاية حجمها مليون دولار انشقت الأرض وبلعتها . . وأحكى الحكاية كلها للسفير فأجد خبرها كله عنده . . لقد قصها عليه صاحبنا على الغذاء . ثم يقول لى أن السفير لا يعلم شيئا . . كذب على طول الخط ويقول السفير :

ــ وتريد أن تذهب معه ؟

ــ لن أتحرك من هنا ولو طلبت أنت إلى ذلك . .

ــ ذلك رأيى أيضا . . سأقول له إننى لا أستطيع أن أسمح لأحد من أعضاء السفارة أن يشترك فى مهمة إلا بناء على أمر صريح من الخارجية . . ولكن كيف نقولها له ؟

ــ لا عليك أيها السفير لأننى لا أظن أنه سيتمسك بسفرى معه . . لقد أحس أننى لا أصدق حرفا مما قال . .

وبالفعل . . لا هو سأل عنى بعد ذلك ولا أنا سألت عنه . .

وتنقضى على ذلك ثلاث سنوات . . ويأتينا سفير من مماليك السلطان ويسألنى عن هذه الحكاية ، فأحكيها له وأقول له :

ــ ألم يعلم أحد شيئا عن مصير المليون دولار ؟

ــ مليون إيه يادكتور . . دول ثلاثة وأربعة وخمسة . . وزى الحكاية دى كثير . .

ــ كلها ضاعت . ؟

ــ كلها نهبوها . . وحكاية المكتب الذى يتعاقدون معه ويدفعون له الفلوس ثم

يختفى بما فيه تكررت فى بلجيكا وفرنسا وإيطاليا وهونج كونج وأصبحت روتينا . .

وبعد أيام أريه صورة هذا الطويل الأصلع مع مدير الشركة وامرأته فى الشاليه على البحر فيتأملها ويقول :

– هو بعينه . .
– وتعرفه يا سيدى السفير ؟

– وكيف لا أعرفه وقد كنت أماشى الكلية ؟ أنه من دفعة عبد الناصر .

– ولا بد أنه فى السجن الآن ؟ . .

– سجن . . سجن إيه يا حضرة ؟ إنه الآن مدير شركة أقطان وشريك الإمام الليثى فى الاسكندرية . . هذه حال بلدنا : عبد الناصر يرفد وعبد الحكيم يعين . .

– ولكن . . من هو الإمام الليثى يا سيدى السفير ؟

– حتى الإمام الليثى لا تعرفه . . ألم أقل لك إنك لست معنا فى هذه الدنيا !

وفى تلك السنوات – بعد الانفصال عن سوريا خاصة – بلغت فوضى الحكم فى مصر ذروتها ، والخلاف بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أصبح حربا أهلية . .

وعبد الحكيم عامر ، السلطان الذى كان نائما فى قصره ومقر ملكه فى دمشق صحا يوما ليجد مماليكه الشوام قد خلعوه ووضعوه فى طائرة وشحنوه إلى مصر مع عتاولته الذين كانوا يتصرفون فى سوريا كأنهم سادة عظام هبطوا من السماء ليصلحوا الكون . . وأموال بلدنا تجرى بين أيديهم كأنها ماء الترع ، وسهراتهم وعربدتهم فى شقق سكنوها فى ضواحى دمشق كانت حديث الناس ، وبنات سوريا بيضاوات شقراوات ، ومكتب عبد الحكيم عامر هناك يتضخم ويزداد عددا ، والجنيهات المصرية تشترى من أسواق بيروت برخص التراب وترسل إلى مصر فى حقائب مكتوب عليها : « سرى جدا » وملحقنا الثقافى هناك يرحمه الله يكاد ينفجر من الغيظ ، ومكاتب الإعلام فى دمشق وبيروت تبتكر الأعاجيب عن موت الناس فى حب عبد الناصر . . ونشرات الدعاية التى لا تقرأ يدفعون فيها أموال قارون من أموال اتعس فلاح فى الدنيا إذ ذاك وهو الفلاح المصرى الذى كان مستورا أيام الإقطاعيين فأصبح معدما بعد نعمة الإصلاح الزراعى ، فإن محاصيل القطن والأرز والبصل وما إليها لا بد أن تصدر إلى روسيا وبلاد الكتلة الشرقية وفاء لأثمان الاسلحة التى ضيعنا معظمها فى وديان الشياطين فى حرب اليمن ، والأيرليفت من القاهرة إلى صنعاء أصبح شريانا مفتوحا ينزف دم مصر . . والفلاح عليه أن يعمل كرقيق الأرض لأن مدة

الأسلحة لا بد أن يستمر . . خروتشيف يمتدح عبد الناصر ليبيعه اسحلته القديمة التى لم تعد تنفع روسيا فى شىء ، وحرب اليمن تصبح كابوسا على قلب عبد الناصر . . ولكنه لا يستطيع مساءلة المشير ، وحلم عبد الناصر البعيد فى إرهاب أولئك الذين رفضوا الطاعة له من حكام الجزيرة يصبح كل يوم أبعد ، والمشير عبد الله السلال يصاب بحالة اكتئاب ويدخل المستشفى ويرسلون إليه المرحوم إسماعيل يسن ليضحكه ولكنه لا يضحك ولا يتسلى .

وتصل الأزمة بين عبد الناصر والمشير ذروة من ذراها ، ويخاف مماليك السلطان السلطان المساعد العاقبة فيتوسطون بين الرجلين محافظة على الإقطاعيات التى كانوا يتربعون على عرشها ، واحتفالا بالصلح لا بد أن تدخل مصر فى عهد جديد من الأصلاح الحقيقى لا « لعب العيال » كما كان سفيرنا الذى كنا معه يسميه ، وهذا الإصلاح الجاد لا بد أن تقام له زفة ويكتب له كتاب ، والكتاب يسمى الميثاق والزفة تسمى المؤتمر الوطنى العام ، وعشرات اللجان تنعقد والمصريون الطيبون يتنافسون فى تقديم أحسن ما لديهم لخدمة وطنهم ، وسفيرنا يعلن أنه ذاهب إلى القاهرة ، وأسأله :

ــ لكى تحضر المؤتمر الوطنى ؟

ــ مؤتمر وطنى إيه يا حضرة ؟ هذان الاثنان إذا اصطلحا انخرب بيتنا ، لا بد أن أكون هناك وإلا كنت أحد ضحايا الصلح ولا يمكننى الانتظار حتى يجىء فى الحقيبة خطاب يقول : اطلب الموافقة على أن يكون فلان سفيرا بعدك . .

وذهب . . ولم يحضر المؤتمر ولكنه زار هذا وزار ذاك . . وأخذ « من ده خمسة ومن ده خمسة » كما قال ، ولكن الذين تحمسوا للمؤتمر ورفعوا « الميثاق » إلى مراتب الكتب المقدسة كانوا أهل وزارة الطبل والزمر . وبعض الأبرياء المخفلين . . ظنوا حقا أن هناك عصرا جديدا وعرسا يقام لافتتاحه ومبادىء سامية ترسم للوصول إلى العصر الذهبى .

وعبد الناصر يتمشى بين لجان المؤتمر ويتنازل بالاشتراك فى المناقشات ، وواحد من الأدباء تبهره أضواء الزفة ويظن أن هناك فعلا عريسا يزف إلى مصر هو العصر الزاهر ، ويقف فى إحدى الجلسات ويفتح قلبه كله ويقول كل ما فى نفوس إخوانه ، ويجلس بعد ذلك سعيداً بما فعل ويشعر بالراحة التى يشعر بها مريض فتح خراجا واستراح منه . والمسكين السليم النية لم يعلم أنه خرج بذلك من رحمة الله « ووقع الشيخ فى حفرة » كما يقول شيوخ الحديث ، وكان عليه أن يخرج من الحفرة بأسرع ما يستطيع وإلا عانى فى بطن الحوت ما عاناه سيدنا يونس ، وفى نفس المؤتمر قام هذا الأديب الطيب القلب وأعلن أن

جمال عبد الناصر قد حرر الكلمة فى مصر بكل معنى الكلمة ، وخرج من المؤتمر وهو لا يعلم إذا كان قد عرف « من أين يبدأ » أو من أين ينتهى . .

والحقيقة أن محنة الفكر والعلم وأهلها فى ظل السوبر باشوات كانت شديدة جدا ، وأهل الرأى جميعاً زلزلوا زلزالا شديداً ، وكان كاتب العصر وصاحب القلم الوحيد فيه يطرب لذلك ويحكى كيف « لعب » بوزير من وزراة التعليم العالى وسلط عليه كلاب الصيد فأكلوه ، وهذا الوزير كان محترما جدا ، وكانت عنده أفكار كثيرة منها أنه أراد ضبط أمور الجامعة وأخذ أعضاء هيئة التدريس بشىء من الالتزام ، وطلب إليهم ألا يكونوا ضنينين بوقتهم على الجامعة التى كانت موجة التدهور وعدم الانضباط تتعالى فيها . . ويبدو أن عبد الناصر لم يرض عن هذه الحركة ، لأن الجامعة عنده كانت الطلاب الذين يهتفون له ثم الفراشين أما الأساتذة وبخاصة أحرار الفكر وأصحاب الرأى منهم فلم يكن بينه وبينهم عمار ، وكان أحب الأساتذة إلى قلبه أولئك الذين يقفون ببابه كالمتسولين . . وكلما ألقى خطبة كتبوا المقالات فى فلسفتها وما تتضمنه من الآراء التى لم تخطر ببال أرسطو وأفلاطون ، فأوعز عبد الناصر إلى كاتب مصر الأوحد بأن يفتح صفحات الأهرام لأعداء الوزير المصلح فتعاوروه بالمقالات حتى أهلكوه ومصر كلها كانت فى رحلة مخوفة فى بحر الظلمات يرفرف عليها علم القراصنة الأسود . .

ويحكى صاحبنا كاتب العصر والأوان وعبقرى الصحافة والازمان حكاية زميل له كان رئيس تحرير صحيفة منافسة . . ورئيس التحرير هذا كتب افتتاحية ذات يوم . . وقرأها الرقباء على الجريدة قبل أن تطبع . . وكانت الصحافة بناء على « الميثاق » حرة تماما وعبد الناصر كما قال أخونا حرر الكلمة فى مصر بكل معانى الكلمة وأمر الرقباء رئيس التحرير بأن يعيد النظر فى مقاله ، وكان الوقت متأخرا والطبع قد بدأ ، وأصدر رئيس التحرير أمرا بإيقاف الطبع ومصادرة الأعداد التى طبعت ، ووضع أى شىء مكان الافتتاحية التى ألغيت ولكن نسخها ذهبت إلى أصحاب الأمر والنهى القابعين فى مراكز السلطان . .

ويضحك الكاتب الكبير ويقول :-

ــ هذه أول مرة نسمع فيها أن رئيس تحرير صادر نفسه . ها ها ها والحكاية حكاها ــ كما قيل لى فيما بعد ــ فى جمع من الصحفيين الأوروبيين وهم على عشاء معه فى البنت هاوس على سقف مبنى دار الأهرام ، والبنت هاوس بالباء الثقيلة هى الدور العلوى الذى يقيمه الرأسمالى أو المدير العظيم فى أعلى مبنى إدارته لكى يتعشى فيه - وهو على سقف الدنيا - مع مديريه أو خلصائه ويشرب فيه مع خليلاته . .

وحكاية أخرى من حكايات محنة الفكر والعلم فى ذلك العصر الزاهر : فقد كـان السلطان قد تفضل واختار أستاذا من أساتذة كلية الحقوق وجعله وزيراً للتربية والتعليم ، واجتهد الرجل وأظهر همة كبرى ، ومضى يصلح التعليم ويزور المدارس والمعاهد ويضبط الأمور ، وتحدث الناس عن ذكائه وقدرته وما يمكن أن ينال التعليم من خير على يديه ، وسمعنا نحن جميعا بذلك وحمدنا الله عليه ، ولكن ذلك لم يكن يعجب السلطان . . فما كان يطيق أن يذكر الناس إسما إلى جوار اسمه ، والحكاية مشهورة والغيرة داء من أدواء السلاطين ، وكم من وزير من وزراء الخلفاء والسلاطين طارت رأسه ثمنا لاجتهاده وثناء الناس عليه . . وشىء من هذا حدث للوزير الهمام الناجح ، فى ذات صباح وجد نفسه قد أقيل ، والخبر نشر فى الصفحة الأولى من الأهرام بأصغر بنط فى ركن خفى فى ظل اعلان ضخم وأسأل كاتب العصر فى ذلك فيقول :

ـ لا يستحق أكثر من ذلك . .

ـ ولم يزد عليها كلمة . . ولا هو حتى زانها بابتسامة . . إنما هو نفخ دخان السيجار فى الهواء وكأنه يبصق على شىء .

ـ والوزير المذكور هنا هو الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد . .

وكنا نقارب نكبة يونيو ١٩٦٧ ومحنة الفكر وأهل العلم وذوى الكرامة والرأى قد بلغت ذروة رهيبة ، والسجون غصت بالأبرياء ، وأعمال التعذيب وصلت دركات رهيبة وأصبحنا فعلا فى هولوكوست . . وحكاية التأميمات والمصادرات أصبحت حريقا التهم كل ثورة وكل مال ، وشملت الحركة محلات حلوى ودكاكين صغيرة ووراء كل قرار تأميم وقف واحد أو أكثر من السوبر باشوات ينتظر كأنه مستحق فى وقف ، والقرار يصدر من هنا ويستولى هو على المحل بما فيه من هنا ، وكل محسوب يفصل من وظيفة يعين مديرا لشركة أو عضوا منتدبا لمجلس إدارة . . وناس أتوا من الشارع وتولوا إدارة شركات كبرى كانت كلها تربح فانتكس حالها وانحدرت إلى صف الشركات الخاسرة ، حتى شركة قها وشركة إدفينا وكان إنتاجها يباع مقدما لعدة سنوات بمكسب عظيم أصبحتا الآن فى عداد الشركات الخاسرة ، والمسألة لم تكن اقتصادا أو إدارة بل توزيع أسلاب على محاسيب ، حتى الخدم وسواقط العمل كوفئوا على الخيبة بوظائف كبرى ، ومن حسن الحظ أن الشركتين المذكورتين هنا قد خرجتا من عداد الشركات الخاسرة ، بعد أن تغير مجلسا إدارتيهما وكان ذلك بعد أن انتهى عصر السلطان ، ذلك العصر الحزين .

١١ لا خطيئة بغير ثـــــــــواب

صديق كريم يسألنى : قل لى يا أخى : أنت مع عبد الناصر أم عليه ؟ وأجبته : أنا أوفر عليك العناء وأقول إننى أيها العزيز مع شيئين لا ثالث لهما : أنا مع الحق أولا ، ومع وطنى مصر ثانيا ، فأنا مع كل من مع الحق ، ومع كل من مع مصر وهنا لا يكون الأمر أمر أسماء أعلام ، بل مبادىء ، لأن مصر شىء وعبد الناصر شىء آخر ، والسادات شىء ثالث ، فإذا كان عبد الناصر مع مصر فهو يصبح مصر وأكون معه ، ونكون كلنا مع الحق ، وكذلك الأمر بالنسبة للسادات ، ونحن بعد تجارب السنين ومراراتها لابد أن نكون قد فهمنا أنه ليس لنا إلا هذا الوطن . فإذا نحن خدمناه بصدق وإخلاص نجا ونجونا ، وأفلح وأفلحنا ، ولا يتصور إنسان أنه يفلح وحده إذا خسرت مصر ، لأننا وبلدنا شىء واحد ، وكلنا ينبغى أن نخدم وطننا ، وينبغى أن نفهم أننا عندما نكون خدما لمصر فإن مصر تعزّ بنا ، ونحن نعزّ معها ، إنه صاحبها ، وله الحق فى أن يستخدمها كما يريد ، فهو بذل نفسه دون أن يدرى ومصر هى الأرض والناس ، وهى أرض مصر وناس مصر ، وعبد الناصر أذل أهل مصر ، وامتهن حقوقهم وكرامتهم ، ورفع قدر نفسه وهو يحسب أنه بذلك يرفع من قدر مصر .

وعبد الناصر ضيع جزءا عزيزا من أرض مصر . وأذل هذا الجزء من أرض مصر لأذل خلق الله بنص القرآن الكريم . ومحصلة ذلك كله كانت فى مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة ١٩٦٧ عندما جلس عبد الناصر مسكينا مفلسا حطيما يعتذر - بغير كلام - لمن أراد أن يقضى عليهم بمغامرته فى اليمن ، لأنه أصبح الآن فى حاجة إلى أموالهم وعطفهم وصفحهم ، والناس أعطوه وصفحوا عنه . لأنه كان بالفعل قد مات وما بقى من عمره - بما فى ذلك بيان ٣٠ سبتمبر - كان إجراءات تشييع الجنازة .

وشعب مصر الطيب العظيم عندما خرج فى مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ يطلب إلى عبد الناصر أن يسحب استقالته ويظل فى الحكم ، لم يكن يحب عبد الناصر ، ولا كان راغبا فى المزيد من حكمه ، وإنما هو خرج يبكى الأمل الذى ضيعه عبد الناصر ، خرج يرفع العلم الذى سقط من يد رجال عبد الناصر ، وإذا كان لابد أن يختفى عبد الناصر من الميدان ، فلا يكون ذلك أبدا بإرادة بن جوريون ، وموشى ديان ، بل يكون بإرادة شعب مصر . هم هزموه وحطموه ، ولكنهم لم يهزموا مصر ، فسارعت مصر ترفع العلم وتناوله لصاحب العلم ولسان حالها يقول : ارفع علمنا أيها الرجل وسر به ولنحاول من جديد .

ومثل هذا أقول عن السادات ، فلا يحسبنّ أحد أنه يعرف قدره أكثر منى فأنا أعرف أنه الرجل الذى أزال عنا كابوس الذل والمهانة والآلام التى قاسيناها على يد رجال عبد الناصر ، وقوانين ١٥ مايو كانت ثورة بكل معنى الكلمة ، ثورة على الإذلال وامتهان

القانون والعدوان على الأموال والكرامات وأقدار المواطنين ، ونصر أكتوبر ١٩٧٣ نصر رائع بكل المقاييس ، نصر ينعقد فخره بلواء أنور السادات ، وفضله الأكبر يكمن فى أنه أتاح لجيش مصر العظيم الفرصة ليعمل ويظهر مواهبه ويكسب النصر ، وكل جندى من أولئك الأعزاء الذين بذلوا حياتهم رخيصة ، وعبروا وانتزعوا رايات النصر من العدو الخسيس له نصيبه وفضله .

وعندما أشهد فيلما من الأفلام التسجيلية التى تصور لنا مشاهد من معركة العبور فإننى أتمنى لو كان فى ميسورى أن أنهض وأمسح التراب عن حذاء أصغر جندى من أولئك الذين أراهم يطلقون المدافع ، وينزلون القوارب ، ويمدون الجسور ، وأشعر فى نفس الوقت بالعزة تملأ نفسى عندما أرى أسراب طائراتنا تكر على العدو تحطم حصونه تحطيما ، لأننى أعرف أن هذه الطائرات بعملها هذا انتزعت مفتاح النصر ، وعملت ما عجز عن عمله عبد الناصر ، لأن رجال عبد الناصر قالوا له : لا تكن صاحب الضربة الأولى ، انتظر حتى يكونوا هم البادئين ، وعبد الناصر لم يعرف أن حروب اليوم ليس فيها إلا ضربة واحدة ، هى الأولى وهى الأخيرة ، من يكسب الضربة الأولى يكسب الحرب كلها : لأنه لا يوجد ضربة ثانية ، وقائد طيراننا فى حرب أكتوبر كان يدرك هذا ، فأحكم ضربته الأولى فكانت قاصمة وقاضية ، وكانت هى النصر ، والقائد الأعلى فى حروب اليوم يصدر الأمر بناء على تفاهم تام مع قادته العظام ، وقادته العظام يتصرفون فى التنفيذ .

ومن حسن حظنا أن قائد طيراننا فى تلك المعركة - محمد حسنى مبارك - عرف أنها حرب ضربة واحدة ، حرب دقيقة واحدة ، فضرب وكسب ونصر مصر ، فأنا عندما أعترف بالفضل للسادات فلابد أن أقدر أن هذا الفضل قسمة بينه وبين قادته العظام ومن يليهم من رجال جيش مصر ، ولكى أكون مع الحق فى كل ما أقول ينبغى أن أقول : إننى أعترف بالفضل لكل القادة العظام الذين جلسوا إلى مناضد العمليات ، واشتركوا فى رسم خطة النصر وتنفيذها ، حتى الذين اختلفوا مع السادات بعد ذلك . وقال فيهم ما قال ، وقالوا فيه ما قالوا ، فهذا كان بعد ذلك ، ولا علاقة له بنصر أكتوبر ، ونحن لا ننسى قول الله سبحانه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وأنا اقرأ أخبار العصر الناصرى ، وأقف عند باندونج فى ابريل ١٩٥٥ ، وأشعر بالفخر إذ أرى بطلنا المصرى جمال عبد الناصر يتألق كواحد من قادة الدنيا فى مؤتمر عدم الانحياز ، وأعجب به وبحسن تصرفه وشخصيته التى جذبت الدنيا إذ ذاك ، وأقرأ عن زيارة السفير الروسى شبيلوف لعبد الناصر فى يوليو ١٩٥٥ وعرضه تقديم أسلحة للجيش المصرى ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر فى سبتمبر ١٩٥٥ فأعرف

لعبد الناصر فضله ، وأعجب ببسالته . . فقد كان لتلك الصفقة أثر معنوى عميق فى نفوس المصريين والعرب وأهل العالم الثالث ، وأنا هنا أشعر بالزهو ، لأن مصريا حرر الإرادة المصرية أولا ، ثم خطا فأصبح واحدا من أكابر زعماء الدنيا ، ثم خطا خطوات أخرى فأصبح أكبر زعيم سياسى فى الدنيا خارج أوروبا والولايات المتحدة وروسيا .

ولكننى عندما أطوى الصفحة وأنظر إلى أحوال المصريين فى ذلك الوقت فإننى أرى أن الثمن الذى دفعوه لكى يرتفع اسم واحد منهم يجعل الصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها المظهرية ، فغير معقول أن يذل كل المصريين لكى يعز واحد منهم فحسب ، وما كان يجرى فى مصر إذ ذاك كان أسوأ من أن يصدق ، والمصرى الذى عرف ألوانا من الظلم والحرمان فى العصور الماضية - أيام المماليك والأتراك مثلا - وعرف خيبة الأمل والحيرة ، والشك بل اليأس فى أيام الانجليز والملك والباشوات هذا المصرى بدأ يعرف لونا أسود من الظلم فى أيام عبد الناصر ، ظلم الخوف والإرهاب والسجن الطويل والتشريد والفصل من الوظيفة والحسرة لجوع الأولاد ، وإقفال الناس الأبواب فى وجه المغضوب عليه ، وذل الحاجة إلى القرش بل إلى الرغيف .

وإذا كان المملوك يسرق لأنه حقير ، والتركى يجلد لأنه غبى والباشا لا يكترث لأنه كان مشغولا بجمع مال يجعله ضمن الأثرياء ، فإن عبد الناصر كان يذل الناس ويعذبهم ويمتهن كرامتهم لأنه كان يحس أن مصر لا تتسع لإنسان آخر عزيز النفس مرفوع الرأس إلى جانبه ، كأنما كان يرى أن تحرير الإرادة المصرية ، معناه ألا يبقى على وجهها إلا رجل واحد له إرادة حرة هو عبد الناصر نفسه ، وأى مصرى آخر يفكر فى أن له كرامة وعزة إلى جانب العزيز الأوحد إنسان منحرف ، ينبغى أن يزول ، ومتمرد لابد أن يحطم ، وخطر لابد من القضاء عليه .

وأذكر هنا حكاية قصّها علىّ مملوك السلطان الذى جاءنا سفيرا فى مدريد ، وكان الرجل يحتاج بين الحين والحين إلى رجل يفتح له قلبه ليسمع نغمة غير نغمة الخضوع والذل والملق التى كان يسمعها ممن حوله ليل نهار .

كنا فى جزر الكناريا ، ونزلنا العاصمة (لاسى بالماس دجران كناريا) وزرنا حاكم المحافظة ، وهو قائد بحرى بدرجة أميرال ، ثم أبلغونا أن الأميرال سيمر على السفير فى الفندق ليرد الزيارة ، وجلسنا ننتظر فى صالون خاص أعده الفندق للمناسبة ، ولم يكن مع السفير غيرى ، وتأخر الحاكم بعض الشىء ، فظن السفير أن التأخير مقصود ، يراد به المساس بكرامة السفير المصرى ، فبدأ يتحدث فى الانسحاب إلى غرفته احتجاجا . وبينما نحن فى ذلك اذ حضر الأميرال المحافظ واعتذر عن التأخير ، وأبدى من الحفاوة بالسفير

ما ملأ نفسه سرورا ، ثم زاد على ذلك بما أطربه حقا ، وهو أنه حمل له هدية ذات قدر ، فإن فى إشبيلية مصنعا لصنف ممتاز جدا من الخزف يسمى لاكارتوخا ، والهدية كانت طقما بديعا للسفرة من هذا الخزف يملأ صندوقا ، بدا لى كأن حجمه متر فى متر ، وزاد الأميرال على ذلك صينية صغيرة من الفضة لى ، ولما كان السفير - جريا على روح العصر - يرى أن كل شىء لابد أن يكون لمماليك السلطان فقد ضم الصينية إلى « الصحارة » واعتبرها كلها هدية له ، ولم أحفل للأمر لأنك مع رجل كهذا لا تطلب إلا السلامة .

وكأنما أحس الرجل أنه افتات علىّ ، فأراد أن يعوضنى عما أخذ بالتلطف معى والنزول إلى مستواى وفتح قلبه لى ، وفى عودتنا إلى الفندق نزلنا وطلب إلى السائق أن يذهب بالأشياء إلى غرفته فى الفندق ، ثم يعود ليأخذنا ، لأنه يريد أن يتمشى معى على شاطىء البحر وأنشأ يقول :

ـ كل غسيلهم القذر قمت بغسله ، ثم « ينفوننى » بعد ذلك إلى آخر الدنيا كما ترى ، هل تتصور يافلان أن أحمد أبا الفتح كان صديقا لنا وحليفا للثورة قبل أن تقوم وبعد أن تمت ، وكنا نجتمع عنده لنتدارس ونتشاور ونتسامر ، وتعشينا عنده ليلة ، وأسبغ الرجل علينا من فضله ، وسهرنا وتسامرنا ، وفى مساء اليوم التالى يناديني عبد الناصر ويقول :

ـ تذهب الآن إلى بيت أحمد أبي الفتح وتقبض عليه وتحبسه .

وأدهش للأمر وأنكره ، وأنظر إلى عبد الناصر وأقول :

ـ أمرك ياسيادة الرئيس ، ولكن هذا الرجل صديقنا ومنا وعلينا ، وأمس فقط كنا عنده على أحسن حال من الود والصفاء ، فإذا كان قد بلغك عنه شىء فدعنى أستوثق منه فأنا عليم ببواطن الأمور ، ولكن لعل شيئا قد خفى علىّ . وينظر إلىّ عبد الناصر والشرر فى عينيه ويقول فى ازدراء :

ـ أنت عليم ببواطن الأمور ؟ أنت نائم على آذانك ، والمؤامرة تحاك من حولى ، إمض لما آمرك به ، وأرجوك ألا تناقشنى فيما آمرك به بعد الآن ، وما دمت تتصدى للدفاع عن أعدائى فسأريك عاقبة تصديك ، عليك أن تأمر قائد السجن بأن يشدد عليه ويعذبه ، ومن الليلة لا ينام إلا على البرش . وليكن فى علمك أننى لن أتردد فى أن أدوس على إبنى نفسه بقدمى لو أراد أن يزحزحنى عن الأرض التى أقف عليها .

وكان لابد أن أصدع بما أمر ، فأخذت رجالى وبلورى وذهبنا لتنفيذ هذه المهمة ، وحتى لا أجد فى نفسى حرجا من القبض على صديق أكلنا معه إلى الأمس خبزا وملحا

ظللت فى سيارتى ، وأمرت ياورى والعساكر بأن يصعدوا إلى البيت ويأخذوا الرجل ، وقام الياور والعساكر بالمهمة ، وأتوا بالرجل فوضعناه فى « البوكس » دون أن أراه ، وبعد أن أسلمناه للسجن وأبلغنا قائده تعليمات الرئيس قال لى الياور ونحن فى طريق العودة :

ـ والفيلا ، ماذا ستصنع بها ؟

ـ أى فيلا ؟

ـ فيلا الرجل الذى أمسكناه الآن ، إنها شىء فاخر لا يليق إلا بك . فنهرته وقلت له إننى لا أمد يدى على مال صديق ، ويكفى ما أصابه على يدنا .

فيقول الياور :

ـ إذن بعد أذنك ، آخذها أنا .

ـ تأخذها أنت !؟ أما أعطيناك الشقة التى اخترتها أنت بنفسك فى جاردن سيتى ؟

ـ هذه أعطيها لأختى ، وآخذ أنا الفيلا ، ففيها حديقة ترد الروح ، والأولاد فى حاجة إلى حديقة .

قال السفير : فشتمته ولعنت أبا خاشه ، وقلت له : أما الرجل فقد قبضنا عليه وأودعناه السجن ، ونفذنا أمر الريس ، وأما عائلته فهى فى رعايتى ، ولن يمس أحد بيته بأذى ، وأنا أنذرك أنت وأمثالك ، لو نظر واحد منكم إلى هذه الفيلا نظرة فالويل له منى .

وبعد أيام أكون مع عبد الناصر فيقول لى :

ـ منذ متى أنت وفلان حبايب ؟

فحكيت له الحكاية فقال بعد تفكير :

ـ عندما أقول لك أن فلانا عدو لى وخطر علينا ، فمعنى ذلك أنى متأكد مما أقول ، وهؤلاء الناس كلهم يستحقون الحرق ، وليحمدوا الله على أننا نكتفى بوضعهم فى السجن .

ـ ولكن ياسيدى الريس ما الذى بلغك عن هذا الرجل ؟

ـ وهل تظن ياسى فلان أننى ليس عندى غيرك ؟ وهل تغيب عنى حركة تصدر منك ، أو من غيرك فى هذا البلد ؟ افتح عينك يافلان واعلم أن ألف خيط ترتبط بكل أصبع من أصابعى هذه ، وأنا أقول لك هذا الكلام لأنك صديقى وأنا أحبك ، أما غيرك فإننى أشد الخيط على رقبته حتى أخنقه .

ويسكت قليلا ثم يعود فيقول : إن صدرى ينفجر يا فلان ، وأريد أن أتحدث إلى رجل يفهمنى ، إنهم يأخذون العيال ويعملون منهم وزراء ، وفلان ياورى الذى حدثتك عنه أصبح الآن من أقرب الناس إلى أذن الريس ، ولولا أنه يعلم أننى عظمة زرقاء لأكلنى ، وعندما طال بى العهد فى العمل البغيض الذى ارتبط باسمى أعفانى منه ، وعيننى وزيرا فى الحكومة الاتحادية مع اليمن ، وكانت وزارة تكسف ، وشكوت للمشير ، والمشير أشار بابعادى .

وهذا الكلام أقوله لك لتعلم أننى مشكلة لعبد الناصر ، فأنا أكبر منه وأقدم . وقمت له بخدمات ما كان أحد يستطيع القيام بها غيرى ، ومن كانوا يجدونه يستطيع أن يقوم بصفع نقيب عمال على وجهه وكسر أنفه وسط الناس فى المطار إلا أنا ؟ لقد كان لابد أن نفعل ذلك ، وكان لابد من تحطيم رأس هذا الرجل الذى طغى وظن نفسه بنى آدم له كلمة وقيمة فما وجدوا والله لها غيرى ، ثم ماذا كانت مكافأتى ؟ وزير فى وزارة لا يحس بها أحد ، وفلان وهو عيل بالنسبة لى يمسك واحدا من أعظم المشروعات الزراعية فى البلد ، ويضعون تحت يده الملايين ، وهو لا يفرق بين كوز الذرة وعود البرسيم ، وها هو ذا اليوم ملك زمانه ، وعنده ملايين لا يعلم بأمرها إلا الله ، وتحت يده موظفون بمرتبات وزراء والف سيارة مربوطة على بابه كأنه ملك .

وأنا يعطينى المشير سيارة هالكة ، فآتى بها إلى هنا فيبلغون الريس أننى أخذت عشر سيارات أتاجر بها هنا ، والسيارة أنت تعرفها وقد رأيتها سيارة « خردة كحيانة » لا أعرف كيف أتخلص منها ، هل هذا عدل يا فلان ؟ .

وأصمت برهة من الوقت ثم أقول :

لا أدرى ياسيدى السفير ، ولكننى كنت أتمنى لو لم تقل لى من ذلك شيئا ، وقد كنت حمدت الله على أنك رضيت أن تتركنى فى حالى فى المعهد أخدم العلم بعيدا عن هذه الأمور ، والآن أنت تستودعنى أشياء تشبه الأسرار .

فينظر إلى ويقول : أسرار ؟ وهل تظن أن هذه أسرار أخشى أن تنتشر ؟ لو كنت أراها كذلك ما قلت لك منها حرفا ، وما قلته لك يعرفه مئات الناس ، ولا يضيرنى فى شىء أن ينضاف إليهم واحد ، ولك أن تحكى عنى كل حرف ، فأنا لا أخشى أحدا ، والريس يعرف ذلك ويحبنى من أجله .

ــ ومع ذلك فأنا ياسيدى السفير رجل كتوم طول عمرى ، وما أسمعه من صديق لا يجرى به لسانى فى أى موضع آخر قط ، وقد سرنى أنك ألقيت إلى ببعض ما فى نفسك .

ورأيت فى عينيه نظرة تقدير ومودة ، وعادت السيارة فأخذتنا .

ومن أطرف ما أضيفه إلى هذه المناسبة أن ذلك الرجل عندما نقل سفيرا إلى بلد أوروبى آخر كتب إلى من هناك خطابا كله تقدير ، بدأه بقوله إنه لم يكتب فى حياته خطابا أكثر من عشرة أسطر ، وكان الخطاب يقع فى ثلاث صفحات .

وبمناسبة ما ذكرته عن حبس هذا الأستاذ الصحفى الكبير أذكر أن موجة المصادرات والتأميمات والإعتقال والتعذيب كانت تتصاعد من ١٩٥٤ فصاعدا حتى بلغت درجة لم تعرفها مصر أبدا ، وشمل الخوف الناس أجمعين ، حتى أصبح المصرى - أى مصرى - لا يضمن أن ينام فى بيته الليلة التالية ، وألوف المصريين أُخذوا من بيوتهم بليل ولم يعودوا إليها أصلا ، أو عادوا بعد سنوات .

وصديق لنا من كبار أهل العلم ومفاخر هذا البلد ، فهو لغوى وعالم بالحديث ، وأديب لا ثانى له فى عالم العرب والإسلام ، اخذوه من بيته بليل بوشاية حاسد ، والرجل الكريم الذى ينبغى أن تشترى كل لحظة من حياته بأغلى ما نملك قضى سنوات من سجن لسجن ، وخلال السنتين الأوليين لم يعرف أهله أين يكون ، فقد انقطعت أخباره ، حتى خيف عليه ، ولم يردوه إلى بيته إلا بعد أن أشفى على الهلاك ، ورجل آخر منهم عمل مع السوبر باشوات وكان من أوائل من عملوا فى جرد القصور وإحصاء ما فيها ، وتلك كانت خطيئته فإن كل شىء رآه واحصاه نهب بعد ذلك ، ومن بين ما رآه بنفسه وأحصاه : ٢٤ فنجان قهوة بأطباقها وكلها من الذهب الخالص الرصين ، وقد قدر الخبير المثمن الذى عمل فى اللجنة كل واحد منها بعشرة آلاف من الجنيهات ، فقد كانت كاساتها الذهبية مرصعة بالجواهر ، فلم يعد أحد فى مصر يراها ولا عثر إنسان إلى دفتر الجرد الأول ، ولكن بعضها ظهر فى فيينا ، وبعضها الآخر فى باريس ، وصينيات مختلفة الأحجام من الفضة الخالصة مرصعة بالتوباز والعقيق والزمرد اختفت فى مصر وظهرت فى أكياسها من المخمل فى الولايات المتحدة .

ولقد ذكرنى ذلك بمحافظة الفرنسيين رغم طول سنوات الثورة الفرنسية على كل قطعة من ذخائر قصور فرساى وتريانون والبتى - باليه وماليها ، فكلها ما زالت موجودة فى قصورها أو فى المتاحف ، وذكرت أيضا حرص الروس على المحافظة على كل « خشبة » كانت فى قصور القياصرة والأشراف ، وكل قطعة بلور فى كل ثريا من ثريات المترو فى لينجراد وموسكو ، تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : هذا هو الفرق بين ثورة تقوم على أيديولوجية وثورة تقوم على مطامع ، هذا هو الفرق بين ثورة يقوم بها ناس مثقفون يعرفون

قيمة الوطن وقيم الأشياء ولا ينظرون إلى السرقة والنهب لأن قلوبهم معلقة بمثل أعلى ، وثورة يقوم بها ناس ليس لديهم أى أيديولوجية ولا فكرة عن الثورات وكيف تقوم لخدمة الوطن لا لخدمة أفراد ، لقد أعدم روبسبير رجلا سرق خاتما أخذه من أصبع جندى من جنود الملك قتل فى الهجوم على قصور التويلرى وأعاد الخاتم إلى وزير المالية ، وكتب بيانا بذلك قال فيه إن هذه ذخائر فرنسا ولا بد أن تظل لشعب فرنسا ، وأوجست روبسبير كان سفاحا كما نعرف ، ولكنه كان سفاحا له مبادىء وفى رأسه ثقافة ، كان يسوق الناس إلى المقصلة قبل أن يسوقوه لأنه كان معتقداً أن بقاءه هو نفسه ضمان لتحقيق أهداف الثورة .

ولينين لم يستطع الصبر حتى يعيدوا ترتيب ذخائر متحف الايرميتاج ، فذهب إلى هناك فى صحبة مكسيم جوركى لكى يملأ أعينهما من رؤ ية ذخائر الفن التى تملكها روسيا . كان سفاكا للدماء ولكنه كان رجلا مثقفا له مبادىء وأيديولوجية ، ولهذا فإنه لم يكن لصا أو « حرامى » - كما نقول - لأن اللصوصية حقارة ، ولينين لم يكن حقيرا أبدا ، (وجفرى بك مملوك مراد بك كان أسرع - عندما تأكد من هزيمة المماليك فى موقعة امبابة - إلى قصر مراد بك وسرق جواهر كثيرة ، وأمينة الحدادية - حرم مراد بك - بصقت فى وجهه ورفعت السيف لتضربه به ، ومراد بك فى انسحابه إلى الجزيرة بعد الهزيمة أسرع إلى بيته الصيفى فى الجيزة فوجد مماليكه نهبوه فلم يتردد فى الهجوم على قصر البرديسى فى طريقه ونهبه لأنه ـ مثله مثل جفرى بك - كان لصا ولم يكن فارسا أبدا ، وكل التركيبة المملوكية كانت تركيبة خدم ولصوص ونهابين بلا كرامة ، ولهذا فقد كانت تهون عليهم كرامات الناس ويذلون الناس ، ولا يذل الناس إلا ذليل ، ولن تجد أبدا رجلا كريما أصيلا عزيز النفس يرضى بذل أحد . وفردريك الأكبر ملك بروسيا عندما قبض على نفر من القواد كانوا يتآمرون عليه أمر بإعدامهم جميعا بالرصاص إلا واحدا تهافت وألقى بنفسه عند قدميه يقبلهما ويستعطفه فأمر بشنقه لأنه نذل ذليل .

وإذا نحن صرفنا النظر عما نهب وتبدد فى جيوب السوبر باشوات لأنه متاع ضاع ، والمتاع يمكن تعويضه - فإن أحدا لا يمكنه تعويضنا عما ضاع من احترامنا للنظام والقيم والأخلاقيات ولهذا فنحن لا نستطيع صرف النظر عنه ، لأنه ليس أضر بالشعوب من إخافة الناس وتهديد أمنهم وإهانتهم وإهدار كراماتهم ، وخاصة إذا جاء ذلك كله على يد أولياء الأمر ، لأننا شعب قروى منظم تنظيما عائليا منذ القدم تعودنا أن نلتمس القدوة فى الكبار ، وشعب مثل شعبنا يتربى بالقدوة ويتعلم بالمثل الصالح ، فإذا كانت القدوة سيئة ، والمثل غير صالح كانت البلية بلا حدود .

وإننا لنصطدم اليوم بأمثلة مروعة من التعدى على أموال الدولة والناس ، واجتراء

بعض الأصاغر والأكابر على العرف والأخلاق فتتعجب ، ولا موضع للتعجب فيما أرى . لأن عشرين سنة فى مدرسة السوء هذه كانت كفيلة بأن تخرج هذه الصنوف من المردة المتجرئين على كل مال وعرف ، وما دمت قد كممت الأفواه وكبلت الصحافة والرأى ، فكأنك أطفأت الأنوار ، وأطلقت اللصوص وقطاع الطرق وجرأتهم على النهب ، ودفعتهم إليه ، وشاركتهم فيه ، وفى إخفاء جرائمهم عن الناس ، ولا يكتم الحقائق عن الناس ويتستر على المجرمين والمعتدين إلا من كان شريكا لهم .

وفى القرن الهجرى الرابع ، العاشر الميلادى ، تولى امر بغداد رجل داعر من البويهيين ، فاتفق مع عدد كبير من قطاع الطرق فى بغداد على أن يتقاسما النهب ، وكان البويهى معدوم الحياء أصلا ، فزعم لرؤسائه أنه إذا عهد بالشرطة إلى كبير قطاع الطرق كف أذاه عن الناس ، وكان هذا اللص يسمى حمدى (بفتح الحاء والميم) فأقيم رئيسا لشرطة بغداد ، وتقاسم الحاكم غنائم النهب والسطو مع اللص باسم القانون ، والقصة مشهورة رواها أبو الحسن على بن مسكويه فى « تجارب الأمم » وهو تاريخ الخلافة العباسية فى عصر الانحدار ، وهذا التاريخ مرسل فى صورة أخبار وحكايات قصيرة

قال ابن مسكويه : إن مصيبة اللص رئيس الشرطة تعاظمت ، واشتدت البلوى والبويهى يتعامى ويتصامم ، وفى ذات صباح خرجت أخت الحاكم واسمها « لطيفة » فى جواريها وخدمها إلى الحمام ، وتأخرن فيه حتى المغيب ، فإذا كن فى طريقهن إلى القصر كبسهن اللصوص ونهبوا الجمل بما حمل ، ووقعت لطيفة فى المغنم وطلب الحاكم إلى شريكه اللص أن يعيد إليه أخته وجواريها ، فلم يستطع ، فما كان من الحاكم الخسيس إلا أن أعلن ان اخته لم تخطف ولم تختف ، بل هى لم تكن فى الرفقة أصلا ، وها هى ذى فى دارها مصون ، فلما سمعت لطيفة ذلك أعماها الغضب على أخيها ، وكانت قد وقعت فى يد لص زنيم يسومها الخسف ، ويصر على أن ينزلها دار البغايا ، وبلغ غيظ لطيفة من أخيها الذى أماتها بالحياة أن استجابت لما طلب منها اللص ، وصارت تبذل نفسها للرجال وتقول : أنا لطيفة أخت زفت الدولة ، فتهافت عليها أهل الفسق ، ووجدت نسوة الدار أن هذه الدعوة تجلب المال فصارت كل منهن تقول أنها لطيفة .

ويكمل القصة أبو حامد الغرناطى فى « تحفة الألباب » فيقول إن البويهى عندما دبر قتل أخته لطيفة لم يستطع ، لأن كل بَغِى فى البلد أصبح اسمها لطيفة ، يقول أبو حامد : فلم يبق فى بغداد داعر إلا أصاب من شرف الوالى الخسيس بالاسم أو بالوهم .

ومن العجيب يا أخى أن هؤلاء السوبر باشوات لا يصيبهم المكروه أبدا ، والمكاسب وأبواب الثراء تتفتح أمامهم دون جهد ، فيبدأ الواحد منهم بدار من الحراسة ، وبعد قليل

تجد الدار قد امتلأت رياشا وتحفا وذخائر . وبعد ذلك تجده أصبح مالك الدار والأرض دون أن يدرى أحد كيف ، ثم تجد الدار تعلو طبقة بعد طبقة حتى تصير عمارة ، والعمارة تلد عمارة ، والسيارة تلد سيارة ، وحسابه فى البنك يلد حسابات .

وقد كان عبدالناصر إذا غضب على إنسان أوبلغته فى حقه وشاية ألقى به فى السجن فإذا كان السجين رجلا طيبا من الأبرياء أو من أهل الدين والتقوى لم يخرج من السجن إلى آخر أيامه ، فإذا خرج فعلى نقالة ، وإذا كان من السوبر باشوات لم يمكث فى السجن إلا ريثما يستجم ، ثم يشمله العفو فيخرج من السجن برىء الذمة ، ولابد من تعويضه ، والبركة فى شركات القطاع العام أيام عبد الناصر ، فنجد صاحبنا مديرا لشركة ، والشركات عندهم كانت «على قفا من يشيل» ، والشركة لابد أن تخسر ، ولكن صاحبنا المدير لابد أن يكسب ، ثم يضيف إليها شركة أخرى أو شركتين ، ويدفع فيها بأبنائه المحروسين وبناته وأزواج البنات ، وتكية السلطان واسعة . ثم تجد أبناءه قد فتحوا شركات استيراد وتصدير أو مقاولات ، والمال ينصب عليهم كالسيل وإذا لم يكن للسوبر باشا مزاج فى الشركات ، فأقل ما يعرض عليه وظيفة وزير مفوض أو سفير رأسا ، وهناك يكون النهب التمام ، وهكذا تجدهم جميعا كل يوم فى مال أوفر ، ونعمة أسبغ .

وقد عرفنا سفيرا استقدم قريبا له ، فأنشأ شركة تجارية غير بعيدة من السفارة ، ومع أن السفارة كان يتبعها مكتب تجارى فإن الطلبات ترد إلى السفارة ، فتتلكأ فى الدرج شهورا ، ثم يعهد بها إلى مكتب التجارة الجانبى بحجة أن المكتب التجارى لا يعتمد عليه ، لأن الذى يعمل فيه خريج التجارة ، والمفروض عندهم أن خريج التجارة ، لا يفهم فى التجارة ، ولا خريج الهندسة يفهم فى الهندسة ولا خريج الأزهر يفهم فى الدين ، وهم وحدهم الذين يفهمون كل شىء : تجارة وزراعة وطب وهندسة وآداب وإعلام ودين ، وصاحبنا يورد كل شىء ، والوقت ضاق بسبب تأخر الأوراق فى درج السفير ، ولم يعد يتسع لمناقصات أو ممارسات ، ويتم الاستلام وتصرف الفواتير ، وغيرها ، والمال الحرام يستمر إلى ما لا نهاية .

وفى ذات يوم قيل لنا أن قريب السفير هذا وقع ، ووصل إلى مطار القاهرة فقبضوا عليه وقلنا : جاء وقت الحساب ، وبعد سنتين وشهور أكون فى باريس وأدخل فندقا عظيما لكى أسأل عن صديق ، فما يطيق مثلى تكاليف هذه الفنادق ، فأجد صاحبنا الذى قبضوا عليه متمددا فى البهو كأنه ملك الزمان وإلى جانبه مقصوفة الرقبة امرأته حمالة الحطب ، وفى جيدها - سبحان الله يا أخى - عقد الماس إياه ، والقاعدة فى عصورهم كانت لا خطيئة بغير ثواب ، واسترسالا مع المنطق قالوا لا حسنة بلا عقاب ، والذين سرقوا ونهبوا فازوا

بالثواب كله ، والذين أحسنوا وصدقوا ونصحوا حلت بهم النقمة ، وحاق بهم العقاب أو الإهمال أو الازدراء على الأقل ، وأقل ما كان السوبر باشا يصل إليه درجة وكيل وزارة ، وهنا يندب حظه ويعد نفسه فى المظلومين .

وأعجب من ذلك كله أنك لا تذهب إلى الحجاز فى حج أو عمرة إلا وجدت منهم طائفة ، نهبوا ثواب الدنيا وسبقونا إلى ثواب الاخرة ، وفى لباس الإحرام يتبختر السوبر باشا والمصحف فى يد والمسبحة فى يد وفوق رأسه هالة القداسة : من ذهب مرصعة بجواهر القصور .



(١٢) الجمل وما حمل

كان الرئيس جمال عبد الناصر يبذل فى عمله جهدا مضنيا .

كل الذين عرفوه وخالطوه وعملوا معه يشهدون أن الرجل كان فى جهد متصل من الصباح الباكر إلى الليل . وفى الليل المتأخر عندما يخف ضغط المقابلات والاجتماعات كان الرجل يجلس إلى مائدة الطعام الواسعة وقد جعلها مكتبا ، وبسط عليها الملفات والتقارير والكتب ، وأخذ يقرأ ساعات طويلة من الليل . وإلى جانبه تليفونات تصله بمراكز القوى والخلصاء ليتصلوا به إذا دعت الحاجة ، وليتصل بهم وقتما يريد .

والرجل كان ينام مجهدا ويصحو مجهدا ، وما أكثر الأيام التى بدأ يومه فيها وهو فى غاية التعب ، واستمر يعمل ويغالب الإجهاد إلى الليل . وقد ظهر عليه الإجهاد خاصة بعد أن أصيب بالسكر وأصبح فى حاجة إلى شىء من الراحة ، ولكن المشاغل كانت كثيرة جدا وكان هو يستعين عليها بالتدخين . أحيانا كان يصل ما يدخنه إلى أربع علب فى اليوم وثمانون سيجارة هى فى ذاتها مرض .

وكان عبد الناصر إلى جانب ذلك زاهدا فى الأموال والخيرات . كان السلطان حبه الوحيد ولذته الوحيدة ، كان طعامه أقل طعام ، ولم يكن ينعم بالأكل إلا فى النادر .

وفى الليل بينما كان غيره - ممن يعيشون من يديه - ينصبون الموائد ويأكلون ويشربون ألذ ما فى الدنيا من مأكل ، ويسكنون فى قصور كل ما فيها فخامة وترف - وكله من خيره هو - كان هو يتعشى خبزا وجبنا أبيض ، ومعه أحيانا شىء من الخيار أو الخس . وفناجين القهوة السادة التى لا تنتهى .

وأنا عندما أسمع هذا الكلام لا أشعر بإعجاب أو إشفاق ، لأن أمثال هذا الرجل حملوا هذه الأعباء الضخام لأنهم أرادوا أن يقبضوا بأيديهم على كل شىء ، لأنهم عشاق السلطان المطلق ويريدون أن يكون كل شىء فى قبضتهم ، وقد روى عن عبد الناصر أنه قال مرة : لن أستريح حتى يأكل الملايين الثلاثون - وهم سكان مصر أيامه - من يدى هذه ، أى يكون هو المعطى الوهاب ولا معطى ولا وهاب غيره ، ويكون هو الباسط والقابض فلا رزق ولا مال إلا من كفه . وهذا تحميل للبدن فوق ما يطيق ، ولا يقدر على القدرة إلا القادر كما يقولون ، ولكن أصحابنا عشاق السلطان وهواة التحكم فى رقاب الناس يجدون لذة فى تعذيب أنفسهم بهذا الإرهاق .

وعبد الناصر كان له مساعدون كثيرون جدا . ولكنه كان لا يثق فى أحد منهم ، وكانوا هم يعرفون ذلك ويعرفون كذلك أنه لا يحترم لهم رأيا لقلة ثقته فيهم ، فهانت عليهم نفوسهم نتيجة لذلك ولم يعودوا يخجلون من شىء ، ثم إن الناس كانت ترهبهم ظنا منهم أنهم موضع ثقة الرجل .

والصحفى الكبير الذى كانوا يقولون أنه مخزن الفكر للريس لم يكن فى الحقيقة وفى أعظم أيام عزه وسلطانه أكثر من نديم أو مشير . وعبد الناصر كان يضرب بكرامته عرض الحائط إذ أراد . وقد تبينت ذلك من قراءتى للمذكرات التى كان يكتبها فى جريدة الشعب خاصة بما جرى على الصحفيين الكبيرين على أمين ومصطفى آمين وما أصابهما من سجن وضرب ، فأنت تجد صاحبنا يشير على عبد الناصر بالرأى أو يطلب منه الطلب وعبد الناصر لا يكاد يصغى إليه . ولا يتم إلا ما فى ذهن عبد الناصر نفسه ، لأنه لم يكن يثق فى هذا الصحفى أو غيره ، أما أنه يدخل عليه ويتصل به وقتما يريد فمسألة لا معنى لها لأن عبد الناصر كان فى حاجة إلى أن يتصل بأحد ، وكان لابد أن يكون له سمير أو نديم أو إنسان يتحدث معه ، وصاحبنا كان نديما سميرا واسع الذكاء كثير المعارف واسع الاطلاع . وعبد الناصر كان يجد فى الجلوس إليه والاستماع منه تسرية عن نفسه وتسلية وتخفيفا من وطأة العمل . أما أن هذا الرجل كان صاحب رأى عبد الناصر فغير صحيح إلا فيما يتعلق بالتوافه والشكليات . وقد كان هذا الصحفى يعرف عن أحوال الجيش قبيل اعلان حرب ١٩٦٧ الشىء الكثير ، ولكنه لم يجرؤ مرة واحدة على أن يقول الحقيقة لعبد الناصر ، بل لم يصارحه بما كان يدور فى ذهنه ، وكان هذا الصحفى يسمع من الامريكيين كثيرا جدا عن احتمالات الهزيمة أو أنها مؤكدة . ولكنه لم يقل لعبد الناصر حرفا لأن وظيفته لم تكن البحث عن الحقائق وإطلاع الرئيس عليها بل التحرى عن الحقائق التى يريد عبد الناصر أن يؤكدها لنفسه فيبلغه ما يشتهى ، وإذا أراد أن يرتفع بإنسان أتته صفحة الرجل بيضاء من غير سوء .

وهكذا كانت للرجل ألف عين ومع ذلك فهو لا يرى إلا ما يريد أن يراه . وقد خطر له مرة أن يؤدب نيكيتا خروتشيف فقال فى بعض خطبه كلاما يتضمن نقدا شديدا لسياسة الروس حيال العالم العربى ، فلم يعن خروتشيف بالرد عليه وتبيان وجوه خطئه فى كل المعلومات التى قالها ، ولكنه « سرب » المعلومات إلى الإسرائيلين والمخابرات الإسرائيلية التى تولت ــ بطريقتها ــ إيصال « حقائق » عن عبد الناصر ورجاله لم يكن يعرفها هو عن نفسه ومساعديه ، وقد أرسلتها له عن طريق أصدقائه من الأمريكيين الذين لم يكن بينه وبينهم حجاب ، ولم يوصلوها عن طريق رجال عبد الناصر وعيونه لأنهم كانوا يعرفون أن رجاله وعيونه غشاشون ، وقد أحاطوا به بعد ذلك وأفهموه أن خروتشيف يغار منه ولم يقل عبد الناصر شيئا ، وفى أحد خطبه قال خروشيف أن عبد الناصر مراهق سياسى وأنه لا يزن كلماته وأفعاله حق الوزن وهذا الخطاب مشهور ، والذى تأدب فى النهاية كان عبد الناصر فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومن المعروف أن الذين أنزلوا به الهزيمة ــ أو بنا نحن بتعبير

أصدق ـ كانوا الأمريكيين والإسرائيليين . وتلك كانت فى نظر عبد الناصر نهاية الدنيا ، ولهذا فلم تقم له فى عالم السياسة الدولية بعد ذلك قائمة وإن كان الاستبداد الناصرى بلغ ذروته فعلا بعد الهزيمة والقضاء على عبد الحكيم عامر وخلو الميدان من كل منافس أو معترض .

وما الذى كان عبد الناصر يقرأ ؟ ومن الذين كان يقابل ؟ وما هى المسائل الرئيسية التى كانت تشغل ذهنه وقلبه ؟

أشياء كان يقدمها له ويشغله بها من حوله ومنهم الكثير من السوبر باشوات . ومنهم أيضا ناس طيبون أكفاء ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئا كثيرا وكان فيهم الكثير من الأمريكان والروس وبعض أهل ثقته وبعض خاصته من العرب أو مندوبوه فى العواصم العربية سواء أكانوا سفراء أم ملحقين فنيين أم مندوبين خاصين .

وكان حول جمال عبد الناصر زحام شديد من الناس ، من هؤلاء وغيرهم ، لأنه بعد أن كسب معركته مع محمد نجيب فى فبراير ١٩٥٤ بدا بوضوح أنه القوة الجديدة المحركة فى عالم العرب واتجهت إليه الأنظار والآمال ، وأصبح ـ بسبب تدافع الحوادث فى المنطقة ـ محور النضال السياسى فيها . واستغرقت شئون السياسة العربية والدولية وقت عبد الناصر كله ، وانصرف عن الشئون الداخلية وتركها لمن كان يظن أنهم خدمه المخلصون ومعظمهم سوبر باشوات .

وتفتحت أبواب المغانم والمكاسب أمام هؤلاء . ومصر كانت إلى ذلك الحين بلدا غنيا وخزائنها عامرة وبترول العرب لم يكن قد دخل الميدان بعد بكل وزنه . وقد غابت عن عبد الناصر الحكمة الذهبية التى تقول : لكى تكون سياسيا قويا خارج بلدك ينبغى أن تصرف كل جهدك لشئون داخل بلدك .

ومركز القوة الحقيقى لأى سياسى يكون داخل بلده لا خارجه . ففى نفس الوقت الذى وصل فيه عبد الناصر إلى الرياسة المطلقة فى مصر سقط أديب الشيشيكلى رئيس سوريا ، ودخلت المشكلة السورية فى مرحلة حافلة بالأخطار ، وأصبحت من ذلك الحين إلى يومنا هذا جرحا داميا فى الجسد العربى ينزف دون توقف . والجانب الأكبر من متاعب العرب فى العصر الحديث أصله سوريا ، لأن سوريا ـ وهى القطعة الكبرى من القطع الأربع التى أنشأها الاستعمار من أشلاء بلاد الشام القديمة ـ أصبحت جغرافيا وبشريا وسياسيا واقتصاديا عاجزة عن القيام بأمر نفسها . وبلاد الشام القديمة (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) كانت وحدة جغرافية بشرية سياسية اقتصادية كاملة ، فلما مزقوها قطعا

أصبحت كل قطعة كيانا كسيحا لا يمكن أن يقوم بنفسه قط ، وخاصة بعد أن أقاموا على معظم أرض فلسطين ذلك الكيان الاستعمارى المصطنع إسرائيل . لأن الجيوبوليتيكا تقول أن الدول لا تعيش إلا إذا كانت أجسادا كاملة الأعضاء والأجهزة ، مثل الوحدة المعنوية والتاريخية للعنصر البشرى وكفاية الموارد والمواصلات والاقتصاد ، وهذا الكلام لا ينطبق على بلاد الشام وحدها بل على كل بلاد الدنيا التى مزقها الاستعمار لخدمة مصالحه ، فاضطرب أمرها ولم تعرف الاستقرار أبدا ، وعند العرب شطر بيت من الشعر يعبر عن هذا المعنى يقول « ولو ترك القطا ليلا لناما » أى أن طير القطا إذا كان قلقا فى عشه فلأن هناك شيئا يؤلمه أو يخيفه ويقض مضجعه ، ولو أنه ترك فى حاله لنام . . .

وهذه هى حالة البلاد التى نشأت عن تقسيمات استعمارية قديمة مثل بلاد افريقية التى قامت على حدود مستعمرات فهى ليست وحدات سياسية منسجمة البناء وإنما كيانات سياسية مصطنعة ، ولهذا فإن أمورها لن تستقر أبدا ، ولا يسودها الهدوء إلا مع حكومات الاستبداد والظلم وكبت الأنفاس ــ والاستبداد لا يدوم ــ ولابد أن يحدث الانفجار .

ولهذا فإن كل البلاد الافريقية كالبراكين الخامدة : معرضة للانفجار فى كل حين . وأكثر الكيانات السياسية فى العالم قلقا هى إسرائيل لأنها صناعة غربية بحتة ، وكل دولة أوروبية أو أمريكية أيدتها جعلت ذلك لخدمة مصالحها هى . ولا يمسك إسرائيل بعضها ببعض فى الحقيقة إلا كراهية العرب وضعف العرب واختلاف بعضهم مع بعض . ولو تماسك العرب وتوحدت كلماتهم عشر سنوات متوالية لتزعزعت أركان إسرائيل . ولكن ذلك مستحيل لأن الكثير من البلاد العربية نفسها صناعة استعمارية فهى تحمل فى كيانها عوامل ضعفها ، وأوضح مثل على ذلك سوريا ولبنان .

وهذه أيضاً هى حال وحدات بلاد الشام الأربع : سوريا ولبنان والأردن وفلسطين . فالتقسيم فى ذاته كان جريمة قتل ، وعلى هذه الجريمة بنيت جريمة أبشع وهى إنشاء دولة إسرائيل فى فلسطين . وإسرائيل ــ مهما قالوا فيها ــ كيان قلق يشعر دائما بالضياع لأنه غير طبيعى ، فليس هناك شىء اسمه الشعب اليهودى . إن الشعب الإسرائيلى شىء أنشأوه صناعيا لخدمة أغراض سياسية واقتصادية ، مثله فى ذلك « الامريكان فروت كومبانى » . فلكى تعيش اسرائيل لابد من شيئين : دعم سياسى ومالى وعسكرى متصل من الغرب والشرق على السواء ، لأن إسرائيل حائط مائل لابد أن يشد بالدعائم من الخارج ، والشىء الثانى هو أنه لكى تعيش إسرائيل فلابد من أن تموت بقية الوحدات السياسية التى تمزقت إليها بلاد الشام : لبنان لابد أن يموت وسوريا لابد أن تموت والأردن لابد أن يموت ، وطبعا فلسطين لابد أن تموت .

والموت هنا سياسى ، وله أشكال شتى ، منها - مثلا - أن تصبح هذه البلاد كلها محميات أو مناطق نفوذ إسرائيلية ثم جاءت انجلترا فجعلت الأردن محمية بريطانية . وقد تمكن الملك حسين من رفض هذه الحماية وشد بنيان مملكته الهاشمية ولكن متاعبه لا تنتهى ، وجاءت فرنسا فأرادت أن تجعل من لبنان امتدادا فرنسيا كاثوليكيا وأنشأت لنفسها أو هى حاولت أن تنشىء هناك قلعة فرنسية ، وجاءت الولايات المتحدة وحاولت نفس المحاولة وأنشأت هناك قلعة أمريكية وأفلت الزمام من رجال الدولة اللبنانية ، وتكاثرت القلاع وقامت الحرب بينها وهى الحرب الأهلية وانتهزت اسرائيل الفرصة وعملت على أن تنشىء لها هناك قلعة فى لبنان وعلى عهدها من الطمع أرادت أن تجعل من لبنان كله قلعة إسرائيلية ، أو قل امتدادا سياسيا لها . وانضمت القلعة الأمريكية فى لبنان إلى القلعة الإسرائيلية وهذا هو الذى تعمل أمريكا له الآن . وكل ما ترى وتقرأ مهما اختلف عنوانه أو لونه أو شكله هو محاولة أمريكية إسرائيلية لجعل لبنان امتدادا سياسيا لإسرائيل أو أمريكا أو هما معا والنتيجة واحدة على أى حال . . والذين يعتقدون أن إسرائيل وحدها هى التى تؤ يد أنطون لحود خليفة سعد حداد مخطئون ، والذين يظنون أن لبنان فيها سعد حداد واحد مخطئون أكثر وأنطون لحود كان ولا يزال ضابطا فى الجيش اللبنانى .

والذين يتعجبون من اعتماد سوريا على روسيا لا ينبغى لهم أن يتعجبوا الان .

فسوريا وحدها لا يمكن إلا أن تكون كسيحة . ولهذا لابد لها من الاعتماد على سند خارجى . ومادامت إسرائيل تستند على أمريكا فلابد أن تستند سوريا على روسيا ، والذين يسرعون إلى إمداد سوريا بالمال من العرب ـ ظنا منهم أنهم إذا لم يقدموا هذا العون سقطت سوريا ـ واهمون . لأن النظام السورى سيسقط عندما تتخلى عنه روسيا مهما دفعوا له من أموال .

وهذه الأموال التى يقدمها العرب لسوريا لن ينال منها الشعب السورى شيئا على أى حال ، لأنها تدخل خزانة رئيس الحزب ولا تخرج منه . وخزانة الحزب هى خزانة رئيس الحزب وأسرته . وحزب البعث السورى مات من زمن طويل أو قل هو ولد ميتا . فلا وجود لشىء اسمه البعث إلا فى أذهان ميشيل عفلق وطارق عزيز حنا عبدالمسيح . . ولكنهم فى سوريا لأمر ما لايدفنون الموتى بل يعبدونهم . . ومنهم من يعبد الحاكم بأمر الله الفاطمى إلى اليوم ـ ومنهم نصارى فى ثياب مسلمين هم النصيرية ـ ومنهم حافظ الأسد ، ومنهم وثنيون فى ثياب إسلامية مثل السامرة . . فمأساة فلسطين هى مأساة بلاد الشام . . ومأساة بلاد الشام هى مأساة العرب المعاصرين . وكل من يحاول علاج مشكلة فلسطين وحدها أو لبنان وحدها أو سوريا وحدها أو الأردن وحده واهم ، لأن المشكلة الشامية واحدة لا تتجزأ

وعندما تحل ـ يسمع الله منا ـ ستحل بقية مشاكل الشام والعرب ، ولن يكون هناك مكان لإسرائيل دون أن يفعل العرب شيئا للقضاء عليها . .

فى هذه الغابة الشامية ـ التى لا يعرف أحد طريقه فيها ـ ألقى عبد الناصر بنفسه منذ انفرد بحكم مصر فى ابريل ١٩٥٤ . .

ومصر لم تكن تبحث إذ ذاك عن زعيم بل عن طريق ، وجمال عبد الناصر عندما انفرد بأمر مصر قال إنه يعرف الطريق إلى الغاية ، وعندما عاد من باندونج زعيما عالميا قال إنه هو نفسه الطريق ، وعندما أفلت من أزمة السويس فى يناير ـ فبراير ١٩٥٧ قال إنه هو نفسه الطريق والغاية والهدف وكل شىء ، وسوريا التى تبحث دائما عن زعيم مدت إليه يدها ودعته إلى أن يكون زعيمها ، والشاب المصرى الذى أصبح سياسيا عالميا تحول إلى زعيمين ، ومصر أصبحت الإقليم الجنوبى من كيان سياسى جديد اسمه الجمهورية العربية المتحدة . .

وهنا أصبح جمال عبد الناصر مشكلة أمريكية روسية . . لأن الدولتين الكبريين لم يعجبهما أن يظهر بين العرب زعيم . . وحكايتهما مع عبد الناصر أقدم من ذلك . لأن كلا منهما كانت تحاول الاستيلاء عليه بطريقتها ، فروسيا قدمت صفقة الأسلحة فى سبتمبر ١٩٥٥ ، وأمريكا المفزوعة من شبح أيام دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته البالغ الذكاء والغباء معا جون فوستر دالاس ـ لجأت أولا الى الاحتيال عليه . . فأحاطته بعدد لا نهاية له من رجال السياسة والمخابرات والأصدقاء والأعداء ، وعبد الناصر الذى ازدهاه أنه أصبح زعيم العرب وشخصية عالمية رحب بهؤلاء جميعا وأصبحوا جزءا من حياته وتفكيره وعمله ، فهم يكتبون عنه المقالات بل الكتب .

ومنذ عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة لم يقل عدد الأمريكيين المحيطين بعبد الناصر عن عشرة فى أى وقت ، نذكر منهم على سبيل المثال كيرميت روزفلت ووليام (بيل) راونترى ومايلز كويلاند ، وهؤلاء جميعا كانوا يعملون بناء على خطة مرسومة فى دوائر السى ـ إى ـ ايه (المخابرات الأمريكية) والبيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية ، ووظيفتهم الأساسية أن يكون عبد الناصر تحت نظرهم دائما ، وكل واحد منهم يدرس منه ناحية ، وهم حريصون جدا على ألا يخلو عدد من تايم ماجازين أو نيوزويك أو الواشنطون بوست أو النيويورك تايمز من ذكر له ، حتى شعر أنه مركز السياسة العالمية . وكلما زاد النشر عنه زاد ترحيبا بهم وأنسا بمجالستهم . ومع ذكائه وحرصه فلا بد أن أسراره تتسرب إليهم والأسرار لا تهمهم فى المكان الأول لأن السر الأكبر عندهم هو عبد الناصر نفسه . . إنهم يريدون أن يعرفوا حقيقته شيئا فشيئا ففهموه تماما وملكوا مفتاح شخصيته ، وعرفوا كيف

سيكون رد فعله لهذا الحادث أو ذاك بل وصلوا إلى أن يعرفوا كيف يجعلونه يقول « نعم » إذا أرادوا . . و « لا » إذا أرادوا . . فمن المعروف لنا أنه رجل عنيد جدا وشديد الاعتزاز بنفسه وهو حذر وبالغ الذكاء « يفهمها وهى طائرة » كما يقولون وهو يرى أنه أذكى بمراحل من دوايت أيزنهاور وأنطونى إيدن وجى موليه وكريستيان بينو وغيرهم من أقطاب السياسة العالمية فى وقته ، ويعتقد أن خروتشوف خاتم فى أصبعه ، أما نورى السعيد وفاضل الجمالى وكميل شمعون والملك حسين والجنرال جلوب فهم عنده أطفال . .

وهؤلاء الرجال لا يدرسون عبد الناصر وحده ، بل كل من حوله : يدرسون أصدقاءه واعداءه ، وأدواته الذين يعمل بهم . . وهؤلاء هم الخشداشية أو الشماشرجية . . ومنهم وزراء . . هؤلاء الأمريكيون يعرفون كل القيادات حول عبد الناصر ومن يليهم ومن يليهم إلى سائق السيارة التى يضعها عبد الناصر تحت تصرفهم ، وهذا السائق فى الحقيقة رجل مخابرات . وعبد الناصر يظن حسب ثقته فى نفسه أنهم لا يعرفون ذلك ، وقد تعلم عبد الناصر منهم كيف يتكلم الإنجليزية دون صعوبة . . بل كيف يبدى ملاحظات ساخرة فى أسلوب لاذع أمريكى سليم ، وهو يخاطب السفير الأمريكى هنرى بايرود باسم التدليل الذى يخاطبه به خلصاؤه « هانك » . .

وقصة عبد الناصر مع الأمريكيين حكى أطرافا منها أمريكيون وانجليز كثيرون كتبوا عنه كتبا ، ولكن واحدا منهم هو مايلز كوبلاند كتب كتابا يعتبر أساسيا فى دراسة الأساليب الأمريكية فى السيطرة على زعيم من زعماء العالم الثالث والكتاب يسمى The Game of Nations

ونحن نترجمه عادة باسم (لعبة الأمم) ولكن يغيب عنا إن لفظ game له معنى آخر هو الصيد . . وصيد الحيوانات الكبيرة مثل الأسود والنمور يسمى The big game وإذن فإن موضوع الكتاب هو فى الحقيقة «صيد الأمم» كيف تصطاد الأمم بعضها بعضا وكيف يصطادون الزعماء

عبد الناصر الذى كان يظن نفسه وحشا كاسرا يخيف الدنيا تقلمت أظافره شيئا فشيئا وأصبح فى النهاية شابا عنيدا عصبيا لا يخيف دون أن يدرى . وخطوة خطوة تمهد الطريق للإيقاع به على النحو المحزن الذى تم فى يونيو ١٩٦٧ وكان « الغزال » الذى أغروه به ليطارده ويقع فى أثناء ذلك فى الشرك هو سوريا ، تلك المعشوقة الفاتنة التى جرت وراء عبد الناصر ملهوفة لكى يكون منقذها ، وعبد الناصر ربما لم يحب سوريا ولكنه أحب نفسه زعيما لسوريا .

وفى فبراير ١٩٥٨ عقد زفاف عبد الناصر على المحبوبة وفى ابريل ١٩٥٨ ذهب عبد الناصر ـ فتى النيل الأسمر الطويل القامة البهى الطلعة ـ إلى سوريا الزوجة الوالهة ، ومن حلب إلى دمشق خرجت الجماهير تحيى وتهتف حتى تنشق حناجرها ، وفى الميدان خارج قصر الرياسة فى دمشق نامت ألوف السوريات الشقراوات زرقاوات العيون فى انتظار الصباح ليسعدن بنظرة من المصرى الفاتن ، وقلب عبد الناصر خفق ، وشكرى القوتلى . الزوج العجوز السابق للعروس الفاتنة والذى قام بدور المأذون يقول لعبد الناصر ـ مخلصا هذه المرة ـ: ربنا يعينك على ما بلاك ، لأنه كان يعرف بلاده جيدا ، وجمال عبدالناصر عين عبد الحكيم عامر نائبا للسلطان فى دمشق ، وعاد إلى مصر لبواسى زوجته الأولى التى أصبحت قديمة ، والفلاحة الطيبة الأصيلة التى تغفر لزوجها كل شىء استقبلت عبد الناصر بالدموع والزغاريد ، ورئيس مصر أصبح يؤلف ثلاث وزارات فى وقت واحد واحدة مركزية وثانية للزوجة الأولى الفلاحة التى أصبحت تسمى الإقليم الجنوبى ، وواحدة للزوجة الجديدة البيضاء الشقراء التى أصبحت تسمى « الإقليم الشمالى » .

وهذا العز أو ذاك الزواج لم يكونا حقيقيين أو سعيدين أبدا ، والزوجة الجديدة مطالبها لا تنتهى ، ومشاكلها ـ كما قلت فى أول المقال ـ لا تقبل الحل ، والتجار السوريون هجموا على مصر واستولوا على شوارع بأسرها من قلب العاصمة ، والتهريب من سوريا إلى القاهرة أصبح سيلا متدفقا فهناك تعليمات بالا تفتح حقيبة لسورى ، ونائب السلطان فى دمشق أنشأ لنفسه حاشية محترمة والسوبر باشوات وهم الذين انحرفوا عن الخط السليم للثورة اتخذوا شققا للأنس فى أحياء مثل المهاجرين وقاسيون ونهر النيل أصبح يصب فى سوريا ومصر التى كانت بلدا غنيا لها فى بريطانيا رصيد من الذهب قدرة ٥٠٠ مليون جنيه (اضربها فى ١٥٠ لتعرف قيمتها الحقيقية) أصبحت اليوم بلدا على وشك الإفلاس والزوجة السورية تعرف ذلك وكما يحدث فى أفلام كثيرة رأيناها عندما يفلس المعلم وتخلو محفظته وتصبح مجرد كيس فارغ تبدأ الزوجة « الواعية » فى تدبير الطلاق وفى سبتمبر ١٩٦١ يكون الانفصال على طريقة المعلمات القارحات ونائب السلطنة يصحو صباح يوم من أيام الخريف ليجد أنه لم يعد نائب سلطنة بل لم تعد هناك نيابة سلطنة أصلا ويعود إلى القاهرة ومعه حقيبة ملابس الزوج السابق فارغة .

وبعد أن هدأت الأحوال بدأت تصل إلى القاهرة تباعا حقائب حاشية عبد الحكيم عامر ، جاء بها الخدم والأتباع الذين ظلوا هناك بعد هزيمة الانفصال ، وكانت حقائب كثيرة جدا مترعة بالأموال والغنائم . والذى حكى لنا حكايتها ضابط سورى كان يعمل فى المخابرات المصرية . . وقد قاسم أفراد الحاشية المصريين غنائمهم . . وبعد أن وصلت

الحقائب كلها إلى مصر كافأناه على إخلاصة بتعيينه فى الجامعة العربية ضمن حصة مصر . . والرجل كان ذكيا فأنشأ مع إخوته تجارة فى مصر . . وعندما نقلت الجامعة العربية من مصر كان عند هذا الرجل من المال ما يستطيع أن يشترى به مبنى الجامعة نفسه .

وكان انفصال سوريا عن مصر ونهاية الوحدة ضربة أليمة جدا للرئيس عبد الناصر . ولم يؤلمه شيء فى حياته السياسية مثل تلك الضربة . كان شعوره دائما شعور الإهانة الذى يحس به عاشق خانته الحبيبة الغشاشة . وقد ظل سنوات طويلة بعد ذلك يحاول استعادة سوريا فلم يستطع ، وكان تعلقه بسوريا فى النهاية هو سبب كارثة ١٩٦٧ .

فقد كان الروس والأمريكيون يعرفون ولعه بسوريا وشوقه فى أن يثبت للسوريين أنه رجلهم وحاميهم ، والإثنان تعاونا على إيهامه بأن إسرائيل تحشد قواتها للهجوم على سوريا ، والسوريون استغاثوا به ، والآخرون عيروه بأنه ترك مضايق تيران منزوعة السلاح بعد جلاء الإنجليز والفرنسيين والإسرائيليين عن سيناء ومنطقة القناة سنة ١٩٥٧ . . وتحمس الرجل ونهض لأنه كان بطلا ، وكانت الكارثة .

وعندما نقرأ بعناية كتاب « لعبة الأمم » نفهم أنهم كانوا يعدون لها من زمن طويل ، وصديقه الذى كان يحبه ويفتح له قلبه ما يلز كوبلاند كان من كبار المدبرين للكارثة ، لأن الولايات المتحدة كانت تريد إخراج عبد الناصر من الميدان ، ورتبت لذلك بعناية وصبر وذكاء ، وهذا لا يمنع من القول أن مايلز كوبلاند ، أعجب بعبد الناصر وأحبه ، وقد أفادت أمريكا من ذلك الحب . .

وجمال عبد الناصر الذى كان لا يقابل وزراءه ولا يجلس مع وزير ويناقشه فى خطة أو سياسة ، جمال عبد الناصر هذا كان يذهب ليتناول العشاء فى شقة مايلز كوبلاند فى القاهرة ، وفى صفحة ١٧٨ من ذلك الكتاب نقرأ : وفى أثناء ذلك (يناير ١٩٥٥) وصل هنرى بايرود إلى القاهرة (وتسلم عمله سفيرا للولايات المتحدة خلفا للمستر جيفرسون كافرى) وأتى بايرود وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامى لتناول العشاء فى بيتى كما سبق ان ذكرت ، وقبل ذلك كنت بالاشتراك مع انجلبرجر قد بينا للسفير بايرود أراءنا فى سلبيات حلف بغداد ، وبايرود ــ بعيدا عن الجو الذى كان يعيش فيه فى واشنطون ــ اقترب بعض الشىء من آرائنا إلى درجة أنه أثناء العشاء حث عبد الناصر على أن يتريث فى اعلان رأيه (فى الحلف) وأن يذكر أن الأمور يحتمل ألا تسير فى الطريق الذى كان يبدو إذ ذاك أنها سائرة فيه ، على الأقل فيما يتصل بتأييد الولايات المتحدة وبريطانيا للحلف .

وهؤلاء جميعا كانوا يجتهدون فى توجيه ذهن عبد الناصر فى الاتجاه الذين يريدون

وهو ـ لفرط ثقته فى نفسه ـ يظن أنه هو الذى يقودهم ، والحقيقة الأليمة هنا هى أنهم درسوه ، أما هو فلم يدرسهم ، وبلغ من ثقته فيهم وتصوره أنه يقودهم ، ويقود السياسة الأمريكية عن طريقهم ، أنه أعطاهم حق الدخول إلى مقر القيادة على النيل ، وهذا المقر كان قصرا من قصور الملك أنشىء فى نهاية « الجزيرة » إلى جانب حديقة النزهة التى كانت منتزها للشعب ، وحديقة النزهة أقفلت وتحولت إلى خرابة ، والمصريون فقدوا حديقتهم وحرم عليهم المسير فى الشارع المؤدى إلى مقر القيادة ، أما الأمريكيون فكانوا يدخلون ويخرجون كيف شاءوا ، وعبد الناصر يشتمهم فى كل خطبة من خطبه ويلعن سياسة أمريكا ، والشعب يصفق ، وبعد الخطبة يتغدى البطل مع الأمريكيين وهو يظن أنه مسح بهم وبسياستهم البلاط ، كان عبد الناصر يلعن حلف بغداد ، وأصدقاؤه الأمريكيون يشجعونه على أن يلعنه ، ويؤكدون له أنهم غير راضين عنه ، ويقولون إن انجلترا هى التى وراء الحلف ، وهم وراءه بالباع والذراع . .

وطول عمرى أقول إن الشعب المصرى طيب وخير وصبور وغنى بما وهبه الله من صفات وخصائص ، مثله فى ذلك مثل الجمل : تعطيه القليل جدا فيعطيك الكثير جدا : تعطيه العشب الجاف والماء الأجاج والحطب فيعطيك لبنا وفيرا سائغا كالشهد ووبرا كثيرا ناعما كالحرير . . ويصبر طويلا ويتحمل كثيرا ولكن رأسه دائما فى السماء .

وبينما كان عبد الناصر يندفع فى متاهات السياسة العربية والسياسة الدولية ويدخل لعبة الأمم أو صيد الأمم فإنه قد فاته أن يعد بلاده لتكون سنده فى اللعب أو الصيد ، وفاتته أكبر حقيقة من حقائق السياسة ، وهى أن أى رجل من قادة الأمم لا يستطيع أن يؤثر فى مجرى السياسة العالمية إلا بالقدر الذى يستطيعه شعبه ، الشعب هو الأساس والسياسيون والقادة هم الذين يقيمون البناء ، وهم مهما فعلوا لا يستطيعون أن يقيموا إلا بالقدر الذى يحتمله الأساس ، مهما ظن القائد أنه بطل أو موهوب فإن البناء على غير أساس من الشعب لن يقوم ، وكل شىء سينهدم على رأس بانيه .

وكونراد أديناور يعتبر من أساطين السياسة فى عصرنا هذا لأنه عندما تولى أمر المانيا عرف هذه الحقيقة جيدا ، فبدأ يبنى وطنه أولا ، بدأ كمتسول معتمدا على معاونات مشروع مارشال ، وخلال السنوات الثمانى الأولى من قيادته لم يفتح فمه فى سياسة دولية . قام هوولودفيج إيرهارت ببنيان الاقتصاد الألمانى فى صمت ، والشعب الألمانى بنى مع قيادته بناء سليما قويا ، وألمانيا التى كانت حطاما فى أواخر الأربعينات أصبحت مصانع ومدنا زاهرة فى أواخر الخمسينات .

وعلى هذه القاعدة القومية الشعبية جلس أديناور يقول كلمته فى السياسة العالمية ، وفرنسا أحست أن ألمانيا تفوقت عليها فسارعت ومنحت ديجول ثقتها ، والجنرال شارل دى جول بدأ بإنشاء قاعدة دستورية جديدة ، واعتمد على الفكر والعلم ورجال العلم والصناعة ، وجاء برجل من أعلام الفكر هو أندريه مالرو وجعله وزير ثقافة ، وأندريه مالرو لم يتنازل لديجول عن ذرة من حرية فكره أو صراحته أو علمه ، كان ديجول يتحدث إليه ساعة ليقنعه بشىء ، وفى النهاية يقول مالرو : لا ياسيدى الجنرال ، لا أستطيع ذلك لأننى غير مقتنع ، ويقول الجنرال : أنت رجل عنيد ناشف الرأس ، فيقول الوزير : أنا الذى أوصف بذلك يا سيدى الجنرال ؟ ويفهمها ديجول ويحترم رأى وزيره . ويوم الأحد يتغدى أندريه مالرو على مائدة الجنرال فى بيته الريفى فى قريته كولومباى لى دوز اجليز ، ومدام ديجول هى التى تطهو الطعام ، وكل ذلك تجده فى مذكرات مالرو التى أطلق عليها اسما يصعب ترجمته إلى العربية .

وعبد الناصر يقولون له إن وزيرا من وزراء التربية والتعليم يخالف سياسة الريس فى وزارته ويريد أن يستقيل أو أن يكون وزيرا حقيقيا ، وهذه جريمة فى نظر عبد الناصر وهو لا يسمح للوزير بأن يستقيل ، لأن الاستقالة معناها أنه يرفض العمل معه وهذا تطاول وقح على المقام العظيم ، وبعد أيام يُقال الوزير المخلص المجتهد بضربة بالقدم تلقى به فى الطريق .

والخبر ينشر فى سطرين كلها احتقار ، وأقول لصحفى العصر وصاحب رأى الريس « أو ما يسمى بمخزنه الذهنى » فيقول ساخرا : لا يستحق أكثر من ذلك !



١٣ الحساب الختامى للعصر الناصرى

أتابع هنا دراسة عصر عبد الناصر لا لكى أنبش الماضى بل لكى أنير طريق المستقبل . لأن الماضى لا وجود له فى مفهوم التاريخ . وكل ما نسميه ماضياً إنما هو حاضر . وما حدث اليوم بدأ بالأمس وأول الأمس . والذى يعنينا من عصر عبد الناصر وما جاء بعده هو أن نصل إلى جذور مشاكل اليوم : الفوضى وعدم احترام القانون وضعف الإحساس بالجماعة وقلة الشعور بالانتماء . لقد رأينا كيف أن راعى الجمل المصرى وقف فى النهاية وحيداً فريداً . الجمل كل وبرك . وحمل الجمل ضاع وأحلام النصر ذهبت مع أمس الدابر .

وعزاؤ نا عما حدث هو أن غيرنا ممن كنا نظن أنهم أدرى منا بحقائق الحرب والسياسة اقترف نفس الخطأ . ذلك أن موسولينى عندما أراد أن ينشىء امبراطوريته الأفريقية بادئا بإتمام إخضاع ليبيا ثم غزو الحبشة فاته أن الشعب الإيطالى لا يريد هذه الإمبراطورية وغير مستعد أو مؤهل للعمل فى إنشائها . بل لم يكن الشعب الإيطالى راغباً فى دخول الحرب العالمية الثانية أصلا ، ولهذا فقد حلت الهزائم بالإيطاليين فى ليبيا والحبشة . ثم فى الحرب الكبرى والإيطاليون اليوم يقولون أنهم لم ينهزموا فى أى من هذه الحروب لأنهم لم يدخلوها بإرادتهم بل كان موسولينى هو الذى حشرهم فيها .

ومهما بلغت عبقرية موسولينى فإنه لم يكن ليستطيع أن يفعل .

وقد وقفنا فى الفصل الماضى عند واحدة من الحقائق التى أدت إلى هذه النتيجة وهى أن عبد الناصر غابت عنه حقيقة الأمة وأنها الأساس ، وأن أى زعيم مهما بلغت عبقريته لا يستطيع أن يحقق إلا ما تستطيعه أمته فعلا ، فعبد الناصر كان يريد أن ينشىء إمبراطورية عربية ، ولكن شعب مصر لم يكن يريد أن ينشىء تلك الامبراطورية ، ولا هو كان قادراً على إنشائها ، كان يريد أن يعيش مع إخوانه العرب فى سلام ، كان يريد أن يتعاون مع أولئك الإخوة فى تأمين الوطن العربى من الأخطار ، ولهذا فعندما ذهب عبد الناصر للاشتراك فى حرب اليمن ذهب وحده . والذين أرسلهم إلى اليمن معظمهم لم يذهب للحرب بل للمتاجرة والكسب . والقليلون المخلصون هم الذين حاربوا مع أحرار اليمن وماتوا ، وهم الذين جعلوا لمشاركة مصر فى ثورة اليمن معنى وقيمة .

وقد سبق أن قلت مرة بعد أخرى إننى أعرف قدر عبد الناصر وحقيقة دوره فى تاريخ العرب وتاريخ مصر ، وعندما أقول ما أقول الآن فإننى أريد أن أصل إلى الحقائق التى تنفع هذه الأمة ، والحقائق وحدها هى التى تبقى وتنفع . وإذا كانت الأمة قد غابت عن عبد الناصر فقد غابت عنه حقيقة أخرى وهى أن الحرية هى القاعد الأساسية التى لا يستطيع شعب أن ينهض بدونها ، وأن الحرية قوة للحاكم قبل أن تكون قوة للشعب ، والحاكم مهما

كانت قوته المادية والعسكرية لا يستطيع أن يصل إلى النصر إذا كان شعبه مكبلا بالأغلال . والشعب الألمانى نفسه - وهو من أقوى شعوب الأرض وأوفرها علما وأكثرها مهارات - خسر الحرب لأن هتلر سلب هذا الشعب حريته ، وهتلر الذى حرم على شعبه الحرية وعاقب الناس عليها انتهت حياته منتحراً فى قبر تحت الأرض ، فكان بذلك أشد الناس خسارة وأصبح فى نظر التاريخ مجرماً .

وجمال عبد الناصر الذى بدأ حياته بطلا ، فأرغم الإنجليز على توقيع معاهدة الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وأمم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ اعتقد أنه صاحب الفضل الوحيد فى ذلك كله ونسى أنه لم يكن ليستطيع أن يصل إلى شىء منه إلا بتأييد شعبه ، وأن كل قوته لا ترجع إلى شخصه بل ترجع فى الحقيقة إلى إرادة الشعب ، ولأن عبد الناصر لم يكن يؤمن بالحرية فقد عادى كل الذين يحتاجون للحرية من المواطنين لكى يعملوا أو ينتجوا ويفيدوا بلادهم ، وهم المفكرون والكتاب والعلماء والفنانون ، وهؤلاء هم عيون الشعب التى ترى وعقوله التى تفكر وألسنته التى تتكلم ، فإذا أخفيت الحقائق عن هؤلاء وإذا حيل بينهم وبين الوصول إلى الحق ، وحرم عليهم الكلام والكتابة أصبح الشعب كله بلا قيادة حقيقية ، وأصبحنا لا نعرف ماذا يريد الشعب أو ماذا لا يريد ، لأن جماهير الشوارع طيبة وساذجة ، وهى قوة ضخمة ولكن لا قيمة لها إلا إذا كانت على نور ، والزعيم الذى يعتمد على تصفيق الشوارع يعتمد على هواء ، لأن رجل الشارع لا يفكر فى العادة وإنما هو يتصرف تصرفاً جماعياً ويسير مع التيار وواجب الحكومة الصالحة أن تنوّر هذا الشعب بالحقائق وألا تكذب عليه أبداً حتى لا يتحول الشارع إلى قوة مخربة .

وعبد الناصر غابت عنه هذه الحقائق ، ولهذا فقد سار فى طريقه غير مكترث بالشعب أو رأى الشعب بل عملت أجهزة الدعاية بأمره على تضليل هذا الشعب وتسييره فى الظلام . والغريب أن عبد الناصر الذى كان يقف مع شعبه هذا الموقف كان رغم كراهته للأمريكيين لا يخفى عنهم حقيقة . وأريك جونسون وكيرميت روزفلت وباتريك سيل كانوا يعرفون من عبد الناصر نفسه حقائق كل شىء يجرى فى مصر واقرأ كتاب لعبة الأمم لترى ذلك بنفسك . وقد فات عبد الناصر أن أولئك الناس كانوا حوله ليدرسوه ويصلوا إلى مفاتيح شخصيته ، ووصلوا إليها وتحكموا فيه دون أن يدرى ، فقد عرفوا أنه رجل عزيز النفس عنيد معتد بنفسه وأنك مهما قلت له فإنه سيفعل العكس . فكانوا إذا أرادوا منه أن يفعل شيئا طلبوا منه العكس فيفعل ما يريدون . وسنرى أن عبد الناصر اختلف هنا تمام الاختلاف عن أنور السادات . فهناك مفاتيح لشخصية عبد الناصر . وأنت تستطيع إذا عرفت المفاتيح أن تتوقع ماذا سيفعل ، أما السادات فقد استعصى على بريجينسكى وعلى

هنري كيسنجر ، وهذا سر حملتهم عليه في بعض ما كتبوا وسننظر في هذا في الفصل القادم إن شاء الله .

أما المصريون الذي احاطوا بعبد الناصر وألحقوا به أشد الضرر فهم الذين كانوا يقولون دائما : حاضر يافندم !! ولماذا كانوا يقولون ذلك ؟ لأنهم كانوا يعلمون أن عبد الناصر لا يقبل غير الطاعة دون جدال ، فإذا أنت جعلت نفسك خاتما في أصبعه بلغت منه ما تريد . وعبد الناصر - كما قلنا - كان زاهداً فيما يطمع فيه الناس من خير ومتاع ونعمة ومال وترف . فلا مانع عنده من أن يعطيك بكلتا يديه إذا أنت كنت أداة من أدواته تخدمه بالصورة التي يحب : هو يأمر وأنت تطيع ، فلا يستكثر عليك شيئا : تريد أن تكون وزيراً ؟ فكن وزيرا ! تريد أن تكون سفيراً ؟ فكن سفيراً ! تريد أن تسرق ؟ فاسرق ولا تخف ! بل كان عبد الناصر يفضل الذي يخطىء على الذي لا يخطىء لأن الخطأ ذلة للرجل في يده ، وأنا هنا لا أذيع سرا أو أكتشف اكتشافاً لأن هذه الحقيقة عرفها عنه كل الناس وليس معنى ذلك أن كل الذين عملوا معه وأطاعوه كان معيبين ، فقد كان فيهم ناس كثيرون محترمون خدموا بأمانة ونصحوا ، ولكن الطاعة كانت الصفة الأولى التي أحبها فيهم . إنه لا يحب المعارضة ولا يطيقها ، والويل لمن يعارضه ، ولكن لماذا كان عبد الناصر لا يرضى بغير الطاعة الكاملة ؟ لأن الغرام الأكبر لعبد الناصر كان السلطة أو السلطان ، أو القوة السياسية ، وهنا نقف وقفة قصيرة عند موضوع القوة السياسية .

المراد بالسلطة هنا هي السلطة السياسية أي السيطرة على الشعب أو الأمة وحكمها . وسنرى بعد قليل أن لها طريقين ، شرعياً وغير شرعي ، ولكن الذي يعنينا هنا هو . . السلطة في ذاتها ما هي ؟ إن مظهرها هو أن من يملكها يأمر فيطاع . يصدر الأمر فينفذ ذلك الأمر ، ولكن كيف يقبض صاحب السلطة عليها ؟ إن الموظف العادي في الحكومة أو في شركة من الشركات يتمتع بسلطة في حدود القرار الذي صدر بتعيينه ، وقوة هذا القرار تكمن في الإمضاء الذي عليه ، فأنت مثلا مدير عام بقوة إمضاء صدر بتعيينك ممن فوقك ، وهو وكيل الوزارة وإمضاء وكيل الوزارة هو الذي أعطاك السلطة في مجال وظيفتك ، ووكيل الوزارة يستمد سلطته من قرار الوزير بتعيينه ، وهكذا حتى نصل إلى رأس الدولة ، وهو رئيسنا جميعاً .

فالسلطة إذن يمكن أن نقول أنها خيط من الحبر يبدأ من الرئيس الأعلى ويستمر حتى يصل إلى أصغر العاملين في الدولة أو الشركة . وهذا الخيط رمزي كما قلنا ، وشرطه الأول هو أن يكون متصلا من خروجه من قلم الرئيس الأعلى إلى أسفل السلم . وشرطه الثاني هو أن يكون تفويض السلطة كاملا ، فإذا أقام رئيس الدولة رئيسا للوزراء فينبغي أن يدعه

يتصرف تصرفاً كاملا فى حدود ولايته ، فلا يتدخل فيها وينتقص من سلطته إلا فى الحدود التى يُعَيِّنها القانون ورئيس الوزراء ينبغى أن يكون تفويضه للوزراء كاملا دون تدخل منه إلا فى حدود القانون ، فإذا وقعت تدخلات وتعديات خارج القانون فسد النظام كله ، ومن طبع الفساد أن يستشرى كالمرض المعدى ، إذا لم يوقف استمر ينتشر وينتشر حتى يعم الجميع .

وعندما نصل إلى رئيس الدولة يكون السؤال : من أين يأخذ رئيس الدولة خيط الحبر الذى يعطيه قوة التصرف ؟

فى نظام ديمقراطى مثل نظامنا الحالى ، الجواب واضح : إن رئيس الدولة يحكم بمقتضى تفويض أعطاه الشعب إياه . وهذا التفويض حصل عليه الرئيس بالانتخاب ، نحن دعينا لانتخاب رئيس الدولة فى يوم معين فذهبنا واخترناه أو اختارته الأغلبية . وبمقتضى نتيجة هذا الانتخاب قام مجلس الشعب المنتخب منا أيضا بتسليم السلطة إلى الرئيس الجديد . فهو يحكم بتفويض منا وتأييد ، وهو يعين الوزراء ، والوزراء يعينون من يلونهم وهكذا ، وكل شئوننا تجرى وفق نظام للسلطة والحقوق والواجبات هو الدستور ، فالدستور هو الإطار القانونى العام لكل تصرف أو ملك (بكسر الميم) أو سلطة ! هذا فى النظم الديمقراطية أى الشورية مثل نظامنا الحالى منذ ولاية الرئيس حسنى مبارك وهو لهذا واثق منا ونحن واثقون فيه ، وهو مطمئن الينا ونحن مطمئنون إليه ، وهو يحكم بالدستور ونحن وضعنا الدستور . فهو آمن ونحن آمنون ، وهو ونحن جميعاً فى حمى الدستور والقوانين ، فكيف تولى عبد الناصر ؟

عبد الناصر انتزع السلطان من الرئيس محمد نجيب انتزاعاً بالقوة فى فبراير ١٩٥٤ . كان محمد نجيب قد تولى السلطة بترشيح من الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر ، كانوا يريدون منه أن يكون صورة يحكمون فى ظلها ، ولكن الشعب تعلق بمحمد نجيب ولذلك لا بد من إبعاده . بالقوة أصبح عبد الناصر الرئيس الفعلى ممثلا للضباط الأحرار ، وبعد أن صار رئيسا بالفعل طلبوا من الشعب تأييد الأمر الواقع وبدأوا يحكمون جماعياً ، ولكن عبد الناصر كان يحس فى نفسه أن هذه الثورة كلها من صنعه ، وأن النظام الجديد ملكه ، ولن يصلح إلا إذا كان هو صاحب السلطان الوحيد فيه ، ولم يكن هذا بالشىء الجديد فى التاريخ ، بل هو يحدث كثيرا بعد قيام الثورات .

ذلك أن الثورة إذا قامت يكون لها هدف واضح يشترك فيه القادة والشعب ، ولكن الذى لا يكون واضحاً هو الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف ، وبعد انتصار الثورة يتبين قادة الشعب والثورة أن هناك أكثر من طريق ، ويبدأ الخلاف بين القادة على الطريق ، وهنا

ينتصر الأذكى والأجرأ والأقسى والأسرع والأعنف ، وليس من الضرورى أن الذى ينتصر هو صاحب الطريق الأسلم والأقرب أو الأكثر استقامة ، هنا تتلاشى الأهداف والمثل العليا فى زحمة الصراع ، وقد يكون المنتصر فى النهاية هو أبعد الناس عن الغايات الأساسية والمثل العليا .

والذين بدأوا الثورة الفرنسية بالاستيلاء على الباستيل فى ١٤ يـوليو ١٧٨٩ وألغـوا الملكية وأعدموا الملك والملكة ، لم يكونوا يعرفون أنهم يزيلون ملكا ليفسحوا الطريق أمام امبراطور ، والامبراطور نابليون الأول الذى رفعه مجلس الشيوخ إلى المنصب ، فى ١٨ مايو ١٨١٤ أصبح يعتقد أنه هو الثورة وهو الطريق وهو الأهداف وهو كل شىء ، وكان هذا بداية لتجارب مريرة وآلام كثيرة ، ولم تشعر فرنسا أنها استقرت فعلا إلا فى سنة ١٩٥٩ عندما تولى ديجول وأعلن الجمهورية الخامسة بإرادة الشعب فعلا وبلا تزييف .

شىء من هذا حدث لثورتنا ، فإن جمال عبد الناصر عندما انتصر على محمد نجيب وأصبح رئيسا بالفعل دعا الشعب إلى تأييد هذه الرياسـة وأقام استفتـاء وأعلن دستوراً مؤقتا ، ولكن عبد الناصر أصبح يشعر أنه الثورة كلها وهو الطريق وهو الغاية ومصر كلها أصبح عليها أن تخدم عبد الناصر ، وعبد الناصر لم يكن له إلا حب واحد : هو السلطة مثله فى ذلك مثل نابليون وهتلر وموسولينى .

وهؤلاء الرجال الذين يتملكهم حب السلطان يتلاشى فى اعتبـارهم كل شىء الا أشخاصهم . مصر كلها لم يعد لها وجود لأن الوجود كله كان لعبد الناصر ، وفى إحساسه أنه ليس ابن مصر بل مصر من صنع يده . قبله لم توجد مصر (إلا فى خطبه) وبعده لا يمكن أن توجد مصر . وفى حديث له مع مجلة لايف الأمريكية سنة ١٩٥٨ سئل : ماذا تظن أن يحدث لمصر بدونك ؟ فكان الجواب الغـريب : تنقسم إلى حزبـين : حزب مـع روسيا وحزب مع أمريكا ! ومادام قد وصل إلى السلطان بالقوة فقد أصبحت القوة عنده وسيلة سهلة لتحقيق ما يريد ، والقانون أصبح هو عبد الناصر ، هذا يفسر لك كل ما حدث فى عصر عبد الناصر ، الحسن والقبيح على السواء ، كل ما يخدم سلطته فهو حسن وكـل ما لا يخدم هذه السلطة فهو سىء من يخدمه ينل الدنيا ، ومن يعارضه يمض إلى الجحيم ، إذا أراد أن يحالف روسيا فإن مصر كلها تريد أن تحالف روسيا ، وإذا أراد أن يغزو اليمن فمصر كلها لا بد أن تغزو اليمن ، وإمام اليمن لا بد أن يزول لأنه لم يؤمن بعبد الناصر ، لا يهم كم ستخسر مصر فى حرب اليمن ، لأن المهم هو أن عبد الناصر يريد ، ولأنه يريد فمصر كلها لا بد أن تطيع .

ولكن : من الذى يفتح الطريق أمام المستبد ليصل بالاستبداد إلى مـداه ؟ حاشيـة

السوء أو من نسميهم هنا بالسوبر باشوات . كبار المستبدين يكونون دائما من عشاق السلطان لا طعام يغريهم ولا شراب ولا نساء ولا ترف ولا متاع ، السلطة فقط ، هكذا كان لينين وستالين وموسوليني وهتلر ، ولينين لكى يضمن السلطان المطلق جعل ستة من اليهود وزراء فى مجلس وزراء يتألف من تسعة أشخاص ، لأن أى يهودى لن يطمح إلى رياسة روسيا ، وهؤلاء اليهود الوزراء أدوات مأمونة من أدوات استبداده . وجمال عبد الناصر عندما أصبح رئيسا للجمهورية قرب إليه رجالا من الصفوف الخلفية واتجه إلى التخلص من كل رجل من أصحابه له شخصية ، أنور السادات فهم هذه الناحية ، واكتفى بأن يكون رئيساً للمؤتمر الإسلامى أو رئيسا لمجلس النواب ، هكذا يكون قريباً وبعيداً فى نفس الوقت ، هكذا يكون داخل الحاشية وخارجها معا ونفر من أعضاء مجلس الثورة جعلوا من أنفسهم هراوات فى يد عبد الناصر ، وبهراواته ضربوا الآخرين ، لهذا كان لا بد أن يمنحهم عبد الناصر شيئا من السلطان . عندما قام كل من هؤلاء بما أراده منه عبد الناصر كان لا بد من إبعاده لا كراهية فيه بالضرورة ، بل لكى يستعيد عبد الناصر ما أعطاهم من سلطان ، إذ لا يجوز أن تكون ذرة من السلطان فى يد إنسان غير عبد الناصر .

إن عاشق السلطة يغار عليها بأشد مما يغار الرجل على امراة يحبها ، والمستبد عندما يريد أن يتخلص من رجل لا يهتم بالطريقة ، المهم أن يختفى ، وهتلر عندما أراد التخلص من رودولف هيس أوعز إليه بالهرب إلى انجلترا ليكون وسيطا فى الصلح ، وعندما وصل هيس إلى انجلترا أعلن هتلر أنه خائن مرتد ، والرجل مازال إلى يومنا هذا يؤدى العقوبة التى حكم بها هتلر عليه ، إنه سجين سبانداو .

وعبد الناصر عندما بدأ التأميمات لم يكن يطمع فى شركة من شركات أحمد عبود ولا كان يطمع فى مصنع سيد ياسين للزجاج ، ولكنه كان يريد أن يجرد كل مصرى من أى سلطان ولو على مصنع زجاج أو سماد ، وعبد الناصر وزع شركات عبود على أنصاره ومحاسيبه ، وأخذ شركة مصانع الزجاج من سيد ياسين وهو مواطن تفخر به مصر ، وأعطاها لواحد من أنصاره ، لم يكن يعنيه ماذا حدث للمصنع ، ولكن الذى كان يعنيه هو أن يجمع كل السلطة فى يده ، والثلاثون مليوناً لا بد أن يأكلوا من يده كما كان يقول ، لقد ضرب الاقتصاد المصرى كله بتأميماته لكنه لم ينظر إلى شيء من ذلك ، المهم ألا يبقى على ظهرها رجل رافع الرأس إلا هو .

والحاشية أو السوبر باشوات يسرهم ذلك ، لأن كل شركة تؤمم يقعد على تلها واحد منهم ولا حسيب ولا رقيب ، وينفتح الباب أمام الأقارب والأصهار ويتسع المجال لكل

مخالفة ، وجمال عبد الناصر رأى أن الإخوان المسلمين يطمعون فى السلطان فنزلت الضربات عليهم دون رحمة هم وأقاربهم وأصهارهم وأصدقائهم ومعارفهم إلى سابع جار . هنا يدخل الإرهاب . والإرهاب سلاح مخيف عرفته الإنسانية من آلاف السنين . ولكن لينين جعله علما له أساليبه وسيكولوجيته : اقبض على عشرة رجال فى الفجر واسحبهم من أرجلهم إلى السجون ودع نساءهم يبكين وأولادهم يصرخون يرتجف البلد كله . وقد سبق أن شرحت ذلك فى دراستى عن لينين ، وجوزيف جويلز وزير دعاية هتلر كان شيطاناً عبقرياً . وهو الذى ابتكر عبادة الزعيم وطقوس تلك العبادة وهو الذى اخترع تنظيم القمصان البنية ومواكب التأييد وأساليب الفزع والإرهاب وهو الذى اختار هاينربش وهيملر جعل الإرهاب فنا أسود ، وستالين رمز الإرهاب الدموى تعلم الكثير من هيملر ، وفى مدرسة هيملر تعلم رجال موسولينى ورجال ألمانيا الشرقية وفى مدرسة الروس والألمان الشرقيين تخرج زبانية الإرهاب فى العصر الناصرى ، ورمزهم الأكبر حمزه البسيونى ، ومن الغريب أن هؤلاء الإرهابيين الدمويين لا يتمتعون بشىء فى الدنيا ولن ينالهم خير فى الآخرة وعبد الناصر كان يعرف أن حمزة البسيونى رجل تعيس ولكنه كان يعتقد أنه سعيد بهذه التعاسة .

لقد أشار الرئيس السادات فى البحث عن الذات إلى واحدة من حوادث التعذيب فى العصر الناصرى وهى حوادث تعذيب الناس وامتهان كرامات المواطنين والاتجاه إلى تصفية العائلات فى كمشيش منوفية (صـ ٢٢٢ - ٢٢٣) و صدر أخيراً حكم القضاء فى إحدى قضايا التعذيب هذه نشرته جريدة الأحرار فى ٣٠ مايو ١٩٨٣ ، ولن آتى به بنصه هنا ولكنى سأكتفى بفقرات منه تكفى للغرض من هذه الدراسة ، قالت المحكمة فى حيثيات الحكم : « إن الفترة التى جرت فيها أحداث هذه القضية ، فيما بين سنتى (١٩٦٦ - ١٩٦٧) ، هى أسوأ فترة مرت بها مصر فى تاريخها القديم والحديث ، وهى فترة قد ذبحت فيها الحريات وديست فيها كل كرامة للإنسان المصرى ، ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال » . وأتوقف هنا عن إيراد بقية الحيثيات لأن يدى لا تطاوعنى على كتابتها لبشاعتها .

وهذا حكم قضاء مصرى ، وهو وثيقة تاريخية حاسمة ، ولماذا دفعت مصر هذا الثمن الباهظ كله ؟ لكى يحكم رجل واحد . .

ومع هذا فإن هذا الرجل لم يحكم وحده أبداً ، كان هناك دائما نائب السلطان عبد الحكيم عامر ينغص عليه ملكه ويشاركه فيه بحق النصف ، وعبد الناصر كان يحتفظ لنفسه بحق التصرف المطلق فيما يتصور أنه المسائل الكبرى : العلاقات مع الدول الأجنبية وخاصة روسيا وأمريكا والعلاقات مع الدول العربية ، وما إلى ذلك ، هنا كانت كلمته هى

الأولى والأخيرة ، أما ما عدا ذلك فكان عبد الناصر يعتبره مسائل صغيرة يتركها للمماليك والخشداشية . .

وقد فات عبد الناصر أن هذه الأمور التى كان يعتبرها مسائل صغيرة هى ثلاثة أرباع اهتمامات الناس ، والمواطن العادى تشغله فى المكان الأول تلك الأشياء الصغيرة : لقمة العيش والمسكن والمواصلات ودخول الأولاد المدارس وحرية التصرف والعمل والقول والأمن على النفس والمال والأهل . . هذه كلها تركها عبد الناصر لمساعديه ، هم الذين كانوا يتولون التموين والزراعة والصناعة وشركات القطاع العام والحراسات والتصدير والاستيراد وما إلى ذلك ، وهذا كله تقاسموه فيما بينهم وتصرفوا فيه كأنه تركة صارت إليهم ولا حسيب ولا رقيب ، كانوا إذا أرادوا الاستيلاء على بيت رجل لفقوا لصاحبه أى تهمة وألقوا به فى السجن وشردوا أسرته أو فصلوه من وظيفته وجعلوه متسولا . ويقولون لعبد الناصر إنه عدو للنظام أو إنه من الإخوان أو شيوعى أو أى شىء ونادراً ما كان يهتم بالتحقق مما يقولون . وحوادث كمشيش التى أتينا بطرف من حيثيات حكم القضاء فيها قيل لعبد الناصر أن ضحاياها إقطاعيون خطرون ، وهذا كان مبررا أكثر من كاف لإنزال أسوأ العقاب بأى إنسان .

وهذا يفسر لك كيف أن جماعة السوبر باشوات وهم خدم عبد الناصر وعبد الحكيم عامر استولوا على ثروات مصر وخربوا شركاتها ودمروا أرضها الزراعية ، بينما عبد الناصر يسعد بإلقاء الخطب التى كان يتصور أنها تهز الدنيا ، وما كانت فى الواقع تؤثر فى سير الحوادث إلا بقدر محدود جدا بل كانت تأتينا بأسوأ النتائج ، فقد أهلكنا عبد الناصر ليسقط نورى السعيد وأنفق فى سبيل ذلك الملايين ، ومع ذلك فإن الذى جاء بعد نورى السعيد كان عبد الكريم قاسم ، ونورى السعيد مهما قلنا فيه كان باشا محترماً يعرف الأصول ، وفى محادثات سرسنك كان صلاح سالم يتطاول عليه وكان نورى السعيد يرد بأدب ، حقا إنه كان خبيثاً ولكنه كان مهذباً . أما عبد الكريم قاسم فقد كان خبيثاً وقليل الأدب وحقيراً ، وفى بغداد أقام سيركا سماه محاكمات الثورة وأتى بقريب له يسمى عباس المهداوى وجعله رئيس المحكمة ، وأذيعت المحاكمات بالتليفزيون ، والذى قاله عباس المهداوى فى عبد الناصر وزعماء مصر وثورة مصر يندى له الجبين ، ومن راديو صوت العرب بالقاهرة كان يرد عليه المسكين أحمد سعيد ، بشتائم أقسى وأشد إقذاعاً .

وهذه هى صورة الكفاح العربى فى عصر السوبر باشوات ، ولكى يُسقط جمال عبد الناصر رجلا مثل كميل شمعون أنفق فى بيروت الملايين بلا حساب ، ونصفها استقر طبعا فى جيوب السوبر باشوات ، *والذين يقولون أن عبد الناصر هو الذى وضع أساس ازدهار*

بيروت المالى ابتداء من ١٩٥٤ بما ألقى فيها من أموال مصر يقولون الحق ، ويااليت هذا كله نفع فى شىء فإن جمال عبد الناصر لم يُسقط كميل شمعون رغم ذلك كله ! وأيام كميل شمعون كان الحكم فى لبنان مشتركاً بين الموارنة والسنة والشيعة ، أما اليوم فإن الكتائب وحدها هى التى تحكم لبنان ، ونار كميل شمعون ولا جنة الكتائب . .

وهل هذه كانت كل خسائرنا ؟

لا والله خسرنا ما هو أهم من الأموال والجواهر والقصور خسرنا فرصة ذهبية نحاول اليوم أن نستنقذ بعضها ، فإن عبد الناصر بعد أن انفرد بالحكم من أبريل ١٩٥٤ كان يستطيع أن يفعل لمصر ما فعله لينين لروسيا وفرانكو لأسبانيا وتيتو ليوغوسلافيا وماوتسى تونج للصين .

كل هؤلاء كانوا مستبدين ولكنهم على الأقل استخدموا الاستبداد فى النهوض ببلادهم وإدخالها فى عصر جديد لأنهم كانوا يملكون حصيلة طيبة من العلم والثقافة .

ففى سنة ١٩٥٤ كانت مصر مازالت بخيرها كله ، كان عدد سكانها أقل من ٣٠ مليوناً وكان سكان القاهرة مليونين . . والناس كانوا يثقون فى عبد الناصر ثقة بلا حدود وكانوا مستعدين للسير معه فى طريق الإصلاح ، وكان البلد حافلا بالرجال والكفايات والعلماء . وكان لينين رغم كل شىء يحترم العلم والعلماء ، ويعتبر جامعتى موسكو ولينينجراد معقلين وطنيين وكذلك كان فرانكو ، وهذا الرجل الأخير وضع قيوداً تمنع الرأسماليين من الانحراف ثم أطلق لهم حرية العمل دون أن يصادر أموالهم فقاموا بالنهضة الاقتصادية الكبرى وجعلوا أسبانيا تاسع الدول الغنية فى العالم اليوم وأول بلاد العالم فى السياحة . .

ومشكلة التموين التى نعانى منها الآن كان حلها ممكنا منذ أيام عبد الناصر ، والتقارير والدراسات التى قدمها إليه العلماء والمتخصصون المصريون كانت كفيلة بالعلاج أيام كان العلاج ممكنا ، ولكن عبد الناصر كان يلقى بها فى الأدراج ولا يقرأها وخذ مثلا واحدا : مترو الأنفاق مشروعه وضع وقدم لعبد الناصر سنة ١٩٥٦ ولم تكن الشوارع قد غصت بما فيها كما هى اليوم ، وكان تنفيذه أيسر من اليوم عشرات المرات . ونحن سننفق فيه اليوم ما بين ٢٥ ، ٣٠ مليوناً . أما فى سنة ١٩٥٧ فكانت تكاليفه ٥ ملايين وكانت المدة المقدرة للتنفيذ ٥ سنوات أو ١٠ ، مهما كان فإن مترو الأنفاق كان قد تم . وكنا تفادينا مشاكل المواصلات المستحيلة .

ومشروعات إنشاء المدن الجديدة فى الصحراء كلها قدمها لعبد الناصر رجال مصريون

مخلصون ، ولكن عبد الناصر كان يحتقر العلماء ويحتقر الكتاب والأحرار ويحتقر كل صاحب رأى وكرامة ، وقد تقدم له مهندس مصرى صادق بكل وجوه النقد والنقص فى مشروع السد العالى ، وكل ما قاله هذا الرجل المخلص كان حقا ونحن نعالجه اليوم ولكن عبد الناصر عاقب ذلك الرجل وطرده من الحكومة ، وأنا أكتب هذه السطور ويقرأها عالم مصرى جليل كان يشرف سنة ١٩٥٥ على مجلس أبحاث الذرة ومجلس العلوم ، وكان قد وضع مشروعا يجعل مصر صاحبة أول مفاعل ذرى خارج أوروبا سنة ١٩٦٢ ، ولكن عبد الناصر اضطهده وطرده والرجل غادر مصر وعمل فى الأمم المتحدة وأنشأ إحدى منظماتها الكبرى وأصبح ثالث رجل فى الأمم المتحدة كلها . .

ولينين وفرانكو وتيتو نهضوا بجامعات بلادهم واحترموا مجالس الأبحاث وعلموا الناس النظام والنظافة ، ولينين كان يستقبل الناس جميعاً وهو جالس إلا مديرى الجامعات ومدير أكاديمية العلوم ومحافظ متحف الارميتاج فى لينينجراد وهو الوحيد الذى كان يغلظ فى الكلام للينين كما كان الأديب مكسيم جوركى ، وكان لينين يستمع لكلامه بكل احترام .

تلك هى خسارتنا الكبرى بسبب الاستبداد وهو رأس الرذائل السياسية كلها . .



١٤ الســــادات وحصانه الأبيض



الفريق محمد فوزى

آن الأوان فيما أحسب لكى نفرغ من هذه الدراسة فإن غايتى منها كانت منذ البداية مراجعة الحساب الختامى لما حدث فى مصر فى عصرين متواليين : ماقبل الثورة وما بعدها . ولم يكن غرضى التأريخ للعصرين ، فهذا مطلب آخر يتناوله المؤرخ بطريقة أخرى وعدة أخرى .

ولم أكن أقدر منذ البداية أيضاً أن أقول الكلمة الأخيرة فى كل موضوع تناولته هذه الدراسة ، بل أردت مجرد فتح طريق جديد فى النظر إلى تاريخنا . وكل الذى قلته هنا إنما هو رأى ، والرأى يثير الرأى ، فتتلاقى الآراء ويكون الحوار ومن الحوار السليم تخرج الحقيقة وهذه - فيما أحسب - هى وظيفة الكاتب : أن يحرك الأذهان ويفتح الباب للحوار السليم . أما الكاتب الذى يظن أن كلامه هو فصل الخطاب ولا معقب عليه فليس بصاحب فكر . وأنا شخصياً أعجب بالفقيه المفكر الأندلسى أبو محمد على بن أحمد بن ححم ولكن يضايقنى منه استبداده برأيه وقوله دائماً : « وهذا هو الحق الذى لا مرية فيه ولا معقب عليه » . وهذا أيضاً ما لا يعجبنى فى العقاد أحياناً وهو إحساسه بأن ما ينتهى إليه فكره وما يجرى به قلمه هو الحق والمنطق والعلم جميعاً ، وما دون ذلك فما هو بحق أو منطق أو علم .

والذى يعجبنى فى كتابات مفكرى ما قبل الثورة الفرنسية : فولتير ومونتسكيو وروسوود الامبير وبقية الموسوعيين ومن عاصرهم من أهل الفكر فى انجلترا وألمانيا هو أن كتاباتهم تفتح دائماً باب الحوار ، فإن الميزة الكبرى لهؤلاء جميعاً هى أنهم حركوا الفكر وأخرجوه من الجمود إلى الحركة . وهذا هو الذى يجعلك تقرأ ماكتبوه مرة بعد أخرى ، وفى كل مرة تتكشف لك نواح جديدة للفكر والرأى .

إلى شىء مثل هذا قصدت عندما استقر رأيى على أن أكتب فى هذا الموضوع وجعلت أشرع فى جمع المادة له منذ صيف عام (١٩٨١) وكل ما كنت آمله هو أن أكون كمن يرمى الكرة فى الملعب ويسعد برؤيتها تنتقل من واحد إلى واحد . وهذا فيما أعتقد هو أحسن تصوير لما نقوله - دون أن نطبقه - بعبارة الرأى والرأى الآخر . فكل الذى قلته وأقوله رأى ، ولكل قارىء بعد ذلك رأيه . ولو أن المناقشة تتجلى فى النهاية عن أننى أخطأت فى معظم ما قلته فهذا لا يقلل قط من شعورى بأننى أسهمت بنصيب ما فى توجيه الأذهان إلى ما ينبغى أن تتجه إليه وهو البحث عن الحقيقة .

ولكى أكون متفقاً - منذ البداية - مع القارىء أقول إن العبرة عندى فى كل عمل هى النتائج التى يعتد بها والتى يعود خيرها على الشعب . فإن الأمة عندى هى البداية وهى النهاية . وكل خير لا ينال الأمة كلها فهو ليس بخير . وكل خير يقتصر على طائفة دون

طائفة فهو شر . ومن هنا كانت حملتنا على السوبر باشوات لأنهم استولوا على الثمرات المادية لكل عصر الباشوات وانفردوا بها غصباً وسرقة وتدليساً . وهذا أيضاً هو لباب نقدى للرئيس عبد الناصر رغم أننى أعرف مكانه الضخم فى تاريخ مصر والعالم العربى المعاصر كله ، فقد نادى بالحرية ثم جعلها احتكاراً لنفسه فحسب ، وطالب بحقوق الشعوب ثم انفرد وحده بكل الحقوق وقال : ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عصر الاستعباد ثم عمد إلى قطع رأس كل مواطن حاول رفع رأسه ، ورد الناس بذلك إلى عصر من الذل والخوف هو أسوأ من كل ما رأت مصر فى تاريخها . وقد أتينا بفقرة من حكم محكمة مصرية على ذلك العصر فى حيثيات حكمها فى قضايا تعذيب كمشيش وهو حكم حاسم فيما نرى .

وقد آخذ على بعض القراء أننى فى كلامى عن طبيعة الحكم فى العصر الناصرى اعتمدت على عبارات وردت فى كتاب « البحث عن الذات » للرئيس السادات . وقالوا إن هذا رأى مفرد لا يصح التعويل عليه وحده . وقالوا أيضاً إن السادات لا يمكن اعتباره شاهداً منصفاً على عصر عبد الناصر . وهؤلاء الإخوة عندهم حق فى ذلك . ولكننى تصورت أن أحسن حكم على عصر عبد الناصر هو عبد الناصر نفسه ، وما دام عبد الناصر يقول للسادات إن البلد فى أيامه كانت تحكمها عصابة ، فهذا كان كافياً فى رأيى ، فإذا لم يكن كافياً فإلى القارىء رأى الفريق محمد فوزى ، وهذا الرجل الجدير بالإعجاب هو القائد العظيم الذى بقى فى الميدان بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ : عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وشمس بدران قدموا استقالاتهم ولزموا بيوتهم . وبقى هذا الرجل وحده يجمع شتات القوات المسلحة التى مزقوها ، وأقل ما يقال فى هذا الرجل أنه عسكرى مصرى شهم وصادق وقد قلنا مثل هذا الكلام عن الرئيس حسنى مبارك واللواء كمال حسن على .

والفريق محمد فوزى يقول إن الصراع المرير على السلطة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر انتهى إلى سيطرة ما يسميه « بالبيروقراطية العسكرية » وإن المنتصر فى هذا المجال كان عبد الحكيم عامر ومن يسميهم جنرالاته ، فلم يبق لقائد الثورة ورئيس الجمهورية نفوذ على تلك القوات إلا مجرد التوقيع على قرارات ترقية الضباط إلى رتبة الفريق والفريق أول فقط ومنذ عام ١٩٦٥ دخلت البيروقراطية العسكرية بثقلها فى الحياة المدنية للبلاد وأوكل عبد الناصر للمشير عامر وأعوانه مهمات داخلية مدنية صرفة مثل القضاء على الإقطاع وإصلاح بعض المرافق والتحقيق فى بعض القضايا السياسية ، واستخدمت القوات المسلحة أجهزتها الكثيرة والقوية . . واستخدمت الغش والإغراء والتعذيب . .

وهذه السطور تكفى لتأييد ما قلناه . ومن عصر عبد الناصر . . أنتقل إلى عصر السادات .

. . . وأحب أن أذكر القارىء الكريم هنا بأننى لا أؤرخ لعبد الناصر أو السادات وإنما أنا أؤرخ لمصر . وأزن الأمور بمقياسها الأقرب سلامة وهو جدواها أو ضررها على الأمة . فان الأمة هى الباقية . وما يبقى لها أو فيها هو الذى يهمنا فى المكان الأول . ولو أن عبد الناصر أشرك الأمة معه فى الرأى وأعانها على تحمل مسئولياتها وترك لها من الحرية ما يمكنها من المشاركة فى صنع تاريخ بلدها بالقدر الذى ينبغى لها لما كانت مسئوليته بهذه الجسامة . ولكنه كما قلنا قصر الحرية وصنع القرار على نفسه . وجرد الأمة كلها من كل رأى . وأخافها وأفزعها وأسكت صوتها وتحمل وحده كل المسئوليات . فكان عليه أن يتحمل كل التبعات . وقد حاول بعد هزيمة ١٩٦٧ أن يلقى التبعة على عبد الحكيم عامر لكيلا يكون هو مسئولا عن هزيمة يتحمل هو مسئوليتها الكاملة دون الجيش . فإن الجيش كما يقول نجيب محفوظ فى عبارة بالغة الحكمة : « تلقى أمرا بالهزيمة فانهزم » وسأعود إلى عبارة نجيب محفوظ برمتها قبل الفراغ من هذه الدراسة لأنها حكم دامغ على الاستبداد ومصائبه وهى رجاء صادق فى ألا يعود . وهذ أيضاً رجاؤ نا . وهذه فى النهاية هى الغاية الكبرى التى توخيتها من وراء هذه الدراسة .

ليس لدينا دليل واحد يؤ يد القول بأن أنور السادات كان الخلف المنتظر لجمال عبد الناصر . حقاً إنه كان نائباً لرئيس الجمهورية ، وكان مرشحاً بالتالى لأن يكون خلفاً لعبد الناصر لو أن الأمور كانت تسير إذ ذاك سيراً دستورياً . لكن العصر الناصرى كله دارت حوادثه ، أو معظم حوادثه ، خارج الشرعية والقانون والدستور بل الإنسانية ، لأن عبد الناصر كان قد جعل نفسه الشرع والقانون والدستور .

وبعض الكتاب يقولون إن عبد الناصر وصل إلى هذا الوضع الغريب برضا الأمة ، لأنه كانت هناك فى زعمهم رابطة كارزمية بين الشعب المصرى وبينه . وكارزمية هنا مشتقة من Charisma ويراد بها الهيبة أو القداسة التى تكون لشخص ما على قلوب الآخرين مثل هيبة الولى فى قلوب مريديه أو الموهبة التى يتمتع بها بعض الناس وتجعلهم قادرين على السيطرة على الجماهير .

وأدولف هتلر مثلاً كانت له شخصية توصف بأنها كارزمية على تابعيه . وإلى حد ما نستطيع القول بأن كارزمية عبد الناصر كانت حقيقة بالنسبة لأتباعه من العرب ، لأن دكتاتورية عبد الناصر لم تكلفهم شيئاً . والشعب المصرى وحده هو الذى تحمل نفقات إمبراطورية عبد الناصر ، أما بقية العرب فلم يروا من عبد الناصر إلا خيراً - فيما عدا السعودية من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٧ وهى فترة تدخل عبد الناصر فى اليمن ــ وعبد الناصر كان يحفن مال مصر بكلتا يديه ويلقى للعرب . ومن أغرب تصرفاته فى هذا المجال أن الطلبة

العرب فى جامعات مصر كانوا جميعاً يتعلمون دون مقابل . وبعد إعلان الوحدة مع سوريا منح عبد الناصر الطلاب السوريين والفلسطينيين راتباً قدره ١٢ جنيها لكل منهم فى الشهر مع السماح لهم بتناول الوجبات فى المدن الجامعية دون مقابل . فلما وقع الانفصال عن سوريا صدر أمر عبد الناصر بأن ترفع مكافأة الطلاب السوريين والفلسطينيين إلى ٢٤ جنيها فى الشهر ، ومن كان منهم مقيماً فى إحدى المدن الجامعية أعفى من كل الرسوم بالإضافة إلى الراتب المضاعف . وهذا كله لكى يرى السوريون أبناء الزوجة الناشز أن زوج أمهم رجل بطل كريم إلى أقصى حدود الكرم .

وعبد الناصر دائماً كان بالنسبة للعرب المعلم البلدى « الفييس » الذى ينفق على أصحابه فى المقهى بكلتا يديه فى حين أن امرأته (مصر) فى البيت تضرب رأسها فى الحائط ومعها نصف ريال تركه لها المعلم لتدبر منه كل شىء . وفى آخر الليل يعود وقد أنفق ما فى جيبه ويطلب من الزوجة التعيسة أن تقدم عشاء عظيماً . . فإذا لم تسارع به إليه ضربها .

ولا يتصور مصرى مقادير الأموال التى ألقاها عبد الناصر فى بيروت ليبنى أسطورته . وصحفيون كانوا لا يساوون قلامة ظفر أصبحوا أصحاب ملايين من أموال مصر التى أعطاهم عبد الناصر ، وأى هلفوت لبنانى كتب سطراً فى مديح عبد الناصر تقاضى ثمنه ذهباً . وهنا ، وفى عالم أموال تصرف من اللعنة التى تسمى المصروفات السرية ، حيث تعطى الأموال بلا إيصالات وحيث يكون النهب هو القاعدة لا تعرف من أخذ ماذا ! ومئات المصريين ذهبوا إلى لبنان للقيام بما يسمى بالدعاية وعادوا أغنياء ، والاستعلامات أصبحت لها أيام عبد الناصر حقيبة وربك أعلم بما كانت الحقائب تفعل .

ثم إن عبد الناصر كبل مصر بالأغلال ووضع شعبها فى التخشيبة فكانت تلك فرصة العمر للبُنان ، والقاهرة التى كانت مركز الكتاب العربى فقدت مركزها ، وبيروت أخذت مكان القاهرة وأخونا سعيد لأنهم هناك يهتفون : يحيى عبد الناصر بطل العرب ! وكل لفظ من هذا الهتاف كلفنا ملايين . وإذا أنت قلت إن عبد الناصر هو الذى أنشأ بيروت لم تبالغ . وكارزمية عبد الناصر فى العالم العربى بنيت بمال المصريين أما كارزمية عبد الناصر عند المصريين فقد كانت رهبة وخوفاً . حقاً إنه أعطى العمال ما سماه بالمكاسب الاشتراكية ولكن العطاء هنا كان من رأس المال الحى ، من رأس مال الشركات والهيئات . وكان الحق أن يعطى العمال هذه المكاسب ولكن مع العمل على زيادة الإنتاج وتحسينه فيكون العطاء جزءاً من الربح لا فضلاً و « حسنة » من المعطى .

وكل الدنيا أعطت العمال كل الحقوق وكل التأمينات ولكنها عرفت فى نفس الوقت كيف ترفع كفاية العمل لتغطى زيادات المرتبات والتأمينات والمعاشات دون إضرار

بالشركات ورؤوس أموالها . وعمال الشركات فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا يأخذون خمسة أضعاف ما يأخذه العامل المصرى . ولكن قدرتهم الإنتاجية وكفايتهم المهنية تزيد عشرة أضعاف على كفاية العامل المصرى ولهذا فإن الميزان لم يختل أبدا هناك والرخاء عم الوطن وعماله . أما هنا فإن الزيادات لم يصاحبها أى جهد للارتفاع أو التوعية القومية والمهنية للعمال . فزاد الإنفاق وقل الإنتاج ، وفى يومنا هذا معظم الشركات المؤممة تخسر لأن نفقات العمال تستهلك ٨٠ فى المائة من ميزانيات الشركات والمؤسسات ولا يبقى إلا ٢٠ فى المائة للإنتاج الحقيقى ولتعويض استهلاك الآلات والمنشآت فضلاً عن تجديدها . . وهذا كلام أقوله لأبين كيف أن أسلوب العمل الناصرى جعل النعمة نقمة .

لم يكن السادات إذن الخلف المنتظر . ورجال اللجنة المركزية الذين عرفناهم باسم مراكز القوى كانوا ينظرون إليه فى ترفع عظيم . ولم يكن لديهم شك فى أنهم سيصنعون الرئيس الجديد على هواهم . وهذا فى ذاته نفع السادات . لأنهم استناموا إلى هذا الغرور ، بل بلغ من غرورهم أنهم قدموا استقالاتهم ليحرجوه ، ولكنه أثبت أنه أذكاهم أجمعين فتحرك بسرعة وذكاء ، وارتكن إلى مركز القوة الحقيقى وهو الشعب ومجلس الشعب ، وفى أيام قلائل كان قد تخلص منهم وأودعهم السجون . وبوضعهم فى السجون سقط حكم الإرهاب وتمهد الطريق لإعلان قوانين ١٥ مايو ١٩٧١ وهى المعروفة بثورة التصحيح ، وهى ثورة فعلاً . وللمرة الأولى من عشرين عاماً هبت على مصر والمصريين نسمات الحرية وتمهد الطريق إلى نصر أكتوبر العظيم .

وهناك من يقولون إن صاحب الفضل الحقيقى فى النصر هو جمال عبد الناصر لأنه بعد بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ بدأ فى بناء الجيش المصرى من جديد . وهذه كلها فروض وأوهام . وعبد الناصر ما كان سيوفق إلى الانتصار على إسرائيل أبدا . . والسبب ؟ كما سترى فى فصل الثورة والثوار من هذا الكتاب .

السبب أن عبد الناصر لم يؤمن بالحرية قط . ورغم هزيمته وما أعقبها لم يتخل عن استبداده أبدا . ولا هو رفع عن المصريين فتيلاً من القيود التى قيدهم بها . ومن المستحيل على أى شعب أن ينتصر فى أى حرب إذا كان خائفاً مقيداً بالأغلال . والشعب الألمانى نفسه - وهو من أعظم الشعوب المقاتلة فى التاريخ وأقدرها على صنع السلاح - خسر الحرب لأنه كان خائفاً مقيداً بالأغلال أيام هتلر . وقد قال هذا الكلام ونستون تشيرشيل فى مذكراته قال إنه لم يشك فى النصر على الألمان فى أحلك سنوات الحرب بينما كانت طائرات الاستوكا تدك لندن والمدن الانجليزية دكا خلال عامى ١٩٤٢ - ١٩٤٣ وكان سبب إيمانه بالنصر هو أن الشعب البريطانى شعب حر وحلفاؤه أحرار يحاربون ثلاثة طواغيت : هتلر

وموسوليني والقيصرية اليابانية .

والسادات بثورة التصحيح خطا أول خطوة نحو النصر . وكان رجال الجيش المصرى أسعد الناس بقوانين الحرية . وفى مذكرات الفريق محمد فوزى عبارات تدل على أن كل عمليات الإرهاب التى مارستها مراكز القوى على الشعب امتدت إلى داخل الجيش . وذلك طبيعى لأن الجيش هو الشعب . قال الفريق فوزى : « وتعرض ضباط كثيـرون للطرد والمحاكمات السرية والإحالة إلى المعاش من غير الطريق التأديبى » . وخطوات التحرير التى قام بها أنور السادات كانت أساسية لأنها أزاحت عن صدور المصريين جميعاً - مدنيين وعسكـريين - كـابوسـاً رهيباً . وبـدأ رجـال الجيش يعملون ليكسبـوا نصـرهم الـذى يستحقونه .

واستجابت الأمة لخطوات التحرير . وأيدت رفع الحراسات وإعادة ما تيسرت إعادته إلى الناس من الأموال المصادرة . وكسب السادات أول انتصاراته وثبتت مكانته وبدأت شخصيته تتجلى وتخرج من الظل الذى كان عبد الناصر يبسطه على كل من كان حوله .

ونشطت المخابرات الأمريكية للإحاطة بالسادات وإيقاعه فى نفس الشرك الذى وقع فيه سابقه ، ولكن اتصالاتهم الأولى به أظهرت لهم شخصية شروداً عسيرة على التحديد أو البرمجة ، ذلك أن السادات - نتيجة لطبيعة المغامرة وتجربته الطويلة فى ميدان المغامرات - لم ين إنساناً سهلاً ، وقد نشر نفر من أكابر رجال السياسة الأمريكية الذين تعاملوا مع السادات مذكراتهم . وبين أيدينا الآن مـذكرات هنـرى كيسنجر وزبيجنيـو بريجنسكى وجيمى كارتر وعرفنا منها الشىء الكثير الذى يزيدنا فهما لشخصية السادات . وكلها - فيما عدا مذكرات كارتر - تكشف لنا عن مدى الغرور والسطحية وسوء النية التى تنطوى عليها قلوب أولئك الذين يصنعون السياسة الأمريكية .

وأنا أدهش لما قرأته فى مذكرات بريجنسكى ، فهذا أستاذ جامعى صار سياسياً ، فلما كتب كانت كتابته كتابة أستاذ ولكن الشىء الذى استوقف نظرى هو الشر العظيم الذى ينطوى عليه هنرى كيسنجر نحو مصر والعرب رغم كل ما كانوا يقولون عنه . ومذكرات كيسنجر تكشف عن حقيقة أخرى لابد أن نعرضها ، وهى أن شاه إيران كان عدواً لدوداً لمصر والعرب . وقد ساءه انتصار مصر فى حرب أكتوبر وبذل أقصى جهد لإيقاف النصر المصرى ومنع الطائرات السوفيتية المحملة بالأسلحة من المرور فى أجواء إيران .

وعندما نقرأ هذه المذكرات كلها قراءة إمعان يتبين لنا أن السادات كان يخوض فعلاً - حتى قيامه بالمبادرة - معركة عنيفة ذات جبهات متعددة وأدوار مختلفة . وأنه كان بالفعل كما يقول بيت شعر عربى معروف : « هزبرا أغلبا لاقى هزبرا » .

ويمكن أن نقسم فترة رياسته كلها إلى أربع مراحل : المرحلة الأولى مرحلة تثبيت مركزه . وقد استمرت حتى حرب أكتوبر . والمرحلة الثانية هى مرحلة استرجاع الأرض المصرية المحتلة . وقد انتهت تلك المرحلة باتفاقيات كامب ديفيد . والمرحلة الثالثة هى مرحلة إقناع المصريين وغير المصريين بالدخول فى علاقات سلام مع إسرائيل . وخلال هذه المرحلة خسر السادات معظم أصدقائه فى العالم العربى . والمرحلة الرابعة الأخيرة هى مرحلة ما بعد السلام . وتلك كانت أحرج مراحل حياته رئيساً لمصر لأنه كان يستطيع الانتفاع بما وصل إليه من نجاح فى تحرير الأرض لانتهاج خط إصلاحى حقيقى داخل مصر . ومصر من الناحية الداخلية والنفسية كانت فى أشد الحاجة إلى الإصلاح الداخلى ، وكانت تحتاج إلى رجل يعرف تماماً ما هى حاجات شعب مصر الحقيقية ، وحجم متاعب هذا الشعب . رجل يعرف أن أشد ما تحتاج إليه مصر من قيادتها بعد معارك الحرب والسلام هو الجلوس فى هدوء ودراسة المشاكل الداخلية وإعادة تنظيم الشعب المصرى ومواجهة مشاكله مواجهة جادة .

وكانت أمام السادات فرصة ذهبية لبداية السير فى ذلك الطريق من منتصف ١٩٧٨ ولكن السادات أضاع هذه الفرصة وتصور أنه بلغ ما لم يبلغه إنسان قبله وما لن يبلغه إنسان بعده وتصور أنه هو وحده كسب حرب أكتوبر . وهو وحده استعاد سيناء . وهو وحده الذى يعرف ماذا يُعمل وماذا لا يُعمل . وأخذ صورة سيد ارستقراطى عظيم له فى كل ركن من أركان مصر قصر ملكى يقيم فيه . وحاشية ضخمة تجرى وراءه لتخدمه فى قصوره وأسرة ملوكية تصاهر أصحاب الملايين . وهو فى الشتاء فى أسوان والاسماعيلية وفى الصيف فى الأسكندرية . والدنيا كلها تجرى لتسعد بلقائه حيث يكون . والسيد العظيم يستيقظ فى الحادية عشرة صباحاً ويبدأ العمل فى الواحدة بعد الظهر . وطائرة بوينج ٧٠٧ وطائرة هليكوبتر مربوطتان ببابه كما كانت الخيل تربط بأبواب الخلفاء والسلاطين . والملابس تصنع عند ديور وبيير كاردان . وسيد مصر العظيم تحول إلى « ستار » عالمى . ومجلة شيترن تنشر صورته على غلافها وفى يده وردة وتمنحه لقب أشيك رجل فى الدنيا . واللغة الوحيدة التى تعجبه هى المديح وهو لهذا لا يحتمل النقد ، وصدره يضيق بأية مراجعة وتلك هى فترة أخطاء السادات التى كلفته ثمناً باهظاً . تلك هى فترة الأخطاء والاكسترافاجانسيا القاتلة . ومعظم الذين أبغضوا السادات داخل مصر تكونوا خلال هذه الفترة لأن المصريين يحبون الغنى والترف لأنفسهم فقط فإذا وصل غيرهم إلى الغنى والمال فلا بد أن يكون لصاً ، ولا يمكن أن يكون ماله حلالاً أبداً .

وقد قرأت كل ما كتب عن السادات خلال تلك الفترات الأربع من حياته ولو أردت

أن أقف موقف الدارس والمحلل لطالت هذه الدراسة وتجاوزت حدودها ولكننى أوجز آرائى على قدر فهمى لما قرأت ، ولا ننسى هنا أننى أؤرخ لمصر وشعب مصر . فأنا لست ناصرياً ولا ساداتيا ولكننى مواطن مصرى عادى لا يعنينى إلا ما يصل إلى شعب مصر كله من خير . .

ومن المؤكد من هذه الزاوية أن قوانين مايو واستعادة سيناء وقناة السويس ونقل مصر من المعسكر الروسى إلى المعسكر الغربى كل ذلك كان خيراً لشعب مصر ومجداً حقيقياً للسادات . ومن المؤكد أيضاً أن الصورة التى أخذها السادات بعد السلام مع إسرائيل كانت صورة ضارة به أمام شعب مصر . فمصر بعد السلام والإخراج من المعسكر السياسى العربى كانت فى حاجة إلى رجل يخلع عن نفسه زهو السلطان وأبهة الملوك ويجلس للدراسة والبحث والعلاج . لأن مصر كانت محتاجة إلى طبيب يداوى وقلب يواسى ويد حانية تأسو الجراح . ولم تكن قط بحاجة إلى سوبر ستار عالمى . وجراح مصر تكاثرت بعد السلام بقدر ما كانت تتكاثر قبله . وعلاج جراح مصر العميقة التى أصبحت صدوعاً طولية خطرة ما كانت لتعالج بزيادة المساعدات الأمريكية ولا تعالج بل تتزايد بمزيد من الانضواء تحت جناح أمريكا ، والسادات بعد السلام كان يقول إنه لا يزال فى معسكر عدم الانحياز . والسؤال هو : كيف تكون غير منحاز وأنت تتلقى ١٥٠٠ مليون دولار مساعدات من الولايات المتحدة كل سنة ؟

أنور السادات خلال المراحل الثلاث الأولى كان بطلاً حقاً استعمل ذكاءه كله فى خدمة مصر وكسب . كان فوزه بالرياسة وتغلبه على مراكز القوى وإعلان قوانين التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ ضربات معلم . ومن أغرب ما قرأت فى ذكريات مراد غالب أن الرئيس عبد الناصر كان خلال ١٩٧٠ يعد عبد اللطيف البغدادى ليخلفه . وعبد اللطيف البغدادى من أعاظم قادة ثورة ١٩٥٢ وأكثرهم جلالاً وأوفرهم احتراماً فى قلوب المصريين . مثله فى ذلك مثل كمال الدين حسين . ولكن مشيئة الله أرادت أن يكون أنور السادات هو خليفة عبد الناصر .

وأنور السادات حقق لمصر أعز ما كانت تصبو إليه : النصر وتحطيم أنف إسرائيل واستعادة الكرامة والثقة فى النفس ثم استعادة الأرض وفتح قناة السويس والتحرر من السوفييت . ومرة أخرى ينبغى أن أقرر أن هذا كله لم يحققه السادات وحده بل حققه بتأييد شعب مصر الكامل . ولا أقول هنا الشعب والجيش أو الجيش والشعب ، لأن جيش مصر هو شعب مصر . وأبطال الجيش الذين أقدموا وانتزعوا النصر وحققوا ما كان يبدو مستحيلاً هم أبطال شعب مصر . وكيف كان السادات يستطيع الوصول إلى النصر دون قادة الجيش

العظام ؟ وقادة الجيش العظام كيف كانوا يستطيعون تحقيق النصر دون شباب ضباطهم البواسل ؟ وكيف كان شباب الضباط يحققون مهامهم لولا جنودهم العظام ؟ والجنود العظام كيف كانوا يستطيعون دك حصون الإسرائيليين على رؤوس من فيها إلا إذا كانوا الطليعة المقاتلة فى الجبهة لشعب عظيم كان كله فى المعركة وراء الجبهة ؟ .

والذى عاناه السادات فى مفاوضات السلام من أجهزة السياسة الأمريكية بكل تياراتها وأنانياتها وصراعات رجالها وتعقد الخيوط التى تتكون منها ، ومن بينها الخيط أو قل الحبل الإسرائيلى الذى كان يمثله رجل خطر مثل سيمحا دنيز سفير إسرائيل فى الولايات المتحدة ، الذى عاناه السادات من تلك السياسة الأمريكية وخيوطها المخيفة شىء لا يصدق ، وخروجه سالماً من تلك الغابة يؤكد أنه بطل حقيقى ، والذى عاناه من المنافق الأكبر والثعبان الصهيونى الإسرائيلى الأخطر وهو كيسنجر كان أمراً رهيباً .

والذين يلعنون اتفاقات كامب ديفيد لا ينبغى أن يلعنوها لأن الذى فعله السادات ليخرج منها بأرض بلاده كان شيئاً لا يستطيعه إلا أنور السادات وحده بكل ما يعجب أنصاره وما لا يعجب أعداءه . وعندما رأى كيسنجر أن السادات يعرف ما يريد وهو تحرير الأرض ويتجه إليه فى تصميم وإصرار أراد أن يغرقه . وكيسنجر الذى يعلم أن أى محاولة للسادات ليكسب أكثر مما كسب لن تعود عليه إلا بالخسارة كان يقول . . ارفض هذا واطلب أكثر نعطك أكثر ، بالضبط كما يلح صاحب الكازينو على من يكسبون فى مواصلة اللعب ويغريهم بمزيد من الكسب لكى يغرقهم فى الخسارة ، ولكن السادات المقامر الأبدى كان بطل هذه اللعبة . وعندما نجا السادات من المخاطر وأخذ ما يريد صاح كيسنجر : هذا الرجل لا يحلم إلا بدخول السويس على ظهر جواد أبيض ، كأن هذا عيب ! وحتى فى هذا تفوق السادات على كيسنجر وكل جهابذة الإدارة الأمريكية فلم يبدأ بدخول السويس على الحصان الأبيض ولكنه بدأ بدخول العريش وأتى بالديب من ديله حرفياً .

ويصيحون : ولكن جزءاً من سيناء منزوع السلاح ! ياللسذاجة ! إن كل اليابان منزوعة السلاح ، وكل ألمانيا الغربية منزوعة السلاح فانظروا أين اليابان وأين ألمانيا الغربية . هناك أشياء يأتى بها القائد وأشياء لابد أن يأتى بها الشعب ، والسادات أتاكم بما كان عليه أن يأتيكم به والباقى علينا . نحن نستطيع أن نغزو إسرئيل فى سيناء نغزوها بالمنتجات والمحصولات والصادرات . أليس هذا بالحرف هو الذى فعلته اليابان ؟ غزت أمريكا وهى منزوعة السلاح وتحت الاحتلال ، يا خسارة ! هذا العمل العظيم كله ضاع جزء كبير من ثوابه على السادات لأنه نسى أن معركة ما بعد السلام لم تكن تحتاج إلى بذلة

الفيلد مارشال هيرمان جيرنج التى أصر السادات على أن يحشر نفسه فيها وفيها مات . نسى أن الشعب المصرى شعب طيب فقير لا يجب أن يرى بطله يعيش فى عشرة قصور ويصلى الجمعة فى قفطان من صنع بيير كاردان ، ويغمض عينه على كل أعمال السوير باشوات القدامى الذين تربوا فى عصر عبد الناصر والجدد الذين تربوا تحت جناحه أو وراء ظهره . وجمال عبد الناصر الظالم المستبد الزاهد المتقشف ظل فى مكانه من قلوب المصريين والعرب بطلاً خالداً : البطل الذى جعله سوء بخته بطلاً أكبر . حكمتك يا مقلب القلوب !

وبعد كتابة هذا أتانى من يبلغنى أن الرئيس السادات لم يكن يصنع ملابسه فى باريس ، وإنما كان يصنعها له خياط مصرى معروف ذكروه لى باسمه ، وأنا أصدق هذا ولكنى أقول إنه بالنسبة لشعب مثل شعبنا يحلو له أن يتظاهر بالفقر (خوفاً من العين) .

حتى المياسير منا يحلو لهم أن يصوروا أنفسهم فقراء ! وبالنسبة لشعب كهذا تكون الأوهام والشائعات أفعل من الحقائق . ومظهر السادات كان أكثر من أن يقبله هذا الشعب بعقليته التى ذكرناها . وأنا شخصياً كان يعجبنى مظهر السادات وأناقة السادات بل كان لا يعنينى فى كثير أن يقال أنه يشترى بعض ملابسه من محلات شارع فوبور سانت أو فوريه فى باريس ، فإن نفرا من أعاظم رجال الدنيا يشترون ملابسهم من هناك ، ولكن ، عندما يكون تعاملك مع شعب تربى على أن يستكثر أى نعمة على الآخرين ، ويستقل أى نعمة على نفسه ، يكون مظهر السادات هذا خطأ يعاقب عليه ! .



١٥ أمس واليـــــوم وغـــــدا

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره
فامض لا تمنن على يدا ... منك المعروف من كدره
ضل من أسرى إلى سفر ... غير مأمون مدى سفره
«أبو نواس»

بهذا الفصل كنت أرجو أن أختم هذه الدراسة . . لا لأنها انتهت بل لأن دورى فيها هو الذى انتهى . . ودورى الذى لا أجرؤ على أن أتعداه هو فتح باب الدارسة الجادة المخلصة الصادقة لمعرفة أمس وأول أمس . . لكى نعرف أين نحن اليوم وأين سنكون . . غدا . . لأن أمس لم يمت . . لا ولا مات أول أمس ، وقد انتهينا ـ جماعة المؤرخين ـ إلى أن «الماضى» لا وجود له . . فكل التاريخ حاضر . . وكله مستقبل . . وتأمل ذلك فى أمر نفسك . . فقد كنت أنت أول الأمس صبياً وبالأمس كنت شاباً . . وإذا كنت اليوم شاباً فإنك كنت بالأمس صبياً . . وأول أمس كنت طفلاً . . فلا الطفل مات فى كيانك لا ولا الصبى ولا الشاب ماتا . . وتجارب طفولتك حية فى كيانك . . وكذلك صبوتك . . والزمان يمضى وأنت معه . . ومهما تتقدم بك سنوات العمر فإن صباك يلازمك وشبابك يظل حياً فيك . . وعندما تغلق عينيك فى ساعات الاسترخاء فإن شريط حياتك يمر أمام عينيك ويعطى حاضرك قيمة ومعنى . . وفى النهاية تشعر أنه لا أمس هناك ولا أول أمس ولا اليوم . . إنما هو نهر الحياة يمضى وأنت معه . . أو أنت تشهده من موقعك على المجرى . . وأحداث كثيرة جداً مما حدث لك فى صبوتك تصبح مستقبلاً لأنك تتمنى أن تعود . .

وأظن أن هذا رد يقنع الذين كانوا يقولون لى ناصحين : دع الماضى يمض إلى حال سبيله ولا معنى لنبش القبور . . ولكنهم يرون الآن أن هذا الماضى نفسه لا وجود له . . وليس فى التاريخ قبور . . وقد كان أسلافنا يكتبون على القبور عبارة إسلامية هى الغاية فى العمق والحكمة وهى : هو الحى الباقى . . وهم لا يريدون بذلك أن يذكروا الموتى بأن الله حى لا يموت لافإن الموتى لا يقرءون ما على شواهد القبور . . ولكن الذين يقرءون ذلك هم الأحياء . . وكل أعمالهم باقية يحاسبهم عليها الحى الباقى . .

لقد كتب أكثر من كاتب يقولون : «عفا الله عما سلف» وهم يرددون بذلك جزءاً من آية كريمة من سورة المائدة بشأن تحريم الصيد فى الحرم والله سبحانه عفا عما سلف من باب الرحمة والتحذير . . والمراد أن صيد الحيوان فى الحرم لا ينبغى أن يتكرر . . ولكن الذين ظلوا يرددون هذه الفقرة من الآية الكريمة دون فهم أو إحساس مهدوا الطريق لصيد الناس فى الحرم . . ومسلم بن عقبة المرى جلس على كرسى عند الحرم وأمر جنوده بأن يصيدوا

المسلمين فى الحرم . . فهل يعفو الله سبحانه وتعالى هنا عما سلف ؟ وهل يوجد فى حساب التاريخ شىء يسمى ما سلف ؟ إن أصحابنا هؤلاء يستطيعون أن يقولوا آمنين : عفا الله عما سلف . . لأنهم كانوا فيما سلف جالسين آمنين فى مكاتبهم . . أما غيرهم فلا يستطيعون أن يقولوا ذلك لأن الكثيرين منهم أصيبوا بأمراض مزمنة فى الكلى والكبد وهم فى ظلام المعتقلات فيما سلف . .

وأول أمس هو عبد الناصر وجيله . . وأمس هو السادات وجيله . . واليوم نحن أمام جيل متحير يبحث عن الطريق . . وقد أظلتنا حرية لاشك فيها . . ورئيس هذا الجيل يطالبنا بالصدق والإخلاص والعمل والإنتاج . . ويقول صادقاً إن هذا هو طريق الخلاص الوحيد . . ولكن الطريق ملىء بالصخور والعقبات . . وهذه الصخور والعقبات هى تراث ما سلف . . وحيثما تلفتنا وجدنا عتاولة ما سلف يسدون الأفق فكيف نسير ؟ إنهم مترسون فى قلاع قامت كلها على السلب والنهب والكذب . . وهم مفروضون علينا كأنهم قدر محتوم . . وهذه الشركات التى تخسر جميعها لماذا تخسر ؟ ومصانع النسيج التى كان لابد أن تكسب لماذا تخسر ؟ وشركات كانت بالأمس تدر الخير فلماذا أصبحت عبئا علينا ؟ ولماذا تتكرر حوادث تصادم القطارات ويد العقاب لا تصل إلى المسئول أبداً ؟ ولماذا تتهاوى العمائر على رءوس الناس ولا تصل يد القانون إلى المسئول ؟ كل هذه نتائج ما سلف الذى يطالبوننا بأن ننساه . . وكل هذه نتائج العصر الذى ساده استبداد عبد الناصر ورجاله . . ثم السادات وأسلوبه فى سياسة أمور هذا الشعب . . هذه نتائج استفتاءات السادات التى كان يجريها له رجال داخليته ويعلنون له نتيجتها فى منظر يندى له الجبين ورئيس الدولة واقف كالعروس . . والوزير يلقى أمامه قصيدة مدح ليس فيها كلمة صدق . . والتليفزيون يصور الكذب بالألوان . . ونحن جالسون نتأمل هذا كله ونتساءل : هذا فى بلدنا أو فى بلاد نيام نيام ؟

لقد ذرفنا دموعنا كلها على أنفسنا وعلى وطننا وعندما كان مصرع السادات الرهيب لم تكن فى عيوننا قطرة دمع . . إننا نعرف قدر الرجل وما أدى لمصر من خدمات : نعرف أنه أخرجنا من الظلمات بثورة مايو ونعرف أنه فتح أمام الجيش العزيز أبواب النصر . ونعرف أنه استعاد لنا سيناء والقناة وحطم كبرياء إسرائيل وأنشأ فى المنطقة كلها وضعاً جديداً . . ولكننا لا ننسى أبدا أنه هو وعبد الناصر أضاعا علينا فرصة الأبد . . فبينما كانا يضيعان وقتنا فى هزليات ومسرحيات ومؤامرات وحروب عربية أهلية كانت إسرائيل تبنى وتنشىء . . كانت تنشىء المزارع والطرق والمطارات تحت الأرض وتبنى مصانع السلاح . . كانت تعلم شعبها النظام والقانون . . ونحن نحارب القانون . . كانت تحيل الرمال إلى مزارع ونحن نحيل المزارع إلى رمال . . وقوانين الاشتراكية لم تصدر عن حب

العمال أو الزرّاع وإنما عن حقد على كل من كان صاحب مال أو نعمة . . ومصر أنفقت قرنا ونصفا لكى تنشىء فى بلادها قاعدة من المثقفين والعلماء فجاء عبد الناصر ليعلن الحرب على كل مثقف وصاحب علم . .

والذين أنشأوا المصانع وفتحوا لنا أبواباً للعلم والتقدم عوقبوا ونزعت منهم مصانعهم وأعطيت لمن يخربها ويفسدها . . وما يسمى بالمكاسب الاشتراكية أصبح نتيجة للحقد وسوء النية والجهل مصائب قومية . . والعامل المصرى الذى قالوا له إنه سيدخل الجنة مازال إلى يومنا هذا يبحث عن الجنة . . والجنيه الذى كان أيام الباشوات جنيها أصبح فى أيام السوبر باشوات وعباقرة الاشتراكية عشرة قروش . . والعامل الذى تهلل عندما سمع إعلان القوانين الاشتراكية وظن أنه تخلص من استبداد صاحب رأس المال وجد أنه تخلص من سيد ليجد نفسه عبداً لمائة سيد . . وهؤلاء السادة الجدد متسولون يريدون أن يتحولوا إلى سادة أغنياء . . وكلهم أصبحوا أغنياء ، وهو وحده الذى حصد الهشيم وقبض الريح . .

وعندما يقف اليوم عامل ويصيح : يا ناس . . أشترى البطيخة بأربعة جنيهات ؟ فينبغى أن نقول له : ليس الذنب ذنبنا ولا ذنب الاشتراكية . . وإنما المسئول أنت أولاً . . ثم الذين قدموا لك الاشتراكية على هذه الصورة . . فإذا كنت تريد أن يقف غلاء الأسعار فلابد أن تسمح لنا فى أن نعيد النظر فى الصورة التى قدمت إليك بها الاشتراكية فقد قالوا لك : هذه هى المكاسب الاشتراكية . . والاشتراكية مكسب حقاً . . ولكن لابد أن ندفع ثمن هذا المكسب بالعمل الصادق المخلص . . لأن لكل شىء ثمناً . . وليس هناك كسب دون ثمن . . وأنت تريد الاشتراكية فادفع ثمنها وهو العمل والاجتهاد وتحمل مسئولية الإنتاج والمحافظة على المواعيد . . أما أن تأخذ دون أن تعطى فهذا الأمر مستحيل . . وأنت تشكو من أن كيلو اللحم وصل اليوم إلى خمسة جنيهات فما فوق ونحن نقول لك إن كيلو اللحم فى طريقه إلى العشرة جنيهات وستدفعها . . بل سيجىء اليوم الذى لا تجد فيه اللحم . . لا بعشرة ولا بعشرين . . فإذا شئت أن يقف هذا التيار فلابد أن نجلس نحن وأنت ، ونعيد النظر فى كل ما قدموه إليك باسم الاشتراكية . . فتأخذ ما لك وتعطى ما عليك . . وبدون هذا لن يتصحح المسار أبداً . . ومن أين تأتى المصاعب التى تعانيها فى الجمعية التعاونية ؟ . . أليست تأتى من عمال آخرين مثلك ؟ إنهم يطبقون الاشتراكية بنفس الطريقة التى تطبقها أنت فى مصنعك . . ولكنك تحس هنا بالتعب لأنك تدفع الثمن . . أما تصرفك غير المعقول فى مصنعك فإن الذى يدفع ثمنه هى الأمة كلها . . ولهذا فأنت لا تحس به . . فإن كانت الاشتراكية الناصرية تعجبك ولا تريد أن تتخلى عن

شىء منها فلا أحد يناقشك فى ذلك . . وهذا حقك . . ولكن ينبغى أن تكف عن الشكوى فى هذه الحالة . .

ومن أعجب العجب أن عبد الناصر والسادات كانا يصران على أن تنفرد الدولة بكل الأخطاء . . كأن ذلك حق من حقوق السيادة . . أما الشعب فليس من حقه أن يجرب أو يخطىء . . والنتيجة هى ما ترى . . دين يصل إلى ١٣ مليـــار دولار . . وفى مخازن الدولة بضائعٌ غير قابلة للبيع لسوء نوعها بستة آلاف مليون دولار . . فالمجموع ١٩ مليار دولار . . وقد كانت كل المصانع تخسر أيام عبد الناصر والسادات . . ولكن البلد كان فيه رصيد مدخر من عصر الباشوات الذى لعنوه . أما الآن فقد انتهى الرصيد . . وكان ينبغى أن تحل علينا بركات الاشتراكية . . ولا بركة لـلاشتراكيـة الناصـرية لأنها عـطاء بدون عمل . . عطاء يدفع الآخرون ثمنه . . والآخرون أفلسوا الآن . . والاشتراكية ليست إحساناً من الدولة على الناس . . ولا هى تدليلا من الدولة للعمال . . إنها أخذ وعطاء . . ومكاسب الاشتراكية كان لابد أن تتحقق من عمل العمال واجتهادهم وجـودة إنتاجهم وصيانتهم لمصانعهم . . أما أن يخربوا آلات المصنع . أما أن يعمل الواحد منهم ساعتين بدل ثمان . . أما ألا تكون هناك أى رقابة على نوع العمل ومستواه . . أما أن يكون هناك ثواب ولا عقاب . . فهذا أمر لا يجوز ولا يكون . . والخاسر فى النهاية هو العامل .

والعامل المصرى الذى يتمسك بما يسميه المكاسب الاشتراكية فى مصر . . هو نفس العامل الذى يهرب منها إلى بلد هو قمة الرأسمالية مثل السعودية أو الكويت ويعمل هناك ويكسب لأن صاحب العمل هناك إذا كان فى حاجة إلى خمسة عمال فليس هناك قانون يلزمه بأن يأخذ خمسين . . وليس هناك نظام يلزمه بأن يدفع أجر عامل متمارض أو عامل يترك العمل ليزور أخته . . والمصنع الكبير هناك يدار بعشرة عمال مصريين يبدأون العمل فى الثامنة صباحا ولا يفرغون منه إلا فى السادسة بعد الظهر . . والعامل الواحد هناك يأخذ أجر عشرة عمال فى مصر . . ولهذا فهو يتفـانى فى عمله ويستغنى عن سراب المكـاسب الاشتراكية . . وفى بيروت مطابع لا يعمل فيها إلا عمال مصريون . . وهؤلاء العمال يعملون بدون قوانين بل بدون عقود . . ولكن صاحب العمل ينتفع بقدراتهم إلى أقصى حد ويعطى الواحد منهم عشـرة أضعاف مـا يأخـذه فى مصر ويكسب هـو عشرين . . والكتاب يطبع فى بيروت بأيد مصرية . . ويتكلف نصف تكاليف الكتاب الذى يطبع فى مصر . . والعامل المصرى هناك عامل فحسب . . أى يؤدى عمله ولا شأن له بصاحب العمل أو أمواله . . أما هنا فإن العضو فى نقابة العاملين فى المصنع يتساءل : كيف يركب المدير سيارة ؟ ومن أين ؟ لأنهم يقولون له : أنت صاحب المصنع . . مع أن المصنع ملك

الأمة ككل . . ولأن العامل عندنا يحسب أنه صاحب المصنع فإنه انتهى وتلاشى كعامل . . وأصبح لا يأخذ أجراً وإنما نصيبه فى وقف كبير . . وأغلى ماكينة فى الدنيا يخربها العمال فى يوم ويستمرون فى تقاضى أجرهم . . وهى مخروبة معطلة . .

وعندما أنشأوا دار الكتب الجديدة أتوا بآلة ثمنها مئات الألوف وظيفتها أن تحمل الكتب على سير من المخازن إلى حيث يجلس القارىء . . كما هو المتبع فى أحدث دور الكتب فى الدنيا . . وعمالنا خربوا هذه الماكينة من أول أسبوع وتوقف (السير) الذى يحمل الكتب . . وعدنا إلى نظام دار الكتب القديمة . . والكتاب تطلبه وتنام ساعتين ثم لا يأتيك . . وكل العمال الذين عينوا ليديروا الماكينة . . يأخذون رواتبهم كاملة مع العلاوات والحوافز والمكافآت . . وهؤلاء العمال كان ينبغى أن يقال لهم إن رأس مال البلد الوحيد هو عمل عماله ولا مورد آخر غير هذا . . فإذا كان لابد من أن تكون هناك مكاسب اشتراكية فهذه المكاسب لابد أن تأتى من عملنا وجهدنا كلنا . . وليس من المعقول أن نهمل ونتهاون ونخرب ثم ننتظر مكاسب . . لأن عملنا هو رأس المال فمن أين نعيش ؟ هل نعيش على المعونة الأمريكية ؟ وهل أمريكا تعطى المعونات دون ثمن ؟ إن هذه الدنيا كلها قائمة على نظام . ولا يمكن أن تقوم أبدا على خطب الرئيس عبد الناصر . . والرخاء لن يتحقق أبدا بتسلق أعمدة النور والأشجار والهتاف : بالروح والدم نفديك يا سادات وياليتكم مع ذلك كله فديتموه . .

وعبد الناصر كان يقول للناس إن هذاالبلد يتكون من طائفتين عمال وباشوات والعمال هم الأشقياء . . والباشوات يعيشون على كدح العمال . . فأوجد بذلك صدعا طوليا خطرا فى البناء الاجتماعى لمصر . . مع أنه كان يعلم تماما أن كل الصادقين المخلصين من أبناء هذا البلد عمال . . فأنا عامل والطبيب عامل والمهندس عامل والمدرس عامل . . وكلنا نعمل متكاتفين لما فيه صالح بلادنا . . ونحن فى مصر بسبب قصورنا عن إدراك حقائق الحياة نقول : إن فى انجلترا حزب عمال . . مع أن الذى فى انجلترا هو حزب عمل لأن العمل يشمل الجميع . . والوزير نفسه عامل . . ولهذا فإن أحداً فى الدنيا لا يناقش فى حقوق العمال لأنها حقوق العمل والعاملين جميعاً . . وأنا أعتبر نفسى عاملاً وأؤدى عملى بإخلاص العامل المجد وصدقه . . ولأننى أؤدى عملى بإخلاص وصدق فإننى أقبل مبدأ الثواب والعقاب ولا أجد شيئاً من الظلم فى أن أتحمل عقوبة عمل غير متقن قمت به أو تقصير وقعت فيه لأن هذه هى القاعدة . .

وأنا أقول لكم إننا لو اتبعنا جميعاً قواعد العمل السليمة وعرفنا أن كل كسب يصل إلينا لابد أن يأتى من جهد أيدينا لكنا أسعد بلد فى الدنيا . . وأنا مستعد لأن أعطى أى عامل فى

مصر خمسة أضعاف ما يأخذه لو اتبع قواعد الاشتراكية السليمة لا الاشتراكية الشوارعية التى نادوا بها ولم نجن منها إلا الفقر والأزمات والغلاء . . وينبغى ألا يتكرر منظر الرئيس السادات وهو يزور مزرعة قالوا له إنها نموذجية . . ووضعوا أمامه أكوام الخضروات ويقلبها سيادته ويمسك واحدة ويكسرها ويذوقها ثم يقول :

– عظيم . . بكم تبيعون الكيلو للناس ؟

– بخمسة قروش يا سيادة الرئيس . .

– لا . . كفاية ثلاثة . . هذا كفاية عليكم . .

ثم يمضى سيادته وعدسة التليفزيون تصور . . وثمن كيلو الخضار أصبح بأمر من الرئيس ثلاثة قروش . . ولكن فى التليفزيون فقط لأن الرئيس نفسه كان يعرف أن سعر الكيلو فى السوق ثلاثون قرشاً . . هذه هى اشتراكية التليفزيون . . وهذا هو رخاء البوليتيكا . . والنتيجة أن سعر الكيلو من الخضار اليوم أصبح خمسين قرشا . . وغدا يصبح ستين . . لأن حياة الشعوب حقائق وليست لعبا . . والاقتصاد علم له قواعد وقوانين لا مدخل إليها من لعب السياسة وأساليب الجلا جلا . .

ألم نكن يوما من الأيام ملوك القطن ؟ ألم يكن قطننا ذهبا تتزاحم الدنيا على شرائه . . ؟ ألم تكن مصر أكبر مركز لصناعة الكتاب العربى ؟ ألم يكن الناشرون الطيبون فى حى الأزهر يصدرون من المصاحف ما قيمته إذ ذاك خمسة ملايين من الجنيهات فى العام ؟ ألم نكن نطبع الكتب الأندونيسية والملاوية والأوروبية ونحتكر صناعتها فى العالم ؟ فكيف خبنا اليوم وأصبحنا عاجزين حتى عن طبع الكتاب العربى ؟

ألم يكن بلد مصرى واحد هو دمياط يصنع الأثاث لنصف العالم العربى ؟ ألم يكن تجار الموبيليا فى دمياط يعاملون الدنيا كلها ويبيعون بالملايين من مصانع صغيرة ؟ أين ذهب ذلك كله ؟ وهل كان عمال المطابع فى مصر إذ ذاك يموتون من الجوع ؟ وهل كان صناع الأثاث فى دمياط لا يجدون ما يطعمون به أولادهم ؟ عندكم شيوخ العمال فاسألوهم . . كانوا سادة عظاما وأسطوات ومعلمين ملء الهدوم . . وهؤلاء المعلمون أرسلوا أولادهم إلى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعة ودفعوا لهم المصاريف من كسب يدهم لا من إحسان أصحاب المصانع . . لقد كانوا سادة بعملهم وصدقهم وإخلاصهم . . وأولادهم اليوم أطباء ومهندسون وحرفيون تفخر بهم مصر . . وكان الوالد يحتفظ بولد واثنين للصنعة الشريفة . . وفى ذلك العصر عرفت مصر الرخاء والاستقرار وعزة العمل والعمال .

ومأساة العصرين الناصرى والساداتى هى قلة الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس . . فكل شىء يتم وكأننا فى مسرحية . وكل الذين أمامنا ممثلون . . ممثلون غير مجيدين . . ولكنهم ممثلون . .

وعبد الناصر دخل حرب اليمن وهو يقول إنه يساند الحرية . . ثم اتضح بعد ذلك أنه أرسل قواتنا إلى اليمن لكى يعاقب رؤساء عربا تجرأوا على نقده . . واقرأ خطب الرئيس عبد الناصر خلال سنتى ١٩٦٢ و ١٩٦٣ لترى ذلك بكل وضوح . . واقرأ مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل فى الأهرام بتاريخ ٣٠ فبراير ١٩٦٢ تحت عنوان : وداعا يا صاحب الجلالة . ثم اسأل نفسك : وهل كان شعب مصر يريد العدوان على أى جار عربى حتى نجرد الحملات العسكرية لقلب الأوضاع فى الجزيرة العربية ؟ . . وهل كان شعب مصر يريد إنهاء مرحلة التضامن العربى والدخول فى حرب أهلية داخل الوطن العربى نفسه ؟ إن هذا بالضبط هو ما قرره الميثاق بإملاء من عبد الناصر . . فقد جاء فى الفصل التاسع منه . . إن الاستعمار اتحد مع الرجعية العربية وأصبح من المحتم ضربهما معاً . .

وهل كان من صالح شعب مصر أن تسخر قواته وموارده لخدمة طموح رجل واحد أو خدمة عواطفه والانتقام من خصوم شخصيين له فى العالم العربى ؟ ثم ألم يكن فى البلد برلمان يستشار ؟ هل مصر كلها عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ؟ وهل كان من اللائق أن يقال إن مصر تدخلت فى اليمن لنقل الشعب اليمنى إلى الحضارة ؟ (خطاب عبد الناصر فى عيد العمال فى ٦٤/٥/١) وهل كان شعب مصر يتمتع إذ ذاك بالحرية والعدل حتى يذهب شعب مصر برسالة إلهية إلى اليمن لنشر العدل والحرية فيه ؟(خطاب عبد الناصر فى استقبال القوات العائدة من اليمن فى ١٩٦٣/٥/٣٠) أم أن الحقيقة أن عبد الناصر وعامر أحسا بعد الانفصال عن سوريا بأن مركزهما قد اختل فى العالم العربى فسعيا إلى الدخول فى مغامرة جديدة على حسابنا وعلى حساب قواتنا ؟ عندك فصل كامل عن هذا الموضوع فى كتاب أحمد يوسف عن « الدور المصرى فى حرب اليمن » ص ٤٢ وما يليها فاقرأه لتعرف المزيد . .

هذه التصرفات كلها كانت نتيجتها أن المصرى العادى . . وهو أساس الشعب المصرى فقد الثقة فى نفسه وفى عمله . . ومن هنا جاءت نكبة اللامبالاة وعدم الانتماء . . لأن الشعب عندما يحس أن قيادته غير صادقة معه تنتابه حيرة ويأس ويفقد الطريق . . ومادام قد فقد الطريق فإنه يهيم على وجهه دون توجيه أو غاية . . ومعظم الهائمين ينتهى بهم الأمر إلى اليأس والخمود . . ولكن بعضهم يندفع وراء اتجاهات خطرة لا يعلم إلا الله مداها . . والسادات عندما كان يسخر مما سماه انتفاضة اللصوص كان لا يشعر أنه يسخر

من نفسه . . لأن اللصوص هؤلاء كانت فيهم جماعة أدى بها التيه فى بيداء اليأس إلى الوقوع فى أيدى أصحاب الاتجاهات الضالة ، وهؤلاء وضعوا فى يدهم السلاح . . والمأساة انتهت كلها فى مشهد المنصة الرهيب فى ظهر السادس من أكتوبر ١٩٨١ . .

فى ذلك اليوم لم يؤد السادات حساب أخطائه بل حساب أخطاء كل المتسلقين على أكتافه والآكلين من يده والشاربين من دم مصر . . هو دفع الثمن وهم ظلوا فى أماكنهم . . كل واحد منهم مازال متربعا على ما سرق ونهب . . وكل واحد منهم كتب ما وراءه وأمامه لأولاده وامرأته . . واطمأنوا بذلك على أنهم أنشأوا طبقة السوبر باشوات جونيور . . لقد كان الثمن الذى دفعه السادات باهظا جدا لأنه سدد بذلك فواتير ألف لص ولص وألف متسلق ومخادع ووصولى وغشاش ونصاب . . وآدم سميث قال إن كل المطالبات المالية لابد أن تسددها جهة ما فى النهاية . . ثم قال إن هذه الجهة هى الشعب . . وفى حالتنا هذه كان السادات هو الذى سدد فى دقيقة واحدة فاتورة حسابه وألوف الفواتير الخاصة بسوبر باشواته . . وكلهم عادوا ليلة الكارثة إلى أهلهم (وبعضهم عاد إلى عشيقته) وجلسوا سعداء فى بيوتهم التى اشتراها لهم السادات . . وكلهم اتصلوا بالتليفونات مع أولادهم وبناتهم فى مساكنهم الفاخرة ليطمئنوا على أن كل الأسرة بخير . . حتى سيارات الأسرة وكابيناتها فى المنتزه ظلت بخير . . ونسوانهم جلسن يتفرجن على أفلام الفيديو لأن تليفزيون الشعب المصرى كان فى حداد . وهم لا شأن لهم بهذا الشعب المصرى وما أصابه . . وسوبر باشوات الانفتاح فتحوا السيارات وأخرجوا زجاجات الويسكى التشيفاس والدمبلز : ميه ولا صودا وجلسوا ساقا على ساق ينتقدون السادات والرجل الذى أتاهم بهذا كله قضى تلك الليلة فى مورج مثلج مظلم . . وفى الصباح ووری التراب . .

والآن . . وهذا هو الفصل قبل الأخير من تلك الدراسة يسألنى الناس : وما العمل ؟ وكيف يكون العصر الجديد عصر رخاء ؟ وجوابى على ذلك أنه لا يصح إلا الصحيح . . وكل شىء ينبغى أن يطابق مسماه . والحقائق ينبغى أن تكون ملك الجميع . . والحرية الصادقة لابد أن تكون طريق الوطن . . والصدق لابد أن يكون أساس كل المعاملات . . صدق مع النفس . . وصدق مع الله . . وصدق مع الناس . .

وصدقونى : لو أن السادات خطر بباله أن ينشىء أكاديمية للقطط تتعلم فيها كيف تتصرف فى مفتاح الكرار لتقدم ألف جهبذ صعلوك ليدير هذه الأكاديمية . . وكتب كل منهم المقالات فى فلسفتها . . مثل هذه العربدة بالقيم والمعانى ينبغى أن تختفى وكل سارق ينبغى أن يعاقب على ما سرق . . وكل رجل غير كفء لابد أن يزال من مكانه ورجل يتولى وظيفة كبرى فى الحزب الوطنى الديمقراطى لا يجوز له قط أن يبيع فيلا يملكها بمليونى جنيه . . لا

ثمنا للفيلا فى ذاتها بل ثمنا لتصريح حصل عليه بفضل مركزه بإقامة مبنى ارتفاعه ثلاثون دورا مكان الفيلا . . وكل ذلك باتفاق مع المشترى قبل توقيع العقد .

مثل هذا العمل جريمة فى حق الوطن وينبغى أن يعاقب الجانى . . والرجل الذى فعل ذلك يدهش كيف وصل الخبر إلى رجل مثلى قابع فى بيته . . ولكنى أقول له : أيها الإنسان : إذا كانت عيناك لا تريان إلا ما هو أمامك فإن عيون الناس ترى كل شىء : داخل الجدران وخارج الجدران . . وعين الله ترى ما تحاول أن تخفيه أنت فى أعماق نفسك السوداء . .

وأنا الآن أسأل : هل هناك جدوى من وراء إنشاء كلية تسمى كلية الدراسات الوطنية ؟ أو كلية السادات للعلوم الإدارية ؟ وماذا يدرس فيها غير ما يدرس فى كليات العلوم السياسية والاقتصاد فى جامعاتنا ؟ تريدون تخريج كوادر ممتازة للحزب ؟ إذن فنحن أعضاء الحزب نقول لكم إن هذه تجربة خطرة وقد سبقكم إليها الملك فاروق عندما أنشأ الحرس الحديدى . . وحزب الوفد عندما أنشأ القمصان الزرقاء . . فهل انتفع فاروق بحرسه الحديدى ؟ وهل انتفع الوفد بقمصانه الزرقاء ؟ . .

ثم ما هى دورات التدريب لشباب قادة الحزب ؟ هل سمعتم مثلاً أن حزب المحافظين أنشأ ــ على حساب الدولة ــ معاهد تدريب لشباب يرشحهم للقيادة ؟ ولماذا نختار شباباً بعينهم ونعدهم ليكونوا سادة هذا الشعب فى المستقبل ؟ . . وإذا كانت جامعاتنا الأصلية «غرقانة» فى متاعبها . . وطلابها لا يجدون سبيلاً إلى العلم ويتخرجون فى الجامعات ليجدوا أنفسهم أمام الضياع . . فلماذا ننشىء معهدا لطائفة من المحظوظين ليكونوا هم وحدهم الناجين وسط أجيال المساكين ؟

إن الاشتراكية أيها الناس ليست توزيعاً للتعاسة بالقسطاس . . ومستقبل مصر موضوع جدى فلماذا تلعبون به ؟ إن رئيسنا الحالى ينادى صادقاً بأن طريق النجاة الوحيد أمامنا هو الإنتاج الجيد الذى يطلب فى الأسواق . . فلماذا لا نصغى إليه ؟ لماذا لا نقف معه نؤيده بالصدق المطلق والعمل الجاد والأمانة الكاملة ؟ . .

وبقيت سطور أريد ان أعتذر فيها لكل من ساءته منى كلمة أو إشارة . . فما قصدت غير الحق . . ولا كان لى مطلب وراء الصدق . . ولا صالح لى غير صالح مصر ، مصر التى خرجت إلى الدنيا وهى مستعمرة وقضيت عمرى أحلم بأن أراها أسعد بلاد الدنيا . . ولن أتنازل عن هذا الحلم أبدا . .

أعتذر لكل من آلمته كلمة . . وعذرى لديكم أن نفسى لو كشفتم عنها لما وجدتم فيها غير الآلام . . ولا يعزينى ويمسكنى فى الحياة إلا حب مصر والأمل فى مصر والرجاء من الله سبحانه . .

أعتذر للأخ اللواء محمد حسن عثمان عما بدر منى عن غير قصد . . وأشكر كل من تعهدنى بتصحيح الأخطاء على طول دراسة أعددت لها ثلاث سنوات . . وآخر ما أختم به هذا الفصل شكر من القلب وتمنيات من القلب بالتوفيق للسيد الرئيس حسنى مبارك . فلولا الحرية التى ننعم بها معه ما وصلت إلى القارىء كلمة واحدة من هذا كله . . والله سبحانه من وراء القصد . . وهو رب القلوب ورب الأحرار الصادقين . .



١٦ الثـــــــورة والثـــــــوار

يكتب إلى كثيرون خطابات ـ تعليقا على ما أكتب عن الباشوات والسوبر باشوات يزعمون فيها أنهم من أبطال الثورة وصناعها . . وبعضهم يتفضل فيبين فى حكايات طويلة النصيب العظيم الذى قام به فى التمهيد لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والعمل البطولى الذى قام به ليلة الثورة والأيام التالية لها ، وبعضهم يؤكد أن نصيبه فى عمل الثورة كان نصيب المخطط والمفكر ، أى أنه ـ باختصار ـ صانع الثورة ، وبعضهم يؤكدون أنهم أصحاب مشروعات كبرى هى من مفاخر الثورة ، ولولاها لما كانت .

ولهؤلاء جميعا أقول – بعد أن اتضحت لنا جوانب كثيرة من الصورة كانت خافية عنا ، وبعد الكلام الكثير الذى كتب ونشر ـ إن الذى قام بهذه الثورة هو شعب مصر دون سواه ، إنه بطلها الوحيد . والذى تم ليلة ٢٣ يوليو كان حركة محدودة المدى والأهداف ، حركة جيش داخل الجيش نفسه ، والذى جعلها ثورة هو دخول شعب مصر فى الميدان ، وإخراجها من نطاق حركة إصلاح داخل الجيش إلى ثورة عامة تضع حدا لعصر من عصور تاريخ مصر وتبدأ عصرا آخر .

وإليكم البرهان على صحة ما أقول :

ولن آتى هنا بشىء من عندى ، بل سأستشهد بآراء كتاب آخرين أفاضل يعرفون بحكم مواقعهم فى السياسة والصحافة أكثر مما أعرف ، وسأبدأ بمقال ـ وهو فى الحقيقة وثيقة ـ نشره الصحفى الكبير الأستاذ صلاح منتصر فى عدد الأهرام الصادر فى ١٩٨٣/٧/٢٤ (ص ٧) هو الحلقة الأولى من سلسلة تحقيقات عظيمة القيمة عن الثورة وما بعدها .

قال الأستاذ منتصر فى هذا المقال العظيم القيم فى تفصيل حقيقة ما كان رجال الثورة يريدونه ، وما حدث فى نفس الليلة من تدخل الرئيس محمد نجيب فى صيغة البيان الذى كان رجال الثورة يعدونه لإذاعته على الشعب صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو تدخل أساسى كانت نتيجته تحول الحركة المحدودة داخل الجيش إلى ثورة شعبية قومية عامة .

إن إحدى الحساسيات الغريبة التى كانت عند جمال عبد الناصر ، ومن بعده أنور السادات ضيق أى منهما بمن كان يحاول وضع ما حدث يوم ٢٣ يوليو ٥٢ فى إطاره الصحيح . .

ذلك أن ما حدث فى هذا اليوم لم يكن من باب اليقين انقلابا ، ولم يكن من باب التوثيق « ثورة » .

لم يكن انقلابا لأن الذين اشتركوا فى عمليات تلك الليلة ودبروا لها لم يكن فى فكرهم ـ كما أثبتت الأحداث والدراسات ـ التخطيط لاختطاف الحكم ، وهو هدف أى انقلاب .

ولم يكن ثورة ، لأن الثورة فى مفهومها العلمى تعنى فلسفة سياسية واقتصادية واجتماعية حددها سلفا الذين قاموا بها واتفقوا عليها بحيث يمكن التعرف ـ ولو من باب الشكل ـ على هذه الفلسفة من خلال البيان الأول الذى أذاعه أنور السادات صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكما يروى جمال حماد أحد الضباط الأحرار والذى وثق أسرار يوم ٢٣ يوليو وما قبله وكان شاهدا على أحداثها ، فإنه بعد أن سيطر الضباط الأحرار على مبنى رئاسة الجيش ، ووصول اللواء محمد نجيب تحول مكتبه إلى أشبه بخلية نحل فقد جلس حول المكتب عدد من قادة الضباط الأحرار وكانت المناقشات تدور بينهم بشأن الموقف بأصوات مرتفعة .

وكما يقول جمال حماد حرفيا : فى هذا الجو الملىء بالضجيج انسحب ضابطان من وسط المجموعة التى كانت فى مكتب محمد نجيب هما عبد الحكيم عامر وجمال حماد ، ودخلا غرفة المؤتمرات التى كانت تواجه مباشرة مكتب اللواء محمد نجيب ، وأغلقا باب الغرفة عليهما من الداخل وجلسا على مقعدين متجاورين على مائدة المؤتمرات الخشبية الفخمة يلتقطان أنفاسهما ويستعيدان الهدوء الذى افتقداه خلال وجودهما بمكتب اللواء محمد نجيب .

وكان الغرض من هذه الجلسة المغلقة هو كتابة البيان الأول للثورة الذى سيوجه من اللواء محمد نجيب إلى الشعب المصرى من دار الإذاعة فى السابعة صباحا واتفق الزميلان على النقاط الأساسية التى ينبغى أن يضمها البيان ودوناها فى ورقة صغيرة ثم لم يلبث عبد الحكيم أن ترك زميله وحده بالغرفة ليتيح له فرصة صياغة البيان الأول للثورة فى هدوء .

وعكف جمال حماد على صياغة البيان وفقا للنقاط التى تم الاتفاق عليها مع عبد الحكيم وبعد عدة مسودات استقر رأيه على الصيغة النهائية التى كتبها على ورقة فولسكاب بيضاء بقلمه الحبر . ولم يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة عاد بعدها عبد الحكيم إلى الغرفة حيث قرأ البيان فى اهتمام وأبدى رضاءه التام . . وعندما عرض البيان على اللواء محمد نجيب وافق على الصيغة . ولكنه رأى إضافة بعض الكلمات إلى البيان فأخرج قلمه وكتب بعض الكلمات حشرا بين السطور المكتوبة ثم وقع على البيان بإمضائه . وانحصر التعديل فى عبارة واحدة كانت فى الأصل : وإنى أؤكد أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن متجردا من أية غاية فأصبحت بعد التعديل وإنى أؤكد (للشعب المصرى) أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن (فى ظل الدستور) مجردا من أية غاية .



هذه هى رواية جمال حماد الذى كتب البيان الذى أذاعه أنور السادات صباح يوم ٢٣ يوليو ، وقد كان المفروض كما يروى جمال أن يذيعه هو ، أى جمال حماد بنفسه ولكن تم تكليفه بمهمة أخرى منعته من إذاعة البيان .

ومن المؤكد أن جمال حماد كان صادقا فى كل ما كتب .

وببعض التفكير فيما حكاه عن البيان الأول الذى عرف الشعب المصرى منه ما حدث فى الجيش المصرى فى ذلك اليوم يمكن استكشاف ما يلى :

١ - أن هذا البيان بكل الأهمية الكبيرة التى يعكسها تم وضعه باتفاق بين شخصين اثنين . . أى أنه لم يكن تعبيرا عن فكر ثورى لمجموعة ذابت فى فلسفة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية واحدة ، وإنما كان جهدا شخصيا لاثنين من الذين اشتركوا فى عمليات تلك الليلة وليس هكذا تكون الثورات . .

٢ - أن قائد العمليات الحقيقى وهو جمال عبد الناصر لم يقرأ البيان طبقا لرواية كاتبه مما يعنى أنه لم تكن لهذا القائد الفلسفة الثورية التى لابد أن يرجع إليها من كتب البيان حتى يتضمنها بيانه . . وليس هكذا يكون قواد الثورات . .

٣ - أن الإضافة البسيطة التى أضافها اللواء محمد نجيب والذى كان فى سن الأب لمجموعة الضباط الشبان الذين خرجوا ينفذون عملية ٢٣ يوليو أشارت إلى ما لم يتنبه إليه الجهد الشخصى للشابين عبد الحكيم عامر وجمال حماد اللذين فكرا وكتبا البيان . .

٤ - لقد أضاف محمد نجيب عبارتى (للشعب المصرى) ، (وفى ظل الدستور) وهاتان الإضافتان تعنيان أن الفكر الذى كتب به البيان كان بعيدا عن أن البيان موجه إلى الشعب ـ لأهداف أى ثورة ـ وأن هناك دستورا ينبغى احترامه . . .

ذلك أن عبد الحكيم عامر وجمال حماد عندما فكرا فى البيان وكتابته كان تفكيرهما متجها كلية إلى إبلاغ باقى وحدات الجيش بما حدث لأن ما حدث هذه الليلة لم يكن ثورة وإنما كان كما أطلقوا عليها ـ عن حق ـ حركة قصد بها الجيش . ولهذا جاء البيان الأول لهذه الحركة يقول بالنص . . . اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها .

وعلى ذلك فلقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم ، وفى خلقهم وفى وطنيتهم ، ولابد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب . . أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب ، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أى غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وإن أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس ، وإنى أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولى التوفيق .

إمضاء لواء أ . ح محمد نجيب



ولا أظن أن أية دراسة لهذا البيان الأول لما جرى يوم ٢٣ يوليو يمكن أن تخرج بفلسفة ثورة أراد البيان التعبير عنها أو فكر معين تسعى إليه . .

كان كل ما يدور حوله البيان هو ما كان يجرى داخل الجيش ، وقيام هذا الجيش بتطهير نفسه من الذين كانوا يتولون أمره من الجاهلين أو الفاسدين . . ولهذا كان أصدق تعبير عما جرى يوم ٢٣ يوليو أنه كان بالفعل حركة تطهير داخل الجيش باركها الشعب وأيدها .

ولأن فاروق كان يمثل قمة الفساد الذى يرأس هذا الجيش فقد كانت الخطوة التالية بعد تطهر الجيش من قيادته الفاسدة تطهير مصر كلها من رأس هذا الفساد . . من الملك . .

وكان اعتقاد شباب الحركة من الضباط الأحرار أنهم بذلك يستطيعون تسليم الحكم للسياسيين المحترفين أعضاء الأحزاب السياسية فى ظل الدستور القائم ولكن كما شاركت الأحزاب أثناء وجود الملك فى فساد الشارع السياسى فإنها بعد خروج الملك شاركت فى تحويل حركة الجيش إلى سلطة تسعى إلى الحكم ويتصارع رجالها أولا من أجل الإمساك بسلطة الحكم ، ثم بعد ذلك تحديد أهدافها لتصبح ثورة . . .

وإنما أبدأ بهذه الفقرة الكبيرة من مقال الصديق الأستاذ الصحفى الكبير صلاح منتصر على تواليها لأنها صادرة عن رجل محايد وباحث عن الحقيقة مثلى ، ولا يمكن اتهامه فيما أظن بما يوجه إلى فى بعض ما أتلقى من خطابات الكثيرين الذين يزعم كل منهم أنه صاحب الثورة أو صاحب جزء رئيسى فيها ، ومن ثم فإن هؤلاء السادة يكتبون إلى باسم الثورة

متحدثين باسمها لأن كلا منهم يزعم أنه هو صانعها أو أحد صناعها ، ويوجه إلىّ الكلام على أننى وأمثالى دخلاء على الثورة والفكر الثورى ، ومن ثم فأنا فى تصورهم أجاوز قدرى إذ أكتب عن الثورة .

ومن أيام دار حوار بينى وبين رجل أعتقد أنه ابن من أصغر المشاركين فيها وقع ليلة ٢٣ يوليو ، وقد زعم أنه هو الذى دبر الثورة وأن دوره فيها يفوق بمراحل دور جمال عبد الناصر وأنور السادات ، والآن أقول لهم ، إننى أكتب لأننى وأمثالى من المواطنين المتواضعين حقيقة أصحاب الثورة ، لا يشاركنا فى ذلك إلا الرئيس محمد نجيب فهو الوحيد بين الذين قاموا بالحركة الذى كان يشعر بأن هذه الحركة إنما هى ثورة تحرير لا مجرد حركة إصلاح داخلى فى الجيش ، ولهذا فقد أضاف بيده الإضافتين اللتين نقلهما السيد جمال حماد فى كتابه ، مع أنهما تعنيان المفترق الضخم بين الحركة التى قام بها عبد الناصر وزملاؤه ليلة ٢٣ يوليو ، والثورة التى حدثت بعد ذلك ، وقادها محمد نجيب طوال مدة رياسته القصيرة وباركتها جماهير شعب مصر والسودان والأحرار فى العالم العربى . وكان ذلك يناقض اتجاه جمال عبد الناصر وبعض زملائه الذين رأوا فى انتصار الحركة فرصة لكى يستولوا عليها كلها ، وقد كان جمال عبد الناصر يتمتع بقدرات كبيرة فى مسائل التدبير الخفى والتحرك الواعى نحو القبض على السلطان .

ونحن الذين ندرس التاريخ نفترض أن هذه طبيعة معروفة وجدت فى الكثير من حالات الثورات الأخرى ، وأكبر مثال على ذلك نابليون بونابرت الذى عرف كيف يتحرك خطوة خطوة بعد نجاحه فى الحملة الإيطالية والعودة من الحملة المصرية وفى سرعة الفهد عرف كيف ينقض على الفريسة التى كان يتربص بها . وتمكن من القيام بانقلاب ١٨ نوفمبر من السنة الثامنة للثورة (١٧٩٩) وأقام حكومة القنصلية وكان هو القنصل الأول ومعه سييس ودوكلو وعقب هذا الانقلاب مباشرة سارع بوضع دستور ١٧٩٩ وأجرى على أساسه انتخابات فى فبراير ١٨٠٠ وحصل فيها على ثلاثة ملايين من الأصوات . بينما لم يحصل منافسه على أكثر من ١٥٠٠ صوت . وبهذا أصبح نابليون رئيسا للدولة فى فرنسا ، وصاحب الكلمة المطلقة فيها ، والثورة الفرنسية التى قامت لتعزل ملكا وجدت نفسها فى ١٨ مايو ١٨٠٤ تتوج امبراطورا ، بعد أن هز قلوب الفرنسيين بعد انتصاره فى أولى مواقعه (الكبرى) وهى مارنجو (١٤ فبراير ١٨٠٤) . وقد ارتكب فى الطريق جرائم بشعة مثل مقتل الدوق .

وكذلك كان الحال مع الثورة الروسية التى قامت فى أكتوبر ١٩١٧ لتحرر الإنسان الروسى من سلطان القيصر ورجال الإقطاع والكنيسة فوجدت نفسها فى النهاية فريسة

لأعتى مستبد عرفه التاريخ وهو لينين . وقد قصصت فى كتاب طريق الدم كيف تمكن لينين خطوة خطوة وبسرعة خاطفة أيضا وبمواهب المدبر الخطر القادر على التدبير الخفى من وضع يده على السلطة الكاملة فى روسيا كلها و إبادة خصومه باسم الثورة والحرية ووضع قواعد نظام الاتحاد السوفيتى القائم إلى اليوم .

ومعنى ذلك أن لكل ثورة من الثورات تاريخين ، تاريخ ظاهر وهو الواضح المعلن للناس ، وفيه يصور ذلك المدبر الخفى الساعى إلى القبض على السلطة نفسه ـ بعد انتصاره ـ فى صورة البطل المجاهد فى سبيل العدل والحرية وحقوق الجماهير ، وتاريخ باطنى ـ هو الحقيقى ـ الذى يحكى قصة صناع الثورة الحقيقيين الذين التهمهم المدبر الخفى الخطر فى طريقه ، وكيف تمكن بطل الحرية بأساليب الغدر والأنانية وجمود العقلية من القبض على السلطان والقضاء على الحرية .

وهذا هو الذى حدث لثورتنا . وأحب أن أقول إن ذلك ليس عيبا ولا عارا وإنما هو الحقيقة التى ينبغى أن يعرفها الناس حتى لا يخدعوا مرة أخرى ، وحتى لا تجوز عليهم الحيلة وتتكرر لعبة خداعهم وتسخيرهم لصالح مستبد طاغية آخر . والتاريخ تجارب ، وتجارب الأمم مهما كانت مريرة فهى دروس ، وهى تساوى المتاعب التى يلاقيها الشعب فيها إذا عرف هذا الشعب كيف يستفيد من التجارب . وهنا وظيفة المؤرخ الدءوب المتحرر عن الهوى الذى يعود إلى تاريخ الثورة ويستعين بشهادة رجالها وشهود من شارك فيها إذا تيسر له ذلك ليكشف الحقائق ـ أو ما يرى أنها حقائق ـ ويعرضها للناس .

وقد قلت إن محمد نجيب انفرد من بين الذين قاموا بالحركة بفهم معنى الثورة والإيمان بالحرية والديمقراطية والصدق فى معاملة المواطنين واشترك معه فى ذلك نفر من شباب ضباط الثورة أهمهم خالد محيى الدين ويوسف صديق وأحمد شوقى ، فأما الأخيران ـ وهما اللذان قاما بالعمل الأكبر ليلة ٢٣ يوليو ـ فقد كان لابد أن يزالا من الطريق حتى تعاد كتابة أحداث الثورة على نحو يجعل من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بطليها الوحيدين وكل من عداهما يجىء فى مرتبة ثانية أو ثالثة أو لا يذكر أصلا .

أما محمد نجيب فلم يكن من المستطاع إزاحته من الطريق بنفس هذه السهولة ، فهو رئيس الجمهورية ، وهو رجل صلب العود متمسك بمبادئه وقد اعتزم جمال عبد الناصر أن يأتى به ويتخذه واجهة يسيطر بها على الجيش ويقنع الشعب والرأى العالمى بها ثم يزيله ويضع نفسه فى الرياسة مكانه كما عزل ستالين صورة لينين وهو يخطب على نحو يجعله هو التالى له فى الرياسة فى المثال الذى ذكرناه آنفا .

وقد تم لجمال عبد الناصر التغلب على محمد نجيب وإزالته من الرياسة والحلول محله ولكن على صورة من العنف والقسوة أساءت إلى عبد الناصر أكثر مما أساءت إلى محمد نجيب ، فأما نجيب فقد عزل ووضع فيما يشبه المعتقل فى بيت فى المرج ولكن ظل له مكانه فى تاريخ الثورة ممثلا لروحها ولبابها وضحية لمؤامرات الذين انتزعوها من أيدى الشعب وفرضوا عليه الدكتاتورية .

وقد حكى الأستاذ صلاح منتصر فى مقال نشر فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٣/٨/٢١ فى سلسلة مقالاته القيمة عن الثورة كيف كان كل جهد جمال عبد الناصر فى أثناء رياسة محمد نجيب القصيرة موجها إلى إزاحته عن الطريق ، وفى سبيل ذلك جمع أعضاء مجلس الثورة حوله - عدا خالد محيى الدين - لأنهم - مثل عبد الناصر - كانوا قد جلسوا فى مقاعد الرياسة والقيادة وذاقوا طعم السلطان ولم يعودوا يطيقون أن يتخلوا عنه أو يشركوا أحدا معهم فيه . أما يوسف صديق فقد أقصى وعوقب بالإبعاد ولم يلبث أن توفى وكذلك حدث لأحمد شوقى .

والحكاية طويلة ولكن الذى يهمنا هنا هو الطريق الذكى الملتوى الذى سلكه عبد الناصر ليصل فى النهاية إلى الرياسة المطلقة مستخدما فى ذلك معظم أعضاء مجلس الثورة . فأصدر المجلس فى ٢٥ فبراير ١٩٥٤ بيانا قال فيه إن محمد نجيب رئيس الجمهورية لم يكن قائد الثورة ولا له فضل فيها . إنما هو دخيل عليها لم يعرف عنها شيئا إلا قبل قيامها بشهرين ، ولم يرأس مجلسها إلا بعد شهر من قيامها ، وأنه لا هم له من يوم تنصيبه رئيسا إلا إقصاء إخوانه الضباط الشبان أبطال الثورة من مراكزهم ، وإنه يحاول العودة بالبلاد إلى الوراء وتسليم الحكم للأحزاب القديمة وعندما وقف مجلس الثورة أمامه موقفا حاسما قدم استقالته فقبلها المجلس .

وفوجىء جمال عبد الناصر مدبر ذلك كله بأن جانبا من الجيش يقف مع محمد نجيب وكذلك قام الرأى العام يؤيده ، فقد كان الرجل قد كسب لنفسه صورة شعبية جميلة ، وأصبح فى نظر العالم كله رمزا على حركة تحريرية تقدمية تسير بمصر فى طريق الديمقراطية الصحيحة . وأثارت شخصيته فى السودان محبة كبيرة فالرجل نصف مصرى ، ونصف سودانى وقد خدم فى مصر كما خدم فى السودان ، وعواطفه مصرية سودانية ، وقد أحس السودانيون بذلك إحساسا عميقا وبدا منهم استعداد لتحقيق وحدة وادى النيل تحت رياسته ، ونتيجة هذا كله قامت مظاهرات عنيفة خلال يومى ٢٠ ، ٢٦ فبراير ١٩٥٤ مؤيدة محمد نجيب ، وانتهى الأمر بأن اضطر مجلس قيادة الثورة إلى الرجوع فيما كان قد قرر ، وأعلن فى مساء ٢٧ فبراير ١٩٥٤ فى بيان قصير عودة نجيب إلى رياسة الجمهورية .

واطمأنت الخواطر إلى ذلك البيان ، وحسب الشعب أن ثورته عادت إلى مجراها السليم ، وجاء التأييد من السودان لمحمد نجيب ، ولكن عبد الناصر لم ييأس وإنما بدأ يرتب من جديد لإزاحة محمد نجيب والتخلص من كل القوى التى أيدته فيما كان يدعو إليه من عودة الحرية والديمقراطية .

وقد اتجه عبد الناصر إلى تركيز جهده كله على الجيش مستعينا فى ذلك بعبد الحكيم عامر ، وكانت شئون الجيش قد وكلت إليه وكان أيامها أصفى أصفيائه وموضع ثقته الكاملة ، فتمكن من استمالة معظم رجال القيادة إلى جانبه وجانب عبد الناصر ، فلما تم لهما ذلك قاما بالضربة الحاسمة فى ٢٥ مارس ١٩٥٤ فأعلن مجلس الثورة أنه اتخذ قرارات بحل نفسه والسماح بعودة الأحزاب وإجراء انتخابات حرة مباشرة خلال ثلاثة أشهر أو أربعة ، تأتى بمجلس نواب ويؤلف مجلس النواب الجديد لجنة تأسيسية تكون لها سلطة البرلمان وتنتخب رئيس الجمهورية .

وكان جمال عبد الناصر قد ضمن تأييد الجيش له وعرف أن معظم رجاله سيرفضون تلك القرارات وسيطالبون مجلس الثورة بالاستمرار فى عمله ؛ وكان يعرف كذلك أن شعب مصر كله لم يكن إذ ذاك ينفر من شىء قدر نفوره من عودة الأحزاب القديمة وأن الجماهير لابد مطالبة باستمرار مجلس قيادة الثورة ، حاسبة أن محمد نجيب سيظل فى رياسة الجمهورية ، وتلك هى الضربة التى أحكم تسديدها جمال عبد الناصر فإن الجيش الآن معه ، والرأى العام معه ، وكان قد عمل حسابه على تنظيم جموع ٢٩ مارس ١٩٥٤ التى قضت على محمد نجيب وكل مؤيديه وكل دعاة الحرية والديمقراطية تحت ستار حماية الثورة . وكان الرأى العام إذ ذاك مبغضا لعصر ما قبل الثورة لا يريد عودته بأى سبيل فاستغل عبد الناصر هذا الميل عند الجماهير وأخذ يقويه ، وزعمت دعايته أن محمد نجيب يريد أن يعيد عصر الباشوات ، وأن النظام الجديد فى حاجة إلى تأييد الشعب فيما سيتخذه من إجراءات ثورية للحيلولة دون الارتداد إلى عصر الباشوات وما كان يسمى إذ ذاك عصر الإقطاع والأحزاب الفاسدة .

وقد عرف عبد الناصر كيف يتخلص من محمد نجيب وكل خصومه فى سرعة خاطفة قبل أن تفيق الجماهير ، وكانت وقائع ٢٩ مارس ١٩٥٤ المؤسفة التى سلمت زمام مصر لعبد الناصر وحده بتأييد جماهير قيل إنها شعبية غاضبة للثورة .

وسأرجع هنا فى تفصيل ما وقع إذ ذاك إلى كلام محمد نجيب نفسه فى كتابه «كلمتى للتاريخ» وهو كتاب رجل أمين صادق ، وسأستعين هنا بحديث أداره معه صحفى مصرى شاب هو محمد عبد القدوس ، ابن الصحفى الروائى والصديق الكريم الأستاذ إحسان

عبد القدوس ، نشره فى جريدة «الوفد» بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٨٤ . وسآخذ الكثير من كلام محمد عبد القدوس لأنه يعبر عن إحساس جيل جديد من شباب المثقفين فى مصر نحو ما فعله عبد الناصر إذ ذاك لكى يصل إلى السلطان المطلق فى مصر .

قال ممهدا للحديث الذى أجراه مع محمد نجيب :

يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٥٤ كان يوماً حزيناً وكئيباً فى تاريخ مصر . فى هذا اليوم انتصرت الدكتاتورية التى كان يقودها جمال عبد الناصر على التيار المنادى بالديمقراطية ويطالب بإطلاق الحريات والذى كان يتزعمه اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية . فى هذا اليوم المشئوم ألغيت كل القرارات التى كان قد سبق إعلانها - تحت ضغط القوى الديمقراطية - فى يومى ٥ و ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤ ، والتى كانت تتلخص فى إطلاق حرية الأحزاب وإجراء انتخابات حرة . وإلغاء الأحكام العرفية . . ثم بدأ الحكم الديكتاتورى .

وجاء انتصار الديكتاتورية النهائى بخطة وضعها عبد الناصر وزمرته تقضى بتدبير مظاهرات مفتعلة تهتف بسقوط الحرية !!! وهذا ماحدث فعلاً .

ففى يوم السبت ٢٧ مارس سنة ١٩٥٤ بدأت أغرب مظاهرات فى تاريخ مصر وربما فى تاريخ العالم . . تهتف بسقوط الحرية . وتلعن الديمقراطية !! وهذه المظاهرات كانت مكونة أساساً من خمس فئات هم عمال مديرية التحرير ، تم نقلهم بسيارات اللوارى إلى القاهرة وقوات من الحرس الوطنى ، وقوات من البوليس الحربى ، بعد أن ارتدوا جميعاً الملابس المدنية وتم تسليحهم بالعصى والآلات الحادة ، وعدد من أنصار هيئة التحرير ، وعدد من القيادات العمالية تم شراؤ هم للوقوف إلى جانب الديكتاتورية مثل رئيس اتحاد عمال النقل .

وأخذت المظاهرات تطوف بشوارع القاهرة وهى تهتف بهتافات لم يسمع بها أحد من الأولين أو الآخرين مثل تسقط الحرية !! تسقط الديمقراطية !! يسقط البرلمان ! يسقط المتعلمون !!

وطبقت المظاهرة الشعارات التى ترفعها إلى واقع عملى يدل على طبيعتها . . ولأول مرة فى تاريخ مصر نجد مظاهرة تهاجم مجلس الدولة - حصن القضاء - وتعتدى على رئيسه الدكتور عبد الرزاق السنهورى بالضرب الشديد وكانت إحدى الصحف قد نشرت أن الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع بدعوة عاجلة من رئيس المجلس ، بصورة تشعر بأن الاجتماع له صلة بالأحداث الجارية فما كان من المتظاهرين إلا أن اقتحموا

المجلس وكادوا يفتكون برئيسه . وقد اتهم الدكتور السنهورى أمام النيابة العامة جمال عبد الناصر بتدبير الحادثة ، كما أنه رفض مقابلته عندما زاره بعد الاعتداء عليه .

وتكررت المظاهرات التى تهتف بسقوط الحرية مرة أخرى لمدة يومين متتاليـين حتى استجابت لها الديكتاتورية وألغت كل أثر للديمقراطية وبدأ الحكم البوليسى .

وبعد الاعتداء على مجلس الدولة انتهى عصر القانون وحقوق الإنسان وبـدأ عصر الغاب .

* لقاء مع : محمد نجيب

نحن الآن فى شهر مارس ١٩٨٤ . . مرت ثلاثون سنة كاملة على سحق الديكتاتورية للحرية . . الدنيا تغيرت . . الأحوال تبدلت . . مات عبد الناصر . . وخلفه السادات ، ثم قتل السادات وخلفه مبارك ، وأخذت شمس الحرية فى الشروق من جديد . . وعودة الوفد هى إحدى العلامات المؤكدة على ذلك .

ولكن ماذا عن أخبار محمد نجيب ؟

لقد تغير حاله وتبدل إلى الأفضل مثله مثل كل شىء فى مصر . خرج فى أيام السادات من عزلته الإجبارية التى كان عبد الناصر قد فرضها عليه فى المرج . وأكرمه الرئيس مبارك فأعطاه فيللا فى شارع ولى العهد بالقبة ليقضى فيها بقية عمره : ذهبت لأزوره هناك . الفيلا صغيرة شكلها حديث جدا وسط المنازل العتيقة بالمنطقة . هناك «مشروع» حديقة داخل الفيلا لم يكتمل بعد .

وصعدت إليه فى الطابق الثانى من منزله المكون من دورين .

وقابلته فى حجرة نومه . . الرجل طريح الفراش . . ياإلهى كم غيرتـه السنون . . الشيب زحف عليه . . عمره تجاوز الثمانين بكثير ، صافحته وجلست بجانبه . . أخذت أتأمل الصور الموجودة بالحجرة . . . هناك صورة له أيام شبابه مع زوجته . . . وأخرى مع أولاده ، وصورة له أيضا مع مجموعة ضباط يبدو أنهم من دفعته . وهناك صورة للسادات وهو بالملابس العسكرية وأخرى للرئيس حسنى مبارك .

أفقت من تأملاتى للصور على صوته المرتعش وهو يقول «أهلا وسهلا» انتبهت . . قدمت له نفسى : مندوب جريدة «الوفد»

رد مبتسما : يحيا الوفد ولو فيها رفد ، ثم قال لى : طلباتك ؟

قلت له : أريد أن أجرى حديثا مع سيادتك حول أزمة مارس سنة ١٩٥٤ بمناسبة مرور ثلاثين سنة عليها .

أجابنى : إسمع يابنى . . أنا تعبان أشكو من الأوجاع فى عينى . . فى أذنى فى رأسى . . أنا أصدرت كتابا فى هذا الموضوع بعنوان «كلمتى للتاريخ» . . اقرأه جيدا انقل منه ما تشاء على لسانى . . وأنا موافق حتى لو نقلت الكتاب كله .

قلت له : ولكن هذا لا يمنع من إجراء حديث معك

رد قائلا : علشان خاطرك بقى . . لولا معزة الوفد . . ومعزة والدك (إحسان عبد القدوس) كنت اعتذرت .

قلت للرئيس السابق محمد نجيب : ما رأيك بداية فى عودة الوفد إلى الحياة السياسية مرة أخرى ؟

أجاب : خير وبركة . . عودة الوفد بمثابة عودة الروح إلى الديمقراطية . . أنا أحب الوفديين . . وياما دافعت عن النحاس .

سألته : وكيف دافعت عنه ؟

أجابنى : ارجع لكتابى تلاقيها .

ورجعت إلى كتاب «كلمتى للتاريخ» الذى وضعه محمد نجيب فوجدت فى صفحتى ٩٩،١٠٠ ما يلى :

قدم جمال عبد الناصر لمجلس الثورة كشفا بأسماء بعض الزعماء السياسين ممن رأى بصفته وزيرا للداخلية اعتقالهم وكان بين الأسماء مصطفى النحاس لتحديد إقامته . ورفضت ذلك ووافقنى المجلس بعد معارضة شديدة وشطب اسمه من كشف المعتقلين ووقعت الكشف ، ولكن فوجئت بأنهم أعادوا اسمه للكشف بعد توقيعى عليه ، واعتبرت ذلك تزويرا لا أقبله وإساءة لا تغتفر .

قلت للواء محمد نجيب : لقد كنت تقف على رأس التيار الذى كان يمثل الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان . . كانت الغالبية العظمى من الشعب معك . . ومع ذلك انتصرت الديكتاتورية التى كان يمثلها عبد الناصر . . فما السبب فى ذلك ؟

أجابنى : أسباب كثيرة . . قيادات الشعب كانت فى السجون . . الإرهاب . . الاعتقالات . . تكميم الصحافة . . الدعاية المضادة . .

ورغم أن إجابته كانت تمثل جزءا من الحقيقة فإنها لم تكن تمثل الحقيقة كلها ، غاب جزء منها ، وهو أنه رفض استخدام القوات المسلحة فى الصراع مع أنه كان بمقدوره ذلك بسهولة .

ويشرح اللواء محمد نجيب فى كتابه فى صفحة ٢٢١ أحد الأسباب الأساسية التى دفعته إلى عدم استخدام القوات المسلحة فى الصراع مع عبد الناصر فيقول : جاءتنى معلومات جديدة مؤكدة أن اتفاقا قد تم بين الأمريكان وبعض أعضاء مجلس الثورة على هذه المؤامرة ، وأن قوات الاحتلال البريطانى وضعت فى حالة استعداد وأنها احتلت مواقع متقدمة على طريق السويس . . القاهرة للتقدم فى حالة حدوث اشتباك مسلح لاحتلال القاهرة .

ويضيف نجيب قائلا :

« وأجمعت أمرى على رفض استعمال القوة . . لم أوافق على تحريك قوات عسكرية ولم أوافق أيضا على اعتقال أعضاء المجلس بعملية قد تعرض حياتهم للخطر ، وقد تعرض استقلال مصر للضياع » .

سألته : سيادة اللواء . . لو كنت تعلم ما سيفعله عبد الناصر بعد استيلائه على الحكم . . هل كنت ستمضى فى طريق الصراع إلى نهايته ؟

أجاب قائلا : يقينا لو كنت أعرف لما ترددت فى الاختيار . . عبد الناصر ودا البلد فى داهية بل فى ستين داهية .

ثم أخذ يعدد لى جرائمه :

- أبشع انتهاكات لحقوق الإنسان وكرامته .
- هزائم عسكرية .
- إفلاس مالى .
- إفلاس أخلاقى .

ثم قال لى محمد نجيب : تصور يا أخى بدأت الانحرافات وأنا مازلت موجودا فى السلطة وقد ثرت وغضبت . . كل ذلك مذكور فى كتابى .

وعدت بسرعة إلى الكتاب فوجدت فى صفحة ١٧٠ ما يلى :

«كانت تصرفات بعض الضباط الذين انطلقوا فى أنحاء المجتمع مندوبين للقيادة أو ممثلين لهيئة التحرير قد أساءت إلى الثورة . ولوثت ثوبها ببقع سوداء شائنة ، وقد بلغنى أن أحد الضباط خسر على مائدة الميسر عدة مئات من الجنيهات فى ليلة واحدة . . وأصدرت قانونا لتحريم الميسر فى المحلات العامة والخاصة ، ومنع مضاربات البورصة على الموظفين حماية لهم ، وإرساء لقواعد وقيم أخلاقية جديدة . وفى مرة ذهبت لزيارة أحد أعضاء مجلس القيادة فى منزله فوجدت فنانا يصنع له تمثالا يتكلف ٢٠٠ جنيه وكنت أعرف أن حالته المالية لا تسمح بذلك فعنفته وخرجت غاضبا .

ولاحظت فى إحدى المرات ونحن نقبل على تناول العشاء فى مجلس القيادة أن بعض أدوات المائدة كانت من الفضة ومكتوب عليها «القصور الملكية» وثرت ثورة عنيفة وأبعدت الضابط الإدارى المسئول عن ذلك وأمرت بإعادة هذه الأدوات إلى القصور الملكية» .

وفى صفحة ١٧١ من الكتاب وجدت مفاجأة لم أكن أتوقعها . . يقول محمد نجيب بالحرف الواحد :

« أذكر مع الأسف واقعة ربما يكشف التاريخ يوما عن مزيد من حقائقها . . كنت متجها فى عربتى إلى نادى الضباط بالزمالك لتهنئتهم بعيد الأضحى وكان معى فى العربة البكباشى جمال عبد الناصر واقترب منى جمال - وكان ذلك قبل أن يصبح نائبا لرئيس الوزراء - وقال لى :

- انى أود أن أعرض عليك أمرا ناقشته مع بعض الزملاء . .

وأصغيت إليه باهتمام وبدأ يتحدث قائلا :

- أعتقد أن ظروفنا الحاضرة تقتضى أن ننظر إلى مستقبلنا ومستقبل حركتنا ونحن الآن تحيط بنا عواصف مضادة لا نعرف مصيرنا معها .

ثم استطرد قائلا :

- ولذا فكرت أن يأخذ كل عضو من أعضاء المجلس مبلغ عشرة آلاف جنيه وتأخذ أنت أربعة عشر ألف جنيه فيكون المجموع ١٣٤ (ألفا) وقد طلبت من زريا أن يحجزهم لنا نقودا جديدة .

ويقول محمد نجيب : ورأيت الدم يغلى فى رأسى ولم تحتمل أعصابى الحديث ، فصرخت فى وجهه طالبا منه أن يسكت حتى لا ينفجر رأسى من هول ما سمعت ، وبدأت أعنفه تعنيفا شديدا على ما استباحه لنفسه من مال الشعب .

وكان رد جمال ضحكة عصبية وهو يردد متلعثما :

- أنا كنت متأكد إنك حترد على بالشكل ده .

ويقول محمد نجيب فى كتابه تعليقا على هذا الحادث : «أعطانى ذلك مؤشرا على اتجاه جديد فى سلوك الزملاء أقول مع الأسف إنى ما توقعته ولا تخيلته .

قلت للرئيس السابق : وما رأيك فى حكم السادات الذى خلف عبد الناصر بعد أن مات ؟

أجاب قائلا : السادات رجل عظيم .. يكفى أنه أزاح كابوس الديكتاتورية الذى جثم على بلادنا منذ سنة ١٩٥٤ .. أطلق الحريات ، أعاد سيادة القانون أصلح الكثير من أخطاء عبد الناصر وأعاد سيناء إلى مصر مرة أخرى .

قلت له : ولكن ألا ترى معى أنه قد انحرف هو الآخر وأصبح ديكتاتوريا ؟

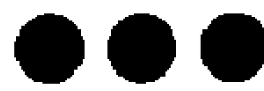
رد قائلا : لا .. أبدا .. كان أرحم من عبد الناصر بكثير ويكفيه فخراً حرب أكتوبر وفى عهده تم وقف التعذيب . وإذا كانت هناك أخطاء له فحسناته ترجح سيئاته ، وفى النهاية كل حاكم بشر . له أخطاء وحسنات . المهم التفكير فى مصلحة مصر وليس فى دعم الحكم المطلق .

وسألته : وما رأيك فى حكم الرئيس مبارك ؟

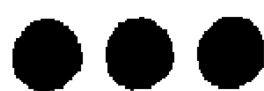
أجابنى : هذا الرجل يذكرنى بشبابى وأنا أحبه .. إنه يحترم سيادة القانون وأحكام القضاء ويعمل على تحقيق الاصلاحات الاجتماعية وإصلاح علاقات مصر مع الدول الأخرى وهو رجل نظيف .. بعيد عن الأنانية والمطامع الشخصية وحب الزعامة وفى عهده تسير بلادنا كل يوم خطوة فى طريق الديمقراطية .

سؤال أخير وجهته إلى الرئيس السابق محمد نجيب : ما هى الدروس المستفادة من أزمة مارس وانتصار الدكتاتورية ؟

أجابنى : الديمقراطية ولا شىء غيرها ..



إلى هنا ينتهى ما نقلته من حديث الأستاذ محمد عبد القدوس مع الرئيس الأسبق محمد نجيب وما يتضمنه من مقتبسات من كلام محمد نجيب .



ولم يكد عبد الناصر يتخلص من محمد نجيب وكل من يؤيد الحرية والقانون حتى اندفع فى سرعة خاطفة يحقق هدفه الرئيسى وهو الانفراد بالحكم ، فعاد مجلس الثورة وهو رئيسه . ثم أصبح رئيسا للجمهورية وبدأ يحكم حكما مطلقا دون معارضة ، لأن كل معارضة له خيانة للثورة تستوجب العقاب . والعقاب هنا يتم على يد السلطة التنفيذية لأنه ألغى السلطة القضائية ، وجعل نفسه القاضى الأعلى الذى يحكم بالشرعية الثورية التى هى عنده فوق الشرعية القانونية والدستورية وفى هذا الغمار سيطر جمال عبد الناصر على كل زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم يعد خارجا عن سلطانه إلا عبد الحكيم عامر المتحصن فى قلعة الجيش . ولم يكن هذا ليضيره فقد كان عبد الحكيم عامر إلى ذلك الحين صديقه وحليفه وشريكه ، بل ضمان قوته وعصاه الغليظة التى يضرب بها لأنه صاحب الكلمة الأولى فى القوات المسلحة .

وعبد الحكيم عامر اعتبر هذه القوات «عُمُوديّة» هو عمدتها ومكتبه كان مسطبة حقيقية فيها دردشة وضحك واستخفاف بالناس وإلقاء فى السجون . والمشير كان يشير بأصبعه فيذهب الإنسان إلى الجنة أو النار .

وهذا الذى فعله جمال عبد الناصر هنا إنما هو «روتين» بالنسبة لتواريخ المستبدين ، كلهم يتصرفون على هذا النحو الذكى السريع ويعرفون كيف يضعون أيديهم على كل جوانب السلطة برضى ظاهرى من الشعب فى البداية ، لأن الشعب يكون فى ظروف الثورات والانقلابات فى حالة خوف من عودة الماضى البغيض ، ويتصور الناس أن هذا الحاكم الجديد بأمره هو المنقذ وهو طوق النجاة ولابد من تأييده حفاظا على الثورة وثمراتها وضمانا لاستمرارها .

واندفع الشعب يؤيده كما فعل الشعب الفرنسى مع نابليون بعد انقلاب بردمير كما رأينا .

ولكن نابليون أعطى الشعب الفرنسى فى مقابل ما أخذه منه مجدا عسكريا مازالت فرنسا كلها تطرب لذكرياته . فقد أنشأ ما أسماه بالجيش الهائل وعدته أساسا نصف مليون مقاتل ، غير الإضافيين والمساعدين ، وبفضل هذا الجيش وعبقرية نابليون العسكرية أصبحت فرنسا فيما بين ١٨٠٤ و ١٨١٢ بالفعل سيدة أوربا ، وانتصارات نابليون وهى فرنسية كانت تعتبر انتصارات أوربية تحريرية ، لأن جيوشه كانت تحطم امبراطورية النمسا مرة بعد أخرى ، وفرنسا بسطت سلطانها الفعلى على ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ، وهذا هو العصر الذهبى للسيادة الفرنسية السياسية والعسكرية فى أوروبا ، وهو مهما كان الرأى فيه والثمن الذى دفع مقابله مجد قومى ، لأن جيوش نابليون كانت تشق الأرض الأوروبية

رائحة غادية وكانت تضع نهاية لعصور استبداد فردى ، وتبذر بذور الحرية والعصر الجديد .

أما عبد الناصر ، فلم يعط شعب مصر أى مقابل لما فقد معه من حريات ، وأمجاده كلها أمجاد خطب واتحاد وهمى مع سوريا ، وهو اتحاد لم يجن البلدان منه إلا المتاعب ثم التدخل الأهوج فى اليمن ، ثم الهزيمة الكاسرة للظهر بعد ذلك . وقد قال بعض أنصاره إن كل الدول تجرى عليها الهزائم ، يريد بذلك الدفاع عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومقارنتها بهزيمة نابليون فى روسيا سنة ١٨١٢ ، وعودته من روسيا بعد أن تحطم جيشه العظيم ، ومن سبعمائة ألف فرنسى عاد إلى فرنسا أقل من مائة ألف ، ولكن نابليون على الأقل بنى مجدا عسكريا ، ولم يهزم إلا عندما تجمعت عليه أوروبا كلها ، فأين هذا مما حدث فى حروب عبد الناصر ؟!

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ تنبه الشعب إلى الثمن الفادح الذى دفعه ؛ ليرتفع عبد الناصر إلى سراب خادع سمى بزعامة العرب .

إن جيشنا لم يهزم فى حرب ١٩٦٧ ، بل هو لم يحارب أصلا لكى يقال إنه انهزم . وقد أثبت ذلك فى أحد ملاحق هذا الكتاب بقطعة من رواية السمك الروسى التى ألفها ضابط شاب ممن اشتركوا فى حرب ١٩٦٧ وانهزموا دون أن يحاربوا ، أو كما عبر عن ذلك نجيب محفوظ فى مقال قصير كتبه فى الأهرام : إن الجيش المصرى صدرت له الأوامر بأن ينهزم فانهزم ، وهذا ما يحكيه عصام دراز فى قصته تلك .

باختصار وقعت الهزيمة القاصمة إذن ، واحتل الاسرائيليون سيناء وعسكروا على ضفة القناة وبدأوا يطالبون بحظهم منها ، وبدأوا يرسمون خططهم على أساس الاستيلاء عليها وعلى خليج السويس الذى بدأت خرائطهم تسميه خليج سليمان ، وبعد ذلك بقليل بدأ سحب القوات المصرية من اليمن بعد مغامرة قامت على سوء النية وانتهت بسوء العاقبة .

* * *

مثل هذه الكارثة جلبها على قومه أدولف هتلر ، ولم يكن هتلر بالمجنون ولا المغفل ، ولكنه كان واحدا من أولئك الذين يستولى عليهم عشق السلطان والسيطرة على العقول بالخطب البليغة ومظاهر القوة ، ولكن حتى أدولف هتلر أعطى شعبه شيئا قبل أن يصل إلى نهايته البشعة ، فقد تسلم مستشارية الرايخ الثالث من يد الماريشال «هون هندمبورج» فى يناير ١٩٣٣ ، واندفع بعد ذلك فى بناء قوة عسكرية لم يسمع بمثلها التاريخ قبل ذلك .

وألمانيا التى كانت تعانى من الفقر والذل والمهانة وانتشار البطالة والمرارة نتيجة

لمعاهدات فرساى انتعشت وأصبحت أقوى دولة فى أوروبا ، والصناعة الألمانية استردت سابق سمعتها . وهتلر فى بناء الرايخ الثالث لم يؤمم مصانع كروب أو أ . أى . جى أو قلاع الصناعة فى دوسلدورف وحوض الرود بل ضم رجال الصناعة إليه ، وأنشأ مصانع عسكرية كبرى فى بلاد مثل شفايفورت واكتسحت البضائع الألمانية الجيدة أسواق العالم ، وحوالى ١٩٣٨ إلى قبل قيام الحرب بعامين كانت ألمانيا فى طليعة بلاد أوروبا حضارة وازدهارا ، والفرق الاتحادية الكبرى أو البوندزياتى كانت تبهر أبصار الدنيا ، وعاد جنون العظمة عنده بشىء من الخير على ألمانيا ، فقد كان يطلب إلى وزير الإنشاء عنده وهو البرت شبير أن يبنى له منشآت لم تعرفها أوروبا منذ أيام الرومان ولن تعرف مثلها لألف عام ، فقامت المبانى العظيمة الساحقة وأصبحت بلاد مثل نورميج مدنا كأنها من صنع الخيال ، وكل هذه تحطمت أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكن بقيت للشعب الألمانى تلك الخبرة الضخمة التى كسبها أثناء سنوات الحرب ، ولولا ذلك لما استطاعت ألمانيا النهوض بعد الهزيمة الكاسرة ، أى أن الرجل رغم كل مساوئه أعطى ألمانيا شيئا ، أما هنا فماذا أخذنا غير تدهور التعليم وهبوط الثقافة وانهيار الصناعة التى كانت قائمة ، واضطراب شئون العمال وإفسادهم بما سمى بمكاسب الثورة ، والعمال المصريون كانوا قطعا سيصلون إلى خير منها لو لم توضع كل هذه القوانين الارتجالية .

* * *

وقد قرأت فى ذلك مقالا ممتعا للكاتب الصديق الصحفى الأستاذ محمد جلال كشك وهو مقال عظيم القيمة فيما يتعلق بتعريفنا بالأساليب الناصرية . وسأورد جانبا كبيرا من كلامه شاهدا على ما أقول ، وأنا لا أورد هذه الشواهد والحقائق عن طبيعة الاستبداد الناصرى لكى أشهر أو أتهم ، فما لى فى ذلك أرب ولا صالح ، وإنما نحن نكتب عن معنى لكى ننير طريق المستقبل ، ونكشف جوانب الأخطاء الماضية ، حتى لا نقع فيها مرة أخرى .

والله يعلم أن تقديرى لشخصية عبد الناصر وذكائه عظيم ، وهذا ما يزيدنى ألما ، ذلك أنه كان يستطيع أن يخدم مصر والعرب ألف مرة أكثر مما فعل ، لأنه كان موهوبا حقا ، ولأنه كان يتمتع بما يسمى بسلطة سحرية على الجماهير فيملك زمامها ويجعلها تسير طوع إشارته ، وتتحمس لكل ما يقول ، وتعمل دون تفكير لا من ناحيته أو من ناحيتها ، وهذا هو ما يسمى بالكارزمية أى سحر الشخصية وجاذبيتها والقوة الغلابة التى تنبعث منها ، وأدولف هتلر تمتع بهذه الخصائص إلى درجة لم يسمع بمثلها فى التاريخ حتى إن مئات الألوف من الألمان كانوا إذا رأوه جن جنونهم وهتفوا : هايل هتلر . . . هايل . . هايل ! . . دون

وعى ، وكان سحر نابليون على ضباطه وجنوده لا يصدق ، وفى اوسترلينز أمر فرسانه بالهجوم على مدفعية العدو فاندفعوا واستولوا على المدفعية وسقط منهم ألوف دون أن يشعروا كما قال أندريه موروا ، وكذلك كانت سيطرة لينين على الجماهير الروسية وأتاتورك على جماهير الأتراك . . ولو أوتى عبد الناصر جزءا مما أوتى كمال أتاتورك من بعد النظر والحكمة (فيما عدا موقفه من الإسلام والعرب) لاستطاع أن ينقلنا خلال العشرين سنة التى حكمها من العالم الثالث إلى العالم الثانى . ومعظم مشاكلنا اليوم آتية مما حدث خلال الفترة الناصرية ، ويكفى أن أقول لك إن جمال عبد الناصر لو أمهل الرئيس محمد نجيب سنتين اثنتين لكانت مشكلة وحدة مصر والسودان قد تحققت فى ذلك الوقت برضى شعبى وادى النيل كله واجتماعه حول راية محمد نجيب المصرى السودانى ولقامت دولة وادى النيل السودانية المصرية لتصبح أول دولة أفريقية فى مصاف دول العالم الكبرى . وكل ذلك ضاع لكى يصبح عبد الناصر رئيس مصر يهرول وراء رياسة العرب .

وأعود إلى مقال الأستاذ محمد جلال كشك لأورد منه فقرات تكشف لنا من الأساليب الناصرية ما نجهله ، لأن جلال كشك باحث صحفى كاتب مطلع يعرف من أسرار الحوادث ما يغيب عنا . قال فى مقال بعنوان : «فى الذكرى الثلاثين لوفاة الحرية» (نشر فى مجلة أكتوبر ، عدد ٣٩١ الصادر فى ٢٢ أبريل ١٩٨٤) :

ففى مثل هذه الأيام فى ربيع ١٩٥٤ خرجت لأول وآخر مرة فى تاريخ مصر مظاهرة تهتف : «تسقط الحرية» !

وفى مثل هذه الأيام ألغيت الحريات بناء على طلب الشعب ، وفتحت المعتقلات لتستقبل كل من ساهم فى العمل السياسى فى تاريخ مصر . . وألغيت الأحزاب والصحف وحلت النقابات وانتهكت حرمة الجامعات المصرية . .

فى مثل هذه الأيام من ثلاثين سنة ضرب رئيس مجلس الدولة «علقة» وزرع زعيم الثورة «القنابل» فى قلب عاصمة وطنه . وبعث رئيس جمهورية مصر يستأذن مجلس الثورة فى ذبح «العجل» الذى نذره إذا ما أعلنت الوحدة مع السودان لأنه لا يستطيع توفير العلف للعجل ، بعد تحديد إقامة أول رئيس جمهورية لمصر هو والعجل ! . .

ومن المؤكد أنهم أضاعوا الوحدة مع السودان ، ولكن ما من مؤرخ سجل لنا ما إذا كانوا قد سمحوا بصرف العلف للعجل أو تركوه يموت مع الحرية وسيبقى هذا السؤال فى ضمير التاريخ والناصريين وجمعيات الرفق برؤساء الدول الثورية !

وفى ربيع ١٩٥٤ تجمعت إرادة الشعب المصرى ، ممثلة فى أحزابه من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، حول مطلب واحد هو : إنهاء الحكم العسكرى وعودة الجيش إلى مهمته الوحيدة وهى الدفاع عن الوطن عند الحدود . . وبالتالى قيام حياة ديمقراطية قائمة على الانتخابات وحرية الصحافة وتعدد الأحزاب وكل ما تعارفت الشعوب عليه فى صراعها ضد الطيغان . .

وكانت غالبية القوات المسلحة وبعض أعضاء مجلس الثورة نفسه يؤيدون هذا الموقف فضلا عن محمد نجيب ، وكان يؤيد هذا الموقف خالد محيى الدين ويوسف صديق ورشاد مهنا . . وجمهرة من ضابط الصف الثانى فى تنظيم الضباط الأحرار الذين هالهم - كما جاء فى مذكرات بغدادى - أن الشعب الذى عانقنا فى الشوارع صباح يوم الثورة يبصق علينا الآن ! . .

وكان هؤلاء الضباط قد قاموا بحركة ٢٣ يوليو وأيدهم الشعب ، على أساس أن الجيش سيتولى تحرير إرادة الشعب المصرى من استبداد القصر واستجابته للتدخل البريطانى ، ثم يترك للشعب مسئولية بناء النظام الديمقراطى الذى يحقق أهدافه ولكن الزعيم الحقيقى للثورة ، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ، بل كان يعتقد - كما قال للسفير الأمريكى كافرى فى تصريح أكثر من مشهور - « أن إعطاء الشعب المصرى الديمقراطية اليوم ، يعادل إلقاء أولادى فى الشارع باسم حريتهم فى التصرف » . . ولم يكن رحمة الله عليه يهتم كثيرا بمدى تأييد الشعب لوجهة نظره ، فكما يروى عبد اللطيف بغدادى أحد أقطاب تلك الفترة أن عبد الناصر حضر إلى اجتماع مجلس الثورة وقال لهم : « إن هذه الثورة ليست لها قاعدة شعبية تعتمد عليها ، وليس هناك من يؤيدها لا من الشعب ولا من الجيش . وأن الذين قاموا بالثورة تسعون ضابطا فقط ، وأنهم فى تناقص حتى أصبح عددهم خمسين ضابطا الآن » وعلقت على كلامه هذا بقولى : معنى هذا أننا نفرض أنفسنا على هذا البلد ؟ فرد على بالإيجاب ، فقلت : فى هذه الحالة يجب علينا أن « نروح » إذا كان هذا هو الوضع .

وقد حدث عكس ذلك ، فالشعب هو الذى « روح » لأن قائد الثورة كان يؤمن بأن الرجل القوى « أغلبية » وكانت له وسائله فى تنفيذ ذلك ، فقد أورد بغدادى واقعة « مذهلة » عن عجائب تلك الفترة ، ولو أن الأكثر ذهولا منها هو أن المؤرخين لم يهتموا بها !!

قال بغدادى بالحرف الواحد : أشار جمال إلى أن هناك ستة انفجارات قد حدثت فى نفس اليوم ، وكلها فى وقت واحد ، وفى أماكن متفرقة ، واحد منها فى مبنى محطة السكة

الحديد واثنان بالجامعة وآخر بمحل جروبي . . إلخ وكـان غرضـه من الإشارة إلى هـذه الانفجارات هو توضيح أن هذا حدث نتيجة لسياسة اللين والميوعـة الظاهـرة فى موقف الحكومة . وكان محمد نجيب مصرا على اتخاذ الإجراءات العادية ، ومعارضا فى اتخاذ أية إجراءات استثنائية .

ويكمل بغدادى بقنبلة سابعة إذ يقول :

« اعترف لنا جمال عبد الناصر وهو على فراش المرض أن الانفجارات التى كانت قد حدثت وأشار إليها فى الاجتماع إنما هى من تدبيره لأنه كان يرغب فى إثارة البلبلة فى نفوس الناس ليشعروا بأنهم فى حاجة لمن يحميهم على حد قوله » .

(مذكرات بغدادى الجزء الأول صفحة ١٤٦) .

وكان رحمة الله عليه لا يعرف المهادنة فى قضية السلطة ، فهو لم يتردد فى زرع القنابل لتسقط فى جروبى والجامعة ، حيث تتجمع الرجعية فى الأول والبـرجوازيـة الصغيرة فى الثانى . . بل أيضا فى محطة السكة الحديد حيث جماهير الشعب الغافلة . ومن الغريب أنه بعد تلك الحادثة ببضعة شهور أرادت جهة أخرى زرع البلبلة فى مصر ، فقامت المخابرات الإسرائيلية بتنفيذ الانفجارات فى أهداف أمريكية وبريطانية ، وهو ما عرف بعد ذلـك بعملية « لافون » ثم فضيحة « لافون » التى ظلت تخيم على السياسة الإسرائيلية ربع قرن وشكلت فيها أكثر من لجنة تحقيق ، حتى سقط مدير المخابـرات الذى نفـذ العملية ثم « بنحاس لافون » وزير الدفاع الإسرائيلى الذى أمر بتنفيذها ، بل أصابت « بن جوريون » نفسه مؤسس إسرائيل ومصمم انتصارهـا فى حرب ١٩٥٦ . . واعتبـرت فضيحة لأنها عرضت سلامة مواطنين إسرائيليين للخطر رغم « الهدف » القومى الذى أوحى بها . . أما عندنا فلا أحد يهتم حتى الآن بتحقيق هذه الواقعة التى أشار إليها بغدادى ، ولو ليبرىء تاريخ مصر وتاريخ الزعيم من مثل هذا العمل . . أعنى تعريض سلامة المصريين للخطر فى سبيل استمرار سلطة (خمسين ضابطا) لا يتمتعون بتأييد الشعب ولا الجيش !

كانت أياما قاسية فى ربيع عام ١٩٥٤ ، فبعد أن تمت تصفية الوضع داخل الجيش واستقال خالد محيى الدين ووافق على السفر للخارج ، وتم اختطاف رئيس الجمهورية واحتشد نحو نصف مليون مصرى كانوا قد تجمعوا فى ميدان عابدين على استعداد للزحف إلى حيث تأمر قيادتهم السياسية لإنقاذ الديمقراطية المصرية ، إذا بالشهيد عودة يـأمرهم بالانصراف والنوم مبكرا . .

وكانت غلطة سياسية أو مساومة ساذجة . . لا أحد يدرى ، ولكن الشهيد عوده رحمه

الله دفع ثمنها شخصيا كما دفعه الإخوان المسلمون ومصر كلها . . عندما انقض فى اليوم التالى زوار الفجر الذين لا ينامون ، على من ينامون ويصلون الفجر !

وضرب رئيس مجلس الدولة « علقة » ، وهى بالطبع الأولى من نوعها فى تاريخ مصر ، ونسأل الله أن تكون الأخيرة . . فهذا الوطن تميز باحترام القضاة منذ عهد الفراعنة ، فترى على مقابرهم « فرعون » العظيم يقف خاشعا خائفا أمام ميزان العدالة الذى يمسك به قرد أو قط أو حتى بقرة . . وربما كان ذلك عن قصد ، فالهدف هو تأكيد أن شخص القاضى لا يهم ، فما دام يمسك بميزان العدالة ، وما دام يجلس على كرسى القضاء ، فلا بد أن يخضع له الفرعون ذاته . . هكذا استقر فى ضمير المصريين احترام القضاء ، حتى فى أحلك عصور المماليك خضع السلطان لحكم القضاء بأن يباع السلطان فى سوق الرقيق . . إلى أن ضرب رئيس مجلس الدولة « علقة » وظهرت كائنات بشرية من طراز « الدجوى » وطرح مبدأ عدم الفصل بين السلطات لأنه شعار بورجوازى مضلل ! . .

ويعترف بغدادى أن الذين ضربوا رئيس مجلس الدولة فى مبنى مجلس الدولة أعلى سلطة قضائية فى مصر وقتها ، قد نقلوا فى لوريات تابعة للشئون العامة الخاصة بالجيش وطلبوا بترولا سلفة من السلاح الجوى الذى وفره لهم على الفور (وكان بغدادى يشرف على السلاح الجوى) وهو يفتخر بسرعة الإنجاز فى « صرف » بترول السلاح الجوى للذين ضربوا رئيس مجلس الدولة ، ولكنه ينسى ما أورده فى نفس المذكرات . . وهو أنه لما وقع العدوان الإسرائيلى على مصر فى عام ١٩٥٦ وطلبوا من قائد الطيران المصرى إياه أن يشن هجوما جويا على مدن إسرئيل وقوات إسرائيل اعتذر بأن « الجاز » خلص أو كما قال بغدادى ان السلاح الجوى ليس لديه بترول . . . واندفع بغدادى يهاجم تفريط قائد الطيران فى البترول ، ونسى أن البترول ضاع فى تسيير لوريات ضاربى القضاة ، نسى أنه أحد الذين أقروا و « على الفور » أن تسيير لورى المؤيدين للسلطة أهم من تسيير السلاح الجوى . . وأن ضرب « الرجعية » مقدم على ضرب إسرائيل . . وأن من أعان ظالما سلطه الله على أخيه بالحراسات .

ثم يستطرد الأستاذ جلال كشك فيقول تحت عنوان : « موت صحيفة » :

فى ربيع ١٩٥٤ منذ ثلاثين سنة ماتت حرية الصحافة ، واسمحوا لى أن أحكى قصة صحيفة وقصة صحفى من ضحايا مأتم الحرية ، وهى صيحفة الجمهور المصرى وأبو الخير نجيب صاحبها . . فقد صدرت فى عنفوان المد الثورى الحقيقى (١٩٥٠ - ١٩٥١) واشتهرت بالإثارة الناجحة ضد الاستعمارين الأمريكى والبريطانى ، وأحزاب الأقلية

والقصر .. فهى مثلا التى اكتشفت « العسكرى الأسود » الذى استخدمه السعديون فى تعذيب الإخوان المسلمين واستطاع محرر الصحيفة الأستاذ « سعد زغلول فؤاد » أن يأتى به إلى المحكمة ، وكان السعديون ينكرون وجوده ..

وهى التى أثارت ضجة عالمية عندما نشرت خبر سفينة أبحاث أمريكية تجرى تجارب جرثومية على أسرى الحرب الكورية ..

غير أن أبرز مواقفها ، هو تبنيها للكفاح الشعبى فى منطقة القناة بعد إلغاء المعاهدة ، وقد نشرت إعلانا عن استعداها لدفع ألف جنيه لمن يقتل « أرسكين » وأرسكين هذا هو قائد جيش الاحتلال البريطانى فى مصر وقتها .. وربما لا يفهم الجيل الجديد مغزى ذلك ، ولكن تخيل لو أن جريدة عربية فى الضفة الغربية تنشر عن مكافاة لمن يأتى برأس قائد جيش الاحتلال الإسرائيلى ، أو صحيفة جنوب لبنان المحتل والمنسى .. أو صحيفة تصدر فى كابول عاصمة أفغانستان ، تنشر علنا إعلانا يدعو لقتل قائد جيش الغزو السوفيتى .

وقد جن جنون الإنجليز ، وفقدوا برودهم ، وتقدموا بطلب رسمى نشر أخيراً ضمن الوثائق البريطانية المفرج عنها ، يطلبون محاكمة أبو الخير نجيب ومعاقبته ولكن حكومة مصر « الرجعية » رفضت هذا الطلب بل احتجت على مجرد تقديمه ، وكان على الإنجليز أن ينتظروا عامين وثورة حتى يتحقق مطلبهم ، ويصدر ضد أبو الخير نجيب أقسى حكم فى تاريخ الصحافة المصرية .

كان أبو الخير نجيب قد كتب مقالا فى العهد الملكى بعنوان : « التيجان الهاوية » تحدث فيه عن مصير الملوك الذين ينحرفون ، ونشر المقال الذى يعرض بملك البلاد ولم يتعرض أحد لكاتبه لأن مصر كان بها حرية صحافة وضمانات تحمى حرية الصحافة .. فلما جاءت الحركة المباركة كانت قيادتها من الصاغات والبكباشية ، ورتبتهم يرمز لها « بالتاج » على أكتافهم ثم غيرت الثورة ذلك وأحلت النسر محل التاج .. وفى فترة « البلبلة » أو الانفراجة الأخيرة فى مارس ١٩٥٤ .. كتب أبو الخير نجيب يقول إنه فكر فى كتابة مقال بعنوان : « النسور الهاوية » ..

وقتل كيف فكر !

ألقى القبض عليه وهو يتناول طعام الغداء .. وحوكم أمام محكمة الثورة برئاسة عبد اللطيف بغدادى الذى منعه من الدفاع عن نفسه وقاطعه بضرب متواصل بالمطرقة حتى انكسرت وطار جزء منها فاصطدم بجبهة المتهم وسال منها الدم فى حضرة القضاء ..

وحكموا عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاما بتهمة التفكير فى كتابة مقال . .
ومرت الأيام !

وكبر الأطفال . . والصبى الذى تركه أبو الخير يتساءل فى حيرة . . ماذا جنى أبوه ليحرم منه حيا ؟ . . ولماذا لم يعتقله الانجليز ولا الملك . . بل . . ؟

المهم كبر الإبن وانضم إلى منظمة الشباب وأصبح من جيل الثورة . . ووقف فى أحد الاجتماعات وصاح على طريقة السلف الصالح فى عهود الظلام : « متظلم يا أفندينا » . .

وكان المسئول ، ولا يهم شخصه ، فربما كان سامى جمعة أو شعراوى شرف . . فلا أحد يهتم باسم عشماوى . . ولا التاريخ يذكره بعد أن يسقط من على منصة الإعدام . . المهم كان المسئول منشرح « المزاج » فقال للفتى : « شبيك لبيك القرارات الثورية بين يديك ! »

وتشجع الفتى وقد فتحت له ليلة القدر . . وطلب العفو عن أبيه . .

وقد كان . . وصدر أمر الإفراج ليلا فى نفس اليوم . . والذين نسوه فى السجن سنين لم يطيقوا أن يبيت ليلة واحدة بعد ما صدر الأمر . . وفتحوا باب زنزانته فى الليل ، وكان يطبخ طعامه على الورق ، وهو من الممنوعات فى سجن الثورة . . فبادر الضابط قائلا : « رحنا التخشيبة يابيه ؟! » فرد الضابط : لا . . حتروح بيتكم !

وقال أبو الخير نجيب : أنا لا أعرف أين بيتنا ! . .

كانت الأسرة التى تدهور حالها ، قد انتقلت إلى بيت أصغر ، ولم يهتم هو ولا اهتم أحد بتعريفه بالعنوان الجديد ، فلا أحد يعطى عنوانه لسكان القبور . . وهم لا يسألون . . وبدأ الحديث عن منزل المحرض على قتل قائد جيش الاحتلال . . وكاتب « التيجان الهاوية » . . وذهب أبو الخير نجيب إلى بيته فى منتصف الليل بعد غيبة تزيد على عشر سنوات . .

ذهبنا نهنئه بالإفراج . . فقال : كرامتى كإنسان لم تسحق يوم محاكمتى ولا سجنى بل سحقت بالإفراج عنى بهذه الطريقة . . كسروا قلبى . . بعد ما كسروا قلمى . . ليست المهانة فى بطش الحاكم ، بل فى مثل هذا العفو . ولم نعلق ، فقدكنا فى غنى عن الحاكم وعفوه . .

أما حكاية مظاهرة « تسقط الحرية » فقد نشرت بعد ذلك تفاصيلها ، وقيل إن الرئيس عبد الناصر دفع ألفى جنيه لصاوى الذى نظم المظاهرة ، والذى لقبه الشعب بعد ذلك

بصاو أحمد صاو . . على وزن اللورد هاو . . أشهر خائن فى تاريخ بريطانيا . . وقد دافع الرئيس بعد ذلك عن هذا بأنه سبق خالد محيى الدين الذى كان - فى رأيه - سيعمل نفس الشىء لضرب الثورة . . وكان رحمة الله عليه يستشهد دائما بتلك الواقعة ، كلما حدثوه عن موقف الشعب أو الرأى العام فيقول : لا تحدثونى عن الرأى العام أنا اشتريته بألفى جنيه . . !

وبعد . . ففى الذكرى الثلاثين لوفاة الحرية ، أقول للشباب . راقبوا الله ومستقبل وطنكم فى الانتخابات القادمة . . جنبوا وطننا محنة أخرى . .

وكان لا بد من هذا الاستطراد وما يتعلق به من التعليقات لكى تتبين لنا بعض الملامح الخافية فى تاريخ العصر الناصرى .

وبعد مقتل الرئيس السادات نشرت مذكرات الكثيرين من رجال الثورة وكلهم يقولون أن عبد الناصر استبد بهم واعتدى على الحريات برغمهم ، ولكن هذا غير صحيح . والذى نعرفه نحن أن قادة الثورة جميعاً - بعد أن استتب لهم السلطان - كانوا يعتقدون أنهم دون سواهم أصحاب هذه الثورة وصناعها وقادتها وورثتها بل ورثة مصر والمتكلمون باسم شعب مصر . وأنا شخصياً أكن احتراماً عميقاً لاثنين من قادة الثورة الأول ، وهما السيدان كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى لأنهما على جانب كبير من الثقافة وصدق الوطنية ، والرغبة فى العمل لصالح البلد . فأما كمال الدين حسين فثقافته دينية وهو رجل صادق التقى شديد الإخلاص فى عمله ، وأما عبد اللطيف البغدادى فيتميز بصدق وفهم ومقدرة إدارية عظيمة ، وخلال السنوات الأولى للثورة استطاع أن يدخل على مدينة القاهرة إصلاحات جوهرية غيرت صورتها فقد أصلح شوارع البلد وأرصفته وأعطاها هيئة جميلة ، وقد قضى على الاثنين جمال عبد الناصر فى عنف ، بل سجن كمال الدين حسين الذى كان ساعده الأيمن فى يوم من الأيام ، وقد عزله وأزال عنه كل سلطان لأنه فى وقت ما ، وربما فى أوائل الستينات كسب كمال الدين حسين شعبية كبرى بسبب ما رأى الناس من حزمه وحسن تصريفه للأمور أثناء رحلاته الإصلاحية فى محافظات مصر ، وتحدث الناس بفضله وقدرته ، وتلك كانت فى نظر جمال عبد الناصر جريمة تستحق العقاب فلم يسترح إلا بعد أن أقصاه من كل سلطان وألزمه بيته ، وعندما احتج على بعض تصرفاته أمر بسجنه فسجن .

وأما عبد اللطيف البغدادى فقد عاقبه بما رأى وقدم من خدمات لوطنه ، وقد حكى الرجل قصته فى مذكراته المطبوعة المتداولة بين الناس وهى من أمتع ما كتبه رجال الثورة وأصدقه فليرجع إليها من يريد .

ولكن رجال الثورة جميعاً بما فيهم هذان الفاضلان لم تكن لديهم على الجملة نظريات عقائدية أو أيدلوجية . كان كل ما لديهم حماس لم يكونوا يؤ يدونه بالديمقراطية أو الحرية ومن هنا فإنهم بعد أن تمكنوا من السلطان لم يكن لديهم الاستعداد - وفى أسوأ الظروف - للسماح للشعب بأى نصيب من المشاركة فى الحكم ، وقد نشر السيد عبد المجيد فريد ، وكان فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ من أقوى شخصيات الحكم الناصرى ، فى مجلة الوادى ثم فى جريدة الأهالى صفحات مما سمته هذه الجريدة أوراق عبد الناصر السرية تكشف لنا عن حقائق تفكير زعماء الثورة واتجاهاتهم بعد الهزيمة ، وسآتى فيما يلى بفقرات من تلك الأوراق السرية تكشف لنا عن أن جماعة الثوار لم يكونوا ثوارا ولم تكن لديهم أفكار عقائدية أو إيمان حقيقى بالمبادىء التى كانت أجهزة دعايتهم تدعيها لهم ، والفقرات أختارها من المجموعة الثانية من تلك الأوراق السرية ، وقد نشرت فى جريدة الأهالى فى عددها الصادر فى ١٩٨٣/٨/١٠ وعنوانها مناقشات حادة بين معاونى عبد الناصر تكشف اتجاهاتهم الفكرية ، وقد أدخلت الجريدة تعليقات على ما ذكره السيد/ عبد المجيد فريد فتركتها كما هى لما فيها من فائدة :

اعترف عبد الناصر فى أول اجتماع له للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فى أغسطس ١٩٦٧ ، أى بعد مرور شهرين على النكسة ، بأن النظام يحتاج إلى تغييرات جذرية بعد أن كشفت الأحداث عن وجود خلل خطير به أدى إلى أن النظام أصبح يأكل نفسه على حد تعبير عبد الناصر . .

وقد اقترح عبد الناصر فى ذلك الاجتماع أن تنشأ معارضة تتخذ شكل قيام حزب معارض للاتحاد الاشتراكى الذى اقترح أن يتحول إلى حزب ، على أن تجرى انتخابات جديدة لمجلس الشعب ومن يحصل على الأغلبية يتولى الحكم .

وقد عارض جميع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا فكرة عبد الناصر على أساس أن ظروف البلد - إلى أن تتم إزالة آثار العدوان - لا تسمح بذلك . . وتقدموا ببديل لاقتراح عبد الناصر ، أن تجرى إصلاحات عاجلة لأجهزة الحكم . .

وقبل عبد الناصر اقتراحهم أمام معارضتهم الإجماعية لاقتراحه . . وعلى أساس أن يكون الإصلاح المستهدف ، إصلاحا شاملا . . وطلب من زكريا محيى الدين أن يشارك فى اجتماعات اللجنة بعد ذلك ، الوزراء المختصون بأوجه الإصلاح المقترحة ، وكان أول هذه الاجتماعات فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٦٧ . . وقد حضر الجلسة ، إضافة إلى أعضاء اللجنة التنفيذية العليا من الوزراء : د. عبد المنعم القيسونى ، المهندس سيد مرعى د. عبد الوهاب البشرى د. نزيه ضيف د. لبيب شقير د. حسن عباس زكى وكمال

رفعت وعبد المحسن أبو النور المشرف على جهاز الاتحاد الاشتراكى فى تلك الفترة .

عرض عبد الناصر على المجتمعين الهدف من اللقاء الذى يتم بهذه الصورة السياسية لأول مرة لأهمية وعمق الموضوعات التى ستناقش إجراء إصلاح شامل لأجهزة الحكم . واستمرت تلك الجلسة أكثر من خمس ساعات ولكن . . لم يتحدث فيها أحد من الوزراء . . رغم محاولات عبد الناصر لإثارتهم للاشتراك فى الحوار . . ووصل إلى حد الاستفزاز المقصود بدون جدوى . . وقد ركز عبد الناصر حديثه حول موضوع أساسى وهو «آمال الناس» والقدر الممكن تحقيقه منها . . كما أكد على ضرورة العمل الشاق من خلال الإصلاح - كما قال - للقيام بثورة جديدة أو الإقدام على أى عمل جنونى - حسب تعبيره - من أجل أن يوفر الأمل للناس . . هؤلاء الذين منحوه ثقتهم المطلقة يومى ٩ و ١٠ يونيو . . رغم أن النظام بأكمله كان قد سقط على الأرض بعد الهزيمة العسكرية .

أصر عبد الناصر على أن يشترك الوزراء فى اللقاء وأن يتحدثوا بصراحة تامة وبلاحرج عن عيوب الحكم وسببها ، لهذا طلب استمرار الحوار فى جلسة ثانية وثالثة ورابعة إلى أن تتحدد تماما أوجه الخلل وتوضع خطة الإصلاح المنشود .

كانت الجلسة الثانية بعد يومين من اللقاء الأول ، وقد بدأت فى السابعة مساء يوم الثلاثاء ٢٦ ديسمبر وافتتحها عبد الناصر موجها حديثه إلى الوزراء . . «ألا يكفى صمتكم بالجلسة الماضية ؟» أود أن أسمع الآن آراءكم ومقترحاتكم بشرط أن تكونوا صرحاء . وهنا تكلم الوزراء الواحد بعد الآخر .

كان أول المتحدثين الوزير محمود يونس قال :

- إن الإصلاح المطلوب للنظام يجب أن يشمل كافة المجالات وأعتقد أننا نحتاج إلى عدة اجتماعات لأن الملاحظات متنوعة . . أولها . . فائض العمالة الموجودة لدى بعض المؤسسات و الوزارات ولابد من حل لاستخدام هذا الفائض استخداما مثمرا ، ثم موضوع آخر يسبب إزعاجا فى المصانع والشركات وهو تدخل الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكى فى أعمال الإدارة والموضوعات الفنية .

[كانت الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكى تعتبر بمثابة لجان التنظيم السياسى الموسعة على المستوى القاعدى ، وكانت تضم القيادات السياسية والقيادات التنفيذية على ذلك المستوى . .]

إن أعضاء هذه الجماعات ليسوا على المستوى الإدارى والفنى المناسب للقيام بمثل هذا

الدور . . وحتى فى وزارتى تثير قيادات الاتحاد الاشتراكى المحلية تساؤلات قد لا يكون من المناسب أن أرد عليها . . ولو استمر هذا الوضع ستزداد الأجهزة التى تسألنى كوزير . . أجهزة الاتحاد الاشتراكى وأجهزة الأمن وأجهزة الرقابة الإدارية . . بحيث تعوق عملى وعمل أى وزير فى متابعة أعماله الأساسية .

عبد الناصر :

كلام غريب من محمود يونس . . هل بعد ١١ سنة من ممارستك لوظائف قيادية عليا لا تعرف أنت مسئول أمام من ؟ وغير مسئول أمام من ؟ يامحمود يونس أنت مسئول عن واجباتك أمامى وكذلك مسئول عن واجباتك حسب نص الدستور أمام مجلس الأمة . . ولكلمة (الأجهزة) التى رددتها تعبير غير مصرى . . أما عن نقد وتدخلات قيادات الاتحاد الاشتراكى فأنتم كوزراء نسيتم أنكم سياسيون قبل أن تكونوا وزراء . . ولو كنتم فى الأصل توليتم وظائفكم الوزارية عن طريق التنظيم وهو الأمر الطبيعى . . لكنتم عاملتم قيادات الاتحاد الاشتراكى معاملة أخرى . .

يقال أحيانا إن الوزراء قيادات فنية وغير سياسية . . كلام غير سليم . . نحن الآن نمر بمرحلة انتقالية فى بناء الدولة وبناء تنظيمنا السياسى ، ويجب أن يعين الوزير من بين قيادات الاتحاد الاشتراكى وعن طريقه . .

أنا حائر معكم . . !! تقولون لا بد من الديمقراطية ومش عايزين حد من العاملين عندكم يتكلم . . وتقولون عايزين الديمقراطية ومش عايزين حد ينتقد أو يشارك فى العمل . . كيف أوفق بين هذه الرغبات المتضاربة ؟ من رأيى أن تكونوا مسئولين أيضا عن نجاح العمل السياسى فى وزاراتكم .

والوضع السياسى بالنسبة لى أفضل كلما توسعنا فى الديمقراطية لأنى سأكون فى مركز أوسع حتى ولو تضايق الآخرون .

الآن والناس صوتها أعلى من زمان وقدرتها على نقد النظام تضاعفت . . فإذا منعت الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكى أن تنتقد أو أن تتبنى مطالب الناس ماذا سيحدث ؟ سيحدث أن يخرج تنظيم شيوعى أو تنظيم إخوانى ويتبنى نفس الملاحظات التى لم تقبلوها من قيادات الاتحاد الاشتراكى .

فى وقت ما منعنا عمل تنظيمات سياسية داخل الجامعات . . بعد ذلك ظهر مباشرة نشاط سياسى آخر داخل الجامعات . . أحزاب تحت الأرض ! شيوعية . . وإخوان مسلمون .

اليوم وصلنى تقرير من باريس يقول إن هناك تحالفا بين الشيوعيين المسلمين والإخوان المسلمين تحت اسم (الحزب الاشتراكى الإسلامى) ويطالب الحزب الجديد بالاستيلاء على الحكم سواء بالقوة أو بالمنطق .

الناشر : لا أعتقد أن الحلف الذى أشار إليه التقرير المذكور كان قائما .

أعود إلى موضوع الجماعات القيادية . . يجوز أن بعضهم أخطأ . . علينا أن نصحح وندربهم تدريبا سياسيا . . ولكن لا يجوز أن نمنع الناس بتوعنا من أن يتكلموا . .

محمود يونس : . . . ولكنهم سيتكلمون فى موضوعات فنية . . !

عبد الناصر : يا أخى اتركهم يتكلموا . . وبعد ذلك قل لهم إن الموضوعات التى أثيرت موضوعات فنية واشرحها لهم . . هؤلاء الناس بتوعنا واحنا مسئولين عنهم وعن توعيتهم .

نستفيد بتجربة الروس

أنور السادات : أعود للموضوع الأصلى . . بعد النكسة فى شهر يونيو خرج الناس فى الشارع وقالوا رأيهم . . أن يبنى جمال عبد الناصر النظام من أول وجديد ، الجانب العسكرى والسياسى ، وفعلا بدأت الناس تشعر ببدء عملية البناء العسكرى التى يقوم بها عبد الناصر شخصيا بكل جدية وهم يطلبون الآن بدء عملية البناء السياسى أيضا مثل العسكرى . ولكن فى الحقيقة البناء السياسى يختلف عن البناء العسكرى وفى غاية الصعوبة لأنه بناء ضخم ومتنوع ويحوى كل فروع النظام ، فهو يشمل الحكومة ومجلس الأمة والمؤسسات والاتحاد الاشتراكى وأجهزة الإعلام ، كما أن الإصلاح الاقتصاى الذى نبحثه الآن جزء من هذا البناء . وقد سبق أن واجهت دول أخرى مثل ظروفنا وتمكنت من إعادة البناء ، وعلينا أن نستفيد من تجربتها ومن دروس التاريخ . . فمثلا روسيا واجهت هزيمة كبرى أمام الألمان فى الحرب العالمية الثانية ولكنهم بعد ذلك وقفوا على رجلهم وأعادوا البناء إعادة كاملة . . نشوف ماذا عملوا . . ولو أنى شخصيا لا أعرف كيف قاموا بهذا العمل الضخم . .

- عبد الناصر : أقول لك يا أنور ماذا عملوا ؟ كانوا يجتمعون ويستمعون للدراسات والاقتراحات ويضعون قراراتهم على أساسها ولكن عندما تفشل تلك القرارات يحاكمون صاحبها . . فمثلا يقترح عليهم واحد زى الدكتور القيسونى اتخاذ إجراءات اقتصادية معينة ويقول إنها لن تؤثر على زيادة التنمية . . فيوافقون على رأيه وينتظرون آخر السنة

زيادة التنمية . إن لم تزد التنمية فعلا بالقدر المطلوب .. شنقوه .. وأظنك قرأت أن ستالين فى ذلك الوقت شنق حوالى ١٥٠٠ واحد من اعضاء المؤتمر ومجلس الوزراء ومجلس السوفيت .. إيه رأيك يا أنور (ضاحكا) ؟ :

الناشر : سمع عبد الناصر كثيرا عن فترة حكم ستالين ، وخاصة الممارسات الإرهابية ..

- أنور السادات : المهم عند الناس هو أنها تلمس الإصلاح بنفسها .. علما بأنها مستعدة لأن تتحمل أكثر مما تعانى الآن ولكن بشرط .. أن يشوفوا « القدوة » من فوق .. لا أتخيل أن السيد الرئيس نحمله وحده إصلاح الجهاز السياسى كما حدث بالنسبة للإصلاح العسكرى ، يجب ألا نتهرب وعلينا أن نشيل .. المعركة اليوم حياة أو موت .. وإذا كنا عايزين نأخذ إجراءات تسبب حرمانا للشعب .. ما فيش مانع ، ولكن بشرط أن نعيش كلنا ظروف الحرمان .

- الدكتور القيسونى : أنا اشتركت فى الوزارة لأول مرة عام ١٩٥٤ وكان على أساس مبدأ التوسع الاقتصادى ومازلت مؤمنا بذلك المبدأ وملتزما به .. ولكن سبب المشكلة الاقتصادية الآن هو ما حدث من عام ١٩٥٩ حتى الآن ، وذلك بسبب ما يلى :-

أولا : إننا حاولنا أن نعمل حاجات أكثر من طاقتنا ، كما ارتفعت ميزانية القوات المسلحة من ٦٨ مليون جنيه إلى ٢٧٠ مليون جنيه فى الخطة الأولى ، بينما كانت الخطة مبنية على زيادة الخدمات العامة بمقدار ٨ ٪ فقط .. لهذا حدث خلل فى التوازن الاقتصادى ..

ثانيا : توسعنا أيضا فى الخدمات العامة مثل المدارس والمستشفيات بأكثر مما كان مقدرا لها . كذلك توسعنا كثيرا فى تشغيل العمالة .. وبسبب هذا التوسع حدثت زيادة فى أرقام الاستهلاك ، وبالتالى نشأ العجز فى ميزان المدفوعات ، كما حدث نقص فى المدخرات عن الأرقام التى كانت محددة بالخطة بحيث لم تزد عن ١٢٪ بينما قدرناها بـ ٢٠٪ وبالتالى زاد اعتمادنا على الخارج لتمويل مشروعاتنا .

ثالثا : زاد إنتاجنا فعلا فى الخطة الأولى للتنمية (من ٦١ إلى ١٩٦٥) من ٣٥ إلى ٤٠٪ عن سنة الأساس ، وقد أثارت هذه الزيادة إعجاب جميع الاقتصاديين فى العالم ، ولكن لو كنا زدنا إهتمامنا بالكفاية الإنتاجية أيضا لكنا حصلنا على زيادة فى الإنتاج دون زيادة كبيرة فى الميزانية المخصصة للاستثمار .

رابعا : عن قضية فلسطين . . لماذا نتحمل بمفردنا تكاليف الدفاع عن هذه القضية العربية . . مطلوب الآن فى الميزانية تشكيل ثلاث فرق عكسرية إضافية ، وهذه تتكلف مصاريف إنشائية ٦٦ مليون جنيه ومصاريف من ٨ إلى ١٠ ملايين جنيه .

ـ عبد الناصر : انت عايز مساهمة من دول البترول العربية . . يجب ألا تنسى أن المساهمة الاقتصادية التى قدمتها تلك الدول فى مؤتمر الخرطوم لم تكن لمساعدتنا بقدر ما كانت من أجل أن يتحللوا من التهديد بإعلان قطع البترول الذى كان مثارا فى ذلك الوقت .

ـ الدكتور القيسونى : إنى أتحدث عن الوضع بعد إزالة العدوان . . يجب أن تشترك معنا الدول العربية جميعها فى الالتزامات المالية التى تحتاجها قضية فلسطين . .

نقطة أخرى عن الوضع العربى . . لماذا لا ينشأ نظام اقتصادى عربى مشترك كما هو موجود بين دول أوربا الغربية وبين الكتلة الشرقية بغض النظر عن الاختلافات السياسية والاجتماعية الموجودة حاليا بين الدول العربية . . إن ما هو موجود حاليا من مشروعات عربية مشتركة حبر على ورق . . ولم يظهر منها عمليا أى مشروع كامل . .

اصلاح القطاع العام . . لا هدمه

ـ عبد الناصر : (موجها كلامه للدكتور القيسونى) أحب أعلق على المذكرة الاقتصادية التى قدمها أخيرا الدكتور القيسونى . . عايزنا نتخذ إجراءات اقتصادية جديدة علما بأنه سبق أن اقترح زكريا محيى الدين منذ ثلاثة شهور فقط اتخاذ إجراءات أخرى . أى أن كل ثلاثة أشهر نتخذ إجراءات معينة . . غير معقول ، ولا أوافق على هذا الأسلوب من الحكم . . إذا كنتم عايزين تحملوا الناس زيادة جديدة فى الأسعار وفى نفس الوقت تقترحون تثبيت أو خفض الأجور ماذا ستعطون للناس فى مقابل ذلك ؟ وماذا بقى لهم من الأمل فى الحياة . . لو اتخذنا إجراءات اقتصادية ولم نعط الناس شيئا يبقى هذا خطأ كبير . ويبقى وجودنا فى الحكم لا داعى له وتصورنا للمستقبل غطاه الصدأ . . فى هذه الحالة يصبح من الأنفع أن يأتى للحكم أناس آخرون أفضل منا فى تصورهم للمستقبل وفى قدرتهم على حل المشاكل .

أحب أن أوضح لكم حاجة عن أسلوب تفكيرى قبل إصدارى القرار . . الجلسات هنا تسجل تسجيلا كاملا . بالإضافة إلى ما يسجله عبد المجيد فريد كتابة . . بعدها أعيد الاستماع إلى ما قيل بالجلسات وإلى ما أثير من موضوعات . وأتخذ القرار على ضوء المناقشات . . أنا لا أدخل الجلسات وفى ذهنى رأى محدد ومسبق . . مثلا كيف نقرر إقامة مصانع جديدة فى الخطة القادمة ونحن غير قادرين على استغلال مصانعنا الحالية بكل

طاقاتها . . علمت من زكريا أخيراً أن هناك معدات ثلاثة مصانع مازالت موجودة فى صناديقها منذ فترة غير قصيرة ولو أن عزيز صدقى يقول إنها ٢٦ مصنعا وليس ثلاثة مصانع فقط . .

موضوع آخر علينا أن نجد له حلا . . التزامنا السياسى بتشغيل الناس . . وإذا قلتم لى غير ممكن . . يبقى ما فائدتنا وما فائدة وجودنا فى الحكم . . هل من أجل أن نمارس سلطة على الناس فقط ؟

مفروض أننا سياسيون وأن كل تصرفاتنا يحكمها الإطار السياسى . مثلا ماحدث فى وزارة العمال التى تحكم بريطانيا فى الوقت الحاضر . . صحيح اتخذت إجراءات اقتصادية فى الفترة الأخيرة وخفضت سعر الاسترلينى مرتين متتاليتين ، ولكن بحسابات سياسية دقيقة وهى أنه باق على فترة حكمها وإجراء الانتخابات الجديدة ثلاث سنوات ، وأن الاجراءات الاقتصادية الأخيرة وتخفيض الاسترلينى الحالى سيؤثر بنتائج اقتصادية إيجابية للشعب البريطانى قبل نهاية السنوات الثلاث . . هذا تحرك اقتصادى سياسى محسوب .

أشار البعض فى مقترحاته إلى تحرير وحدات القطاع العام . . أنتم الوزراء المشرفون هل مؤسسات القطاع العام وأنتم القادرون على التحرير المطلوب أو أن نغير النظام كله إلى نظام مماثل للمؤسسة الاقتصادية الواحدة التى كانت موجودة فى أول الثورة ؟ أما أننا نهاجم نظام القطاع العام لكى ندمره فهو أمر غير مقبول سياسيا . . وزى ما بيقول صلاح جاهين فى رسم له بالأهرام . . الواحد لما جلابيته تتوسخ يغلسها . . مش يحرقها . . ؟

ـ زكريا محيى الدين : السيد الرئيس أثار الآن عدة موضوعات هامة يجب أن نبحثها تفصيلا . . وأن تكون إطار عملنا وتفكيرنا . . وفى تقديرى أن أى خلل فى التوازن الاقتصادى له أثر كبير على التوازن السياسى . .

وفى رأيى بالنسبة لإعادة النظر فى الإطار التنظيمى لمؤسسات ووحدات القطاع العام ، علينا أن نتجنب فى النظام الجديد تسلسل المسئوليات المعمول بها فى الأجهزة الحكومية ، وإلا ستستمر التعقيدات وتزداد الوحدات تدهورا . . ولهذا أرى أن يكتفى الوزراء بمسئولية المتابعة المستمرة دون التدخل التفصيلى فى مسئوليات الوحدات .

ـ عبد الناصر : أقترح ايضا أن ندرس التجربة اليوغوسلافية فى الإصلاح الاقتصادى الشامل التى قامت هناك أخيراً ، كما أرجو أن لا تقتصر خطة الإصلاح على جوانب معينة بل يجب أن تكون شاملة .

ـ عزيز صدقى : الوضع الحالى يعتبر وضعا مؤقتا ، ولهذا يجب ألا نحيد عن مبادئنا فى التنمية فى الخطة الخمسية الأولى ، والعائد من السد العالى ومن حقول البترول الجديدة . . سيزيد من قدراتنا على الانطلاق فى الخطة القادمة .

من رأيى أن مذكرة الدكتور القيسونى أخذت جانبا واضحا من التحفظ ، ولا بد من معالجة الموقف الاقتصادى الحالى بحيث ننطلق ونستخدم كافة الإمكانيات المتوفرة لدينا مثل تشغيل مشروعاتنا الحالية بأقصى قدرة إنتاجية ، استخدام القروض المتاحة لنا من دول الكتلة الشرقية ، والتوسع فى المشروعات العربية المشتركة . .

ـ لبيب شقير : العامل البشرى عامل أساسى لنجاح أو فشل وحدات القطاع العام ، وقد لوحظ أن وجود شخص سياسى على قمة الوحدة الإنتاجية يسهل العمل كثيراً ، ويزيد الإنتاج ويصبح التفاهم مع القاعدة العمالية أمرا يسيراً بعكس الحالات التى بها قيادات فنية فقط ، فبالرغم من مستواها الفنى العالى فإنها فاشلة فى إدارة الوحدة وفى تحريك العاملين بأقصى جهد لهم ، وبالتالى يتأثر الإنتاج بنقطة أخرى يجب أن لا ننساها وهى التأثير النفسى الذى يتعرض له القطاع العام . . إذا ما استمرت حملات النقد عليه .

أما عن التوسع فى الاستثمارات الأجنبية ، الذى يدعو إليه الدكتور القيسونى فإنى أعارض رأيه فى هذا الموضوع . . لأن احتمالات مساهمة الاستثمارات الأجنبية الغربية فى دولة تطبق النظام الاشتراكى أمر مشكوك فيه إلى حد كبير . واستمرت اقتراحات الوزراء ومناقشتها واستمر تشجيع عبد الناصر لهم ليشتركوا فى تصور المستقبل بكل صراحة ووضوح . . حتى اقتربت عقارب الساعة من الواحدة صباحا ولم ينته الحوار . . فأجلت الجلسة إلى اليوم التالى ٢٧ ديسمبر . .

الجلسة الثالثة ٢٧ ديسمبر ١٩٦٧

بدأت الجلسة الثالثة لبحث الإصلاح المطلوب للنظام ، مساء اليوم التالى للجلسة السابقة أى يوم الأربعاء ٢٧ ديسمبر ١٩٦٧ ، فى نفس القاعة بالدور الثالث عشر ـ بمبنى الأتحاد الاشتراكى على كورنيش النيل ، وحضر الاجتماع نفس الحاضرين أى أعضاء اللجنة التنفيذية العليا والوزراء التسعة .

اشترك الوزراء فى الحوار والتعرض لعيوب النظام فى الجلسة الثانية ، بعد صمت طويل منهم فى الجلسة الأولى ، شجعهم عبد الناصر فى الجلسة الأخيرة ليقولوا ما فى قلوبهم وما يرددونه فى جلساتهم الخاصة . ونما هذا الإحساس بينهم واستعد كل منهم ليدلى بالمزيد

فى الجلسة الثالثة . . بدأت الجلسة . . وبدأت الزهور تتفتح . . وتعبر عن شكلها ولونها . . وكان أولها الدكتور سيد مرعى .

قطاع جديد مشترك

سيد مرعى : أعرف دائما أن كل نظام حكم يعتمد على حزب ما ، يتولى مسئولية الربط السياسى بين القاعدة الجماهيرية والقيادة ، وكان المفروض أن يكون الاتحاد الاشتراكى ومجلس الأمة هما حلقة الربط بين مجموع الشعب والقيادة السياسية ، ولكن فى رأيى أن هناك سلبية واضحة بين القاعدة والاتحاد الاشتراكى ومجلس الأمة الحالى ، كذلك هناك ثغرات وخلافات واضحة بين مجلس الأمة ، والتنظيم السياسى ، والاتحاد الاشتراكى بحيث أعطوا الفرصة للآخرين من اليسار المتطرف واليمين ليستغلوا الموقف والخلافات لصالحهما . لذلك يجب التحرك العاجل من أجل الربط بين هاتين المؤسستين السياسيتين ، ومن أجل تحديد واضح لهما ولمسئوليات الاتحاد الاشتراكى وخاصة أن صور الصراع ستزداد عنفا ووضوحا بعد تشكيل اللجنة المركزية .

أما بالنسبة للوضع الاقتصادى ومظاهر التضخم المشار إليها فى المذكرة الاقتصادية المقدمة فإن رأيى :-

أولاً : بالنسبة لقطاع الزراعة : أرى ضرورة تغيير طبيعة الاستغلال الزراعى التى اتبعناها منذ الثورة حتى الآن ، حيث لا أتصور أن نقوم بتوزيع وتفتيت الأراضى الجديدة التى تم إصلاحها على ملكيات صغيرة ، وأقترح أن تشكل لها شركات زراعية مع إعطاء أهمية كبرى للتصنيع الزراعى . . إن تحويل الاستزراع إلى نوع من التصنيع الزراعى يحقق لنا عائدا مناسبا يعوضنا - نسبيا - عما يتحمله الاستزراع من تكاليف باهظة .

ثانيا : مازالت عملية استثمار مياه السد العالى وكهربائه عاجزة وغير مستغلة استغلالا كافيا ولابد من التوسع فيها .

ثالثا : لا أعتقد أن صورة شركات القطاع العام مظلمة كما عبر عنها بعض الزملاء ولكن المشكلة أن بعض شركاته فى الوقت الحاضر تنقصها بعض الإمكانيات ، وكذلك لا أتوقع أى تجارب من تشجيع وتنشيط القطاع الخاص فى إطار ما أثير بشأنه فى الجلسات السابقة . . ولذلك أقترح أن ينشأ قطاع جديد بين القطاع العام والقطاع الخاص يسمى (القطاع المشترك) ويتمشى هذا الإجراء إلى حد ما مع ما حدث من

تطوير اقتصادى فى النظام اليوغوسلافى ، وكذلك مع ما تم من تطوير جديد فى النظام الزراعى ببولندا . .

وللمزيد من التوضيح لاقتراحى . . فإنى أقصد بالقطاع المشترك ذلك القطاع الذى يشارك فيه رأسمال الحكومة ورأسمال القطاع الخاص ، أو هيئة مشاريع مشتركة .
أما عن «أمل الناس» الذى أشار إليه الرئيس فى حديثه بالجلسة السابقة فإنى شخصيا أتصور أن بعض هذه الآمال فيما يختص بالفلاحين تتلخص فيما يلى :-

أولا : مشاركة الفلاحين فى الاستزراع .
ثانيا : تحقيق أمل كل فلاح فى امتلاك أرض زراعية .

ختاما لاقتراحاتى ، أود أن أعود إلى «القطاع المشترك» الذى سبق أن أشرت إليه من حيث التطبيق العملى فى الصناعة مثلا لا نقوم بتطبيقه على مصانع المحلة الكبرى أو مصانع كفر الدوار ، ولكن يمكن تطبيقه على المصانع الجديدة مثل مصنع شبين الكوم ومصنع ميت غمر ، كذلك يمكن تطبيقه على مشروعات السياحة وما يمثلها من مشروعات . . إن خلق مثل هذا القطاع سيخلق التنافس ، وكذلك الحافز المستمر الذى ننشده جميعا من أجل إصلاح اقتصادنا .

كيــف نقيمه

ــ عبد الناصر : لدى بعض التساؤلات عن القطاع الجديد الذى يقترحه سيد مرعى . أنا أفهم أنه يمكن فى هذا القطاع لعدد من الناس أن يقيموا مشروعاً ، على أن تكون الملكية ليست فردية ، وإنما للعمال ، وأن تكون الإدارة فى هذه الحالة « إدارة ذاتية »
إن رأسمالية الدولة التى نسير عليها فى الوقت الحاضر هى أول مرحلة من مراحل الاشتراكية وعندما يحدث فى هذه المرحلة أن تعجز الدولة عن القيام بمتابعة المشاريع والوحدات الإنتاجية ، عليها فى هذه الحالة أن تطور أساليب المتابعة إلى أساليب أكثر فعالية وأكثر نجاحاً ، أما أن ننتقل الآن إلى مرحلة « الإدارة الذاتية » فهذا يحتاج منا إلى تفكير عميق . .
إنى أعتقد أن الهدف النهائى من تطبيق الشيوعية أن تختفى سلطة الحكومة وتحل محلها (الإدارة الذاتية) سواء فى القرية أو المصنع وفى كافة المشاريع والأنشطة . . فهل وصلنا الآن إلى مرحلة التطبيق الاشتراكى بحيث يمكننا تطبيق الإدارة الذاتية . . ؟ بينما نشكو على جميع المستويات من تدخل العمال فى أعمال الإشراف والإدارة ، هل نحن مستعدون لإعطاء العمال حق الإدارة الذاتية . . ؟

ــ سيد مرعى : فى تصورى أننا نبدأ بالنظام التعاونى وبداهة لا يمكننا أن نقفز فى

الوقت الحاضر إلى مرحلة (الإدارة الذاتية) كما فى الدول الصديقة . . مثل التطوير الذى جرى فى القطاع الزراعى اليوغسلافى ، والتطوير الذى شمل مزارع بولندا ، وحتى التطوير الذى طبق فى الاتحاد السوفيتى .

علينا أن نعمل على أن تكون الحوافز مستمرة لكى تغطى آمال الناس المستمرة ، ولو أصبحت الحوافز محدودة فلن تحقق الهدف المطلوب منها ، إن السلبية التى نعانى منها فى الوقت الحاضر ، هى سلبية العمال والفلاحين ، ولهذا أرى أن الحل الوحيد لمواجهة هذه السلبية هو مواجهتها المستمرة . .

كما أكرر بالنسبة للقطاع الزراعى أهمية التوسع فى التصنيع الزراعى ، لأنه تصنيع لا يخيب أبداً ، ولا سيما أننا أهملناه كثيراً بحيث لم نتحرك فيه إيجابياً باستثناء تصنيع قصب السكر .

ــ عبد الناصر : آسف لأنى لم أفهم كثيراً ما يقصده سيد مرعى عن « القطاع المشترك » وخاصة بالنسبة لتفاصيله من حيث التطبيق ، وأعتقد أننا لن نغير نظامنا من حيث الزراعة أو من حيث القطاع العام ، لأنى أعتقد أن التطبيق العملى لكليهما لم يأخذ الوقت الكافى لكى نعلن حكمنا . . بالنجاح أو الفشل . ولكن ممكن أن نقوم الآن بعمليات إصلاح أو تحسين لهما ، أما التغيير الشامل لهذين القطاعين فمن الممكن التفكير فيه على ضوء دراسة نظرية وعملية عام ١٩٧٠ ، وحينئذ يمكن تغييره إن لزم الأمر ، أما بالنسبة لقطاع الحرفيين والتعاونيين فمن الأسهل والأكسب أن نتركهم الآن على أساس أنهم قطاع خاص بشرط أن نسعى لنقدم لهم التيسيرات الممكنة .

ــ عزيز صدقى : أعتقد أن الأنسب لنا فيما يخص « القطاع المشترك » فى الوقت الحاضر هو « التعاونيات » وخاصة لو يسرنا لها التسهيلات اللازمة للإنتاج ، ويعتبر مشروع التعاونيات للصناعات الموجودة بالهند مثالا ناجحا وصالحا للأخذ به فى مجتمعنا ، أما عن « القطاع المشترك » فلنا تجربة أود أن أذكرها لسيد مرعى وهى تجربة مصنع (سورناجا) للخزف والصينى فقد سمحنا للعمال بشراء أسهم تمليك ، ولكن بعد فترة تبين لنا أن أغلبهم باعوا أنصبتهم من الأسهم لغير العاملين ، وتدهور إنتاج المصنع ، وبعد أن استلم القطاع العام المصنع ، زاد إنتاجه زيادة ملحوظة وتوسع أفقياً ورأسياً وأصبح من المشاريع الناجحة أما عن انتعاش القطاع الخاص فأنا لست مع سيد مرعى فى أنه لا يتوقع أن يكون تجاوبه إيجابياً ، لأننا لو يسرنا له بعض الإمكانيات وسمحنا له بالدخول فى المناقصات الحكومية . . فيستحرك كثيراً .

أما عن مستوى الإنتاج بمصانع القطاع العام فالسبب يرجع إلى أننا حولنا العمال إلى موظفى حكومة تقليديين ، لهذا يجب أن نعمل فوراً على تحرير عمال المصانع من القيود المالية واللوائح الحكومية ، من أجل أن ينطلقوا فى الإنتاج فمثلاً ليس من المعقول أن نمتنع عن زيادة أجر العامل وإعطائه حافزاً مستمراً . . لأنه وصل إلى الحد الأعلى لمربوط درجته . . سبب غير منطقى . أما عن الأمثلة التى قيلت عن زيادة الإنتاج عن طريق مجالس الإنتاج أوالعمل الاشتراكى فقط ، فإنى أرى أن نقيم هذه الأمثلة تقييماً دقيقاً لأنى أعتقد أن نجاحها كان مظهرياً فقط ، كذلك عن الأمثلة التى قيلت عن استخدام العوادم ببعض المصانع . . فإنى أعتقد أنه كان نجاحاً مظهرياً أيضاً .

الناشر : يقصد الدكتور عزيز صدقى بهذا الحديث بعض التجارب العملية لزيادة الإنتاج بمصانع منطقتى حلوان والقليوبية نتيجة لعمل مكثف قامت به قيادات وأعضاء منظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكى فى تلك المناطق ، وكذلك تجارب أخرى قامت بها منظمة الشباب بالتعاون مع الجماعات القيادية للاتحاد الاشتراكى فى مصانع بمنطقتى شمال وجنوب القاهرة لاستخدام العوادم استخداماً مفيداً ومنتجاً ، وقد كانت نتائج هذه التجارب الأولية ناجحة فى ذلك الوقت ، ولكن كان من البديهى وفى إطار الصراع الذى كان موجوداً بين الجهاز السياسى والجهاز التنفيذى ألا يستقبلها رجال الإدارة بتلك المصانع ، وكذا بوزارة الصناعة استقبالاً حسناً ، لأنها جاءت عن طريق شباب وقيادات التنظيم السياسى وليس عن طريقهم التقليدى .

ـ لبيب شقير : رأيى أن معالجة القطاع الخاص تختلف حسب نوعه ، ولكن أسلوبه فى المعالجة . . فى القطاع الزراعى أرى أن التعاونيات . . .

ونكتفى بهذا القدر من تلك « الأوراق السرية » فكلها تجرى على هذه الوتيرة : ناس يتكلمون دون أن تكون لديهم خطط أو مناهج ، وآراء تلقى على المائدة لتتلاشى بعد حين ، ويطول المجلس أو يقصر ، ولكن النتيجة قليلة جداً ، وذلك هو المنتظر ، فقد كانت أمام رجال الثورة فرص ذهبية للعمل فأضاعوها ، وكان لديهم فى هذا البلد ملكات يعتد بها فقضوا عليها أو احتقروها وربما عاقبوا أصحابها .

وهم عندما تولوا أمر هذه الأمة كانت خزائنها عامرة بالمال ، وكان إطار الشرعية القانونية قائماً يصون المجتمع من التدهور وذلك إذا صرفنا النظر عن وزراء عصر ما قبل الثورة ، وكان فيهم رجال كثيرون أهل علم وفضل وخبرة ، ولكن فرص العمل أمامهم كانت قليلة جداً بسبب قصر أعمار الوزارات ، فما تكاد الوزارة تتألف ولا يكاد الوزراء

يستقرون فى مكاتبهم حتى تبدأ المناورات والقلاقل ، لأن لعبة تنقيل الحكم بين رجال الأقلية الذين لا يؤيدهم الشعب جعلت أى لون من ألوان الاستقرار الحقيقى مستحيلاً ، وكان ذلك قطعاً فى ذهن ممثلى السلطان والانجليز الذين كانوا يسمون سفراء وهم فى الواقع حكام بأمرهم ورجل مثل السير مايلز لامبسون عمل فى مصر سنة فألفت وسقطت فيها وزارة ، ومثل هذا لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً ، والغرض منه ألا يستطيع هذا البلد بناء شيء ، خاصة وأن الملك فؤاد كان قد وضع قواعد للحكم شريرة لا يعود منها على الوطن خير ، فهو نفسه كان رجلاً قليل العلم ، ولم يكن يجيد لغة واحدة ، لا العربية ولا التركية أو الفرنسية أو الإيطالية وكان يحكم مصر دون أى انتساب قلبى إليها ، وكل همه موجه إلى التمتع بلقب الملكية الذى حصل عليه نتيجة لتضحيات هذا الشعب ، والظهور بأبهة كاذبة ، وتوجيه رجال خاصته الملكية إلى الاستكثار من العقارات والأموال ، ومحاولة الظهور أمام الأوروبيين بأنه الرجل المتحضر الوحيد فى ذلك البلد « التعيس من أصحاب الجلاليب الزرقاء » ، كما كان يحلو له أن يقول فى أحاديثه مع من كان يلقاهم من الأجانب .

ومن ناحية أخرى فقد كان ممثلو بريطانيا فى مصر من مستوى إنسانى وثقافى وحضارى حقيقى ، وربما كان أجدرهم بالاحترام السير إيفلين بيرنج (لورد كرومر) فقد كان هذا على الأقل رجلاً استعمارياً يدير المستعمرة المصرية لحساب بلاده ، ويراوغ الدول ويمنح رعاياها ما يرى من المنح والامتيازات من أموال مصر حتى تسكت عن منافسة بريطانيا . ولكنه كان يدير « المزرعة المصرية » فتزداد المحاصيل دون أن يعطى الفلاحين إلا مايقيم الأود ، وهم مثل سوائم المزرعة ، يعطف صاحبها عليها ويطعمها ، وإذا هو فعل ، فلكى يحلبها أو يذبحها فى النهاية ، ومن هذه الناحية استطاع كرومر أن ينشيء مشروعات رى وطرق وضبط الإدارة وشئون المال ، وقد تمكن من تلافى الكوارث المالية ، وسداد أقساط الديون بل استوفى سداد بعضها ، واختار موظفين أكفاء من الانجليز وغيرهم من الأوربيين لإدارة السكك الحديدية والجمارك وشئون الرى ، والوزراء فى نظره كانوا أختاماً توضع على مايصدره هو من قرارات وأوامر ، حتى الخديوى كان فى نظره مجرد موظف فى الحكومة البريطانية . والخديويان اللذان عمل معهما وهما توفيق وعباس حلمى كانا يعترفان بذلك ويتصرفان على هذا النحو ، وواحد منهما وهو توفيق - كان فى نظره غبيا لايفهم شيئاً ، والثانى - وهو عباس حلمى - كان يراه غلاماً غراً ورجلاً لصاً ، وكان يواجهه بهذه الحقيقة دون اكتراث ، وعباس حلمى كان يعرف أنه لص ولا يستحى من سرقة أموال الحكومة وأراضيها دون حياء ، ولكى يحد كرومر من سرقاته أنشأ وزارة الأوقاف واشترط أن يكون وزيرها رجلاً مسئولاً عنها أمامه فى مجلس الوزراء .

وبعد كرومر يجيء الدون جورست وهو رجل حقير أراد أن يوقع البلاد فى مأساة النزاع الطائفى ، ثم جاء بعده كيتشنر وكان عسكريا بريطانيا متكبراً متجبراً لا يكاد ينظر فى وجوه الناس ، وخلفه اللنبى ، جاء فى أعقاب كرومر ، واكتفى من الدنيا بنصره الرخيص على الأتراك ، بمعاونة العرب ، ولقب لورد أوف مجرد الذى حصل عليه ، وبعد ذلك جاء جورج لويد ، وهو ارستقراطى بريطانى زائف سطحى مغرور ومخرب ومن المؤسف أن رجالات مصر فى أيامه سمحوا له بأن يلعب بهم لعباً فى مقابل إعطائهم الوزارات ورئاسة الوزراء ثم طردهم منها ، وخلفه فيفيل هندسون وكان دبلوماسياً تقليديا تحول إلى استعمارى ، ثار على طريقة اللعب بالوزارات ورؤسائها ، ثم أتى السير مايلز لامبسون الذى أصبح فيما بعد اللورد كيلرن ، وهو رجل سوقى لا يستحى وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يتصرف فى غباء ، وتصرفه فى إسناد الوزارة إلى مصطفى النحاس فى ٤ فبراير تصرف سخيف كان يمكن تلافيه بإمهال النحاس باشا لإجراء انتخابات تتم فى أسبوع وتتولى الوزارة تولية قانونية شكلاً ، ولم يكن هناك أى معنى لهذه المظاهرة العسكرية والذهاب بالدبابات إلى قصر عابدين لإرهاب صبى كان لا ينقصه رعب ، ولكنه بهذا التصرف أعطانا فرصة نادرة لنزنه بوزنه الحقيقى ، وقد أساء إلى كل السياسيين المصريين - وفى مقدمتهم مصطفى النحاس ، وعاونه فى ذلك رجال من أمثال أحمد محمد حسنين وأمين عثمان وغيرهم ممن لا يتسع المقام هنا لذكرهم .

ورغم هذه الخلخلة السياسية المستمرة كانت البلاد عامرة بالرجال ، وإذا كان الوزراء متغيرين فقد كان هناك وكلاء وزارات ، ومديرون محترمون استطاعوا أن يسيروا بالأمور سيراً طبيعياً ، والإدارة المصرية فى عصر ماقبل الثورة لم يدخلها خلل كثير وإن كانت تشكو من جمود كثير جدا .

ولكن البلد على الجملة كانت بخير : كانت الأسعار مستقرة والأرزاق متوفرة ، والفقراء المعدمون كانوا كثيرين ولكنهم زادوا فقراً وإعداماً بعد الثورة ، لأن رجال الثورة استخدموا العمال استخداماً سيئا وإجراءات التأميم والمصادرة والحراسة أفسدت النظام العام فى شركات كانت تعمل وتكسب ، حقاً إن البلاد كلها كانت فى حاجة إلى تغيير حاسم للنظام كله ، تغيير يذهب بالقصر والانجليز ويصحح مسار الديمقراطية ويضبط الإدارة ويتجه بالبلاد كلها وجهة جديدة فى ظل استقلال حقيقى .

وقد حققت الثورة هذا الاستقلال ولكنها أساءت استعماله . ومصر أصبحت مستقلة ولكن المواطن المصرى عرف الخوف والهوان والذل والظلم على نحو لم يعرفه أيام الاحتلال .

وهذه القطعة التى أوردتها من مناقشات عبد الناصر مع رجاله ترينا معظم السبب فى ذلك ، فإن الرجال الذين اجتمعوا بعبد الناصر كان فيهم شخصيات محترمة جداً مثل محمود يونس وعبد المنعم القيسونى ، ولكن ما يكاد الواحد منهم يفتح فمه حتى يستخف به عبد الناصر ويرد عليه مؤنباً ، لأنه فى الحقيقة كان يريد أولاً وقبل كل شىء أن يظل هو على حاله السيد الأعلى لهذا البلد ولا معقب على كلامه أو تصرفاته ، ثم يطالب الناس بعد ذلك بإبداء الآراء ! ومثله فى ذلك مثل رجل وقف فى الطريق فسده كله بحجمه ثم قال للناس : الآن نظموا المرور وحذار أن يمس واحد منكم طرف ردائى .

* * *

وفيما يلى أورد فقرات من مقال آخر كتبه الاستاذ الصحفى الأديب صلاح منتصر يلقى فيه أضواء أكثر على شخصية عبد الناصر وطريقته فى العمل ، نشرها فى الأهرام بتاريخ ١٩٨٣/٨/٢٥ ، وأنا أعتذر له عن نقل هذه الفقرات الكثيرة من كلامه الجيد ، ولكن ماحيلتى وليس أمامى مراجع أو وثائق أخرى أستقى منها وأعول عليها ؟

قال بعد أن تحدث عن أولئك الذين يحاولون أن يبرئوا عبد الناصر من كل ماوقع فيه من أخطاء :

أخطاء عبد الناصر لم يكن - فى رأيهم - يعرف بها وكانت الظروف أو الآخرون وحدهم هم المسئولين عنها ، وانتصارات أنور السادات قام بها غيره أو ساعدته الظروف عليها وكان وحده مسئولاً عن أخطاء عهده !

وهى عملية امتهان لأى عقل يحترم نفسه . واهانة أكبر للحاكم الذى يحاولون تبرئته بدعوى أنه لم يكن يعرف خصوصاً إذا كان هذا الحاكم الذى يقولون أنه لم يكن يعرف فى وزن عبد الناصر أو أنور السادات ، وقد كانت للسادات أجهزته الخاصة يستطيع بها المعرفة إذا أراد ، وليس الذنب ذنبنا أنه لم يعرف . وكانت لعبد الناصر أجهزته العديدة التى لم يكن يغمض عينه ليلة دون أن يقرأ تفاصيل التفاصيل عن كل ماجمعته .

لا أستطيع بأية صورة من الصور إذن قبول منطق من يقول إن عبد الناصر الذى حكم ١٨ سنة وليس ١٨ شهراً لم يكن يعرف بما يجرى من عمليات تعذيب ، ولا ما كان يجرى من مظالم الحراسات ، ولا ما وقع من انتهاكات للحريات ، أو ما جرى فى عصره للقضاء أو الصحافة ، أو ما حدث فى القطاع العام من انحرافات . .

وبنفس المنطق فإننى لا أستطيع أبدا بأية صورة من الصور قبول من يقول إن أنور السادات الذى حكم ١١ عاماً وليس ١١ أسبوعاً لم يكن يعرف بما وقع فى عصره من

تجاوزات أو انحرافات سواء من بين أفراد أسرته أو من آخرين اعترفوا من « سبيل » الانفتاح .

الحاكم الذى لم يكن يعرف لا يصح أن يكون حاكماً ، ولا يجوز احتراماً لعقولنا قبول أعذار جهله ، والأصح من هذا كله إدراك أنهم هم الذين كانوا يعرفون وفى أيديهم وتحت سلطاتهم وسائل وأجهزة العلم والمعرفة ، بينما الشعب - بكل الأسف - هو الذى لم يكن حقيقة يعرف وكان فى مرحلة خطيرة من خداع النفس والخديعة . . وعندما بدأنا نعرف كانت متغيرات كثيرة أشبه بالكوارث قد وقعت .

لقد عرفنا ، ولكن بعد أن نشرت محاضر اجتماع الرئيس عبد الناصر مع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا منذ أسابيع قليلة . وهى محاضر جمعها عبد المجيد فريد سكرتير رياسة الجمهورية فى كتاب ونشرتها مجلة الوادى من قبل وأعادت جريدة الأهالى نشرها أخيراً على أساس أنها صفحات من أمجاد عبد الناصر - أقول عرفنا من هذه المحاضر أن أعضاء هذه اللجنة التنفيذية العليا التى كانت تمثل أكبر هيئة سياسية فى مصر لم يتكلموا عندما كان يجب الكلام وأن أعضاءها السبعة عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين ، وأنور السادات ، وحسين الشافعى ، وعلى صبرى ، وصدقى سليمان ، كانوا جميعاً يخافون قول الحقيقة !

وإذا كانت أعلى هيئة حاكمة تخاف - وهى بالقطع تعرف ممن تخاف ولماذا تخاف - فكيف يكون حال الذين فى قاع درجات السلم وكيف كانت مشاعرنا إذا نحن كنا قد فتحنا أفواهنا ؟ .

مع ذلك إنصافاً للحق فلقد تكلم البعض أو حاول ، وكان منهم على سبيل المثال كمال الدين حسين الذى هزته الأهوال التى كانت تجرى للإخوان المسلمين عندما قبض على ٢٤ ألفاً منهم عام ٦٥ على رأسهم الشهيد سيد قطب الذى أعدم بتهمة تدبير انقلاب ضد نظام الحكم . . هزت كمال الدين حسين سياط العذاب التى تعرض لها هؤلاء الإخوان المسلون فكتب إلى عبد الناصر رسالة قصيرة عنوانها « اتق الله » وفى نفس اليوم الذى كان عبد الناصر يحتفل فيه بعيد زواج ابنته الكبرى هدى تلقى كمال الدين حسين رداً على رسالته فى صورة أمر بالاعتقال فى استراحة بالهرم ، أحيطت بالأسلاك والحراسة وماتت زوجته وهو داخل هذه الاستراحة لا يستطيع أن يخرج لوداع جثمانها !

لقد عرفنا - ومن خطاب ألقاه عبد الناصر أمام مجلس الأمة يوم ٢٣ نوفمبر ٦٧ - أننا فى ساعات حرب يونيو القليلة خسرنا ٨٠ فى المائة من معداتنا الحربية ، وأننا فى خلال هذه

الأيام الكئيبة المفجعة فقدنا ما هو أغلى وأفدح : ١٠ آلاف جندى قتيل ، ١٥٠٠ ضابط شهيد ، ٥٠٠٠ جندى أسير ، ٥٠٠ ضابط أسير !!

لقد عرفنا ومن نفس المحاضر التى نشرتها جريدة الأهالى لاجتماع جمال عبد الناصر مع أعضاء اللجنة العليا أن عبد الناصر - بعد الهزيمة التى فقدت فيها مصر كل هذا الذى فقدته من شباب وذخيرة وكرامة بعد ذلك - يقول وبنص كلامه فى المحضر : قابلت عبد الحكيم وحاولت إقناعه دون جدوى بأنه ليس منطقياً أن يبقى بعد الهزيمة العسكرية قائداً عاماً ويكفى أن يكون نائباً أول لرئيس الجمهورية ولكنه رفض كلامى وسافر غضبان إلى بلدته فى المنيا !!

إلى هذا الحد يصل الأمر بالرئيس عبد الناصر فى محاولة إقناع قائد الهزيمة بترك منصبه العسكرى والاكتفاء بمنصب نائب رئيس الجمهورية . . ولو فعلها عبد الحكيم وقبل العرض لكان ربما حتى اليوم حاكماً لمصر !

إن الذى أصبح اليوم معروفاً - ولكن بعد أن حدث ما حدث - أن جمال عبد الناصر كان هو الذى اختار عبد الحكيم عامر ليكون القائد العام للجيش لأسباب أمنية بحتة لا علاقة لها بالعسكرية أو الحرب أو قدرات الدفاع . . كان عبد الحكيم هو أقرب الجميع إلى قلب عبد الناصر (كان عبد الناصر يحمل مشاعر مميزة لعبد الحكيم وخالد محيى الدين وقد أطلق اسميهما على ولديه) ، وخوفاً من ضباط مجلس قيادة الثورة أنفسهم اختار عبد الناصر عبد الحكيم لقيادة الجيش ليضمن به نزع أية أظافر يمكن أن تطول لزملائه الذين اشتركوا معه فى العمل السرى تحت الأرض طوال زمالة الضباط الأحرار .

ولقد وضحت قدرات عبد الحكيم عامر العسكرية منذ حرب ٥٦ التى انتهت بهزيمة عسكرية لها مبرراتها ولكن عبد الناصر حولها إلى كسب سياسى .

ومنذ ذلك التاريخ فكر عبد الناصر - كما يقول الذين كانوا بالقرب منه - فى التخلص من عبد الحكيم ٣ مرات :

ـ الأولى كانت بعد حرب ٥٦ ولكنه خشى أن يقلب عزل عبد الحكيم فى ذلك الوقت النصر السياسى الذى كان الحديث عنه سائداً إلى هزيمة أو ما يشبهها . . بالإضافة إلى أن عبد الناصر كان - على حد قول الفريق محمد فوزى فى مذكراته - فى حاجة إلى عبد الحكيم فى ذلك الوقت للتعاون معه فى التخلص من بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة القدامى .

ـ المرة الثانية وكانت فى أكتوبر بعد عملية الانفصال التى جرت بصورة مهينة للمشير

الذى كان حاكما لسوريا فى ذلك الوقت ، وتم الانقلاب عليه وتخطيط عملية الانفصال من داخل مكتبه وبترتيب قام فيه عبد الكريم النحلاوى الذى كان مديراً لمكتب المشير بإبعاد الضباط الوحدويين من مواقعهم إلى أماكن بعيدة .

وبعد عودة المشير وتكشف ما جرى منه بله فكر عبد الناصر فى إبعاده ، ولكنه خوفاً من زيادة آلام جرح الانفصال الذى كان قد أصاب عبد الناصر نفسه عدل عن ذلك حتى لا يستغلها الذين كانوا يهاجمون عبد الناصر من العرب ويحسبونها عليه . . وهكذا فإنه أمام كبريائه وخوفاً على سمعته فى العالم العربى رفض إبعاده .

وكان الأغرب من كل ذلك أن عبد الحكيم عامر الذى كان لابد وقد أحس بكل هذا قد راح على العكس ينظم نفسه بحيث أصبح منذ عام ١٩٦٢ هو صاحب الكلمة الأولى فى الجيش قبل عبد الناصر ، وقد حاول عبد الناصر قطع الطريق على عبد الحكيم عن طريق تشكيل مجلس أطلق عليه اسم مجلس الرياسة ، وكان مفروضاً أن يقوم هذا المجلس بالتصديق على تولى الوظائف العسكرية الرئيسية بدلا من الطريقة السابقة التى كان يتم فيها التصديق على هذه القرارات بقرار فردى من المشير عامر .

وعلى حد قول محاضر الجلسات التى عقدها الرئيس عبد الناصر مع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا - وهى المحاضر التى نشرتها صحيفة الأهالى والتى من المفروض أنها لا تبرز إلا الجانب المضىء والمشرق من فكر وعمل عبد الناصر - فإن عبد الحكيم عامر أجهض هذه العملية وانتهى الأمر بتسليم عبد الناصر بمطلب عبد الحكيم عامر أن يكون بصفته القائد العام للقوات المسلحة صاحب الحق الوحيد فى تعيين القيادات العسكرية على كافة المستويات لا يشاركه أحد . كما استسلم عبد الناصر لمطلب آخر لم يعلن عنه وقتئذ وهو أن يمتنع عن الاتصال داخل الجيش عن طريق بعض معاونيه الذين كانوا أصلاً ضباطاً فى القوات المسلحة بحيث يصبح مدخله الوحيد للقوات المسلحة باب القائد العام عبد الحكيم عامر ! (هذه العلامة للتعجب منقولة أيضاً من جريدة الأهالى) ومنذ تلك اللحظة فقد عبد الناصر الاتصال بالقوات المسلحة ، كما فقد التعرف الحقيقى على ما يدور داخلها إلا بالقدر أو الشكل الذى يعرضه المشير عبد الحكيم عامر ! (هذه العلامة للتعجب لم تنشرها الأهالى . ولكننى لم أستطع مقاومة القلم فى وضعها) .

ولو عدنا إلى الأحداث التى جرت فى ذلك الوقت لوجدنا أن كل الذى استطاعه عبد الناصر بعد أن تغلب عليه عبد الحكيم عامر هو أن يعين على صبرى الذى لم يكن على وفاق مع عبد الحكيم ، رئيساً للوزارة . .

ولكن حتى هذه لم تدم طويلاً ، فقد نجح عبد الحكيم بعد ذلك فى التخلص من على صبرى وبعد زكريا محيى الدين الذى خلف على صبرى رئيساً للوزراء ، تم تعيين صدقى سليمان فى هذا المنصب ، وكان محسوباً على المشير عامر وظل فى منصبه إلى أن جرت هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

ولكن الأغرب من ذلك أن لعبة القوى تحركت اتجاها آخر ، فعلى صبرى أصبح مسئولا أمام عبد الناصر عن الاتحاد الاشتراكى الذى يمثل التنظيم السياسى وشمس بدران الذى عين وزيرا للحربية أصبح مسئولا أمام عبد الحكيم عامر عن القوات المسلحة . .

وفى الاتحاد الاشتراكى كون على صبرى - بمعرفة عبد الناصر - تنظيما سريا هو الذى كان يطلق عليه التنظيم الطليعى ، وفى القوات المسلحة كون شمس بدران بمعرفة عبد الحكيم - بالتأكيد - تنظيما سريا يضم معظم ضباط دفعة تخرجه وقد قام عبد الناصر بعد الهزيمة باعتقال كل أفراد دفعة شمس بدران سواء من كان منهم فى التنظيم أو لا علاقة له به .

وهكذا لم يكن نظام الحكم معلنا وإنما كان أيضا سريا فى الاتحاد الاشتراكى وفى الجيش .

هكذا كان خداع الناس أسوأ من الهزيمة التى حدثت فى يونيو ، ولا أحاول هنا أن أتحدث عنها طويلا فقد كتبت عنها تفصيلا من قبل ، ولا أريد أن أعيد الذكرى إلى جرح كبير لا نزال حتى اليوم - وبرغم ما حاوله نصر أكتوبر - نسدد حسابه على كل المستويات .

وأظن أن خداع النفس الأكبر - بصرف النظر عن الهزيمة - هو أن ما كنا نسمعه من حديث عن الحرب والاستعدادات والقدرات لم يكن غير واجهة تخفى خلفها شيئا آخر لم نعرفه إلا بعد أن وقعت الكارثة .

فعبد الناصر أعلن لنا قبل ٥ يونيو أنه مستعد تماما للحرب . . وكلماته فى الخطب التى ألقاها فى الأسبوع الذى يسبق الحرب كان واضحا فيها أنه يدرك تماما عواقب إغلاق خليج العقبة ، وسحب قوات الطوارىء الدولية وأن ذلك يعنى الحرب ، بل أكثر من هذا قال عبد الناصر فى لقائه مع أعضاء المجلس المركزى للاتحاد الدولى لنقابات العمال يوم ٢٦ مايو ٦٧ - قبل عشرة أيام من ٥ يونيو الحزين : أنا وقفت فى يوم من الأيام من سنتين وقلت إن احنا معندناش خطة لتحرير فلسطين ولكن أخيرا شعرنا بأن احنا قوتنا كافيه وإن احنا فى دخولنا أى معركة مع إسرائيل نستطيع فعلا أن ننتصر وعلى هذا قررنا الخطوات التى اتخذناها .

الكلام إذن واضح من حيث تقدير أبعاد التصرفات التى كان يمارسها عبد الناصر وتوقعه للحرب . . مع ذلك فإن الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه خريف الغضب (صفحة ١٥٦ من النسخة العربية) يقول لنا «ومن الخطأ أن يتصور أحد أن عبد الناصر كان يريد الحرب مع اسرائيل» .

أما صلاح نصر رئيس المخابرات العامة وقت الهزيمة فيقول فى حديث أجراه معه منذ سنوات الكاتب الصحفى الأستاذ حسين كروم ونشره فى عدة صحف عربية (عندما كانت هذه الصحف ممنوعة من دخول مصر) : كان أمام عبد الناصر صورة منذ النصف الثانى من مايو عن مخاطر سحب القوات الدولية ، وإغلاق خليج العقبة وعن مخطط الدول الكبرى ، ومع ذلك لم تستمع القيادة السياسية إلى هذا التحذير ، لأنها كانت لا تزال تعيش فى مناخ حرب ٥٦ الأمر الذى يوهم بأن إسرائيل لن تجرؤ على القيام بحرب شاملة إلا إذا اشترك الغرب معها ، ولو اشترك الغرب فإن روسيا ستحارب بجانب مصر ، هذا فضلا عن أن القيادة السياسية كانت تنظر إلى تحريك القوات على أنها مظاهرة عسكرية الغرض منها تحقيق هدف سياسى هو إبراز قدرة مصر على ردع العدوان الإسرائيلى على أى دولة عربية .

ويضيف صلاح نصر : لقد كان على القيادة العسكرية أن توضح لواضع القرار السياسى أن القوات المسلحة لم يكن فى استطاعتها فى ذلك الوقت تحقيق الهدف السياسى ، وإن كانت هناك نظرية تقول أن على السياسيين أن يضعوا القرار وعلى العسكريين التنفيذ دون الدخول مع واضع القرار فى مناقشات سياسية .

ثم بصراحة مؤلمة يضيف صلاح نصر : إن القوات المسلحة عام ٦٧ لم تكن مستعدة على الإطلاق لدخول حرب شاملة مع إسرائيل . . كانت منهكة من حرب اليمن ، كانت ميزانيتها تقلصت . . كانت أغلب قياداتها قيادات سلم لا حرب . . هذا فضلا عن النقص فى التسليح ، ومن ثم فإن دخول مصر الحرب مع إسرائيل - هكذا قال صلاح نصر - فى زمان ومكان غير مناسبين هو سبب الهزيمة خاصة وأن الموقف الاقتصادى كان متدهورا لدرجة أنه لم يكن فى خزانة الدولة بعد انتهاء الحرب مباشرة سوى عشرة دولارات !!

وقد تكون حكاية الدولارات العشرة هذه مبالغة من صلاح نصر لكن خداع النفس بالتأكيد لم يكن مبالغة .

وهذا الهراء الذى كان يصدر عن عبد الناصر ورجاله بعد الهزيمة انتهى بإعلان بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، وهو خرافة ناصرية أخرى لا تصدق فيه كلمة ، إنما هى عظمة ألقيت

للكلب لكى يتلهى بها ، مثله فى ذلك مثل «الميثاق» الذى كان أكذوبة فى صورة حفل سمر أقاموه ودعوا الناس لإبداء الرأى فيه ، وقد صاغوا خلاصة ما قيل فى المناقشات فى ذلك الميثاق الذى أذاعوه وطبعوه ربما بملايين النسخ وقرروه على التلاميذ فى المدارس دون أن يكون فيه ذرة من الصدق أو الجدية ، وهذا كلام أنور السادات فى كتاب البحث عن الذات لا كلامى .

ولعل من الطريف أن أذكر هنا أنهم - تخليدا لبيان ٣٠ مارس - طبعوا عنوانه وقطعة منه على منافض أو طقاطيق سجائر وزعوها على الأهل والأحباب كما توزع علب الملبس فى الأفراح ، ومازال بعض هذه المنافض على مكاتب بعض محررى الأهرام ، وهذه المنافض هى كل ما تخلف عن بيان ٣٠ مارس من أثر !

* * *

وتسأل هنا : ما الذى جعل مجلس الثورة الذى انتهى إليه الأمر بعد قيام الثورة جامد الفكر رجعى الاتجاه فيما يتصل بطراز الحكم الذى ساروا فيه ؟ لقد اتخذوا قررات تقدمية فعلا مثل قانون الإصلاح الزراعى ، ولكن هذا المشروع - مثله فى ذلك مثل كل ما تبناه مجلس الثورة - لم ينبع من داخله ، وإنما كان فكرة موجودة تقدم بها رجال من المصريين

ومصر لم تخلق يوم قامت ثورة ٢٣ يوليو ، بل كان فيها دائما رجال مفكرون ، وموضوع الإصلاح الزراعى كان مطروحا على مائدة البحث من زمن بعيد ، وكانت هناك مشروعات كثيرة لطريقة تنفيذه فى خزائن الدولة ، وكذلك إلغاء الألقاب والمجانية الكاملة للتعليم وقوانين أجور العمال وما إلى ذلك ، ولكن كل هذه المشروعات كلها التى تبنتها الثورة كما قلنا لم تنبع من فكر رجال الثورة أولا ، ثم إن الصيغة التى تبناها بها رجال الثورة كانت دائما صيغة خاطئة حافلة بالعيوب ، حتى مشروعات غزو الصحراء وتوسيع رقعة الأرض الزراعية لم ترسم لها خطة واضحة ، بل عهد فى تنفيذها إلى صاحب الحظ والنصيب من المرضى عنهم ، وأنفقت ملايين وتشعبت المشروعات فصارت هناك مصانع كثيرة إلى جانب أعمال إصلاح الأرض التى تكلف كل فدان منها أضعاف قيمته ، ثم قامت الثورة نفسها بتصفية هذا المشروع كله وعينت المسئول عنه فى وظيفة كبرى ووزعت وجوه نشاطه على عدد من الوزارات ، بل أنشئت لذلك لجنة يمكن أن تسمى لجنة تصفية قام على رأسها المهندس سيد مرعى .

والسياسة التى جرى عليها رجال الثورة فى السودان كانت سياسة طائشة غير متوازنة حتى أصبح واحد من العاملين فى شئون علاقات مصر بالسودان وهو صلاح سالم موضع سخرية عالمية بما كان يفعل من خلع ملابسه إلا ما يستر العورة والرقص مع رجال القبائل

فى جنوب السودان حتى سمى بالميجر الراقص وواضح أن رجال الثورة بعد أن أقصوا الرئيس محمد نجيب أحسوا باستياء السودانيين واتجاههم إلى القطيعة مع مصر ، فرسموا خطة صبيانية حقا قام بتنفيذها الميجر الراقص وانتهت إلى أسوأ النتائج .

وبينما كان تفكير الشعب ثوريا نلاحظ أن تفكير قادة الثورة كان رجعيا ، ففى حين أن الشعب كان متحمسا للحرية والديمقراطية وتجديد هيكل الحياة وصورتها فى مصر كان كل جهد رجال الثورة هو تجميع السلطان فى أيديهم ، وحرمان الشعب من أى حرية حقيقية ، ومحاولة السيطرة عليه عن طريق تنظيمات سيئة البنيان والتكوين مثل هيئة التحرير التى منيت بالفشل الذريع ، فاستبدلوها بهيئة استبدادية يسارية الاتجاه تسمى بالاتحاد الاشتراكى الذى أنشىء على أنقاض الاتحاد القومى ، وحتى هذا الاتحاد لم يلق من الشعب أى قبول وانتهى الأمر بإلغائه هو الآخر ، وكلا التنظيمين - هيئة التحرير والاتحاد الاشتراكى - كان وسيلة للكثيرين جدا من العاملين فى أجهزة الثورة للوصول إلى مراكز رخيصة وتحقيق ثروات طائلة ومنافع شخصية وعائلية كثيرة .

ومن أطرف ما مر بى أنهم أنشأوا لجنة ثقافية كنا نعمل فيها وأعطونا شقتين عظيمتين فى جاردن سيتى ، وعملنا فى حماس شديد ، ثم قيل لنا ذات مرة إن اللجنة أوقفت أعمالها تمهيدا لتطويرها . ولم يتم تطوير أو غيره ، وإنما الذى حدث أن رئيس اللجنة وهو من مماليك السلطان عمل عقد الاستيلاء على الشقتين من الحراسة باسمه ، وحولهما إلى شقتين خاصتين به ، بل كان هناك دور أرضى أو بدورم واسع تابع للشقتين فوضع عليه يده أيضا ، وهو إلى يومنا هذا يستغل ذلك كله لحسابه .

والسبب فى ذلك التخبط الثورى هو أن الذين تولوا أمور الثورة لم يكونوا ثوريين ولم تكن لديهم ثقافة ثوار أو غير ثوار ، وكان مستواهم العلمى والثقافى ضئيلا جدا ، وقد تبين لنا ذلك من اللجان والمجالس التى كانوا ينشئونها ويضعون على رءوسها رجالا منهم ، وتكون مهمة اللجنة هى تعليم الرئيس وتثقيفه ، حتى إذا فهم من الموضوعات قشورها تولى رياستنا وتوجيهنا بعلمه النزر الذى كسبه من أعضاء اللجنة ، ولكنه كان فى نظره هو علما غزيرا .

ولابد لكل ثورة - لكى تكون جديرة بهذا الاسم - من أيديولوجية أى مجموعة مبادىء متماسكة يتكون منها الخط الفكرى للثورة ، ومستقبل الثورة - أى ثورة - يتوقف أساسا على نوع عقائديتها وعمق الأفكار وحيويتها ومطابقتها لمطالب الناس وما يمكن أن تحققه هذه العقائدية من آمال ، والعقائدية والأيديولوجية تتوقف على ثقافة رجال الثورة وتجاربهم ومعارفهم بأحوال البلاد ومطالب العباد .

وأكبر دليل على ذلك هما الثورتان الفرنسية والروسية فالأولى قد تكلمنا عنها وأما الثورة الروسية ، فالناس عندنا لا يعرفون الذين درسوا لها ، فإن الذى قادها لينين فى أكتوبر ١٩١٧ . وقد قامت هذه الثورة أساسا على فكر كارل ماركس فى المكان الأول ثم صاحبه فريد ريش انجلز ، ثم فرديناند لاسال بعد ذلك .

وكارل ماركس كان رجلا واسع الثقافة بصورة قل أن نجد لها مثالا ، وما أظن أن هناك كتابا جديرا بالقراءة - فى كل ميادين الفكر لم يقرأه ويتمثل ما فيه كارل ماركس . وعندنا مع الأسف فكرة شائعة تقول إنه كان إنسانا حاقدا ، وأن أفكاره نبعت من أحقاده ، ولا شك أن صدر ماركس كان مثقلا بالأحقاد على كل أصناف البشر تقريبا ، ولكن رأسه كان حافلا بالعلم ، والمجلدان اللذان جمعا دراساته الأولى (ومنها رسالته للدكتوراه) وعنوانها كتابات الشباب ينمان عن اطلاع واسع حقا ، وعلى طول حياته كان الرجل لا يكف عن القراءة ، بل كانت المكتبات العامة محلات إقامته الدائمة وفى مكتبة الجامعة فى زيوريخ ، وهى المعروفة باسم ركن يسمى ركن كارل ماركس إلى يومنا هذا ، وكتابه رأس المال ثمرة ثقافة بلا حدود ، والمقالات التى كان ينشرها فى المجلة التى أنشأها مع فريدريش انجلز تؤكد أن هذا الرجل كان يقرأ كل ما يصدر من الكتب متصلا باهتماماته عن كل دور النشر الأوروبية والأمريكية ، والبيان أو المانيفستو الذى صاغه مع انجلز لا يصدر إلا عن علم غزير وفهم واسع وذكاء نادر وتجربة واسعة وإدراك لمناخ العصر يدعو إلى العجب .

ونتيجة لهذا فإننا نجد العقائدية الماركسية ذات عمق بعيد وشمول ، وإلى هذا ترجع حيويتها المتجددة وقوتها على البناء ، فهنا حلول لقضايا ومشاكل متصلة بالعمل والعمال والبناء الاقتصادى صادرة عن فكر عميق وعلم بالاجتماع والاقتصاد والقانون والأديان والأدب والفن ، أى أنها أيديولوجية شاملة تقدم لمن يقرأها حلولا لمشاكل كثيرة جدا من مشاكل السياسة والمجتمع والاقتصاد ، وهذا هو سر قوة العقيدة الماركسية وسر تمسك أصحابها بها حتى أنك لتجد الماركسى من أشد الناس تمسكا بآرائه وأقواهم حجة فى الدفاع عنها ، وأصحابها يستغنون بها عن كل عقيدة أو أيديولوجية أُخرى - بما فى ذلك الدين - لأنها - كما قلت - تغطى بالنسبة لأصحابها كل ميادين الفكر الإنسانى وتحقق - ولو نظريا - قدرا كبيرا جدا من احتياجات طوائف معينة من البشر من المظلومين والمحرومين .

ثم يتناول هذه العقيدة لينين ، وكان بدوره من أعظم من عرفنا فى التاريخ ثقافة وعلما . كان يقرأ ليل نهار . . وعندما حكم عليه بالسجن سنة بعد مقتل أخيه اليكساندر استوقف نظر رئيس السجن بانصرافه الكامل إلى القراءة ، وزاد احترامه له فكان يرسل له الطعام من بيته ، وأطلق سراحه بعد قضاء ثلثى المدة لسلوكه المثالى فى السجن . وبعد

وصوله إلى السلطان لم يكن يسمع بكتاب حتى يبادر بطلبه وقراءته ، وأثناء انعقاد مجلس الوزراء كان يدع الوزراء يتناقشون ويفتح كتابا ويقرأه ، لهذا كانت ثقافة لينين مضرب المثل ، وهذه الثقافة أعطته عمقا مكنه من تعديل مسار الماركسية ، فأصبحت هناك ماركسية وماركسية لينينية .

إن ثقافة لينين الواسعة هى التى أحدثت التغيير الشامل فى روسيا ثم فى الصين وفيتنام ولازالت تغزو عقول البشر فى كل مكان ، وإلى ثقافة لينين وعلمه يرجع الفضل فى تحول روسيا التى كانت دولة متأخرة إلى واحدة من اثنتين هما اليوم أقوى دولتين عرفهما التاريخ . ولو أنك شاركت فى مجلس من مجالس أولئك الماركسيين الحقيقيين - فى باريس مثلا - لسمعت العجب من ذكائهم واتساع اطلاعهم ومعرفتهم وقوة حججهم . أما فى العمل فهم شياطين إذا ملكوا السلطان فهم لا يكترثون لإنسان أو دين أو عاطفة فى سبيل تحقيق مآربهم .

وأساس هذه القوة هو أن لينين العالم وضع العلم أساساً للثورة الاشتراكية ، العلماء عنده كانوا قادة المجتمع . لم يكن لينين يحترم حقيقة إلا مدير جامعة موسكو ومدير متحف الإيرميتاج . ولينين الذى كان سفاحاً رهيباً كان يعرف قيمة الفن ، وهو الذى أشرف على تجديد متحف الإيرميتاج والمحافظة على كل ذخائره ، ولينين هو الذى أعاد إنشاء فرقة البولوشوى ، وإذا كانت تبهرك محافظة الروس على قصور القياصرة وذخائرها وحدائقها فالفضل فى ذلك يرجع إلى لينين ، وهو أيضاً الذى حرص على المحافظة على مترو لينينجراد - موسكو بهذا البهاء القيصرى .

لا غرابة إذا فى أن تكون الثورة البلشفية من أقوى الثورات التى عرفها التاريخ لأنها تقوم على أيديولوجية أو عقيدة مبنية على أساس متين من الوعى والتفكير ، والعقائدية البلشفية أصبحت علما ولأنها علم فإن كل المشروعات التى قامت بها مؤسسة تأسيساً علمياً . والعلماء هم السند الحقيقى وراء القوة السوفيتية وهم هناك يراعونهم ويقدمون لهم أقصى ما يستطيعون من تسهيلات العيش والعمل .

ولينين هو أول من قال : روسيا قبل الروس . كل ما ينفع روسيا مقدم على مصالح الأفراد وكل شيء ينبغى أن يتجه إلى خدمة روسيا والعواطف تأتى عنده بعد مصلحة روسيا ، وهو نفسه كان خادم روسيا الأول فى حين أن جمال عبد الناصر نفسه جعل مصر كلها فى خدمته ، ولهذا لم يستطع أن يستمر فى المد الثورى .

وثورتنا كانت على يد محمد نجيب وشعب مصر . وأوقف حركتها ونشاطها جمال عبد

الناصر وعبد الحكيم عامر . وهى اليوم تعود ثورة كما كانت لأن الرئيس مبارك يدع المصريين يصنعون بلادهم على قدر علمهم ، ولا يتدخل فى شئون الجامعات أو معاهد العلم كما كان يعمل الذين من قبله لأنه يعرف أن الأمة لا تستطيع الوصول إلى أكثر مما يؤهلها له علم رجالها ، ولهذا فهو يحترم الشعب والحريات وجهود الناس وكراماتهم ، وهو بهذا يسجل اسمه كأول حاكم صادق يؤمن بمصر وصالحها منذ تنحية محمد نجيب ، وهذا هو الذى يبعث فى نفوسنا الآمال .

وكان نابليون من أوسع الناس ثقافة وأكثرهم قراءة ، كان يسمى نفسه تلميذ فولتير ومؤرخوه يقولون إن أحدا لم يقرأ فولتير ويتشبع بآرائه مثل نابليون ، ورغم أن هذا الرجل كان عسكريا أنانياً إلا أن جانبه الثقافى هو الذى جعل له مكانا عظيماً فى تاريخ فرنسا ، لأن أمجاد الحروب وانتصارات مارنجو وداجرام واوسترليتز ومينا وأورشتاف وروائع أعماله العسكرية فى الحملة الإيطالية كلها تلاشت نتائجها ، بل إن دخوله فيينا دخول الظافرين فى ١٣ نوفمبر ١٨٠٤ بعد انتصار أوسترليتز ، وكان يعد أكبر انتصار عسكرى سياسى لفرنسا وقمة من قمم أمجادها ، أصبح اليوم يعد من مساوىء فرنسا لأنه أذل الشعب النمسوى دون مبرر . وتاج الامبراطورية الذى وضعه نابليون على رأسه فى ١٨ مايو ١٨٠٤ لم يعد مفخرة فرنسية .

ولكن المفاخر الكبرى الباقية لنابليون هى مآثره العلمية والثقافية . . فتحت إشرافه وبتوجيهه وضع قانون نابليون ، وهو من أعظم الأعمال التشريعية فى تاريخ الحضارة ، ونابليون اهتم اهتماماً بالغا بالليسيهات ، وهى المدارس القانونية الفرنسية ، وهى الأساس الحقيقى للثورة العلمية الفرنسية ، ونابليون هو الذى أعاد تنظيم المدارس الفرنسية الكبيرة وأولها الحسان سير وهى أعظم المعاهد العسكرية فى فرنسا ومن أعظمها فى الدنيا ، وكانت عنايته بالمدارس الكبرى الأخرى عظيمة جداً ، ففى أيامه أعيد تنظيم مدرسة الهندسة العليا ومدرسة المعلمين ومدرسة الطرق والكبارى ولم يهتم أحد بمدارس الرسم الهندسى كما اهتم نابليون . هذه المدارس هى أساس الصناعة الفرنسية كلها مع أنها مدارس فى حكم المتوسطة ، لأنها تعلم طلابها كيف يكونون مساعدين حقيقيين للمهندسين فى كل فرع من فروع الهندسة والإنشاء ، فهم يرسمون تصميمات القطارات والطائرات والمدافع والسيارات وقطارات سكة الحديد ، ونحن لا نهتم بهذا ولا نعرفه ولهذا فإن كل صناعاتنا تقوم على رسوم هندسية غير دقيقة .

وفى فرنسا اليوم نحو ٣٠٠ مدرسة رسم يعمل التلاميذ فيها بالمسطرة والمثلث والفرجار وأدوات الرسم الدقيقة ويخرجون تصميمات الآلات على نحو هو أقصى ما يصل إليه الرسم

من دقة . هنا سر قوة الصناعة الفرنسية فإن المهندس والعالم والطبيب يفكرون ويتوصلون إلى النتائج والنظريات وأفكار الآلات والمخترعات . ولكن التنفيذ كله بيد هؤلاء وفى مصانع داسو الفرنسية للطائرات يأخذ الرسام المفتن ثلثى أجر المهندس .

وعندما أتى نابليون إلى مصر غازيا اصطحب معه جيشا من العلماء والرسامين ، وهؤلاء درسوا مصر ورسموا كل ما فيها أعظم دراسة وأدق رسم . وهذا يدلك على القاعدة العلمية المتينة التى كان يقف عليها نابليون ، وكتاب وصف مصر الرائع خير شاهد على ذلك ، أولئك العلماء هم الذين جعلوا دراسة الآثار المصرية القديمة علما فرنسيا يسمى الايجبتولوجى وفرانسوا شامبليون وهو من مفاخر فرنسا كان يرى نفسه مصريا فرنسيا يخدم بلاده بدراسات الآثار المصرية ومتابعتها وهو الذى فك طلاسم لغات مصر القديمة ، وفرنسا - نتيجة لذلك - تعتبر الآثار المصرية عملا علميا فرنسيا ، وذلك يرجع إلى نهاية عهد نابليون .

وجمال عبد الناصر عندما قرر دخول حرب اليمن لم يكن قد قرأ كتاباً واحدا عن اليمن ، وكل معلوماته جاءته من رجال يمنيين أو دخلاء على اليمن لكل منهم مصالح خاصة من أمثال عبد الله السلال وأحمد الشامى وعبد الرحمن البيضانى . وكلهم كانوا من أسباب فشل المغامرة المصرية فى اليمن . ولم يفكر عبد الناصر فى أن يرسل بعثة علمية مع قواته لتدرس اليمن وجغرافيتها ونباتها وحيوانها وشئون الصحة العامة والأمراض المتوطنة فيها وما إلى ذلك لأنه هو نفسه لم يكن فى الحقيقة رجلا مثقفا . ونابليون فشلت حملته على مصر سياسيا ولكنها نجحت علميا ، أما تدخل عبد الناصر فى اليمن فلم يأتنا إلا بكوارث ، لأنه لم يقم على علم أو فكر وإنما قام على حقد وطموح خادع بأن يتخذ اليمن قاعدة لهدم كل القوى التى كانت قائمة فى الجزيرة ، والحمد لله على أنه فشل ، لأنه لو نجح فى هذا المسعى لكانت طامة كبرى .

وقد قرأت كل ما كتب عبد الناصر وقال ، فلم أستدل منه على أن الرجل قرأ قراءة تذكر ، بل لا أظن أنه قرأ كتابا كاملا خارج كتب الكلية العسكرية ، وكتاب « فلسفة الثورة » الذى وضعه وكلفنا ترجمته إلى كل لغات العالم وطبعناه بالألوف هو دون شك أكبر كتب الفكر السياسى العالمى سطحية ، والدوائر التى رسمها فيه كلها وهمية ، وهو نفسه لم يكن يعرف معناها الحقيقى . فهو مثلا يتحدث عن الدائرة الأفريقية أى دور مصر فى السياسة الأفريقية ، ولكنه عندما بدأ التفكير فى منظمة الوحدة الأفريقية ارتكب خطأً جعل مصر بالفعل - علميا - خارج دائرة التأثير والعمل فى تلك المنظمة ، وأغضب منه كل أحرار الأفارقة ، وهو موافقته على أن تكون أديس أبابا مركز منظمة الوحدة الأفريقية ،

وتلك كانت غلطة مخزية بالنسبة لمصالح مصر ، والسودان ، لأن ذلك ارتفع بالحبشة إلى مكانة لا تستحقها وجعلها صاحبة كلمة كبرى فى سياسة أفريقية ، والحبشة هنا كانت تنفذ إرادة الولايات المتحدة ثم روسيا ، وهى بفضل مركزها هذا تهدد السودان وتحتل ارتيريا وأراضى من الصومال وكل زعماء أفريقية فى أيامه كانوا ميالين إلى جعل المقر فى القاهرة أو الاسكندرية أو بعيداً عن أديس أبابا على أى حال ، لأنهم من يوليوس نيريرى إلى جوموكينياتا وسيكوتورى كانوا أوسع ثقافة وأبعد نظرا من عبد الناصر لأنهم كلهم مناضلون عاشوا فى أوروبا وهناك درسوا وتكونوا وتثقفوا ، ولذلك فقد كانوا يعرفون أن الموافقة على أن تكون أديس أبابا مقر منظمة الوحدة الأفريقية معناه أنها أصبحت منظمة استعمارية أمريكية ، لأن الحبشة كانت إذ ذاك صنيعة أمريكا وكل زعماء أفريقية كانوا يعرفون ذلك ، وسيكوتورى طار إلى القاهرة ليشرح هذا الأمر لعبد الناصر ولكن عبد الناصر كان مشغولاً بنفسه وصورته والدعاية لنفسه ، وصراعه مع عبد الحكيم عامر ، وحلمه فى أن يكون إمبراطور العرب .

***

خلاصة هذا الكلام كله أن هذه الثورة ليست ثورة أولئك الذين خططوا لها ونفذوها ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل هى ثورة شعب مصر ، وقد أثبتنا أنهم كانوا يفكرون فى حركة داخلية خاصة بالجيش ، وأن محمد نجيب هو الذى حولها إلى ثورة مصرية تحريرية فعاقبوه وأخرجوه ، وجعلوها استبدادية عسكرية لا تخدم إلا فئة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، فحولوا الثورة النبيلة إلى استبدادية غاشمة أذلت هذا الشعب وحرمته الأمن واضطهدت الأحرار وأطاحت بالقانون والقضاء ، وفى الظلام تسلل اللصوص وسرقوا ونهبوا وأصبحوا سوبر باشوات .

والذى يفعله شعب مصر منذ حركة التصحيح التى قام بها أنور السادات فى مايو ١٩٧١ هو إعادة هذه الثورة إلى نصابها وجعلها ثورة مصرية شعبية تحمى الحرية والديمقراطية .

وبينما أضاع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر سيناء وقناة السويس وهويا بمصر إلى الحضيض كان السادات بمن عمل معه من أحرار الضباط وبقية المصريين فعلا هم الذين استعادوا سيناء وهزموا إسرائيل وكسروا أسطورتها . وكشفوا ضعفها وسوء نيتها وجشعها ومعاهدة كامب ديفيد التى لا يرضى عنها الكثيرون من العرب هى نقطة البداية لنهاية إسرائيل .

ومن أسف أن قطاعات كبرى من جماهير العرب لازالت تحلم بالبطل المناضل المخلص

الذى يضرب إسرائيل بالسيف ويشقها نصفين كما كان يقال إن عنترة بن شداد كان يعمل بخصومه ، وعنترة لم يكن يفلق الهام ولم يحدث أبدا أن ضرب فارسا على رأسه فهشم خوذته وقطعه نصفين ، وقع كل واحد منهما على جانب الحصان ، ولكنه قال ذلك فى شعره وأشعار أخرى نسبوها إليه ، وكثيرون من العرب ما زالوا إلى اليوم يبهرهم الشعر الكاذب ويجرون وراء الكلمة البليغة ولو ذهبت بهم فى داهية . وقد حدث هذا فى تاريخهم ألف مرة ، والسيد ياسر عرفات ما زال يؤمن بأنه سيحرر فلسطين بالكلمات والمؤتمرات ودفاتر شيكات لأموال المنظمة التى تقدر بالملايين .

فلا يأتينا إذن أحد ويقول : أنا الثورة ، أو أنا من صناع الثورة وقادتها أو أن لى الفضل فى كيت وكيت ، لأن هذه الثورة ليست ثورة فلان أو علان وإنما هى ثورة شعب مصر . ولا يتوقح أحد ويقول أن فلانا أهان الثورة لأن الثورة لا يهينها إنسان فهى أجل من ذلك ولكن الذين تولوا أمرها انحرفوا بها عن طريقها وهبطوا بمستواها وهم أولئك الذين سيطروا عليها من ١٩٥٤ إلى بداية رياسة الرئيس مبارك ، والذين يصححون مسارها اليوم ويجعلونها ثورة تقدمية إصلاحية تقوم على الحرية واحترام كرامة المواطن وحقه فى المشاركة فى حكم بلاده هم نحن . . نحن الثورة . نحن شعب مصر كله . ونحن صناعها وورثتها . ولا فضل لأحد منا عليها ، بل نحن جميعا خدامها .

فى إطار هذا المفهوم - مفهوم أنها ثورة شعب وحركة قومية مصرية عامة - نستطيع أن نعيد النظر فى ترتيب الشخوص والأدوار ، فلا يقال إن هذا هو صانع الثورة ، أو ذاك قائدها ، أو ثالث صاحب الفضل عليها ، فما دامت حركة شعب بأسره فكل الشعب مشارك فيها ، ومن المؤكد أن المصريين جميعا مع الثورة فليس هناك مصرى عاقل يريد أن ترتد مصر إلى أحوال ما قبل الثورة والعودة إلى عصر الملك والباشوات ، بل إن هذا نفسه مستحيل وثورة مصر غيرت العالم من حولها ، والتاريخ لا يعرف العودة إلى الوراء أبدا . بل إن العودة إلى دور من أدوار هذه الثورة نفسها مستحيلة فلا يمكن العودة إلى الدور الناصرى ، أو الدور الساداتى ، بل إن المسئولين عن دور مضى من أدوار الثورة لا يصلحون للعمل فى دور ثان من أدوارها .

فى هذا الإطار العام نستطيع أن نعيد تقييم دور عبد الناصر نفسه ، وكل من الذين يحسون فى أنفسهم أنهم أصحاب هذه الثورة أو حراسها - بالمصادفة فى ليلة الثورة - لأنه كلف بمهمة صغيرة ثم طلبوا إليه المشاركة فى كتابة البيان الذى سيذاع على الشعب فكتبه فى صورته الأولى التى اختصرت واقتصرت على أنها حركة إصلاح داخل الجيش - فهذا يكون دوره ولا زيادة ، ويبقى لمحمد نجيب فضل تحويل الحركة المحدودة إلى ثورة شعبية ، ودور

كل منهم ومكانه فى الثورة ينبغى أن يتحدد على هذا الأساس ، بصرف النظر عن كون محمد نجيب قد أبعد عن الثورة ووضع فى موضع عدو الثورة فى حين أن الثانى التصق بأصحاب السلطان الجدد ونال على أيديهم كرامات أو وظائف أو مراكز ، فذلك كله لا يغير وضعه فى الثورة ولا يزيد قدره منها .

هذا فيما نعتقد هو أسلم طريق لوزن الثورة وأعمال من شاركوا فيها لأن الحقيقة الأساسية هى أن بطل هذه الثورة الحقيقى هو شعب مصر كله ، هو الذى جعلها ثورة ، هو الذى صحح مسارها بعد أن انحرفوا بها وهو الذى يبنى اليوم حياته ويحاول تحقيق أهداف الثورة الرئيسية . وهنا بالذات لابد أن نعطى أبطال حرب أكتوبر دورهم الذى يستحقونه ، فحرب أكتوبر هى التى رفعت الهمم وأعادت لمصر أرضها وبعثت الآمال فى النفوس بعد أن كانت قد خبت وتضاءلت .

والذين شاركوا فيها هم بالفعل الذين فتحوا الأبواب لهذه الثورة لتعود إلى نصابها وتبدأ ، بعد أن ضاع وقت طويل وجهود شتى ، فى مواصلة مسيرها فى الطريق الذى كان ينبغى أن تسير فيه قبل إزاحة محمد نجيب والدخول فى العصر الناصرى . وهذا المقياس الجديد يتيح لنا فرصة الحكم على الناس والأعمال فليس من الضرورى أن يكون الإنسان حاضرا فى موقع الحوادث ليلة ٢٣ يوليو ليكون من رجال الثورة ، فالذين حضروا ولم يقوموا بشىء يذكر كثيرون . وقد يدخل ميدان الثورة رجل فى وقت متأخر ويقوم بخدمات جليلة يصبح بها من رجالها وبناتها . وهذا الميزان الجديد للثورة وأعمالها ورجالها فيه إنصاف لبطل هذه الثورة الأكبر وهو شعب مصر .



١٧ الثـــورة تواصـــل الصـــعود



الرئيس الراحل أنور السادات

من ١٦ أكتوبر ١٩٧٠ إلى ٢٣ يوليو ١٩٧١ خاض أنور السادات معركته الكبرى مع ورثة العصر الناصرى الذين كانوا يظنون أنهم ورثوا هذا الشعب من سيدهم ، ليستمروا فى الظلم والطغيان والعدوان على الكرامات حتى يسلموا مصر إلى سادتهم الروس كما فعل نور محمد تراكى وحفيظ الله أمين وبابراك كارمل فى أفغانستان . وانتصر السدات فى ١٥ مايو وأعلنت ثورة التصحيح وبدأت الحرية تعود ، وحكم القانون يسود . وخضنا معركة أكتوبر فى ظلال الحرية ، فكان لابد أن ننتصر ، واستعدنا كرامة الأرض والسمعة فى الدنيا والثقة فى النفس ، وعادت مصر إلى الصعود . وفى أيام الرئيس مبارك يستمر الصعود ويتأكد وتثبت الحرية والقانون .

حقا إن نصيبنا من السلبيات ضخم ، ولكن حصيلتنا من الإيجابيات تزداد يوما بعد يوم . ولكننا نشكو لأن الناس يحسون المرض ولكنهم لا يحسون الصحة . وعودة الحرية معناها أن الشعب ينبغى أن يتحمل مسئولياته ، ولو أن كل مواطن حمل مكنسة وكنس موضع قدمه ، لكان بلدنا أنظف بلاد الدنيا ولكننا نلقى القذارة من النافذة ونلعن الآخرين ، ونكسر القانون ونطالب بالعدالة ، ونخترق النور الأحمر ونبكى على المرور ، ونتهرب من الضرائب ونحمل على المتهربين ، وكل حرام مباح لنا ومحرم على الآخرين ، والحكومة لا تستطيع أن تعمل كل شىء . فتحديد الأسعار مثلا عمل الحكومة ، أما إلزام التاجر بمراعاة التسعيرة فذلك واجب الشعب ، ما فى ذلك شك . والشكوى لا تحل مشكلة ولكنها مطية المتهاون . والدموع لا تشفى المرضى ، وشعب مصر نشيط وذكى وسليم ولكن الحكم المستبد ساقه فى طريق الذل والتأخر مدى ستة عشر عاما . ومصر شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وهى شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين ، فلنعمل جميعا على رعاية شجرتها وحمايتها بالحرية حتى تزداد ازدهارا وتعلو وتظلنا أجمعين .

بعد هذه الرحلة الطويلة القصيرة فى ثلاثة عصور من تاريخ مصر المعاصر ، كان لابد من وقفة قصيرة مع القراء ، وقارىء الكتاب هو فى الحقيقة مؤلفه فلا مؤلف بلا قارىء وقارىء الصحيفة هو محررها الأول ، وبلا قراء فلا صحافة ولا صحف ، وكما قال ريمون كارتيه : نحن نكتب وهو يحكم وإذا كتب إلينا فذلك منه فضل كبير ، وللقارىء نكتب ، ومنه نأخذ الرأى ، وصفحات المجلة الناجحة ملك القارىء .

ولقد قضيت مرة ثلاثة أشهر فى التدريب فى مجلة البارى ماتش . أرسلنى فى هذه المهمة العملية أستاذ عظيم من أساتذة الصحافة العربية هو إميل زيدان ، أرسلنى ودفع لى نفقات السفر ، وريمون كارتيه رئيس تحرير البارى ماتش إذ ذاك كان أعظم صحفى فى أوربا فى وقته ، وكان يختار أكبر محررى الدار ليتولى الرد على بريد القراء ، وكان ذلك الصحفى

الكبير المسئول عن البريد لا يكتفى بالرد ، بل كان يذهب إلى القارىء فى بيته ، ليناقشه إذا تطلب الأمر ذلك ، وفى ذات يوم أرسل أحد مساعديه لمناقشة الممثلة الأمريكية أوليفا دى هافيلاند فى خطاب أرسلته ، ذهب وقابلها وأجرى استطلاعا فى بيتها ، وفى أثناء العمل عرفها وعرفته وأحبها وأحبته وتزوجها وعقد القران فى قاعة الاحتفالات فى المجلة ، والتعليق على الخبر كتبه ريمون كارتيه بنفسه وجعل له عنوانا جميلا : المحرر يتزوج استطلاعه .

والبريد الذى وصلنا أثناء نشر هذا الكتاب فى صورة مقالات فى مجلة أكتوبر الزاهرة كثير جدا معظمه يعبر عن الرضا عما كتبنا ، وهذا فضل من الله والقراء ، نحنى له رءوسنا . فالقراء كما قلت أصحاب أى مجلة ناجحة ، والمحررون ضيوف على القراء .

أما الذين وجهوا إلينا اللوم فقليلون ولوم بعضهم شتائم ، والشتائم لا تفتح للمناقشة بابا ، ولهذا فهى لا تنفعنا لأننا نريد أن نتعلم فن الحوار . الحوار معناه أن تتكلم أنت وأصغى لك فى احترام وأتكلم أنا فتصغى لى فى احترام ، واحترام الإنسان للإنسان مستوى رفيع من مستويات الحضارة ، ومن مآسى تاريخنا أن الحكم فيه لم يكن حوارا أبدا ، إنما هو كان إملاء : حاكم يأمر ورعية ــ أى غنم ــ تطيع .

والمأساة بدأت فى فتنة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، والذين احتجوا عليه وذهبوا يناقشونه كانوا يمثلون قطاعا من قطاعات أمة الإسلام فى ذلك العصر هو قطاع الفاتحين المقاتلين . وقد طلبوا منه أن يستقيل ــ وكان قد أمضى ست سنوات فى الخلافة أثبت فيها أنه غير قادر على حمل المسئولية ــ فأبى أن يستقيل ، وقال كلمته المشهورة : لا أخلع قميصا قمصنى به الله ، ولا أخلع سربالا سربلنيه الله ! . . وماذا يفعل الشعب إذا أصر الحاكم على أن يجثم على أنفاسه مدى الحياة ؟ عثمان أراد أن يقول إن الله جعلنى خليفة عليكم وسأظل جاثما على أنفاسكم إلى الموت . وحدث المحزن وقتلوه ، وعندما نفكر فى الأمر نجد أن هذه النتيجة لم يكن منها مفر ، وماذا يعمل الشعب مع حاكم يحكمه ويسىء إليه ولا يريد أن يترك الحكم مدى حياته . . وكأنه ورث الشعب من آبائه ؟ . . إخواننا فى العراق لا يكتفون بقتل الحاكم الذى لا يريد أن يتنحى ، إنهم يسحلونه . والسحل هو أن يربطوه ويجروه فى شوارع المدينة ، أى أنهم يمسحون به الأرض كما نقول ، وهذا تصرف همجى من جانب الشعب ولكنه نتيجة تصرف همجى من الحاكم ، فى تاريخنا الماضى كان يحدث العكس : كان الحاكم يسحل الشعب . وأمم الإسلام كلها كانت فى حالة سحل مستمر أربعة عشر قرنا من موت الفاروق عمر إلى عهد قريب . .

أعود إلى مناقشة سادتى القراء ، فأقول للسيد اللواء جمال حماد : هل كان من

الضرورى أن تتهمنى بأننى عدو الثورة وحاقد عليها ؟ ولماذا والله أكون عدوها وأنا لم أسعد فى حياتى العامة بيوم قبل نصر أكتوبر كما سعدت صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ؟ كنت أيامها رئيسا لتحرير مجلة « الاثنين » سمعت الخبر فى الإذاعة وأخذت « تاكسى » إلى بيت أخى محمود يونس عليه ألف رحمة من الله ورجوته أن يأخذنى لأرى محمد نجيب ، فأخذنى وصافحته ، وكان فى طريقه ليقابل على ماهر باشا . وذهبت ورأيت عصر الثورة يصافح عصر الباشوات ويتسلم منه الزمام . يومها رأيت محمد نجيب رافع الرأس باسما ، وأحسست أن الزمان ابتسم لمصر بعد طول عبوس . وآخر وجه عابس من وجوه العصر الذاهب كان وجه على ماهر ، ذلك الرجل الصغير الضئيل المنحنى الظهر الداهية الذى كان واحدا من أربعة أو خمسة حملوا لقب : صاحب المقام الرفيع . .

يومها عدت إلى الجامعة ــ وكنت فى ذلك الحين مدرسا فى كلية الآداب ــ وأقمت حفلا لطلابى ، وبقينا فى الكلية نستمتع بيوم مصر العظيم إلى المساء . .

لا يمكن أن أكون عدوا للثورة يا سيد جمال حماد . وهذا الكلام منك يذكرنا بأهل زمان ، عندما كانوا يتهمون من لا يرضون عنه بالكفر ويقولون إنه زنديق ، وبتهمة الزندقة قتل مئات الأدباء الأبرياء وأهل العلم ، منهم عبد الله بن المقفع الذى وضعه أبو جعفر المنصور فى إناء ضخم من النحاس وأغلقه عليه ووضعه على النار . هذا رمز لمصير رجل الفكر فى تاريخنا الماضى لا أعاده الله .

والأستاذ جمال حماد يطالبنى بوثائق أؤيد بها كلامى . وهل كانت فى عصر عبد الناصر كله وثائق ؟ وهل كان عبد الناصر يتفضل على شعبه ــ الذى كان يقول فى خطبه إنه شعب عظيم ــ ببيان يشرح له فيه الحقيقة فى أى شىء ؟ أنت يا سيدى كنت فى بداية الثورة ياورا أو مساعدا لمحمد نجيب ، ومحمد نجيب عزلوه تحت نظرك وأبعدوه واضطهدوه ، وجاءنا عبد الناصر ، فهل نشرت الدولة كتابا أبيض أو أخضر تشرح فيه لماذا ذهب رئيس وأتى رئيس ؟ وعبد الناصر اضطهد الشرفاء من زملائه فى قيادة الثورة وأخرجهم من الميدان ظلما وعدوانا ، فهل تفضل عبد الناصر بنشر بيان واحد أو كتاب عن أسباب إخراج بطل شهم من أبطال الثورة مثل كمال الدين حسين الذى كان فى يوم من الأيام ذراع عبد الناصر اليمنى وطار ذكره ؟ . . وتلك جريمة لم يغفرها له عبد الناصر ، فعزلوه واتهموه بما لا يليق ، هل نشرت حكومة عبد الناصر كتابا أبيض أو أخضر عن أسباب انهيار الوحدة بين مصر وسوريا ؟

أنت يا سيدى كنت تعرف الكثير عما حدث فى سوريا أيام تجربة الوحدة ، وقد فشلت التجربة وتم تدبير إخراجكم من سوريا وكنتم فيما يقال نياما ، فهل تفضل عبد الناصر

بكتاب أبيض أو أخضر يشرح فيه للشعب المسكين لماذا كان الانفصال ؟ وأنت يا سيدى كنت ضمن أقطاب الحكم المصرى فى سوريا وقد دخل يديك مال كثير . وصدقنى إننى أسألك بحسن نية : هل خطر ببالك أن تتفضل على هذا الشعب المسكين ببيان تفصل فيه ما كان ؟ ماذا فعلت ؟ وماذا فعل من كانوا معك ؟ وماذا أنفقت ؟ لقد كانت أموال مصر تتدفق تدفقا على سوريا ولبنان ، وسليم اللوزى قال إن عبد الناصر هو الذى وضع أساس نهوض لبنان الاقتصادى بما صب فيه من أموال مصر . . فهل تفضل جمال عبد الناصر بإعلام الناس عما أنفق من أموالهم فى سوريا ولبنان ؟ وكم يا سيدى ضاع من مال مصر فى حرب اليمن ؟ لماذا ذهبنا ؟ ولماذا خرجنا ؟ وحرب ١٩٥٦ هل نعرف شيئا عن حقيقتها إلا من الكتب الإسرائيلية والإنجليزية والفرنسية ؟ ما الذى قلتموه للناس يوم ذاك ؟ وزارة الإعلام بجلال قدرها قالت إن الطيران الإسرائيلى لم يضرب طائرات مصر وهى جاثمة على الأرض بل ضرب طائرات خشبية ! لأن عبد الناصر ضحك على الإسرائيليين ووضع طائرات خشبية على الأرض وانخدع فيها الإسرائيليون . كلام أطفال لا يقال إلا لمجانين ، هذا طراز من وثائق العصر يا سيدى جمال حماد ، ثم تطالبنى بوثائق ؟ وهل كان فى عصر عبد الناصر شعب يسمحون له بأن يقرأ الوثائق ، بل هل كان هناك نور نقرأ عليه أى شىء ؟ لقد أطفأوا جميع الشموع والأضواء وتركونا فى ظلام . وفى الظلام لا تسعد الا الخفافيش . ومصر كلها تحولت حين ذاك إلى حارة الوطاويط التى ذكرها طه حسين فى كتاب الأيام .

وحرب ١٩٦٧ كلها ــ على هولها ــ هل نشروا على الشعب ورقة صادقة عنها ؟ وعبد الحكيم عامر مات أو قتل ؟ هل نعرف عن مصيره شيئا ؟ ثم تطالبنى بوثائق ؟ .

أتدرى يا سيدى أن الحكومة البريطانية نشرت إلى الآن أربعة كتب بيضاء عن حرب فوكلاند التى لم ينقض عليها أكثر من عام ؟ واحد من هذه الكتب فيه أسماء كل الذين اشتركوا فى الحرب وما جرى لكل منهم ، ومن قتل ومن جرح ومن اختفى ، وواحد منها عن نفقات الحرب : كم أنفقوا من مال الشعب ؟ وهل استحقت هذا الإنفاق ؟ هذه يا سيدى هى الوثائق وذلك هو تنوير الشعب . لهذا يقال ان مارجريت تاتشر امرأة حديدية . أتعرف لماذا هى حديدية ؟ لأنها قوية بالحق والصراحة واحترام الشعب ، فالحديدية هنا هى الأمة الانجليزية ، أما تاتشر فامرأة رقيقة جميلة تحرص على زينة وجهها وتسريحة شعرها كأى امرأة فى الدنيا . وعندما زارت ألمانيا وضعوا فى غرفتها فى كل مكان نزلته مجموعة عظيمة من أغلى العطور وأدوات التجميل كى تأخذ منها قدر حاجتها فما كان من مسز تاتشر إلا أن أخذت كل زجاجات العطور وعلب المكياج ووضعتها فى حقائبها .

ودهش الألمان ولكنهم ضحكوا وزاد إعجابهم بمسز تاتشر لأنها امرأة ، وامرأة مثلها تحب العطور وأدوات التجميل ولكن الراتب الذى تتقاضاه لا يسمح لها بشراء مثل هذه العطور الغالية ، ومادامو قد وضعوا كل هذه العطور لها فلماذا تتركها ؟ وهذه يا سيدى هى المرأة الحديدية .

هذا هو التنوير واحترام الشعب يا سيدى ، أما فى عصر عبد الناصر فلم نعرف شيئا من الحقيقة ثم تطالبنى بـوثائق ؟ لقـد ضاع الجـانب الأكبر من جـواهر الأسـرة العلوية وقصورها ، وضاعت محتويات قصور ٤١٧ أسرة من أسر الأمراء ، ومئات الأسر المصرية وضعوها تحت الحراسة واستولوا على بيوتهم ونهبوا ما فيها ، فهل نشروا بيانا أوجردا أو حتى ورقة واحدة عما وجدوا فيها . . ثم تطالبنى بوثائق ؟ . . حتى نزلاء مصر من السعوديين والكويتيين واليمنيين اقتحموا بيوتهم واستولوا عليها بما فيها ، فهل تطالبنى بوثائق عن عصر كهذا ؟ . . إننا نحن الشعب نطالب بوثائق . أتعرف ما هى هذه الوثائق ؟ هم السـوبر باشوات وأظن أنك تعرفهم .

حتى أيام السادات استمر إهمال الشعب ، فقد حدث أن أرسل بعثة ضباط صاعقة للانقضاض على طائرة قتلة المرحوم يوسف السباعى فى مطار قبرص . والبعثة تحولت إلى مذبحة بسبب التمهيد السياسى ، وحوالى ١٥ ضابطا وجنديا من أبناء هذا الشعب ماتوا نتيجة خطأ القيادة السياسية ، فهل تفضلت حكومة السادات ونشرت كتابا أبيض أو أخضر عن المأساة ؟ ألم يكن أولئك الذين ماتوا مقاتلين مصريين وضباطا شجعانا مثلك ؟ فكيف يموتون دون أن يعلم أحد ما جرى لهم إلا أسرهم التى تلقت الأنباء الفاجعة فى خطابات كأنها سرية ؟! . ثم تطالبنى بوثائق ؟

لقد قال الرئيس السادات فى كتاب « البحث عن الذات » عن حرب اليمن (ص ٢٠٩) : ثم جاءت حرب اليمن فبدلا من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا أصبحت عمليـة انتفاع واستغـلال . وقال فى ص (٢١١) : إن حـرب اليمن انقلبت إلى تجارة ومنفعة . . فلماذا لم تطالبه يا سيدى يومها بتوضيح ما يريد أن يقول ؟ ولماذا لم تطالبـه بـالاعتذار كـما طلبت منى ؟ ولكنـك تستبسـل عـلى كـاتب مؤرخ وتسكت عن سؤال السادات .

ومع ذلك يا أخى فأنا يقطع لسانى قبل أن أقول كلمة تسىء إلى جيش مصر ، ولكنى عبرت عن غضبى على الذين أساءوا إلى هذا الجيش العظيم وعرضوه لهزيمة لا يستحقها ولا يد له فيها . . إننى أعبر عن غضب هذا الشعب كله على القائد الأعلى للجيش عندما ذهب إلى مركز القيادة ضحى ٥ يونيو ليجد أن جيشه قد ضـاع . ويقول لعبـد الحكيم

عامر : وفين الجيش ؟ الجيش ضاع ! أليس هذا شيئا يغضب يـا سيدى ؟ وهـل أنا إذا نقدت أولئك الذين عرضوا الوطن وجيشه الذى تنتسب أنت إليه لهذه المهانة . . أكون معتديا على الجيش ؟ . أو أن الذين اعتدى عليهم هم قادة الجيش الذين تسببوا فى كارثة يونيو ١٩٦٧ ؟ . . وهل سمعت يا أخى عن قائد عام أضاع جيش بـلاده بهذه الصـورة المخزية ؟ وماذا فعل بعد ذلك ؟ ذهب هو وعبد النـاصر ووزيـر الحربيـة شمس بدران واختفى كل منهم فى بيته ثلاثة أيام وتركوا مصر تنعى من بناها ولم يبق فى الميدان إلا ضباط بواسل من أمثال حسنى مبارك وكمال حسن على ، وأظن أنك قرأت ما كتبه السادات عن ثباته وبسالته .

إننى لم أحمل على الثورة أو على الجيش أيها الأخ ، ولكنى حملت على الذين أفسدوا الثورة وألحقوا بالجيش هزيمة هو برىء من مسئوليتها ، وأنا فى كل ما أكتب مواطن يبحث عن حقائق ينفع بها وطنه ، فهل هذه خطيئة؟ .

ونفس الكلام أقوله للسيد الوزير السابق أمين هويدى الذى جردنى من الانتسـاب للعلم والإنسانية ولكنى أنا لا أسىء إليه بكلمة وأخاطبه بالاحترام الواجب لوزير سابق وأقول له : لقد كنت أيها العزيز فى يوم من الأيام رئيس مخابرات لعبد الناصر ، أتعرف مامعنى رئيس المخابرات فى العصر الناصرى ؟ معناه الرعب والخوف والمذلـة لكل أهـل مصر . وأنت يا سيدى تخاطبنى كما لو كنت لاتزال رئيس المخابـرات وكأننى أنـا مواطن مسكين لا قيمة له فى نظرك .

لقد كنت يا سيدى وزيرا ومدير مخابرات ثم سفيرا أيام عبد الناصر ، ولكنك اليوم آمن مطمئن على نفسك ومالك وولدك دون أن تكون وزيرا أو مدير مخابرات ، لأن عبد الناصر كان لا يعرف القانون أو احترام الناس ، وكان من الممكن فى أى لحظة أن يأخذك من وزارتك أو إدارتك ويسلمك لحمزة البسيونى ليفعل بك ما فعل بالألوف دون أن يجرؤ حتى أولادك على السؤال عن مصيرك ، أما اليوم فأنت آمن لأنك فى حماية القانون والشرعية أيام الرئيس مبارك ، وهذا هو الدرس الذى أرجو أن تتعلمه يا أخى ، ومعذرة عن كلمة الدرس التى استعملتها هنا ، فأنا ـ بعد استئذانك ـ مدرس وأستاذ ووظيفتى أن أعلم الناس . وأنت أنكرت على هذا الحق لأنك مازلت تعيش فى كابوس العصر الناصرى ، وأرجوك يا أخى أن تعلم أن الزمان تغير وحل الأمن محل الخوف ، واحترام المواطن محل امتهانه وإهدار كرامته ، ومع ذلك يا أخى فإذا كنت قد ساءتك منى كلمة فأنا أرجو أن تقبل اعتذارى عنها ، إننى أريد أن نعيش اليوم إخوة متعاونين فى خدمة وطن واحد يعانى من المتاعب ما لايوصف ولابد أن تتلاشى بيننا الأحقاد ، ولابد أن نتعلم كيف يحاور بعضنا بعضا فى هدوء واحترام ،

وقد تلقيت خطابات كثيرة من الشباب خاصة وهم ورثة تركة عبد الناصر الباهظة ، وعندما أضيئت الأنوار ظهرت المتاعب والعيوب كلها فى أيامه وتحملواهم تبعتها مع أنها كلها بدأت قبلهم . . وعليهم أن يسددوا ديون عبد الناصر وعصره ورجاله وهم أبرياء منهم أجمعين . ولكن هكذا تجرى حروف التاريخ ، والأجيال التالية تدفع دائما ديون الاجيال السالفة ، والدين ثقيل وعلى هذا الشباب البرىء أن يدفعه من دمه ، وهو يدفعه فعلا ، ولهذا فهو شباب مسكين فقير متعب مضيع . وأنت يا سيدى لا تشعر بآلام أولئك الشباب ولن تفهمها لأن الثورة كافأتك على القليل الذى فعلته بالكثير الذى لاتزال تعيش من فضلته . لقد عينوك محافظا ، ونحن لا نغبطك على ذلك . ولكنى أذكرك بأن الشعب يعرف عن الثورة أكثر مما تعرف أنت . ونحن ـ مؤرخى مصر ـ نجتهد فى كشف النقاب . ولقد أراد لنا الحظ الحسن أن يجىء السادات ويضىء الأنوار .

أما أسباب النقد الشديد فى العصر الناصرى فهى الحجر على الحريات والعدوان على الناس وأموالهم وتخريب الاقتصاد المصرى بتأميم صناعات كثيرة كانت ناجحة وإعطائها لرجال من المحاسيب قضوا عليها وخربوها ثم الاستبداد المطلق وإلغاء القانون وامتهان حرمة القضاء والتحكم حتى فى المسائل العلمية والفنية التى كان ينبغى أن يتركها للفنيين . ومثال ذلك إنشاء منطقة صناعية فى شبرا الخيمة وأخرى فى حلوان والمعادى ، وقد كان ذلك خطأ فادحا فى حق الصناعة والزراعة وهذا الخطأ أدى إلى موت مدينة حلوان . وكان من الممكن أن تصبح اليوم منتجعا من أعظم منتجعات السياحة العالمية ، كان من الممكن أن تكون اليوم حدائق ورياضا وحمامات مياه معدنية وملاعب رياضية ونزهة تجلب لنا الملايين فى اليوم الواحد . والمعادى هذا المرج الأخضر ، مدينة الراغبين فى الهدوء والراحة والمتعة . . أين ذهبت ؟ . لقد قضت عليها الجاهلية الناصرية كما قضت على حلوان . ومع هذا فهل نحن حقا أنشأنا قلعة صناعية فى حلوان والمعادى ؟ ليذهب من يشاء وينظر ، والجواب أتركه له .

وهل تسمى إنشاء منطقة صناعية فى شبرا الخيمة إلا جريمة فى حق المواطن . لقد كنا أيامها ننشىء مديرية التحرير ، وقلعة الصناعة كان مكانها الحقيقى إلى غرب الأراضى المستصلحة فى الصحراء ، أما فى شبرا الخيمة فقد أهدرنا دون مبرر فوق المائة ألف فدان أنشأنا عليها مصانع لا تنتج اليوم عشر ما كنا ننتظره منها ، وأنشأنا للعمال هناك مدنا تحولت إلى حارات أو جيتولوفت لا يسعد بالحياة فيها عامل واحد ، وأمامكم تقرير لجنة البيئة فى مجلس الشورى التى يرأسها الدكتور محمد محمود محفوظ فاقرأوه لتعرفوا بشاعة الجريمة التى ارتكبها العصر الناصرى بأخطائه التى لا تحصى ، هذا بالإضافة إلى ضياع مائة

ألف فدان من أرض مصر الزراعية وهى رأس مالنا . .

ولماذا قرر عبد الناصر إنشاء هاتين المنطقتين الصناعيتين شمال القاهـرة وجنوبهـا ؟ لسبب سياسى قام على سوءنية ، فإن عبد الناصر عندما وجد عبد الحكيم عامر يتحصن بالجيش أراد أن يتحصن بالعمال فأحاط القاهرة بنطاق حديدى من المصانع ظنا منه أن العمال سيحمونه من عبد الحكيم عامر . .

* * *

أما السادات فقد نقدنا سياسته حيث ينبغى النقد ، لكنى ذكرت له أربع حسنات . . على الأقل كل منها يستحق تقدير الوطن . أولا : ثورة التصحيـح فى مايـو ١٩٧١ التى وضعت حدا لحكم الإرهاب وأسقطت رجاله وحمت كرامات الناس وأموالهم من المهانة والعدوان ، وثورة التصحيح فتحت الطريق أمام الثورة للصعود بعد الحضيض الذى هبط بها إليه عبد الناصر فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ وضياع سيناء ووصول الإسـرائيليين إلى قنـاة السويس . .

وثانيهما : تحرير مصر من سيطرة الروس والشيوعيين ، ولولا قيامه بإخراج المستشارين الروس لما تيسر نصر أكتوبر العظيم .

وثالثها : فتحه الطريق أمام الجيش لكى ينتصر عـلى الإسرائيليـين ويكسب حرب أكتوبر المجيدة حقا . .

ورابعها : استعادة سيناء وفتح قناة السويس .

وللرجل محاسن أخرى لا تنكر ، مثل قوانين الانفتاح التى فرجت على المصريين ، وسلبيات الانفتاح لا تقع مسئوليتها على السادات . بل عـلى الاقتصاديـين الذين قـاموا بالتنفيذ .

ولا أظن أن أحدا ينكر أن معاش السادات مثلا كان خيرا وبركة على ألوف الأسر من المعدمين ، لأنه صانهم من التسول المهين .

والصورة التى ظهر بها السادات للعالم كانت مشـرفة جـدا لمصر ، فقـد أزالت عنا وصمات التأخر المزرى ، وقدمتنا للعالم فى صورة جميلة ، والسادات هو العربى الوحيـد الذى حصل على جائزة نوبل ، وليقل فى ذلك من يشاء ما شاء ، فإن أعاظم من حصلوا على جائزة نوبل ، أخذوها لأسباب سياسية إلى جانب فضائلهم العلمية أو الأدبية ، وخذ مثلا حصول جابرييل جارثيا ماركس على جائزة نوبل فى الآداب لسنة ١٩٨٢ فإن توفيق

الحكيم يساوى عشرة أمثال جابرييل جارثيا ماركس ، ولا مقارنة إطلاقا بينه وبين نجيب محفوظ ، ولكن الولايات المتحدة تخوض هذه الأعوام حربا طويلة مع خصوم سياستها واستبدادها ببلاد أمريكا اللاتينية جميعا ، وبخاصة أمريكا الوسطى ، ولهذا أوصى الأمريكيون أكاديمية السويد بإعطاء الجائزة لواحد من أمريكا اللاتينية ، وقد كان توفيق الحكيم أحق بها عشر مرات وأكثر . .

ولكن هذا الذى ذكرناه كله من فضائل السادات لا يرضى نفرا من أحبائه ، وهم مثلا ينكرون ما قلت من أنه كان يصنع ملابسه فى بعض بيوت الأزياء الأوربية ، ويطلبون منى أن أصحح ذلك بالقول بأنه كان يصنع ثيابه خياط مصرى معروف . وعلى العين والرأس أصحح هذا الخطأ ، ولكنى أقول إن تلك المعلومات أخذتها من مجلات أوربية فإذا كان فيها خطأ فإن واجب التصحيح كان ينبغى أن تقوم به أجهزة الإعلام ، فهى فيما أرجو تقرأ كل ما ينشر عن مصر ورئيسها ومن واجبها أن تبادر بالتصحيح فى كل حين . وأحباء السادات يقولون إن الرئيس السادات لم ينشىء القصور التى كان يتنقل بينها ، بل هى كلها من إنشاء من سبقوه ، والذى حدث هو أن السادات كان صريحا واضحا ، وكل شىء عنه كان ينشر فى الصحف ، أما الذين قبله فكان كل شىء فى أيامهم يجرى فى الظلام . وعلى العين والرأس كذلك أصحح ذلك الخطأ .

وأضيف سطورا هنا أتوجه بها السيدة الكريمة جيهان السادات ، وأنا أعرف أنها سيدة رفيعة القدر أحسنت تمثيل مصر أمام الدنيا . وقدمت لمصر خيرا كثيرا بمشروع الوفاء والأمل ، ولهذا فإننى أدهش لأن معظم من كتبوا من الشبان يحملونها مسئولية الكثير مما أصاب السادات وهذا ظلم بين . وأنا أعلم أن الشعوب كما تظلم تظلم ، ولن تستطيعى يا سيدتى رفع هذا الظلم عن نفسك لأن محاكمات قتلة السادات وقضايا بعض آله ، ألحقت بك أنت بخاصة أضرارا بلا حدود وأنت يا سيدتى زميلة علم وعضو معنا فى هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وأنا أعرف أنك تودين العودة إلى طلابك وجامعتك ، ولكن دعايات السوء تحول بينك وبين ما تريدين . وأنا واثق أنك ستعودين يوما إلى جامعتك ويومها ستعرفين كم يحبك هذا الشعب وشبابه .

ولكن الكثير من الشبان الذين كتبوا لنا ، يتعلقون بعبد الناصر أكثر من تعلقهم بالسادات . وما دام هذا رأيهم فهم أحرار فيه ، وعبد الناصر برغم كل ما ذكرناه من مساوىء حكمه كانت له شخصية بطولية تجتذب القلوب ، وكانت فيه فروسية تفتن النفوس ، وهذا الطراز من الرجال يستهوى أفئدة الشباب ، وما زال شباب العرب فى كل مكان يعتبرون عبد الناصر بطل العروبة الأكبر ، ونحن يسعدنا ذلك ، فقد مضى إلى ربه

وانقضى حكمه وبقيت صورته فى القلوب ، ومثل عبد الناصر فى ذلك مثل نابليون فبرغم أن حروب نابليون حصدت أكثر من مليون شاب من شباب فرنسا فإن الفرنسيين جميعا ــ بل أوربا كلها ــ بكته عندما مات منفيا فى جزيرة سانت هيلانه سنة ١٨٢١ ، لأن أمثال نابليون وهارون الرشيد وعبد الناصر لهم دائما شخصيتان : تاريخية واقعية وأخرى أسطورية ترجع إلى ما يتمتعون به من شخصية كارزمية ، ولو أننا كنا نملك وثائق عن العصر الناصرى فربما كان قد تبين لنا أن الكثير من أخطائه يرجع إلى حاشية السوء التى كانت من حوله . . .

وقد بينت فى الفصل السابق أن التاريخ لا يعرف ماضيا أو حاضرا ورجوت لهذا أن نستطيع الإفادة من تجارب العصرين الناصرى والساداتى . .

ونحن اليوم فى عصر جديد من عصور ثورتنا : عصر يتميز بالشرعية القانونية ، فقد انتهت إلى الأبد ــ نرجو ــ عصور ما سمى بالشرعية الثورية ، وهى عصور الظلم والعدوان والحكم بأوامر تصدر من السيد الأعلى المطاع ٠ ولا معقب على ما يأمر به ، وعشرات الناس سجنوا بمكالمة تليفونية أو حتى بإشارة باليد ، ودخلوا السجون وماتوا فيها بعد المحنة والعذاب . . وإن من العجيب أن المصادرات والتأميمات استمرت حتى وفاة عبد الناصر لأن المسألة كانت نهبا غير منظم لأموال الناس ، وعدوانا غير محدود على الأنفس والأموال . .

عصرنا هذا الحالى هو الثالث من عصور ثورة يوليو ١٩٥٢ ونرجو أن يكون عصر البناء والرخاء والاستقرار والصعود المستمر بإذن الله ، ولهذا لا ننسى الماضى لأننا لا نريد أن نعود إليه ، ولكننا نريد نسيان الأحقاد والعداوات حتى يكون العصر الجديد عصر تقدم وعمل وإنتاج ورخاء وتعاون ومحبة .

إن الماضى لا ينسى ولا ينبغى أن ينسى حتى نفيد من دروسه وعبرته ، ولكن الأحقاد لابد أن تنسى ، ومكان العداوة والشك والاحتقار وامتهان الكرامات ينبغى أن تحل المواطنة والمساواة واحترام المواطن لأخيه المواطن واحترام العامل لعمله واحترام الحاكم للمحكوم لأن العصر الحديث لا يعرف حاكما ومحكوما وكلنا فى وطننا حكام وكلنا محكومون وسيدنا كلنا هو القانون والأخلاق ، ليس هناك راع ورعية بل مواطنون متساوون ، وليس من الضرورى أبدا أن يحصل الراغب فى الحكم على ٩٩٩, ٩٩ ٪ من الأصوات ليكون حاكما شرعيا ، تكفيه ٦٠ ٪ هنا يشعر الناس حقا بأن الانتخابات كانت انتخابات صحيحة وفى اليوم الذى تعلن فيه نتائج الانتخابات فى مصر ويتبين أن الحزب الذى سيتولى الحكم حصل على ٦٠ ٪ من الأصوات نشعر حقا أننا دخلنا فى عصر جديد من الجدية والسياسة السليمة . .

إن بلدنا فى أزمات ومتاعب ، وهذه الأزمات والمتاعب لن يحلها حزب واحد ، أو رجل واحد ولن تحلها الحكومة وحدها بل لابد أن يتعاون كل المواطنين لكى يستطيع الوطن أن يسير إلى الأمام ، وقد انتهى إلى الأبد حكم الرجل الواحد . . وأسطورة الزعيم الأوحد الذى لا يخطىء هى أسطورة الظلم الأسود والاستبداد الغاشم والأخطاء القاتلة . . ولم يعد فى حياة الأوطان الحرة المحترمة اليوم آلهة أو أنصاف آلهة يحكمون . . أو أبطال يتصورون أنهم يوجهون التاريخ بخطب يلقونها من الشرفات . . أو بأوهام تزيف على الشعوب . . أو بإيقاع الفرقة بين المواطنين كما كان عبد الناصر يفعل عندما كان يخاطب الجماهير الساذجة فى خطبه ويحرضها على المثقفين والمتعلمين ويسميهم بالأفنديات . . والسادات سار فى نفس الطريق مرة . . وقال إن الأفنديات ـ يريد المثقفين ـ يعيشون فى مساكن مكيفة الهواء بينما بقية الشعب تتضور من الجوع . . وهذا كله غير صحيح . . فإن أقل الناس دخلا فى تاريخنا كله هم المثقفون والمعلمون والكتاب والمفكرون . . وتحريض العامل على صاحب العمل كان جريمة . . وتجرئة المزارع على صاحب الأرض انتهت بخراب المزارع . . والقول بأن مصر كان فيها إقطاع غاشم شامل تضليل . . والظلم لم يقتصر أبدا على صاحب الأرض بل إن زارع الأرض يمكن أن يكون أشد ظلما وجناية على الوطن من مالكها . .

ولابد أن ينتهى عصر التفريق بين عامل وغير عامل . . فكلنا عمال وإن اختلفت الوظائف والمهن والمواقع والثياب . . والمثقفون الصادقون كلهم عمال . . وينبغى أن يكونوا هم قادة هذا الشعب فى مسيرة الحضارة والتقدم والرخاء . . والمثقفون ليسوا ابدا طبقة قائمة بذاتها . . ولا يمكن أن يكونوا كذلك . . فإن فى كل قطاع من قطاعات الأمة مثقفين ومفكرين وأدباء وكتابا . . وبين العمال اليدويين مثقفون وفنانون لا يقلون عن الأدباء المحترفين . . وفى الأساتذة ناس لا يمكن أن يوصف تفكيرهم إلا بأنه إسفاف وجهل . . فما معنى التفرقة إذن بين عمال وزراع ومثقفين . . ؟

والقضاء على هذا كله لا يتم إلا بالحرية والصراحة ومواجهة الناس بالحقائق والصدق بين المواطنين . . كلنا فى المسئولية سواء وليس لنا إلا سيد واحد هو القانون . .

وهذا هو العصر الجديد الذى بدأ فى أيام مبارك . . ولابد أن نؤمن بذلك جميعا ونقف صفا واحدا فى خدمة الوطن . . إن مصر بلد عظيم يستطيع أن يكون من أغنى بلاد العالم بالعمل والصدق والإيمان والإخاء والحرية . .

وهذا طريقكم فسيروا فيه على بركة الله . .

بقيت بعد ذلك وثائق وأدلة وبراهين ورسائل قراء أعزاء ذات قيمة تاريخية وفقرات من كتب وأحكام قضاء . . وتلك هى ملاحق هذا الكتاب .

الملاحـــــــــــق

« ملحق رقم (١) »

فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . وبعد نجاح الضربة التى قام بها يوسف صديق ، تجمع الضباط فى غرفة اللواء محمد نجيب الذى أصبح القائد الأعلى للجيش . .

وكلفوا اثنين منهم هما عبد الحكيم عامر وجمال حماد بكتابة نص البيـان الذى سيـذاع على الشعب صباح ٢٣ يوليو معلنا نجاح الثورة . . وقام جمال حماد بكتابة البيان بخط يده كما يرى القارىء فى صورة منه . . وليس فى النص كما كتبه جمال حماد أى ذكر للشعب أو الدستور . . إنما هو يتحدث عن حركة داخل الجيش . .

وعندما عرض البيان على اللواء محمد نجيب أضاف بخط يده بعض كلمات اعتبرها جمال حماد إضافة لا أهمية لها . . هذه الكلمات هى : للشعب المصرى و « فى ظل الدستور » . .

ولم يدر بخلد جمال حماد أن هذه الكلمات هى التى جعلت حركة الجيش ثورة شعب . . وقد عوقب محمد نجيب على ذلك على ما هو معروف . .

(انظر الفصل السادس عشر من هذا الكتاب : الثورة والثوار . .)

« ملحق رقم ٢ »

مقال فريد فى بابه من أمثله التصرف فى ظل جريمة « الشرعية الثورية » . .
هذا نص قرار جمهورى بالقبض على المواطن محمد صلاح الدين محروس وآخرين دون تحديد . . ومن الممكن للذين تسلموا هذا القرار لتنفيذه أن يقبضوا به على أهل مصر أجمعين . .

قـــرار

رئيس الجمهورية العربية المتحـــدة

رقم ٢٨٧٣ مكرر لسنة ١٩٦٥

رئيس الجمهوريــة

بعد الاطلاع على الدســتور

وعلى القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن بعض التدابير الخاصة بأمن الدولة

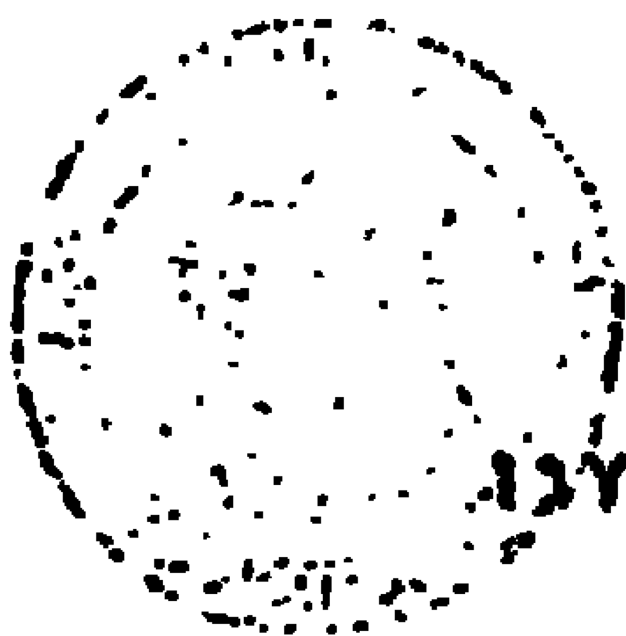
قـــرر

مادة اولى : اعتقال : محمد صلاح الدين محروس مصطفى (وشهرتـــه صـــلاح) ـ واخريـــن

مادة ثانيــة : يحجــزوا بمكان أمين ٠

صدر برئاسة الجمهورية في ٢ جمادى الأولــى ســنـــة ١٣٨٥ هـ
(٢٩ أغسطـــس ســنـــة ١٩٦٥ م)

(امضـــاء)



صـورة طبق الاصـل :

نسخ فى يوم ١٩٧٦/٢/٢٨

عشوب :

« ملحق رقم ٣ »

« أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث »

هذا هو حكم القضاء فى قضية تعذيب مراكز القوى للمواطنين المصريين فى قرية كمشيش بمحافظة المنوفية فى صيف ١٩٦٦ والفقرة التى نوردها فيما يلى قبسناها من الصفحة الأولى من العدد ٢٥٣ من جريدة الأحرار الصادر يوم الاثنين ٢٠ مايو ١٩٨٣ . .

« هذا وقد أشار إلى فظائع كمشيش الرئيس السادات فى كتاب : البحث عن الذات . »

*** القضاء يدين مراكز القوى .**

قضت محكمة جنوب القاهرة الابتدائية بأن تدفع الحكومة ١٥٤ ألف جنيه تعويضا لتسعة مواطنين قامت مراكز القوى بتعذيبهم فى قرية كمشيش بمحافظة المنوفية فى صيف عام ١٩٦٦ واستمر تعذيب بعضهم حتى عام ١٩٦٨ . .

كان ٩ مواطنين قد أقاموا ٣ دعاوى لتعويضهم عما أصابهم من تعذيب على أيدى زبانية مراكز القوى فى أحداث كمشيش من مايو ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨ . .

الدعوى الأولى أقامتها « منجدة طولان » والشقيقتان « فريال وزكية عبد الله الفقى » اللاتى تم تعذيبهن والاعتداء عليهن علنا فى ساحة القرية ، والدعوى الثانية أقامها أحمد رمضان قشقوش ومحمد مبروك الأشقر والدسوقى درويش والشيخ عبد الحميد عبد الجواد والشيخ عبد القادر عبد اللطيف وقد تم تعذيبهم فى قرية كمشيش فى مايو ١٩٦٦ ثم أودعوا السجن الحربى ـ تحت التعذيب ـ حتى عام ١٩٦٨ ، والدعوى الثالثة أقامتها « هيام عبد الفتاح راضى » وقد طالبت بالتعويض عما لحق بزوجها المرحوم محمد عبد الله الفقى من التعذيب . .

قال سعيد الفقى وسعيد عبد الغنى محاميا المجنى عليهم فى عرائض الدعاوى الثلاثة : إن مراكز القوى استغلت حادث مقتل المواطن صلاح حسين فى قرية كمشيش ونفذت خطتها لتصفية العائلات فى المنطقة ، وإن رجال الشرطة العسكرية ألقوا القبض على أعداد كبيرة من الأهالى فى مايو ١٩٦٦ واتهموهم بقتل صلاح حسين وبينهم المجنى عليهم ، حيث تم تعذيبهم ثم نقلوا بعضهم إلى السجن الحربى لمواصلة عمليات التعذيب حتى عام ١٩٦٨ . .

تم ضم القضايا الثلاث فى قضية واحدة نظرتها محكمة جنوب القاهرة الابتدائية برئاسة المستشار عبد الحميد محمود عمر وعضوية القاضيين محمد جمعة عبد القادر ومجدى مرسى خليل وأمانة سر رمضان عبد الصمد . . وأصدرت حكمها بأن تدفع الحكومة للمجنى عليهم ٨٩ ألف جنيه تعويضا .

وقالت المحكمة فى حيثيات حكمها التى أعلنتها فى الأسبوع الماضى ، « إن الفترة التى جرت فيها أحداث هذه القضية هى أسوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث فهى فترة

ذبحت فيها الحريات وديست فيها كل كلمة للإنسان المصرى ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال وأقر الرجال فيها بالتسمى بأسماء النساء ووضعت ألجمة الخيل فى فم رب العائلة وكبير الأسرة ولطمت الوجوه والرءوس بالأيدى كما ركلت بالأقدام كما هتكت أعراض الرجال أمام بعضهم وجيىء بنسائهم أمامهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ودربت الكلاب على مواطأة الرجال ، والمحكمة لا يسعها إلا أن تسجل بأن المخلوق الذى ينسى خالقه ويأمر الابن أن يصفع وجه أبيه أمام الناس ، هو مخلوق وضيع وتافه » . .

وأول أمس السبت أصدرت نفس المحكمة حكمها بأن تدفع الحكومة ٦٥ الف جنيه تعويضا لمصطفى عبد الله الشريف ولورثة المرحوم عبد القادر حافظ الوكيل لما لقياه من تعذيب فى أحداث كمشيش . .

أصدرت المحكمة حكمها برئاسة المستشار عبد الحميد محمود عمر وعضوية القاضيين علاء عبد الحميد البنى وحسن أحمد الضبع وأمانة سر رمضان عبد الصمد ، وقالت المحكمة فى حيثيات حكمها « إن المحكمة تسجل فى حكمها كما سبق أن سجلت فى حكم سابق - للتاريخ - معاصرتها لهذه الأحداث التى تقشعر لسماعها أبدان كل حريدين بالولاء والتقديس للواحد الأحد ولا يرضى بالعبودية لغيره ، ولا يشرك فى أمره أحدا ، مهما تسلط وتجبر » . .

جريدة الأحرار « الاثنين ٣٠ مايو (آيار) ١٩٨٣ ـ ١٧ شعبان ١٤٠٣ السنة السادسة ـ العدد ٢٥٣ »



« ملحق رقم ٤ »

« المحكمة العسكرية العليا تدين العصر الناصرى »

الرسالة التى أورد نصها فيما يلى جاءتنى من السيد اللواء حسن صادق رئيس المحكمة العسكرية العليا التى نظرت وحكمت فى قضية التعذيب الكبرى ٣٣١ لسنة ١٩٧٦ . .

ولا يفوتنى أن أتوجه بالشكر لسيادته والتقدير العميق لعدالته ووطنيته وانسانيته . .

القاهرة فى ١٩٨٤/٧/١٦

السيد الفاضل/حسين بك مؤنس

بعد التحية

أتابع بشغف وإعجاب ما تسطرونه فى مجلة أكتوبر من وقائع للثورة منذ أن قامت وحتى نهاية عصر السادات وقد قرأت اليوم للأسف أنكم تؤرخون قيام محكمة كمشيش بإدانة حكم عبد الناصر ، والحقيقة أن المحكمة العسكرية العليا التى كنت أتشرف برئاستها فى خلال عام ١٩٧٦ والتى نظرت أمامها وقائع التعذيب فى عهد عبد الناصر والتى تحاكم أمامها الفريق أول محمد صادق وزير الحربية قد أصدرت حكمها فى ١٩٧٦/٥/٢٢ . وكان هذا الحكم هو أول حكم يصدر من محكمة مصرية يدين عهد عبد الناصر فى الوقت الذى كان أنور السادات يعلن فى كل مكان أنه مشترك مع عبد الناصر فى المسئولية . . وقد دهش الصحفيون عند إذاعة الأسباب المرفق صورة منها ، لشجاعة المحكمة كما دهشت صحافة العالم كلها وأذيع الحكم بأسبابه فى جميع أنحاء العالم كتعبير عن جو الحرية والشجاعة الذى يسود مصر فى هذا الوقت ، وكان ذلك مما دعا القضاة المصريين فى قضايا التعذيب بعد ذلك إلى حذو حذونا فى الشجاعة وفى إدانة عهد عبد الناصر . .

وهذه كلمة للتاريخ وللمؤرخ البطل حسين مؤنس ، مع خالص التحية . .

لواء حسن صادق

رئيس المحكمة العسكرية العليا وقتئذ

من أسباب الحكم فى قضية التعذيب الكبرى ٣٣١ لسنة ١٩٧٦ أمام المحكمة العسكرية العليا برئاسة اللواء/حسن صادق فى ١٩٧٦/٥/٢٢

إن المحكمة لتسجل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوى كانت سبة فى جبين الحكم المصرى يندى لها الجبين خزيا وعارا ، ولعل فى حكم المحكمة ما يسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأهينت كرامة الإنسان الذى كفل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨ م حدها الأدنى بما نص عليه فيه من أن جميع الناس أحرار متساوون فى الكرامة والحقوق وأن لكل منهم الحق فى الحياة والحرية والسلامة الشخصية ، وأنه لا يجوز استرقاق أو استعباد أى شخص أو تعريضه للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الماسة بالكرامة ، حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسياط توصلا للإرهاب وللإلقاء فى غياهب السجون أو تقربا وزلفى للحكام والرؤ ساء رغبوا هم فى ذلك أم رغب فيه فاعلوه ، حقبة من تاريخ مصر ساد فيها الظلام وسلط فيه سيف الاعتقال على الرقاب ، حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربى بمصر ، حقبة من تاريخ مصر أعادت للأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجرى فيها من مخاز وفظائع ، حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلى ابتكار وسائل للتعذيب إرضاء لشهوة التعذيب فى داخلهم حتى لقد أدخلت التعديلات على (الفلقة) التقليدية وتم تطويرها لتكون أكثر إيلاما وأشد تأثيرا ، حقبة من تاريخ مصر كان فيها السجن الحربى بمثابة التنين الرهيب الذى يخشى كبار القادة مجرد الاقتراب منه أو معرفة ما يدور فيه أو حتى سماع أخباره إيثاراً للسلامة حتى لقد قال عنه اللواء/سليمان مظهر الذى تولى عضوية محكمة الثورة واشترك فى إصدار الحكم فيها ـ قولته المشهورة أمام المحكمة . « أنه آثر الابتعاد عن الشربل وقرع عقيرته له بالغناء » .

حقبة من تاريخ مصر كانت فيها مصر كالنار تأكل بعضها ، بأمر من كان كل هذا ؟ . ولمصلحة من كان هذا ؟ . ومن المستفيد من كل هذا ؟ . أسئلة تطرح نفسها على استحياء تتساءل عما تعرف يقينا إجابته .

وقد شاءت عناية الله أن تحل بمصر إشراقة النور والحياة بعد طول الظلام وتبزغ شمس الحرية ونور سيادة القانون وتعلو كلمة القضاء تنفيذا لشريعة الله فى أرضه . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولكم فى القَصَاصِ حيوٰة يا أولِى الألباب . . . » .

(صدق الله العظيم)

«ملحق رقم ٥»

«مأساة المستشار/على جريشه وضحايا آخرين»

إن هدفنا من ذكر مآسى الماضى هو الرجاء فى ألا تعود مرة أخرى . . ومهما بلغ من حماس بعض المواطنين لذكرى العصر الناصرى فإننى أظن أن أحدا منهم لا يتمنى أن يعيش فى ظل عصر مثله . . فإذا وجد مثل هذا المواطن فليقرأ هذه الصفحات التى نقتبسها من كتاب الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عبده «تاريخ بلا وثائق» القاهرة ١٩٧٥ ص ٥٥ - ٦٥ .

جرائم لا سلبيات :

بعض الناس يسمى الجرائم التى ارتكبت فى حق المواطنين سلبيات يحسن أن نغفلها وعفا الله عما سلف ، مادام الرئيس السادات قد عالجها ومسح دموع الأيامى واليتامى الذين قتل آباؤهم واستشهدوا ، أو فصلوا وشردوا !. .

إن كثيرا مما حدث فى مصر خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر ليس فى حاجة إلى وثائق نعود إليها بعد خمسين سنة ، فهو مكشوف ومعروف يعلن عن نفسه وليس سرا من أسرار الثورة التى اعتبرناها ثورتنا جميعا ، وأرادت فئة قليلة شريرة أن تحتكرها لنفسها ، وترتع فى خيراتها وتستعبد باسمها أحرار البلاد من ضباط ومدنيين جلت أقدارهم أو هانت موازينهم .

لقد محا الرئيس السادات آثار الجرائم التى ارتكبتها لجان التطهير ومحكمة الثورة ومحكمة الغدر انتهاء بمحكمة الدجوى تلميذ المهداوى فى العراق ، وأصبحت ذكرى هذه اللجان والمحاكم تثير السخرية والتندر والاستهزاء . .

نريد أن نعلم صحة الإشاعات التى لا تكف الألسنة عن ذكرها والتعليق عليها . . هل صحيح أن فى صحراء مدينة نصر كشف عمال البناء عشرات أو مئات الجثث مدفونة فى الرمال بأزيائها المختلفة ، ممثلة لقوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين ومثقفين ؟

وإذا صح هذا فمن ذا الذى دفنهم ؟

وهذا الذى دفنهم . هل عوقب وأعدم وصودرت أملاكه ؟ أو لا يزال يرتع فى خير منهوب أو مال مسروق والدم يقطر من يديه إعلانا بأن الطغيان سيد لا يهان ؟. . .

أما الذين أهانوا المواطنين وعذبوهم وأهدروا آدميتهم فليس هناك شك فى ارتكابهم هذه الجرائم ، فإن حكم المحكمة الذى أصدرته فى قضية المستشار على جريشة قد قطع الشك باليقين .

ماذا حدث مع مستشار ؟

قالت المحكمة «عذبوه بوحشية ، فأوسعوه ضربا حتى شوهوا وجهه واختلطت معالمه واختفت ملامحه حتى عز على جاره وصديقه التعرف عليه إلا بعد التفرس فيه وإطالة النظر اليه . . . . مزقوا جسده بالسياط حتى أثخنوه جراحا . . أسالوا دمه حتى استحال قيحا وصديدا . . أذلوه حسا

ومعنى حتى أعجزوه عن أن يقف على قدميه وأرغموه على أن يزحف على أربع ، وكان غاية الهزء والازدراء والتفنن فى القسوة والتعذيب وإلحاق الإهانة والهوان به أن يطلبوا منه أن ينبح كالكلاب . علقوا جسده وألهبوه بالسياط وقذفوه بأقذع وأفحش ألفاظ السباب » .

فعل زبانية السجن الحربى هذا فى قاض ، ولنتخيل مايمكن أن يصنع فى غير القضاة !

وشهد شاهد بأنه دعى الى السجن الحربى لسؤاله ، ودخل الى « باستيل مصر الرهيب » كما سماه المعتقلون فإذا به يفاجأ وكأنه فى معركة والجثث داخل السجن ملقاة على الأرض الملوثة بالدماء ، وأنه يكاد يكون قد وطىء بعض هذه الجثث ، وإذ به وسط صراخ وأنين ونباح كلاب ، واقتادوه إلى غرفة عمليات السجن وهى غرفة مفتحة الأبواب وقد علق فيها البشر كالذبائح وقد تولى كل ذبيحة أربعة يلهبونها بالسياط ، والمعذبون يستجيرون بالله سبحانه وتعالى وكلما تمزقت السياط فى أيديهم أبدلوها بغيرها جديدة ، ثم أدخلوه غرفة يمثلون فيها بالجثث .

وقرر الشاهد « أن الاعتداء على المستشار على جريشة وقع أمامه فى حضور العميد سعد زغلول وحسن خليل وحسين كفافى ، وأن أشخاصا من العسكرين كانوا ينهالون بالضرب بأيديهم وأرجلهم على المدعى (يقصد المستشار على جريشة) وكلما وقع إعياء رفعوه ليضربوه وهم يسبونه بألفاظ يعف اللسان عن ذكرها » .

ويسجل الحكم صورة مروعة لحالة المستشار جريشة ، فقد طلبوا منه أن ينزل من زنزانته (للتمام) . وقال الشاهد يصف نزول جريشة للتمام : « إنه شاهد شخصاً ينزل زاحفاً على أربع ، ركبتيه وكوعيه وهو يصرخ ويئن أثناء نزوله سلالم السجن الحربى الخرسانية المرهقة للشخص السليم العادى . . »

ثم يقول الشاهد : إنه بعد التمام بتسجيل الأسماء صعد نزيل الزنزانة ٤٩ (يقصد جريشة) بنفس الطريقة التى نزل بها زاحفا على أربع .

كان القصد من تعذيب جريشة بهذه الصورة التى لم تعرفها حتى العصور الوسطى ، إلقاء الرعب فى قلوب سائر المعتقلين ، وكان الضباط الزبانية يقولون لهم : إننا نفعل كل هذا بقاض فما بالكم أنتم إذا أردنا تعذيبكم ؟ ! .

وكان الدكتور رمزى استينو الشاهد الأول فى قضية المستشار على جريشة ، وكان يشغل وقت القبض على جريشة منصب نائب رئيس الوزراء لشئون التموين ، وقد شهد بأن العهد « كان عهد إرهاب ومعتقلات وتعذيب بالسجن الحربى وثكنات مصطفى كامل بالاسكندرية ، وكان يقوم على تلفيق التهم للأبرياء .

ويبدو أن المسئولين عن الحكم فى ذلك الوقت قد انعقدت نيتهم على قتل جريشه وفى ذلك سجلت المحكمة على لسان أحد الشهود بأن شمس بدران قال : « إن أمرا صدر إليه من الريس بتعذيب جريشة حتى الموت » ! . . . .

وقد دمغت المحكمة سلوك الحاكم « بأن التعذيب كان نظام عهد وأسلوب حكم إرهابي كان يهدد كل إنسان حتى نواب رئيس الوزراء ثم قالت عن أصحابه « إنه عار على من ارتكبه وخزى له فى الدنيا والآخرة » .

وقد ازدادت الخسة والدناءة بضباط السجن الحربي فعمدوا إلى تحطيم جريشة وهددوه - كما فعلوا بغيره - بالاعتداء على عرض قرينته ، وفى ذلك تقول المحكمة : « كانت هناك سيدات يعلقونهن ويضربونهن ، وهددوا المدعى عليه (أى جريشة) بإحضار زوجته لتعذيبها والاعتداء على عرضها كما فعلوا مع آخرين أحضروا زوجاتهم وأخواتهم وأصهارهم ومنهم على سبيل المثال الشيخ محمد عبد المقصود الذى أحضروا زوجته وبناته وأزواجهم وزوجات أولاده وكذلك المستشار مأمون الهضيبى الذى أحضروا زوج ابنته وأخواته البنات ووالدته » .

أكاد بعد ذلك أصدق ما أسر إلى به أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٩ فقد قال : إن « صفيا » من أصيفاء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات ـ وكان ذلك فى مكتب الراوية ـ يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهى أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهى لاتتجاوز الرابعة عشرة من عمرها قد أحضروها وفسقوا بها جنديا بعد آخر حتى ماتت ؟ !

وذعر « الصفى » لهذا النبأ ، وذهب فى سيارة الراوية الى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذى تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذابالرئيس يقول له « وانت مالك . . هى بنت اختك ؟ » ؟ !!

وصدم الصفى صدمتين ، الأولى أنه لم يكن يعلم أن الرئيس يعلم بكل مايجرى فى السجون والمعتقلات . . والثانية أنه ينقل النبأ إلى الرئيس فى أسلوب الساخط على الفعل وكأنه بذلك قد شذ عن النقاء الثورى ! الذى يفترض فى صاحبه التجاوب مع النظام وتأييده لكل ما يرتكب من جرائم وآثام . وعقاب الصابئين أمثاله شديد الوقع على النفس والولد والمال . . .

ووقع الرجل عند درج « السلاملك » ونقله الراوية الذى كان فى انتظاره بالسيارة إلى المستشفى حيث بقى هناك ثلاثة أشهر يعالجون قلبه ، ولم يسأل عنه الرئيس إلا قبيل خروجه منه بأيام ؟

وخلال الأشهر الثلاثة التى كان يعالج فيها « الصفى » نقل ضابط المخابرات الذى روى قصة الفتاة ومصرعها إلى أسوان ثم أحيل إلى المعاش !

إن فن التعذيب ، وقد أصبح التعذيب فنا فى العهد الماضى ، قد وضعت له قواعد وأسس يلتزم بها أصحابها ، ويذودون بالطبع عن النظام الذى أبدعها والذى يجب أن يدوم وإلا طارت رقابهم بزواله . . .

وقد حدثنا الرئيس السادات فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بأن رئيسا للوزارة فى عهد الرئيس الراحل عبد الناصر وهو من أبرز أعضاء مجلس الثورة استورد بعشرات الألوف من الجنيهات أدوات للتعذيب من الخارج .

وأذيع حديث الرئيس فى الراديو ، واستمعنا إليه وهو يرويه عبر التليفزيون ، وقرأناه فى الصحف ، ولم نكن نعلم حتى ذلك الوقت أن للتعذيب أدواته ، فذلك تاريخ قديم لعهود الظلام إبان العصور الوسطى أو فى محاكم التفتيش التى أنشأها الأسبان .

وإذا كان رئيس الوزراء ذاك قد استورد أدوات للتعذيب فلابد أنه خطط لمزاولتها ودرب زبانيته على استعمالها ، وفى ذلك تروى القصص والحكايات .

منها حكاية المستشار جريشة الذى أوصى شمس بدران بتعذيبه حتى الموت ! ومنها تعذيب الشيوعيين والإخوان المسلمين بوسائل مشابهة لما اتبع مع ذلك المستشار ، وزيد عليها تعذيب معنوى لا يحتاج إلى أدوات بل يحتاج إلى جند خصصوا للفسق فى المعتقلين أو فى حرائرهم وعلى مشهد منهم . .

ومنها قتل المعتقلين أو دفنهم أحياء فى صحراء مدينة نصر ، ومنها ما عمد إليه الزبانية من استغلال حاجة الزوجات وبناتهن إلى المال بعد أن حرموا عائلهن وحرموا ثروته التى صادروها فراودوهن عن أنفسهن ووصلوا مع بعضهن إلى بغيتهم ، وزلت الشريفات واعتدن الزلل . .

ولم يكتف الزبانية بذلك ، بل حاربوا من لجأ إلى الخارج فى رزقه ، وطاردوه عند الدولة التى آوته أو استعانت به وكل ذلك تزيدا فى الظلم والعدوان .

ثم ماذا ؟

وبمناسبة اعتراف المسئولين عن المخابرات فى عهد الرئيس الراحل بأن الدولة كانت ترى السم أداة فى أى حوار مع خصومها ، يتساءل الناس كيف قتل الدكتور أنور المفتى أحد أعلام الطب فى مصر ؟

هل صحيح أنه تناول السم دون أن يدرى بعد أن وقع الكشف الطبى على الرئيس الراحل بحضرة جمع زملائه الأطباء ؟

وهل ناولوه السم لأنه جرؤ وحده وأعلن ضرورة إعفاء الرئيس من مسئولياته لأن المرض يؤثر على تصرفاته بما يضر المصلحة العامة ؟

إذا صح هذا فمن الذى ناوله السم ؟

أعتقد أن الذين دسوا السم للطبيب عصبة مراكز القوى ، لأن تنحية الرئيس المريض ستأتى مكانه برئيس معافى سليم يكشف جرائمهم وفضائحهم ويحرمهم السلطان المطلق الذى يسوسون به أمور البلاد كضيعة ورثوها عن آبائهم وأمهاتهم ! .

متى يصح الصحيح ويؤخذ المجرمون بجرائمهم ؟

وإذا تركنا هذه الجرائم الخطيرة التى تمس حياة الإنسان وعرضه ، والتى يسمونها سلبيات تدليلا لها ، كما سموها نكسة تلك الهزيمة الشنعاء ، وهى تسمية تكشف عن وزن صاحبها للنكبات والويلات !

إذا تركنا هذه الجرائم ، فإن هناك جرائم أخرى ارتكبها أصحابها ولا يزالون يتمتعون بحق المواطن الصالح النظيف كأنهم لم يسرقوا ولم ينهبوا ولم ينصبوا ولم يستغلوا الوظيفة التى شغلوها أو السلطان الذى تبوءوه حتى استشرى الفساد وكاد يصبح قاعدة للحياة فى البلاد .

هل حوسب الذين استغلوا صلة النسب بالسيد على صبرى رئيس مجلس الوزراء فى قضية الاستيراد والتصدير ؟

هل نوقشت أسباب الخلاف التى وقعت بين النائب العام المستشار محمد عبد السلام ووزير تموين ذلك الزمان ؟ وهل حوسب هذا الوزير أمام القضاء أو أمام مجلس الشعب فيما وجهه إلى النائب العام من انحرافات ؟ .

وماذا عن قضية الشركة العقارية المصرية ؟ وما دور وزير الإصلاح الزراعى فى ذلك العهد العامر بقضايا الفساد ؟

وماذا اتخذ من إجراء فيما حدثنا عنه النائب العام بالوثائق والأسانيد خاصا بقضية النقل البحرى المتهم فيه عديل وزير المواصلات ؟

وهل سئل محافظ القاهرة الذى أعطى القانون إجازة عما ذكره النائب العام فى كتابه الموثق عن تصرفات المحافظ وكلها خطايا وهنات ؟

وهل حوكم امرؤ من المهربين الذين حمتهم السلطات ؟ وهل صحيح أن الرئيس الراحل عفا عنهم ورد لهم أموالهم كما حدثنا بذلك كبير فى القصر الجمهورى فى مقال له عن الرئيس بعد وفاته وهو يعدد له الأفضال والحسنات ؟

هذه أمثلة لجرائم نشرها وقصها النائب العام فى كتاب قرأه عشرات الألوف من الموطنين فهل تحركت سيادة القانون لمحاسبة هؤلاء المجرمين ونصبت لهم الموازين ووقعت على كل منهم ما يستحق من جزاء حتى يكون عبرة لكل من يفكر فى ظلم الناس أو سلب أموال تحالف قوى الشعب العاملة التى يحكمون ويسيطرون باسمها على مقدرات الناس ؟

وهناك مئات الأسئلة وكل سؤال ينطوى على رواية أو قصة يجب أن يكون لها حساب وعقاب .

منها سؤال عما نشرته أخبار اليوم فى أغسطس ١٩٧٣ عن ملايين هربت إلى سويسرا . . وقالت الصحفية إن سفيرنا استطاع أن يحصل على مليونين منها . . وأنه سوف يجاهد عند المسئولين فى ذلك البلد ليسترد لمصر نحو تسعة ملايين أخرى . . خرجت منها عملة صعبة فى وقت ندرت فيه هذه العملات . .

ما أظن اشتراكيا مصريا من أصحاب الملايين الجدد هو الذى هرب هذه الملايين . . وإلا ذكرت الصحفية اسمه وفضحت سره واستغلت قصة تهريبه لهذه الملايين لتظهر همة الحكومة فى السعى وراء صالح البلاد .

إنه بلا جدال شخصية كبيرة جدا إذا عرف اسمها تهـدم الصرح العـالى وانهارت الدعـوة وصاحبها . . وهربت الفئران من السفنية . . وأسدل الستار على جيل من تاريخ مصر هو أسوأ ما عرفته من أجيال . ؟!

إذا لم يكن استنتاجنا صحيحا فلم حبس عن المواطنين الاسم أو الأسماء التى هربت أموال الشعب ؟ وما الفائدة من نشر الخبر إن لم يكشف سره وتـذع تفاصيله ؟ ومـاذا تم فى الملايين الأخرى ؟ هل استردتها البـلاد أو لا يزال السفـير يجاهـد ولا تزال الحكـومة تنتـظر نتائـج هذا الجهاد ؟ . .

لعله سؤال يحول دون الإجابة عنه مقام صاحبه ذى الحصانات والقداسات ؟

وفى كتاب (القضية الكبرى) الذى كتب مقدمته الضابط ابراهيم الطحاوى سكرتير هئية التحرير وأحد الزعماء الذين قادوا المظاهرات فى مارس ١٩٥٤ تهتف بسقوط الحرية والسنهورى الجاهل احتجاجا على عودة الدستور والحريات للبلاد ، فى هذا الكتاب يقول مؤلفه « وقد جمعت مجوهرات أسرة محمد على بالاسكندرية فى ٣٧ صندوقا سعة الصندوق متر واحد مكعب » .

أين هى تلك المجوهرات ؟ ومن الذى جردها وتسلمها ؟ وأين وثائق الجرد والتسليم ؟ هل بيعت لحساب الدولة أو لحساب بعض الأفراد ؟

أو هى لا تزال فى صناديقها محبوسة لم يكشف عنها النقاب ؟

ويجر السؤال سؤالا . . .

وأين مجوهرات أسرة محمد على التى جمعت من قصور الأسرة فى القاهرة ؟

لقد جردها واستلمها ثلاثة من الضباط ، أعرف منهم اثنين ، واحد كان زميلى بـالمدرسة الخديوية وكم لعبنا معا كرة الشراب ! . . . ويقيم فى بيروت ويعيش حياة مرفهة فهو واحد من أصحاب الملايين هناك . والثانى كان تلميذى فى معهد الصحافة ، وقد باع منذ عهد قريب ــ كما يقولون ــ قصراً له بمدينة المهندسين قبض ثمنا له تسعين ألفا من الجنيهات !
أين مجوهرات قصور القاهرة ؟ هل بيعت هى الأخرى لحساب الـدولة أو لحسـاب بعض الأفراد ؟ أو هى لا تزال فى صناديقها حبيسة لم يكشف بعد عنها النقاب ؟

سؤالان لا يحيران الدولة إن هى جدت فى البحث والاستقصاء ، وسوف تجد أن بعض هذه المجوهرات قد بدد ، وعليها أن تسأل أصحاب هذا الثراء الجديد المفاجىء عن مصادر ثرائهم فإن أثبتوا أنه إرث من الآباء كان بها ، وإن عجزوا وجب تقديمهم للقضاء ليسترد تحالف قوى الشعب العاملة حقه من لصوص القصور وما فيها من مجوهرات .

وهناك سؤال يجرى على كل لسان فى النوادى والمقاهى والصالونات . . قيل إن صائغا فى إحدى عواصم أوربا دهش حين عرض عليه فتى وسيم الإهاب شراء قطعة من المجوهرات نادرة المثال ، وكى يتأكد الرجل من الجوهرة عاد إلى أضابيره ، فمثل هذه القطعة من المجوهرات لها

حسب ونسب كخيول السباق ، ووجد الصائغ أنه باعها من ثلاثين عاما لشاه إيران .

واستأذن الرجل من الفتى لحظات ، فقد تأكد أن الجوهرة مسروقة بلا جدال ، واستدعى الشرطة التى أخذت تسأل الفتى من أين جاء بها وهى ملك لامبراطور إيران ؟

وتدخلت السفارة المصرية وأنقذت الفتى من السؤال والجواب . . . وكان الشاه قد أهدى هذه الجوهرة لزوجته الأولى الامبراطورة فوزية شقيقة فاروق وابنة فؤاد . . .

وكانت الثورة قد صادرتها فيما صادرت من مجوهرات لا يعرف الشعب أين مصيرها الآن وإن عرف أن « واسطة » العقد قد سطا عليها ابن رجل طار صيته كل مطار !

هل هذا الخبر صحيح أو هو حديث نواد « وقهوات » ؟

وهذه قصة مماثلة بيد أنها تسمو على الشائعات . . .

وضع المليونير عبود هو وابنته تحت الحراسة ، وكان الأب قد أهدى ابنته طاقما للمائدة من الفضة الأصيلة فى إحدى المناسبات .

وكان الطاقم الرائع النادر يحمل باللاتينية الحرفين الأولين من اسم الابنة منى عبود M. A وكان هذا الطاقم ضمن أثاث بيتها الذى صادروا كل شىء فيه حتى الأحذية والثياب ! . .

وفى لندن عرضت طاقم الفضية للبيع سيدة أنيقة كان من غريب المصادفات أن اسمها هى الأخرى يحمل باللاتينية الحرفين الأولين M. A

واشترى الرجل الطاقم الفضى بضعف السعر الذى باع به لعبود منذ سنوات ، فكل شىء ارتفع ثمنه ، والفضة من هذا المقام وبهذه الأصالة وعلى هذا الطراز تضاعف سعرها مرات ومرات . . .

وقصة الطاقم تعرفها لندن ويحكيها المصريون هناك ، ولكن السؤال الخالد لا يزال حائرا ينتظر الجواب . . . كيف سطوا على هذا الطاقم وكيف أسقطوه من قائمة المصادرات ؟

ولا أتزيد مما يقوله الناس ، فأقوال الناس أكثر من أن تتسع لها صفحات كتاب . . .

وبعد أن قرأت كتاب النائب العام المستشار محمد عبد السلام ، رأيتنى لا أستبعد معظم ما يرويه الناس ، وعلى الدولة وحدها ، وهى التى تعرف كل الأسرار ، وهى المسؤولة عن أموال الشعب ومطاردة الفساد ، عليها أن تجيبنا أحقا هى إشاعات أم هى حقائق بينات ؟

لو أذن للقانون وهو السيد فى دولة المؤسسات أن يلاحق كل ما ذكرناه ، وجله حقائق رويناها ورواها غيرنا ، ويحاسب أصحابها ويأخذ بتلابيبهم ويوقع بهم الجزاء ، لجعلنا من هؤلاء اللصوص والمجرمين عبرة لجيل اليوم ولما سوف يأتى بعده من أجيال !

«ملحق رقم ٦»
«خلف البوابة السوداء»

مهما بلغت كراهة الإنسان لأخيه فإنها لا ينبغى أن تهبط به إلى مستوى هو دون مستوى البشر . . وفى الصفحات التالية التى نقتبسها من كتاب الأستاذ أحمد رائف «صفحات من تاريخ الإخوان» التاريخ السرى للمعتقل . . (القاهرة بدون تاريخ) صُوَر لمواطنين مصريين بلغوا فى تعذيب إخوانهم مبلغا يهبط بهم إلى مستوى الوحوش الكاسرة . . وليتهم مع ذلك كانوا يعذبون إخوانهم لحساب أنفسهم . . إنما كانوا يؤمرون بالتعذيب فيقبلون عليه وكأنهم يتسلون بما يفعلون . .

هؤلاء لن يغفر الله لهم أبدا . . وستردد هذا الكلام بعد أن تقرأ تلك الصفحات التى ترينا صورة من الجانب الأسود للعصر الناصرى . .

* * *

إنها حجرة فى الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة . . تقع أمام بئر الماء . . لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربى . . ويقع المستشفى أمامها مباشرة . . وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة فى نهاية الطريق المؤدى إليها . .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة . . فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها . . وقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون . . بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) حوالى مترين فى ثلاثة أمتار . . وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصديد . . وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة . . فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت . . وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة الجروح . . وهنا ينبغى التنويه . . لقد دخلنا المخزن وليس فينا واحد إلا وبه بعض الجراح . . والدم يسيل دون توقف . . أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر . . وجمد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار . . فقد قال الحراس إنهم لا يريدون أصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل . . وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات . .

شذ عن هذا واحد منا كان يحبس بوله . . وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياة قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة . . وبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندى عملاق كريه المنظر قد أمسك سوطا فى يده وصرخ فينا :

- هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟

وسكتنا جميعا ! . .

وفتح الجندى فمه بسباب قذر بذىء . . ثم صرخ ثانية مكررا نفس السؤال وكان الظلام شديدا . . فكان من الصعب أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه ، ولكن الخوف هو القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال . .

وتشجع صاحبنا . . وطلب الذهاب إلى دورة المياه . . وكان لواء فى الجيش فأخرجه الجندى الكريه المنظر من المخزن بعد أن مر هذا الزميل . . فوق جثث زملائه المكومة دون ترتيب . .

وأمام باب المخزن . . حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من المصابيح الموجودة فى المكان . . ضرب هذا الضابط الكبير ضربا شديدا موجعا . . ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه أمامنا وبعد هذا كله ألقوه فى البئر . . وعندما أوشك على الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا يقطر دما وماء . . وتركوه يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها . .

وكانت هذه (العلقة) مدعاة لاستغنائه عن الذهاب إلى دورة المياه . . فقد تبرز الرجل وبال على نفسه . . وصارت رائحته تزكم الأنوف القريبة منه . . وكان منها أنفى . . وبقى كل فى مكانه يجتر أفكاره وآلامه فى صمت رهيب ولم تكن تسمع همسة أو تحس بنأمة . . وكل ربع ساعة تقريبا يفتح الباب ويقذف إلينا بمعتقل جديد . . يقذف كما يقذف جوال ملىء بالبطاطس مثلا . . دون ما اهتمام . . وفى العادة يكون هذا الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله . .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد . . ولكن كانت هناك أيد تمتد فى الظلام لتكتم الأنات الخافتة الصادرة من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود . . وكان جوعنا شديدا وعطشنا أشد . . ولكن ! . . ما الجوع والعطش بجانب هذا الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور . . وبعد مدة سمعت أحدهم يهمس :

- يا جماعة . .

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير . . الكريه الرائحة من ملابسه المتسخة بالبول والبراز :

- ماذا تريد ؟ ألا يكفيك ما نحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بإلحاح :

- لقد اكتشفت شيئا هاما . .
- وما هو ؟ . .
- بجانب الباب وعاءان من المطاط . .
- ماذا تعنى . . ؟
- أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب . . ولكن لا أدرى على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشراب . .

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين . . يتبول الواحد فى إناء ويشرب من الآخر . .

وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى حياتى . . ولم يكن طعمه مريحا على أية حال . . وليس هناك داع لأن أقول إن أحدا منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة . . وربما لليال

أخرى أتت فى أعقابها . . وكانت الآلام التى واجهناها وعايشناها تشغلنا قليـلا عن التفكير فى التحقيق الذى قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات . .

وقـد قدر لى أن أعيش فى هـذا الانتظار أكـثر من أربعين يـوما حتى أرسلت بعـدهـا إلى التحقيق . . وقد رأيت كم هو مختلف عن مثيله فى أبى زعبل . . إنه القتل تحت السياط والأسياخ الحمراء . . وخلع الأظافر ونهش الكلاب وأسلاك الكهربـاء . . أو تحت وطأة ركـل الأحذيـة الثقيل . .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا باثنين ثم نودى على أحد الأسماء . . وقام صاحب الاسم يرتعد خوفا وفرقا ونحن نستمع إلى صرير أسنانه ، وصرت أركز بصرى فى الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر الساحة . . كان الضابط المسكين الذى لم يسترح من علقة المسـاء . . لقد طلبـوه للتحقيق . . وإنى أعتقد بعد مرور ذلك الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب إلى مصيره المجهول . .

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط . . وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبعت . . وفى لمح البصر سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه أو تخفيف آلامه التى كانت ممثلة فى أناته الخافتة المعذبة وكانت ملابسه غارقة بالدماء . . وكان من الصعب أن نعرف مصدر النزيف . . كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من كل مكان . . ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلىّ معها أن جنبات السجن قد ارتجت . . ثم سكن إلى الأبد . .

وكانت خسائر هذه الليلة . . اثنين من القتلى وأكثر من أربعين جريحا كما علمنا فيما بعد . .

جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين فى بطانية من الصوف إلى حيث لا يعلم أحد . .

وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة الرهيبة . .

لا أكتمكم أن أحدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا فى الليل . . لم يكن فى قلب أحدنا مكان للحزن فقد غطى الألم والخوف كل جوانحنا . . وكنا نغبط الذين ينجون من العذاب بالشهادة والذهاب إلى الله . .

فتح باب المخزن قليلا . . واستطعت أن أتبين فناء السجن من خلال عينى اللتين أضناهما السهر والألم وأبخرة البول فى تلك الليلة الحارة . .

ورأيت منظرا لا أنساه . .

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا . . وهو يصرخ ويستغيث ولا تجيبه سوى فرقعة السياط الملتهبة على جسده الواهى الضعيف . . وسكت الشيخ أخيرا بعد أن بح صوته من

الاستعطاف وطلب النجدة . . وظلت يداه مرفوعتين إلى السماء الصافية . . ولا أدرى أكانتا تحتجان أم تتوسلان . . وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت . . ولم تكونا من رسم فنان . . بل كانتا رسما شبيها برسم الأطفال فى السنة الأولى من مدرسة ابتدائية . . وفوقهما حكمة مكتوبة بخط واضح . .

«كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد» . .
ولا أدرى من كتبها . . أكان منكوبا مثلى . . أم أحد الجلادين . .

كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولا أحتمل التفكير فيما يدور حولى . . لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك . . الآلام . . ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج . . وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة . . كانت الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان محدود الطاقات . . كان الزمن شيئا مرا كالعلقم أو أشد مرارة . . ولم يكن أمامى فى مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل . .

ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبى وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه . . وأدعو من قلبى أن أكون منهم وأن أتحمل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج . .

دخل جندى كريه الوجه واليد واللسان عرفت أن اسمه (الروبى) وانهال علينا هذا (الروبى) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر . . ولكننا على ثقة من أنه يسبنا سبا قبيحا . .

كان يحمل فى يده وعاء قذرا . . وبأصبعه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية . . الرسمية . . وعاود التوزيع . . وأذكر أننى لم أتقزز . . كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شىء . . ثم ألقى فوق رءوسنا حفنة من الأرغفة . . وانصرف . .

وأحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها ما يوزاى خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين . . فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز . . بعد جوع طويل . . ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام . . ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا . . بل كان الخوف يجعلنا لا نحس بضراوة الجوع . .

وبعد قليل دخل الجندى (الروبى) نفسه وأعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله . . وكان ممسكا بيده اليمنى سيخا طويلا من الحديد . . وفى يده اليسرى . . كوبا من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاى . .

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب قدر كبير من الشاى الموجود فى الكوب أثناء ضربه لنا . . ثم أعلن لنا مفاجأته : . . كانت بقية الشاى الموجود فى الكوب هو ما تقرر صرفه للخمسين المجتمعين فى مخزن رقم ٦ الرهيب . .

وفى هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاى احتقارا منا لكل شىء . . وبقى فى مكانه حتى الظهر . .

واكتشف الروبى أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقة ساخنة . .

بعد ذلك أتانا جندى آخر أشد بشاعة من صاحبه . . لقد تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضى حاجتنا ونغتسل ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصنابير . . ولم تتم الفرحة . . ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدوا والسياط والكلاب تنوشنا من كل ناحية . . ظهورنا ووجوهنا ورءوسنا . . وأدخلوا كل واحد منا مكانا . . وكان المكان قذرا جدا والبراز يملأ كل شبر فيه . . ولا توجد به نقطة واحدة من الماء . . ليس هذا فحسب . . بل فوجئت - عندما أغلقت الباب وهممت أن أفعل شيئا - بالجندى وقد فتح الباب فى قسوة وانهال علىّ ضربا بالسوط . . وارتبكت . . ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق بالضبط . . كان فى نظرى مجرد مخلوق من مخلوقات الله ليس إنسانا وما ينبغى أن يكون . . أسود الوجه . . غائر العينين تنبعث من فمه رائحة كريهة نتنة بفعل التعفن الذى أصاب اللثة والأسنان من زمن بعيد . . وكانت البقع الجلدية الباهتة البياض تتخلل وجهه الدميم . . وتذكرت دارون وحلقته المفقودة . . وكذلك مر بمخيلتى الكاتب النرويجى ابسن . .

وانطلق من فمه الأهتم صوت كالزئير :

- اطلع بره يا ابن الكلب . .
- يا فندم . . لسه . .
- إنت بترد على يا جربوع يا حثالة . . يا . . يا . .

والسوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس . .

وعدت إلى المخزن . . وما استفدت شيئا فى هذه الرحلة المشئومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة . . تلك التى تركت آثارها جروحا فى وجهى وعلى كتفى وظهرى . . ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المذعورة . . والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخانق عبر ساحة السجن الكبير . .

وجلست مكوما ساخطا بين عشرات الأجساد التى ألهبتها حرارة السياط . . وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته . . وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير . . ونسى نفسه وغمغم بكلمات :

- هذا ظلم . . هذا ظلم . .

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

- كلنا نعرف أن هذا ظلم . . فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة . . فنحن لا ندرى من سيموت منا هذا النهار . .

وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد . .

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره فى شرود . .

وكان كل ما يشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة . . شعبان بتاع الخانكة . . أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك يا شعبان . . يسألوننى عنك وأنا لا أعرفك . . وسأموت من أجل جهلى بك . . ولكن الموت تحت السياط شىء رهيب يا شعبان . . ربما يجلدونك فى هذه اللحظة . .

ووجدت نفسى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :

- يا جماعة . . هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :

- أنا من الخانكة ولا أعرف فيها من يدعى شعبان غير رجل فى الستين من عمره يعمل فراشا فى الوحدة الصحية . .

واقتربت منه بإلحاح :

- هل له علاقة بك . . ؟
- لا أظن . . إنه رجل أمى ولا يفهم شيئا من شئون السياسة . .
- هل له علاقة بالإخوان ؟
- كلا . .
- ومن أدراك . . ؟

فأجابنى فى تأفف خوفا من حضور الجند :

- أنا من الإخوان . . صدقنى . . ليس فى المنطقة كلها شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الإسم . .

وعدت إليه فى إصرار وتوسل . .

- أرجوك . .
- ماذا تريد بالضبط ؟
- أعطنى أية معلومات عن شعبان . .
- فراش الوحدة الصحية ؟
- نعم . .
- لماذا ؟
- سوف يسألوننى عنه ولا أعرف عنه شيئا على الإطلاق . .

وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث . . فكل منا له مشكلته المعقدة . .

- لقد قلت لك . . هذا رجل مسكين ولا يعلم شيئا عن العالم . . وربما لم يغادر الخانكة أبدا ولم يكن له أى نشاط سياسى . . وربما لا يعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام . . هذا الشعبان الذى يسألونك عنه لا يمكن أن يكون من مدينة الخانكة . . فلا تشغل بالك وتشغلنى معك . .

- ولكن . .

فقاطعنى :

- أرجوك أن تسكت . . فى رأسى ما يشغلنى . . وليس عندى كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك . .

وعاد إلى نظرته الشاردة وإلى ما فى جوفه من خوف وهلع وانشغال . . وفشلت كل محاولاتى معه لأجعله يتحدث عن شعبان . . ومن بين النظرات التائهة الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية . . كان الألم يفترسها افتراسا . . وكانت وجوها مصفرة كئيبة عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط . . وكان فى بعضها دم مازال رطبا طازجا ينزف من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه . . ويبدو أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شرود كاملة . .

كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الإنسان شيئا سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه . .

وصرت أتنقل ببصرى من وجه إلى آخر . . وأجدها جميعا متغضنة ولا شىء يميز بعضها عن بعض . . ثم وقف نظرى على وجه . . كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار . . ولا أدرى لماذا ركزت عينى على مكانه فى الظلام حتى أستطع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار . . وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شىء آخر . . والآن واتت الفرصة لأتأمل هذا الإنسان . .

كان وسيم الوجه . . فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل إلى - على شفتيه ابتسامة ميتة . . أو ابتسامة فى طريقها إلى الموت . . يرتدى ملابس فاخرة . . حليق الذقن والشارب . . وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم يرسل نظرات إلى المكان . . ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها ماتت أو كانت فى طريقها إلى أن تموت . .

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه . . ولاحظ صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين . . وكنت أسأل نفسى . . ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيرى أنا ؟ . . لقد كنا جميعا نقف على حافة الأبدية . . وكانت رائحة الموت تملأ أنوفنا . . فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى نمارسها فى هذا المكان . .

واقترب هذا الشاب بوجهه منى . . فقد كان لا يبعد عنى بأكثر من شبرين . . وباهتمام بالغ همس فى أذنى :

- أريد أن أفضى لك بشىء بالغ الأهمية . .

وارتعدت فرائصى . . ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟ وقلت له وكأنى أدفع خطرا عنى :

- أنا لا أعرفك . . ولم أرك قبل الآن . .

وكأنه لم يسمع كلماتى . .

وخيل إلىّ لحظتها أن ابتسامته قد بعثت . . ولكنى عرفت بعد ذلك أنه كان وهما صوره لى اقتراب وجهه منى . .

وقال لى :

- اسمى عاطف .. أعمل فى بنك مصر ..
- يا سيدى لا أعرفك .. واسمك لا يذكرنى بشىء ..

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة .. وتخيل أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة .. وفى نوبة من نوبات الشهامة .. قررت أن أستمع إليه .. والتفت إلىّ فى حماسة .. وآلمتنى نظرته الحزينة .. وقلت له :

- ماذا تريد ؟ .. أنا تحت أمرك .. ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئا ..
- ألا تعرفنى حقا ؟ ...
- كلا ..
- حاول أن تتذكر .. وجهك ليس غريبا عنى .. يخيل إلىّ أننى رأيتك فى مكان ما ..
- صدقنى .. لم أرك قبل الآن ..
- لماذا يبدو وجهك مألوفا لدى إذن .. ؟
- لست أدرى ..
- هل تستطيع أن تكتم سرا ؟
- فى هذا المكان ؟
- نعم ..
- أليس من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ .. ربما ..
- ربما .. ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سرا ..
- إذا كان ذلك الإنسان أقوى من السوط ..
- وهل السوط أقوى من الإنسان ؟
- لست أدرى ربما ..
- أنصحك بالتريث ..
- دعك من هذا سأقول لك ..
- ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟
- وجهك يبدو مألوفا لدى ..
- ألا تخشى أن يخونك التقدير ..
- وماذا يهم .. ؟
- فى الحقيقة إنك تثير اهتمامى ..
- كأننا أصدقاء ..
- فى الماضى كلا ..
- أقصد أن نتصادق الآن ..
- أنت تمزح ولا ريب ..
- كلا .. أنا أعنى ما أقول ..

ووجدت نفسى أبتسم ابتسامة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب .. أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشىء صداقة .. ؟ ربما إحساسه بالخطر هو الذى يدفعه إلى الارتباط .. ربما يريد أن يحتمى خلف شىء ما .. ربما .. ربما ..

ووجدت وجهه صبوحا نبيلا مليئا بالأسى .. ونظرة صافية حزينة تشع من عينيه .. وابتسمت من جديد .. وكانت ابتسامة عذبة مخلصة .. وكانت لحظة سعيدة .. وكدت أضحك وأنا أقول له :

ـ أنا موافق .. لابأس أن نكون أصدقاء .. اسمى ..

وقاطعنى ..

ـ نسيت أن أقول لك السر ..

ـ أى سر ؟

ـ السر الذى حدثتك عنه قبل قليل ..

ـ آه لا بأس .. إنى مصغ إليك ..

ـ وتلفت حذارا هنا وهناك .. وبدت عليه علامات الجد والاهتمام ..

ـ الموضوع له علاقة بنبيلة ..

ـ نبيلة ؟

ـ نعم ..

ـ ومن نبيلة ؟

ـ اصبر .. سأذكر لك كل شىء فى حينه ..

وبدأ الخوف يغزو قلبى من جديد .. وغاضت سعادتى .. كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان .. فأى اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من الزمن .. ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير أحد الضباط .. ولكن عاطفاً هذا لم يكن ملتفتا إلى أفكارى التى تنساب عبر عقلى .. ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط .. وأتانى صوته ضعيفا :

ـ كنت أحبها .. حبا عميقا .. وكانت هى كذلك ..

وشملنى إحساس عارم بالسخريةوقلت له :

ـ لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك ..

ونظر إلى بجدية وهو يجيب ..

ــ نعم . . وماذا فى هذا . . ؟

ــ لا شىء . . ولكن ألا ترى أن المكان لا تناسبه هذه القصة ؟

ــ ولكنى أراه مناسبا تماما . .

وتفرست فى وجهه . . كان المسكين فى حالة ذهول كاملة . . وأدركت ذلك عندما دققت النظر فى وجهه . . وأحسست بمدية حادة تمزق قلبى . . كان المسكين فى حالة غير عادية . . لقد أذهله الموقف . . وشعرت بالحيرة . . ماذا يمكن أن أفعله له ؟ لا شىء وفجأة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد ومن بين البكاء صار يقول :

ــ لقد أخذوها عنوة . . توسلت إليهم أن يتركوها فرفضوا . . كانت فتاة رائعة . .

وقاطعته . . فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله هذه الكلمات :

ــ عمن تتكلم ؟

ــ نبيلة . . كنا سنتزوج بالأمس . . جاء المأذون لعقد القران . . ولكن . .

ــ ولكن ماذا ؟

ــ قبض على أنا وهى . . أخذوها . .

ــ من الذى أخذها . . ؟

ــ المباحث الجنائية العسكرية . . قبل أن يعقد . .

ــ لماذا ؟

ــ لست أدرى . .

ــ أنتما من الإخوان ولاريب . .

ــ أنا وهى من المسلمين . .

ــ إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء . .

ــ لحساب من ؟

ــ لحساب الروس . . لحساب الأمريكان . . وربما لحساب اليهود . .

ــ اليهود ؟

ــ نعم . .

ــ ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟

واقترب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة فى جبينه وهمس :

ـ نحن نعاديهم فى الظاهر . . أما حقيقة الأمر فنحن خدم اليهود المخلصون . .

ـ نحن من ؟

ـ المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم . .

ـ أنت تقول كلاما خطيرا . .

ـ أنا أقول الحقيقة . . كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب . .

ـ أية حرب . . ؟

ـ بعد أن ينتهى هذا المعترك سوف ندخل فى حرب مع إسرائيل . . وننهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة . .

ـ لعمرى هذا أمر غريب . .

ـ ستأتيكم الأيام بما لا تعرفون . .

وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

ـ عندما أتينـا ذهبوا بهـا إلى مكان . . يقـولون اثنـين . . وهنا أخذ منى الأمباشى دبلة الزواج . .

ـ أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجابه عاطف :

ـ نعم . . كانت كذلك . .

ـ ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل فى أفكاره . . وأنا أفكر فى شعبان بتاع الخانكة . . وعاطف يفكر فى زوجته والشيخ يفكر فى اليهود القادمين . .

قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب فى جلبة وضوضاء . . ودخل جندى كريه كأصحابه . . يحمل فى يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون لحلق الشعر . . وكان يمسكها بطريقة مخيفة . . كأنه يمسك بآلة حادة يهم أن يبطش بها بإنسان . . وتكلم كـأنه ذكـر الخنزير . .

ـ يا أوغاد . . يا أولاد الكلاب . . يا حشرات . . ستحلقون رءوسكم القذرة بعد قليل يـا أبناء العـاهرات . . وهـذا شرف لا يليق بكم يـالمامـة . . عبد النبى . . نعم أنـا الأسطى عبد النبى . . (وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق والمجند حاليا . . سأحلق

لكم . . هل تفهمون هذا الكلام ؟ شرف كبير يصرف لكم دون جهد . . هيا تعال أنت . .

واختار واحدا منا وكان الذهول يلفنا كالدوامة . . وتقدم الشخص الذى اختاره . . وجلس صاغرا بين يديه كالمغشى عليه من الموت . . وكان هذا الشخص ملتحيا . . ورأينا الأسطى عبد النبى الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة كما يدعى . . وقد هم به كأنه سيفترسه لا سيحلق له . .

ومن بين الكلمات والصفعات المتوالية حلق له . . وكانت حلاقة عجيبة . . فقد حلق له نصف لحيته ونصف الشارب المحلوق . . ثم حلق له شعر رأسه . . وختم الأسطى له حلاقته بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه . .

واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصرخات والأنات المكتومة . . والكلاب تعوى فى فناء السجن . . وماكينة الحلاقة فى يد عبد النبى التى تقطر دما . . وضحكات الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية فى فناء السجن . .

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحا عميقا فى أعلى جبهتى . .

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الأسطى عبد النبى ضاحكا مسرورا . . ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من الشتائم المنتقاة التى - والحق أقول لكم - منها مالم أسمع به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبى . .

وانشغلنا بعد ذهابه بتضميد جراحنا . . ولم تكن هناك أدوات الإسعاف اللازمة فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق . .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين من التحقيق . . وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين وترك فى العراء حتى جيفت جروحه وتقيحت . . وفاحت رائحتها الكريهة . . فلحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا . . وتكوم الرجل بيننا ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة . .

« رجلى ياناس . . الحقونى ياناس . . النار . . النار . . ياناس . . حاموت . . ألا يوجد فيكم مسلمون . . والله ما أعرف حاجة عن الإخوان . . الله يلعن السياسة . . ياناس أنا عربجى . . إيش عرفنى بالإخوان . . ياناس واحد يطفى النار اللى فى رجلى » . .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصديد . . ولم نكن نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه . .

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز المكان . . اندفع الدم فى عروق أحد الذين معنا وقام وطرق الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس . . وتجمد الدم فى عروقى . . وفى عروق الموجودين على ما أظن . . ولن نتمكن من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة . . وصح ما توقعنا . . فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود كأنهم الشياطين . . وفى يد كل

واحد هراوة ضخمة . . وكأنهم كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم وهو أقبحهم وجها :

ــ وقعتم فى المحظور يا أولاد الكلب . . كنا ننتظر هذه الغلطة . . هيا إلى الخارج جميعا . .

وأوقفونا صفا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما كان بقادر على الوقوف وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك بعد أن طحنه بهراوته طحنا . . ولم يقم الرجل بل كسرت ذراعه فى هذه العلقة . . أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئا جديدا . . لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التى مزقها الزجاج الدقيق المتناثر فى الفناء ، وأوسعونا ضربا ولكما ورفسا ثم جعلونا نلحس سلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط والهراوات ونهش الكلاب . .

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا . . ومنا من صاحبه ورم فى لسانه حتى وقتنا هذا . .

أما الرجل الذى تركناه جريحا يعانى من الصديد الذى ملأ قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا . .

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه عله يطفىء نارها المستعرة . . ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ صراخا عاليا وحاولنا رغم كل ما حدث أن نهدئه وأن نمنعه مما كان يفعل . .

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت . . كان قلبى يتمزق . . وكان هو يتمزق وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة . . ولم يفكر أحد منا فى استدعاء الحرس لإسعاف هذا الرجل المسكين ولم ينقطع صراخه طوال النهار .

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته . . ويطلب منهم أن يسامحوه ويغفروا له ذنوبا لا نعرفها . . ثم اختلج جسده وأسلم الروح . .

وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيرا هادئا مطمئنا . . كأن الله قد غفر له . .

بعد أن مات هذا الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم . . ثم ارتج المخزن بالبكاء . . وصلينا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق فى برازه وصديده . . وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى الصباح . .

وكانت هذه هى الليلة الثانية فى السجن الحربى . . الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم . . وإذا أضفنا الأربعة أيام التى قضيتها فى المحمصة بأبى زعبل يكون مجموع أيام السهر ستة أيام كاملة . . ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك ضرورة حياتية اسمها النوم . .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى أشرب قدرا أكبر من البول الذى جمعناه فى أوعية المطاط طوال النهار . . وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا مافعلوه بالأمس . . فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف :

أخرى تهب من الأجواف التى أنتنها الجوع والسغب وقذارة الأسنان . . وكان صوت المزلاج عندما يتحرك إيذانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل إلى قوة انفعاله وتمتلىء عروقه بالادرينالين تحفزا واستعدادا لمواجهة الخطر . . ويتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم الطعام الضئيل الكمية . . القذر الصناعة . . لأنهم ينتهزون هذه الفرص فيوسعوننا ضربا ولكما وأذى . .

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة . . لحظة استدعائه إلى التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبا . . هناك من مات فى انتظار هذه اللحظة . . لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من الخوف . . فلم يكن أمامه غير الموت . .

ــ يا أفندم . . فيه واحد ميت . .

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندى ابتسامة وقحة :

ــ واحد فقط يا أولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من سيادة العميد . . أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندى ؟؟؟ لاشك أنه ليس من البشر . . ألا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟

لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضاحكان ويتغامزان كأنهما يحملان . . ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان أرخص الأشياء وأدناها قيمة . .

وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئا سوى أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن يموت . . لقد ذهب الرجل إلى مكان خلف الحياة إلى الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان . .

وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمور فى نفسى . .

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة وما الذل ؟ ما الحب ما البغض ما الجوع؟ ما الخوف ؟ . . كل هذا ليس سوى كلمات . . وما أنا ؟ لست سوى كلمة . . وما الألم ؟ أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصمت ؟ الحق والباطل كلمات ولكن . . تختلف الكلمات وتتباين . . هناك « كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » . . وهناك الكلمة الخالدة . . طيبة « كشجرة طيبة . . أصلها ثابت وفرعها فى السماء . . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . . ويضرب الله الأمثال للناس » . . والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا بعضها ونصنع نحن البعض الآخر . . ليس هذا كله إلا صراعا بين الكلمات . . الكلمات الخبيثة . . والكلمات الطيبة . . ونحن بين هذه وتلك فى علو وانخفاض . . ولا يتربع فوق عرش الحياة فى النهاية – التى لا يمكن قياسها بمقاييس البشر – إلا أصحاب الكلمة العليا . . الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد الدفاق اللامتناهى مادام للوجود حس أو شعور . .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا ناله . . قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى الزنازين ، ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته فى السجن الحربى ، فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وفى كل وقت ، وقد ترك هذا العام فى نفسى أثرا لا يمكن أن

يمحى أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه . .

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك الأيام المفزعة . . فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير من الناس . . ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا هناك . . فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس ويكون فى نفوسهم معنى لا يختلفون عليه . .

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يحكم فيها الحراس علينا غلق باب المخزن . . رغم الرائحة القذرة التى تملأ المكان من البراز والبول والصديد . . الموجودة فى كل مكان ورائحة كريهة



ملحق رقم ٧

« الجيش الذى هزمه قواده !! »

عصام دراز ضابط مصرى شاب خاض الكثير عن حروب مصر خلال العصر الناصرى . . منها حرب سيناء فى يونيو ١٩٦٧ . .

وقد كتب عن تجاربه الشخصية فى تلك الحروب قصتين عظيمتين لأنهما دقيقتان تاريخيتان إحداهما هى رواية « مرارة الحرب » . . قصة حب من يونيو ١٩٦٧ - القاهرة ١٩٧٨ . .

وقد قال الأستاذ الكبير/نجيب محفوظ فى إحدى سوانح أفكاره التى ينشرها فى جريدة الأهرام إن جشينا المصرى لم ينهزم فى حرب١٩٦٧ وإنما هو تلقى أمرا بالهزيمة فانهزم . .

والصفحات التى أنقلها هنا من رواية عصام دراز صـ ٨٢ - ٨٩ تصور هذا المعنى أصدق تصوير . .

كان مطار « بير تماده » على يمينى غارقاً فى اللهب والحطام يلعق جراحه ، وعلى ممراته رقدت الطائرات « الميج » الفضية على بطنها ، أو مقلوبة على ظهرها وبجوارها أجنحتها على الأرض كانت تشبه سرباً من « الأوز » البرى تم اصطياده فى مباراة للصيد ، وبعد مسيرة عدة دقائق على الطريق وجدت على الجانب الأيسر موقع مدفعية للطائرات يحترق . فى حين أن مدافعه العظيمة ظلت منتصبة ، رافعة هامتها فى كبرياء ، ووضعت حول الموقع جثث رجاله الذين استشهدوا على مدافعهم فى حين أن سيارات الإسعاف كانت تأتى بسرعة ثم تحمل الجرحى وتمضى بسرعة كأنها تخطفهم خطفاً ، كان منظر المدافع المحطمة وحولها الجثث والجرحى كتمثال خالد يصور معنى كلمة البطولة والشجاعة . لقد كان هذا الموقع يمثل رأس مثلث لمجموعة مواقع مضادة للطائرات . كانت هذه المواقع تقاتل طائرات العدو قتالا شديداً لا هوادة فيه . كانت تقيم ساترا من النيران أمام طائرات العدو . أشعل استبسالها فى القتال الحماس فى كل جنود وضباط المنطقة . كنا نراقب معاركها مع الطائرات فى إعجاب شديد . وشاهدنا إحدى الطائرات وهى تهوى خلف أحد الجبال المحيطة بالمنطقة بعد أن أصيبت إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران .

وإزاء قتاله واستبساله قررت الطائرات المعادية أن تصيبه مهما كان الثمن ولكنها فشلت المرة تلو المرة ، وفى إحدى المرات تسللت إليه إحدى الطائرات على ارتفاع منخفض جدا وسددت إليه طلقاتها وفرت هاربة ، وفى نفس اللحظة انقضت عليه طائرتان من ارتفاع شاهق جدا حيث سددتا إلى الموقع مجموعة كاملة من الصواريخ . دوى انفجار عنيف وعندما انقشع الغبار والدخان كان الموقع قد تمزق كنت أعرف ضابط هذا الموقع . فقد كان ملازماً ويحب الرياضة وبخاصة كرة القدم ، وأذكر آخر مباراة كرة قدم لعبتها معه قبل الحرب . ظللت أتأمل المشهد وأتأمل المدافع المنتصبة وسط الدخان والنيران فى عظمة وجلال .

سرنا بعد ذلك دون توقف ، ظل هدير المحركات يخترق مسامنا وعظامنا ، فبعد ساعات من التحرك نجد أن أجسادنا قد تحولت إلى جزء من الدبابة ذاتها . وتظل الذبذبات تنتشر فى خلايانا إلى أن نقف فى راحة قصيرة ونطفىء المحركات عدة دقائق ، فنشعر وكأننا نسترد آدميتنا من جديد .

رحت أتامل أفراد طاقم الدبابة ، ثم تأملت جدار الدبابة الداخلى الحديدى السميك . ثم الأجهزة اللاسلكية ، ومؤخرة المدافع الضخمة والطلقات المصفوفة بالداخل ، فتحت فتحة البرج فأخرجت رأسى منها ، وجدت أن الليل قد هبط حولنا .

وهناك فى أماكن أخرى بصحراء سيناء وعلى الخطوط الأمامية تخوض قواتنا قتالا مريراً . شديد الصعوبة خاصة بعد أن فقدنا السلاح الجوى . أى أيام صعبة ننتظرها إذن وماذا يارب يخبىء لنا الغيب . ؟ وأصبح اليوم الآن . . بل والساعة . . هو حقبة تاريخية كاملة . لم يعد اليوم كأى يوم من الأيام السابقة . إن اليوم الآن بل والساعة . هى أجيال تولد . . وأجيال تبعث من جديد . . هو قرن من الزمان فى عمر الحرب .

هذه هى الحرب ذاتها ، وها نحن قد دخلنا فى جوفها بل ونزداد عمقاً فيها لحظة بعد أخرى . لقد أصبحنا ننتمى إليها انتماء . . نحن والعدو على السواء كانتمائنا للأرض التى نعيش عليها والحياة والإنسانية .

تذكرت فجأة عبارة قالها لنا أحد مدرسى الكلية الحربية . وكان يبدى رأيه فى الموت فى الحرب . قال لنا « إننى أفضل ميتة رجل المشاه عن ميتة رجل الدبابات فرجل المشاة يموت فى الهواء الطلق . أما رجل الدبابات فهو يموت فجأة محترقاً فى دبابته » . .

تخيلت فى هذه اللحظة كيفية اختراق الطلقة لدرع الدبابة فإن لدروع الدبابات طلقات مخصصة ذات موجة حرارية عالية تصهر حديد الدرع السميك وتحرق بالتالى الطاقم كله فى لحظة زمنية خاطفة . تأملت الرجال حولى وهم منهمكون فى عملهم . شعرت بحب شديد نحوهم . تخيلت أيضاً الطرف الآخر ذلك الشخص المجهول بالنسبة لى والذى سيسدد إلينا الطلقات . . من هو ؟ وأين يعيش . . . وماذا يفعل الآن . ؟

ثم تخيلت العكس . . فأنا سأسدد طلقات مماثلة وسأصيب دبابات بها رجال مثلنا . . وستتفحم جثثهم فى لحظة خاطفة حيث ينصهر الحديد مع الموجة الانفجارية الرهيبة .

رحت أفكر فى الموت وفى الحرب . . وفى أشياء كثيرة .

استيقظت من أفكارى على لهب يتصاعد أمامى فى جوف الليل . ظللت أراقبه ثم أمرت بالاستعداد والاقتراب بحذر استطعت أن أتبين بسرعة مصدر هذا اللهب . فقد كان مطبخ إحدى وحدات المشاة التى تحتل هذه المنطقة المتقدمة . . اقتربنا من المطبخ ونزلنا من دباباتنا بعد أن أطفأنا المحركات لراحة قصيرة . وما إن نزلنا من الدبابات حتى خرج جنود المطبخ ليستقبلونا بالعناق كأنهم كانوا ينتظروننا . كانوا قد خلعوا ستراتهم ، وراح العرق يتصبب منهم ، وظهرت أذرعتهم

القوية – قائلين : « مرحبا برجال الفرقة المدرعة » . .

كان المطبخ مكوناً من عدة مقطورات للطبخ موضوعة فى حفرة كبيرة ، وبجوار الحفرة نصبت خيمة وبجوارها وقفت سيارة لورى ضخمة عليها فنطاس مياه .

تمددنا على الأرض لنريح أجسادنا المتعبة فى حين أن الجنود أحاطوا بنا وراحوا يسألوننا عن سير الأحداث وبعد دقائق قدموا لنا وعاء كبيرا به أرز ساخن ثم قدموا وعاء آخر به حساء وقطع اللحم المطبوخ . رحنا نأكل بأيدينا ونحن ننظر لبعضنا البعض . وما إن انتهينا من تناول الطعام حتى قدموا لنا الشاى الساخن . ورحت أحتسى الشاى وأننا ممدد على الأرض أتأمل الليل حولى فقد أصبحنا فى منطقة متقدمة حيث تحتل بعض قواتنا مواقع دفاعية . كان وميض الانفجارات يهب صارخاً فى الليل من جميع الاتجاهات كأنه وميض البرق فى ظلام الليل . كانت المعارك الطاحنة تدور منذ صباح أمس لا تعترف بليل أو نهار . ومن خلال ذبذبات الأرض كنت أشعر بالانفجارات العنيفة المكتومة تأتى من اللحم المسلوق . ولم نصدق أنفسنا ونحن نشم رائحة الطعام متصلة دون توقف لتعلن لى فى صمت . أن هناك المئات يسقطون فى جميع الأماكن حولنا مع كل ذبذبة أرضية وكل ومضة خاطفة تهب فى الليل وتتعلق به فى فزع .

تمددنا على الأرض لنستمتع برطوبة رمال الليل ونريح أجسادنا وفجأة جاء جندى يكاد يرقص فرحاً وهو يعلن الفرقة المدرعة حضرت .

التفت حولى فوجدت سيلا متدفقاً من الدبابات التى أضاءت أنوارها الأمامية وصوتها يتعالى كزلزال هائل مكتوم يتربص فى الأعماق ويتحين اللحظة للانقضاض ، استيقظت الوديان والتلال من نومها فزعة وراحت ترقب المشهد فى دهشة .

ولأننا من رجال الفرقة المدرعة فقد قدم لنا جنود المطبخ مزيداً من الحساء ، ثم الشاى فشربنا مستمتعين به ونحن نستعد للتحرك لملاقاة وحداتنا التى وصلت تحت ستارة الليل الداكنة .

كنا قد أخذنا مواقعنا المحددة لنا ، وكان الصباح قد بدأ يبعث فينا روحاً جديدة بعد ليلة مرهقة . كان الجنود يتمددون بجوار دباباتهم فى راحة قصيرة . جلسنا سويا نحن بعض ضباط الكتيبة على الأرض بجوار مدق صنعته الدبابات والعربات فبدا وكأنه طريق ممهد . رءوسنا مازالت تنز وتطن ولم يذهب عنها صدى . . داكنة ومغطاة بطبقة من الحصى وكانت التلال تبدو وكأنها منحوتة نحتاً أو كأنها صبت فى قوالب ثم وضعت متجاورة ومن خلفنا ظهر جبل مرتفع غريب الشكل داكن اللون وفى اتجاه الشرق كانت الأرض تتدرج فى الانحدار حتى تستطيع أن ترى وأنت جالس لمسافات بعيدة جداً . بجانب صحراء سيناء تلتقى عند الأفق المعبق بالضباب بصحراء النقب جنوب اسرائيل كان الضباب يبدو سابحاً فوق بحيرات من السراب فى الأفق شعرت بحنين مفاجىء يستيقظ فى نفسى لقريتى . بدأنا نحتسى الشاى فى أكواب بلاستيك وكان قد قدمه لنا ضابط وجنود أقرب دبابة وكأننا ضيوف عليه فقد خرج ورحب بنا وقدم لنا الشاى . ضحكنا من قلوبنا عندما كنت أقص عليهم قصة الفراخ الهاربة . ظللنا نضحك من قلوبنا فى جو صاف بعد ساعات من الإرهاق . كانت نسمة الصباح مع الشاى قد أنعشتنا بعض الشىء . كان قائد الكتيبة

يقف على مقربة منا حينما اقتربت منه سيارة جيب من سيارات قيادة اللواء . كنا نضحك ويدأ ينتبه ، لقد تغيرت وقفة قائد الكتيبة وهو يقرأ الورقة الصغيرة . دار حوار لم نسمعه شعرنا من الوهلة الأولى أن هناك حادثاً جللا قد حدث لأن ملامحه بدت مضطربة . كان كأنه يستغيث بنا عندما وقفنا حوله . قال بصوت متردد وهو ينظر لنا فى فزع .

– أمر بالانسحاب فوراً . .

لم نسمع الكلمة جيدا ، أو لم نصدق ما سمعناه . كرر وملامحه تكاد ترتجف :

– أمر بالانسحاب فوراً . .

نظرنا إلى الضابط الذى أحضر الأمر بنفسه ، كان يستعد لركوب السيارة . كنا نريد تفسيرا أكثر . قال بهدوء وكأنه يقدم لنا العزاء فى مصاب أليم :

– الانسحاب فورا إلى « بير تماده » . .

حاول أحدنا أن يسأل :

– ما السبب ؟

قال وهو ينظر بعيداً عن عيوننا :

– أوامر . . ولا أحد يعرف السبب بالضبط . .

هز رأسه آسفا ورحنا ننظر حولنا فى حيرة . فوجئت بحالة قائد الكتيبة ، فقد كان فى حالة يرثى لها . فقد كنت أشعر بينى وبين نفسى أنه قائد من الدرجة الثانية قد بدا عليه أنه يستعد للامتحان وليس للحرب فقد أعد أوراقه بطريقة منظمة ، وكان يحتفظ بمذكرات كاملة عن كل شىء وكان لا يصدر أمراً إلا بعد أن يراجع أوراقه جيداً . لهذا كنا متبرمين من طريقته بيننا ، أما الآن فقد بدت ملامحه تنم عن غضب وحزن كظيم ، شعرنا جميعاً بشىء أشبه بالدوخة بعد هذه الضربة غير المتوقعة ، نظرنا حولنا ونحن لا نعرف كيف سننقل هذا الأمر إلى رجالنا .

قال الضابط وهو يركب سيارته : المطلوب سرعة الاستعداد . .

انطلق الضابط بسيارته ووقفنا حول قائد الكتيبة ننظر فى بعضنا البعض ، ابتعد عنا قائد الكتيبة عدة خطوات واستدار للحظات ، خيل إلينا كأنه يمنع دموعه من السقوط أمامنا ، ازداد ثقل الحزن على صدورنا . قال أحد الضباط :

ــ قد يكون هناك واجب آخر سنكلف به .

لم يجب أحد . قال آخر وهو يحاول أن يعطى لكلماته مزيدا من الصدق والحرارة :

ــ مؤكد أن هناك خطة ما . .

قال آخر بصوت يائس :

- لا يمكن أن نهزم بقرار . .

قال ضابط قصير برتبة ملازم أول :

ـ مؤكد أن روسيا لن تتركنا نهزم هكذا . .

نظرنا إليه شذراً ، شعر بأنه قد أخطأ فانكمش على نفسه قلت له :

ـ اسكت . . لا تكن غبياً . .

فسكت لكيلا يكون غبيا . قال قائد الكتيبة معلقاً :

- روسيا لن تأتى لتحارب بدلا منا . .

مضى دهر طويل ونحن نقف مكاننا حائرين ، هبت نسمة هواء باردة ، تألقت الشمس بعدها وازدادت سطوعاً . . سمعنا صوت مذياع يذيع بياناً عسكريا . . قال المذيع بصوت جهورى مشتعل حماسة إن قواتنا المسلحة تتقدم فى صحراء النقب جنوب إسرائيل ووعد المستمعين بأن البيان التالى سيكون من تل أبيب عاصمة إسرائيل نفسها . . ودوى نشيد حماسى عكس فى نفوسنا شعوراً مريراً بالاشمئزاز والمرارة :

ـ إلى متى هذا الكذب ؟

قال ذلك أحدنا بحركة عصبية من يده . . تناهى إلى سمعنا صوت انفجارات متتالية تأتى إلينا من الجهات الأربع كأنها قرع لطبول مجهولة ثم صوت طائرات تطير على ارتفاع عال جداً . . رفعنا ذقوننا فى الهواء عدة دقائق حتى رأيناها فى صورة نقط سوداء صغيرة قادمة بعد أن أفرغت حمولتها . . قال قائد الكتيبة أخيراً :

ـ هذا ما حدث فى حرب ١٩٥٦ بالضبط . . ثم بعد ذلك قالوا إننا انتصرنا . .

ظللنا صامتين . . نظرت إلى الأرض وتأملت الرمال الداكنة وقطع الحصى الصغيرة . . قال رضا بعد أن انضم إلينا :

ـ كيف سنتحرك الآن بلا غطاء جوى ؟ إنها مذبحة إذن . .

قال قائد الكتيبة ليمنع الاسترسال فى حديث لا معنى له ولا جدوى منه :

ـ ولأننا جيش نظامى . . سنطيع الأمر ولو خطأ . . اذهبو إلى رجالكم الآن . . فالأخطار الحقيقية قادمة فاستعدوا لها . .

اعترانا شعور حاد بالمرارة . . فقد كنا كالجسد الذى سلبت منه روحه وظل واقفاً مكانه بكل قوته وعنفوانه . .

« الفهرس »

ملاحق الكتاب

الزهراء للإعلام ا

